

الجامعة الإسلامية - غزة

عمادة الدراسات العليا

كلية أصول الدين

قسم التفسير وعلوم القرآن

الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الوسائل الجامعية

محطات العمل الصالح وآثارها كما يصورها القرآن الكريم

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة

رضا نصر الله جندي القدرة

إشراف الدكتور

وليد محمد حسن العامودي

مكتبة الجامعة الإسلامية - غزة
المجموعات الخاصة

التاريخ: 2003-08-18

الرقم العام: 01240592

رمز التصنيف: 227.364 / قدر

1423هـ - 2003 م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجامعة الإسلامية - غزة THE ISLAMIC UNIVERSITY OF GAZA

هاتف داخلي 1150


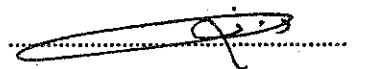

الرقم:ج من ع/38/Ref
التاريخ:2003/5/18>Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناء على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة رضا نصر الله جندي القدرة المقدمة لكلية أصول الدين لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن وموضوعها:

محبطات العمل الصالح وأثارها كما يصورها القرآن الكريم

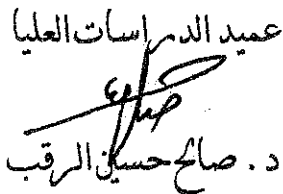
وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأحد 17 ربيع أول 1424 هـ الموافق 2003/5/18م الساعة 10 صباحاً، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

	مشرفاً ورئيساً	د. وليد العامودي
	مناقشاً داخلياً	د. زكريا الزميلي
	مناقشاً داخلياً	د. جمال الهوبي

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن.

واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله ولزوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد الدراسات العليا

د. صالح حسين الرقب

نتيجة الحكم 140



شكر وتقدير

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (1).

الحمد لله أولاً وآخراً ، وأثنى عليه الخير كله ، فهو الهادي إلى سبيل الرشاد ، والموفق للخير والسداد ، ولولا توفيقه -جلّ وعلا- لما خرج هذا البحث إلى النور ، فهو أهل للشكر والثناء .

ومن منطلق قول المصطفى -ﷺ- فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - : (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) (2).

وقوله -ﷺ- فيما رواه عنه ابن عمر - رضي الله عنهما - : (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه ، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) (3).

فإنني أتقدم بالشكر والثناء إلى مشرفي أبي خالد فضيلة الدكتور / وليد محمد العامودي الذي تبنى هذا البحث ورعاه، وكان دائماً متفهماً للأوضاع، متحملاً طول غيابي وانقطاعي عن الجامعة فبارك الله فيه، وجزاه خير الجزاء. كما وأتقدم بالشكر إلى أساتذتي الفاضلين عضوي لجنة المناقشة .

الدكتور / جمال الهوبي .

والدكتور/ زكريا الزميلي .

على قبولهما مناقشة هذه الرسالة ، وإثرائها بتوجيهاتهما السديدة ، وملاحظتهما القيمة - بإذن الله تعالى - لإخراج هذا العمل في أحسن صورة .

وأتقدم بالشكر والدعاء بالخير إلى الجامعة الإسلامية ، والدراسات العليا التي أتاحت لنا هذه الفرصة ، وأتقدم بالشكر لكلية أصول الدين ، بجميع أساتذتها ، وأخص بالشكر أساتذتي في قسم التفسير ، حفظهم الله جميعاً من كل سوء .

(1) إبراهيم /7.

(2) أخرجه (ت) ، ك(البر) ، ب/35 (ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك) ، 299/4 ، ح(1955) ، وقال :

حسن صحيح

(3) أخرجه (د) ، ك(الزكاة) ، ب/39(عطية من سأل الله) 725/2 ، ح(1672) ، وقال : صحيح ، وصححه الألباني : 1041/2 ، ح(6021) .

وأنتقدم بالشكر الجزيل الذي يعجز لساني عن وصفه للأستاذ الدكتور الفاضل محمد شبير رئيس الجامعة ، والأستاذ الدكتور الفاضل أحمد أبو حلبية عميد الدراسات العليا سابقاً على مساندتهما لي ، ومساعدتهما إياي في الحصول على المنحة الدراسية من الجامعة الإسلامية، بعد أن أخلف التعليم العالي وعده ، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

وأنتقدم بالشكر الجزيل ، للدكتور الفاضل / جمال الهوبي حيث قدّم لي في بداية هذا البحث نصائح ، وتوجيهات عامة أسير إليها ، بالاتفاق مع المشرف فبارك الله فيه.

كما وأنتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لفضيلة الدكتور / يونس الأسطل حيث حمل معي مسؤولية لم يجبره عليها أحد سوى أخلاقه العالية ، وضميره الحي ، وإحساسه بالمسؤولية العامة ، بالرغم من عظم مسؤولياته ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما وأنتقدم بالشكر والتقدير للزوج الفاضل / أبي خميس الذي تحملني طوال فترة الدراسة في مرحلتي البكالوريوس والماجستير ، وخصوصاً فترة كتابة هذا البحث فقد تحمل تقصيري تجاهه وتجاه بيته ، كما كان دائماً نعم العون ، ونعم الزوج المساند، فقد تحقق فيه قول المصطفى - صلوات ربي وسلامه عليه - فيما روته عائشة - رضي الله عنها- : (خيركم خيركم لأهله) (1) فبارك الله فيه ، وجزاه عني خير الجزاء، وجعل هذا العمل في ميزان حسناته إنه ولي ذلك والقادر عليه .

كما وأنتقدم بالشكر والثناء لجمعية دار الكتاب والسنة بخان يونس متمثلة في رئيسها وجميع العاملين بها على مساهمتهم في تذليل بعض العقبات ، وذلك بفتح أبواب المكتبة أمامي حتى في أوقات الراحة ، والإجازات الرسمية ، ومحاولتهم توفير الكتب غير المتوفرة في المكتبة ، فبارك الله فيهم جميعاً .

وأنتقدم بالشكر الخالص ، والنابع من أعماق القلب المشتاق للأخت الشقيقة الحبيبة/ أنوار خريجة نفس الكلية ، والتي طالما ساندتني وسهرت معي الليالي الطوال

(1) أخرجه (ت) ، ك(المناقب) ، ب/64 (فضل أزواج النبي - ﷺ -) ، 521/5 ، ح(3895) ، وصححه الألباني في صحيحه 626/1 ، ح(3314) .

وقامت بتبييض معظم تلك الرسالة ، كما وساعدتني في تخريج الأحاديث النبوية ،
فبارك الله فيها ، وجعلها نوراً ، بل أنواراً تضاء بها ظلمات الجهل والضلال .
ولا يفوتني أن أشكر كل من قدم لي عوناً من قريب ، أو بعيد ، وأسأل الله أن
يجزيهم علي خير الجزاء .
وبالله التوفيق ، وصلي اللهم على سيدنا ونبينا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه وسلم .

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (1)

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (3) .
أما بعد :

فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - كتابه العزيز لرسوله ﷺ معجزة عظيمة ، وحجة خالدة على الخلق ، ونبراساً دائماً للدعاة إلى يوم الدين ؛ لذا فقد حظى بكثير من جهود العلماء على مرّ التاريخ ، ومنهم علماء التفسير ، حيث اهتموا منذ عصر الرسول الكريم ﷺ - ببيان معانيه وأحكامه ، ثم ظهر في العصر الحاضر علم جديد في التفسير ، هو التفسير الموضوعي ، قدّم فيه الكثير من موضوعات القرآن ، وعلومه ، ومعانيه ، وحقائقه ، وصدرت عنه دراسات كثيرة تلقاها الباحثون والدارسون بالنظر والتمحيص .

ومن هذه الدراسات بيان مدى اهتمام القرآن الكريم بالإنسان ، حيث إنه لم يترك الناس يتخبطون في ظلمات الجهل ، والضلال ، بل أرسل لهم الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام- مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب السماوية ؛ لتخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومع كل ذلك فقد منحهم قلوباً واعية ، وعقلاً مفكرة ؛

(1) آل عمران / 102 .

(2) النساء / 1 .

(3) الأحزاب / 70 ، 71 .

ليستطيع كل منهم اختيار طريقه ، ومن ثم يكون مسئولاً عن اختياره .
قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاكَ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (1) . ولكن كل إنسان

مجازي عن عمله ، محاسب عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (2) .

وكذلك قال - عز وجل - : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (3) .

فإذا كان الإنسان عاقلاً ، فطناً ، ووفقه الله إلى اختيار الطريق الصحيح ، ومن ثم إلى فعل الأعمال الصالحة ، فقد فاز ، وسعد في الدارين ، ونال رضا الله - عز وجل - ، ورضا نبيه - ﷺ - .

أما إذا عطل الإنسان عقله ، وسار وراء أهوائه وشهواته ، فإنه يكون حقيقة قد ضل الطريق ، وسار في انحرافات ، ومتاهات ، وضلالات ، لا يعرف لها آخر ؛ وتكون نتيجة ذلك أن يرتكب ذنوباً وخطايا أمر الشارع الحكيم بالابتعاد عنها ، وتجنبها ؛ لأنها كفيلة بأن تحبط جميع الأعمال الصالحة ، وتجعلها هباءً منثوراً ، لا فائدة ترجى من ورائها ، في نفس الوقت الذي يظنها خيراً ، ويحسب أنها ما نعته من عذاب النار .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ (4) .

ففي هذا اليوم - يوم القيامة - يكون المرء مشغولاً بنفسه ، ذاهلاً عن غيره ، حتى إنه ليفر من أقرب المقربين إليه .

(1) الإنسان / 3 .

(2) غافر / 40 .

(3) الزلزلة / 7 ، 8 .

(4) الكهف / 103 - 105 .

قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (1) .

كما يكون في ذلك اليوم مستشعراً للعذاب ، مشفقاً أن يكون مصيره إلى النار ، فهو لا يدري أيقبل عمله ، أم يرد ، وهناك تظهر ثمرة العمل الصالح ، الخالص لوجه الله - عز وجل - حيث ينفع صاحبه في الآخرة ، ويكون دليلاً إلى الجنة - بإذن الله تعالى - .

وبالمقابل تظهر مساوئ المعصية ، وآثار ارتكاب المعاصي والقبائح ، حيث تكون دليل صاحبها إلى النار - والعياذ بالله - .

وإنطلاقاً من مجموع هذه الأمور ، وحباً في خدمة هذا الدين ، ورغبة في بيان الحق ، وتقنييد الباطل ، عقدت العزم ، واستعنت بالله ، وكتبتُ هذا البحث ، وسميته :

(محبطات العمل الصالح وآثارها كما يصورها القرآن الكريم)

وأنا أعلم يقيناً أن مثلي لا يعطى هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة ؛ نظراً لقلّة البضاعة ، وسعة الموضوع ، ولكنني بذلتُ جهدَ المقل ، واجتهدتُ أن أصل به إلى الصورة التي تليقُ به ، فإن أصبتُ فذاك ما أردتُ والفضلُ لله أولاً وأخراً . وإن كانت الأخرى فاستغفرُ الله لذنبي ، وحسبي أنني بذلتُ طاقتي ووضعتُ لبنةً في طريق من يريد إكمال البناء ، هذا وقد وقعت هذه المقدمة في الفقرات الآتية :

أولاً : طبيعة الموضوع وأهمية البحث فيه

هذا الموضوع يبحثُ في بيان الخطايا والذنوب التي ذُكرت في القرآن الكريم ، ويرتكبها الناس ، فتؤثر في خفة موازينهم ، قال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَزَقَهَا نَوْفًا إِيَّاهُمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (2) .

وقد تبين أن هذه المحبطات تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1. محبطات قلبية

2. محبطات قولية

3. محبطات فعلية .

(1) عبس / 34-37 .

(2) هود / 15 ، 16 .

ولنعلم أن آثار هذه المحبطات ليست على درجة واحدة من الإثم ، بل تنقسم إلى قسمين :

1. محبطات تخرج من الإسلام

2. محبطات لا تخرج من الإسلام .

وقد تبين أثر هذه الذنوب والخطايا على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة ، ووضّحت منهج القرآن الكريم في عرض هذه المحبطات للتفكير منها ، والترغيب بالصالحات .

ثانياً : أسباب اختيار الموضوع

يمكن ذكر أبرز هذه الأسباب في البنود التالية :

1. انتشار هذه الذنوب والخطايا في البلاد الإسلامية بشكل واسع ، حتى صارت أمراً مألوفاً ، بل تجاوز الأمر ذلك ، فسميت تلك الخطايا والذنوب بأسماء محببة للنفس ترويحاً لها ، وتضليلاً للناس ، مثل تسمية التبرج والسفور موضحة وأناقة .

2. إن خطورة المعاصي المحبطة للأعمال تكمن في جلالته من يعصى بها ، وهو الله الرازق ذو القوة المتين ، فكان التنبيه عليها منقداً لأصحابها من التعرض لسخط المنتقم الجبار ، أو لبطش ذي العرش المجيد ، الفعال لما يريد .

3. ثم إن مصير الإنسان مرهون بعمله ، وقد يقع الإنسان في محبطات الأعمال ، وقد زين له سوء عمله فراه حسناً ، فيكون ممن ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وأفضل هدية تُقدّم له تنبيهه على ذلك .

4. إن كثيراً من المعاصي قد جرت سنة الله - عز وجل - أن يذيق أصحابها من العذاب الأدنى إضافة إلى العذاب الأكبر ، وبذلك يكون أهلها ممن خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، فكان الواجب يقتضي تبيان ذلك للناس ، لتقوم به حجة الله عليهم، ولعلمهم يتقون .

5. تشجيع أساتذتي الأفاضل في القسم ، حيث إنهم اعتبروه موضوعاً دعويّاً لم يطرق من قبل وهو حري بالبحث والدراسة .

6. أمنيته منذ دخولي برنامج الماجستير أن تكون رسالتي من الأهمية والسهولة والوضوح بحيث يستفيد منها العامة والخاصة .

7. وأخيراً فإنني أعتقد أن الأمة الإسلامية على أعتاب مرحلة الخلافة التي هي على منهاج النبوة ، وهو ما تبشر به الصحوة الإسلامية ، ودخول الناس يومياً في دين الله، وإن استشراف هذا المستقبل القريب يحتم علينا أن نعد الدراسات اللازمة لمرحلة التمكين ، وتأتي هذه الرسالة لتكون بمثابة عاصم من الانزلاق في أسباب الهلاك ، التي تحول دون تحقيق وعد الله ، أو تعجل بضياع ثمرة قرنٍ كامل من الدعوة والتربية والجهاد.

ثالثاً : أهداف البحث

1. ابتغاء مرضاة الله -عزّ وجل- أولاً وآخراً ، وهو أعظم هدف وأسمى غاية يمكن أن تُرجى من وراء هذا البحث .
2. إثراء المكتبة الإسلامية برسالة علمية متخصصة ، تجمع الخطايا والذنوب التي تحبط العمل الصالح ، وتتناولها بالدراسة والتحليل ، وكل ذلك من منظور قرآني .
3. بيان أنه ليس كل ذنب يرتكبه الإنسان يخرج صاحبه من الإسلام ، كما يقول بعض الذين يستهينون بتكفير الناس لأنفه الأسباب ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) .
4. بيان أن آثار هذه الذنوب والخطايا لا تقع على الأفراد فقط ، بل قد تحلّ بالمجتمعات أيضاً ، فقد قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (2) .
5. بيان أن عقوبات هذه الذنوب والخطايا لا تقع في الآخرة فقط ، بل منها ما قد يقع في هذه الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (3) .

(1) النساء / 94 .

(2) الأنفال / 25 .

(3) النحل / 26 .

6. محاولة إيقاظ الغافلين حتى يذروا ما هم عليه من ارتكاب المعاصي ، ويعودوا إلى الله تائبين ، نادمين ، مستغفرين ، وذلك لأن بعض آثار هذه الذنوب قد تزول بالتوبة الصادقة النابعة من القلب ، فهؤلاء لا يتوب الله عليهم فحسب؛ بل يبدل سيئاتهم حسنات أيضاً ، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (1) .

رابعاً : الدراسات السابقة

بعد البحث والاطلاع تبين أن هذا الموضوع لم يتناوله أحد من قبل بالبحث والدراسة في قسم التفسير وعلوم القرآن ، ولكنني وجدت رسالتين علميتين إحداهما بعنوان : (نواقض الإيمان القولية والعملية) للدكتور : عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف ، وهي ممتازة جداً، ولكنها بعيدة عن مجال بحثي ، فهي تتناول الموضوع من زاوية عقديّة ، وأنا تناولته من زاوية قرآنية تفسيرية بالدرجة الأولى ، كما أنها لم تتناول إلا الذنوب التي تخرج من الإسلام فقط ، ولكنني زدت عليها الذنوب التي لا تخرج من الإسلام ، ثم قمتُ ببيان آثار هذه الذنوب على الفرد والمجتمع ، ثم وضّحتُ منهج القرآن في محاربة تلك الذنوب والخطايا ، وكل ذلك بعون الله وتوفيقه . وأما الرسالة الثانية فهي بعنوان : (نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف) للدكتور : محمد بن عبد الله الوهبي ، وهي لم تتناول إلا النواقض الاعتقادية التي تخرج من الإسلام فقط، أما أنا فتناولت الحديث عن المحبطات التي تتعلق بالاعتقاد ، وباللسان ، وبالجوارح والأركان ، كما أنها تركز على التحذير من أهل البدع والأهواء؛ كالأشاعرة ، والماتريدية ، والمرجئة وغيرهم - من وجهة نظر كاتبها - ، ثم تبين فساد اعتقادهم ، ومن ثم تقارن بين معتقدهم ومعتقد أهل السنة والجماعة، وهذا بعيد عن مجال بحثي .

خامساً : منهجي في هذا البحث

كان منهجي في هذا البحث ملخصاً في النقاط التالية :

1. استقراء الآيات القرآنية التي تدل بمنطوقها على حبوط الأعمال ، وقد بلغت ستّ عشرة آية، وتوثيقها بذكر اسم السورة ، ورقم الآية في الحاشية .

2. استقراء الآيات التي تدل بمفهومها على حبوط العمل ، والسير على نفس المنهج⁽¹⁾ .
3. تصنيف الآيات حسب موضوعاتها .
4. تتبع تفسير الآيات من كتب التفسير القديمة والحديثة .
5. الاعتماد في بعض المطالب على نفس كتاب التفسير، بحيث يتكرر النقل منه أكثر من مرة ، إذ يكون قد أجاد وأفاد في هذا الموضوع أكثر من غيره .
6. جمع الأحاديث الشريفة التي تنتم الموضوع ، وتخرجها حسب الأصول، مع الحكم عليها، وهذا لا ينافي كون البحث دراسة قرآنية ، فما كان دليله من القرآن الكريم أخذت به ، وما لم يكن دليله مباشراً من القرآن ، بحثت في السنة النبوية الشريفة .
7. الاقتصار في الاستدلال على الأحاديث الموجودة في الكتب الستة فقط ، وما كان في البخاري أكتفي به ، وما كان في البخاري ومسلم أذكره أحياناً ، وأحياناً أكتفي بالبخاري، وما لم يوجد فيهما ، أتجه لباقي كتب السنة ، مع الحكم عليها جميعاً .
8. بيان معاني المفردات الغريبة في الآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، في الحاشية، وذلك بالرجوع لكتب التفسير ، وكتب شروح السنة .
9. بيان معاني المفردات الغريبة في النقول من الكتب المختلفة ، وذلك بالرجوع إلى كتب اللغة المختلفة .
10. عنونت في داخل الرسالة لجميع الفصول ، والمباحث ، والمطالب.
11. استخدمت في التوثيق منهجية واحدة ، وهي ذكر البيانات الخاصة بالكتاب حين وروده أول مرة كاملة ، ثم بعد ذلك اقتصر على ذكر اسم الكتاب دون المؤلف اختصاراً ، ما عدا كتب التفسير؛ فإنني في كل مرة أذكر اسم التفسير ، مع ذكر المؤلف ؛ لأن الدراسة تفسيرية بالدرجة الأولى، فأردت التركيز على كتب التفسير بذكر مؤلفها.

(1) مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ البقرة / 264.

12. عند النقل الحرفي أضع المنقول بين علامات تنصيص وعند أخذى للمعنى فقط ، وصياغة ذلك بأسلوبي أقول : انظر ، أما عند التغيير من تقديم وتأخير وحذف : أقول بتصريف ، وعند تغيير شئ يسير جداً ، حتى لو كان تغيير كلمة ، أو حرف أقول : بتصريف يسير .
13. كتبت ملخصاً للرسالة باللغة الإنجليزية .

سابعاً : الرموز المستخدمة في الرسالة

- خ : البخاري
م : مسلم
ت : الترمذي
د : أبو داوود
س : النسائي
جه : ابن ماجه
حم : مسند الإمام أحمد
ك : كتاب
ب : باب
ح : حديث
ص : صفحة
ط : الناشر أي الطبعة
د. : دكتور
أ.د : أستاذ دكتور .

ثامناً : خطة البحث

- تحقيقاً للأهداف والغايات المرجوة من وراء هذا البحث ، قسمت هذه الدراسة على النحو التالي: مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .
- المقدمة : وتناولت فيها الموضوعات التالية :**
1. طبيعة الموضوع وأهمية البحث فيه .
 2. أسباب اختيار الموضوع

3. أهداف البحث
4. الدراسات السابقة
5. منهجي في هذا البحث
6. الرموز المستخدمة في البحث
7. خطة البحث
8. الشكر والتقدير

التمهيد: وقد اشتمل على مبحثين

المبحث الأول : سأتناول فيه الحديث عن العمل الصالح ، من حيث تعريفه ، وضرب أمثلة عليه، والدعوة إليه، والحث عليه ، وبيان آثاره في حياة الفرد والجماعة ، ثم تناولت أهمية الإخلاص في العمل، وذلك في خمسة مطالب .

المبحث الثاني : وسأتناول فيه الحديث عن محببات العمل الصالح ، من حيث تعريفها وبيان أسباب الوقوع في الذنوب التي تؤدي إليها ، ثم بيان كيفية التخلص من آثار الذنوب بعد وقوعها، وذلك في ثلاثة مطالب .

الباب الأول : محببات العمل الصالح في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تناولت فيه الحديث عن المحببات القلبية

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : المحببات القلبية التي تخرج من الإسلام

ويشتمل على سبعة مطالب

المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

المطلب الثاني : كفر الجحود والتكذيب

المطلب الثالث : الشك في حكم من أحكام الله - عز وجل - ، أو خبر من

أخباره .

المطلب الرابع : النفاق الاعتقادي

المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن

المطلب السادس : إنكار البعث والنشور

المطلب السابع : إنكار حكم معلوم من الدين بالضرورة .

المبحث الثاني : المحببات القلبية التي لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مطالب

المطلب الأول : القنوط (اليأس من رحمة الله)

المطلب الثاني : الرياء

المطلب الثالث : الكبر والخيلاء .

الفصل الثاني : وتناولت فيه الحديث عن المحببات القولية

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : محببات قولية تخرج من الإسلام

ويشتمل على أربعة مطالب

المطلب الأول : سبّ الله - عزّ وجل - ، أو ملأنته ، أو آياته ، أو رسله ،

أو الاستهزاء بهم .

المطلب الثاني : ادعاء النبوة

المطلب الثالث : الدعاء والاستغاثة بغير الله

المطلب الرابع : الكذب على الله - عزّ وجل - .

المبحث الثاني : محببات قولية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على خمسة مطالب

المطلب الأول : قذف المحصنات

المطلب الثاني : الغيبة

المطلب الثالث : النميمة

المطلب الرابع : المنّاة

المطلب الخامس : أذية المسلمين وشتمهم .

الفصل الثالث : وتناولت فيه الحديث عن المحببات الفعلية

ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : محببات فعلية تخرج من الإسلام

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول: الشرك في العبادة
المطلب الثاني: الاستهانة بالمصحف
المطلب الثالث: الإعراض التام عن دين الله
المطلب الرابع: الولاء لغير المسلمين .
المبحث الثاني: محببات فعلية لا تخرج من الإسلام
يشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: الزنى واللواط
المطلب الثاني: شرب الخمر
المطلب الثالث: الربا .
المبحث الثالث: محببات فعلية مختلف فيها
ويشتمل على ثلاثة مطالب

المطلب الأول: ترك الصلاة
المطلب الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله
المطلب الثالث: السحر .

الباب الثاني

عقوبات الذنوب وآثارها

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول: عقوبات على الفرد

ويشتمل على ثلاثة مباحث :
المبحث الأول: عقوبات دنيوية لا تزول بالتوبة
ويشتمل على ثلاثة مطالب

المطلب الأول: القتل
المطلب الثاني: القطع
المطلب الثالث: الجلد .

المبحث الثاني: عقوبات دنيوية تزول بالتوبة
ويشتمل على مطلبين

المطلب الأول : عقوبات إهلاك

المطلب الثاني : عقوبات دون إهلاك .

المبحث الثالث : عقوبات أخروية

ويشتمل على أربعة مطالب

المطلب الأول : عذاب القبر

المطلب الثاني : عذاب الحشر

المطلب الثالث : عذاب في جهنم دون الخلود

المطلب الرابع : عذاب الخلود في جهنم .

الفصل الثاني : عقوبات على المجتمع

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : عقوبات إهلاك

ويشتمل على سبعة مطالب

المطلب الأول : الطوفان

المطلب الثاني : الصيحة

المطلب الثالث : الريح

المطلب الرابع : الحجارة

المطلب الخامس : الرجفة

المطلب السادس : الصاعقة

المطلب السابع : المسخ لبني إسرائيل .

المبحث الثاني : عقوبات دون الإهلاك

ويشتمل على مطلبين .

المطلب الأول : تسليط الظالمين

المطلب الثاني : ضيق في الرزق .

الباب الثالث

منهج القرآن في الترغيب بالصالحات والتنفير من المحبطات .

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : الترغيب بالصالحات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص .

الفصل الثاني : الترهيب من المحبطات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص .

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات

الفهارس

وسأقوم بوضع الفهارس التالية :

1. فهرس الآيات القرآنية
2. فهرس الأحاديث النبوية
3. فهرس المصادر والمراجع
4. فهرس الموضوعات .

الفصل التمهيدي

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : العمل الصالح

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف العمل الصالح لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : أمثلة على العمل الصالح

المطلب الثالث : الدعوة إلى العمل الصالح ، والحث عليه

المطلب الرابع : بيان آثار العمل الصالح في حياة الفرد والجماعة

المطلب الخامس : الإخلاص في العمل .

التمهيد

المبحث الأول

العمل الصالح

يدور هذا المبحث حول تعريف العمل الصالح وإيضاحه بالأمثلة ، ثم الدعوة إليه والحث عليه ، وبيان الآثار المترتبة عليه على مستوى الفرد والجماعة ، ثم ضرورة الإخلاص فيه ، وذلك في المطالب الخمسة الآتية :

المطلب الأول : تعريف العمل الصالح لغة واصطلاحاً

لمعرفة معنى هذا المركب الوصفي في اللغة ، لا بد من تعريف طرفيه كل على انفراد كما يلي :

أولاً : العمل الصالح في اللغة

(أ) العمل لغة :

المهنة ، والجمع أعمال ، يقال عملَ عملاً ، وأعمله ، واستعمله ، واعتمل الرجل : عمل بنفسه ، وأعمل رأيه وآلته ، واستعمله : عمل به (1).

(ب) الصالح لغة :

الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد ، يقال : صلح الشيء يصلح صلاحاً وصلوحاً ، ويقال : صلح - بفتح اللام - صلاحاً .
والصلاح - بالكسر - : المصالحة ، وهي المسالمة بعد المنازعة ، والاسم : الصلح (2).

(1) انظر لسان العرب لابن منظور ، مؤسسة التاريخ العربي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت/لبنان ، ط² 1413هـ - 1993م ، 400/9 . والقاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، دار الجيل بيروت / لبنان - بدون تاريخ - 22/4 .

(2) انظر معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن احمد بن فارس بن زكريا ، (ت) عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل/بيروت ، ط¹ 1411هـ ، 303/3 . ولسان العرب 384/7 ، والمصباح المنير للعلامة أحمد بن محمد ابن علي الفيومي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، ط² ، 1418هـ - 1997م ، ص 180 ، والقاموس المحيط 243/1 ، وتاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، دار الهداية ، ط¹ 1400هـ - 1980م ، 547/6 ، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل حماد الجوهري دار العلم للملايين ، بيروت لبنان - بدون تاريخ - 383/1 .

ثانياً : العمل الصالح اصطلاحاً

وهنا أيضاً لا بد من معرفة معنى طرفي المركب قبل الوقوف على معناه بعد

التركيب :

(أ) العمل اصطلاحاً :

هو فعل الشيء عن قصد .

(ب) الصالح اصطلاحاً :

هو النافع ، مأخوذ من الصلاح وهو الاستقامة ، والسلامة من العيب (1).

(ج) العمل الصالح اصطلاحاً :

الخالص من كل فساد (2).

وعرفه الزحيلي بقوله : هو كل خير أقره العرف والشرع والعقل والفطرة السليمة ، وهو الذي يبوء أصحابه الجنات (3).

من خلال المعنى الاصطلاحي يتضح أن العمل الصالح هو: العمل الموافق لشرع الله ، وليس فيه مخالفة شرعية ، وهو الذي يحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة .

ثالثاً : معاني العمل الصالح في القرآن الكريم

قوبل العمل الصالح في القرآن الكريم تارة بالفساد قال تعالى ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (4). وتارة بالسيئة ، قال تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ (5) .

(1) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط¹ - بدون بيانات نشر - ص539 ، وحقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل - المسمى بالكشاف - لأبي القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي / مصر - بدون تاريخ - 255/1.

(2) القاموس الفقهي لغة وإصطلاحاً لسعدي بن أبي حبيب ، دار الفكر - بدون تاريخ - ص215.

(3) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج أ.د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر بيروت/لبنان ، ط² 1418هـ - 1998م، 107/1 بتصرف يسير .

(4) سورة الأعراف / 56 .

(5) التوبة / 102 .

وصلاح الله للإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً ، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده ، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح ، قال تعالى: ﴿ وَأَصْلَحَ بِآلِهِمْ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (2) . وقال أيضاً: ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ (3) (4) .

رابعاً : شروط صلاح العمل :

وضح الشنقيطي - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (5) ، شروط صلاح العمل فقال : ((دلت هذه الآية على أن العمل لا يكون صالحاً إلا بثلاثة أمور : الأول : أن يكون العمل شرعياً :

فكل عمل مخالف لما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فليس بصلاح ، بل هو باطل ، ويدل على ذلك المعنى عدة آيات كريمة أذكر منها :

(أ) قال - تعالى - : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ (6) .

(ب) وقال - جلّ وعلا - : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (7) .

(ج) وقال - تبارك وتعالى - : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (8) .

(د) وقال - جلّ ذكره - : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (9) إلى غير ذلك من الآيات .

(1) محمد / 2 .

(2) الأحزاب / 71 .

(3) الأحقاف / 15 .

(4) انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ، المكتبة العلمية ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - 43/3 .

(5) الكهف / 2 .

(6) الحشر / 7 .

(7) النساء / 80 .

(8) آل عمران / 31 .

(9) الشورى / 21 .

الثاني : أن يكون العامل مخلصاً لله

(أ) قال - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ (1)

(ب) وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً ﴾ (2) .

الثالث : أن يكون العمل من مؤمن

فالعامل لا يقبل من الكافر وذلك أن العمل كالسقف ، والعقيدة كالأساس ، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (3) ، فجعل الإيمان قيداً في ذلك)) (4) .

فهذه الشروط الثلاثة لا بد من توافرها مع كل عمل يقوم به الإنسان ، ليحكم عليه بالصلاح والقبول عند الله تعالى ، أما إن لم تتوفر هذه الشروط فإن العمل يكون باطلاً ، ويحكم عليه بعدم القبول .

المطلب الثاني : أمثلة على العمل الصالح

إن العمل الصالح هو صلة الإنسان بربه ، وبه ترتفع درجات صاحبه حتى يصل إلى أعلى المراتب في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وقد بين الحق - سبحانه وتعالى - أنه يحفظ هذا العمل لصاحبه ولا يضيعه أبداً . فقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (5) .

وللعمل الصالح أمثلة كثيرة أذكر منها ثلاثة عامة على سبيل التذكير لا الحصر :

1. إن أول ركائز العمل الصالح تتمثل في أركان الإسلام كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع ذلك والجهاد في سبيل الله ، فهذه أفضل الأعمال الصالحة بشرط أن يتَّوَجَّ ذلك كله صدق الإيمان بالله ، والاستقامة في

(1) الزمر / 11-15 .

(2) البينة / 5 .

(3) النحل / 97 .

(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط1 1421هـ-2000م ، 7/4 بتصرف .

(5) آل عمران / 195 .

العمل ، وإخلاص النية لله تعالى . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (1) .

2. الإحسان :

(أ) فقد قال تعالى : ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (2) .

(ب) وقال أيضاً : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (3) .

(ج) وقال أيضاً : ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى﴾ (4) .

3. طاعة الله -تعالى- وطاعة رسوله -ﷺ- وأولى الأمر :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (5) .

يقول السعدي - رحمه الله- : ((أمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك بامتنال
أمرهما الواجب والمستحب ، واجتناب نهيهما ، وأمر بطاعة أولى الأمر ، وهم الولاية
على الناس من الأمراء ، والحكام ، والمفتين ؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم
إلا بطاعتهم والالتقياد لهم ، طاعة لله ، ورغبة فيما عنده)) (6) .

ولكن ليس كل العمل الصالح يتركز في مثل هذه الأعمال ؛ بل إنه متسع الدائرة
إلى حد يشمل كل شيء في الحياة بشرط النية الخالصة الصادقة لله -تعالى- ،
فإنسان يستطيع أن يجعل جميع أعماله الدنيوية المباحة طاعات يتقرب بها إلى الله
- عز وجل - إذا أراد بها وجهه الكريم ، فيستطيع أن يجعل قيامه ، وجلوسه ، وأكله ،

(1) البقرة / 277 .

(2) البقرة / 112 .

(3) النساء / 125 .

(4) لقمان / 22 .

(5) النساء / 59 .

(6) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مؤسسة
الرسالة / بيروت ، ط1 1415هـ-1995م ، 334/1 .

ونومه عبادات يتقرب بها إليه سبحانه إذا كان ينوي التقوي بها للطاعة ، والعكس إذا أراد بهذه الأمور المباحة التقوي للمعصية - والعياذ بالله - فإنها تكون من أعظم الذنوب .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (1) .
يقول القرطبي : ((البر هنا اسم جامع للخير)) (2) .

وقد ذكر رسول الله - ﷺ - أمثلة للأعمال الصالحة يظنها الناس أعمالاً بسيطة لا ترتقي إلى درجة الأجر والثواب ، ولكنه - ﷺ - أكد أنها عظيمة عند الله تعالى ، بل إن منها ما يكون سبباً لمغفرة الذنوب ، ودخول الجنة .

(أ) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : (كل سلامي (3) عليه صدقة كل يوم يعين الرجل في دابته يحمله عليها ، أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ودل الطريق صدقة) (4) .
(ب) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : (ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة) (5) .

(1) البقرة / 177 .

(2) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الحديث/ القاهرة ، ط 2 1416هـ - 1996م ، 243/2 .

(3) السلامي : مفصل وعظم الأصابع . انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ بن حجر العسقلاني ، دار الحديث / القاهرة ، ط 1 1419هـ - 1998م ، 378/5 .

(4) أخرجه (خ) ، ك (الجهاد والسير) ، ب/72 (فضل من حمل متاع صاحبه في السفر) ، المكتبة العصرية ، صيدا/بيروت ، ط 1 1417هـ - 1997م ، 891/2 ، ح (2891) .

(5) أخرجه (خ) ، ك (الأدب) ، ب/27 (رحمة الناس والبهائم) ، 1902/4 ، ح (6012) . وأخرجه (م) في صحيحه ، ك (المساقاة والمزارعة) ، 164/10 ، ح (12) واللفظ له ، دار المنار للطبع والنشر ، ط 1 1418هـ - 1998م .

(ج) وقال أيضاً: (بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ وجد غصنَ شوكٍ على الطريق فأخذه ، فشكرَ اللهَ له ، فغفر له) (1).

ولا تقتصر الأعمال الصالحة على الواردة في الأحاديث الشريفة ، بل هي مجرد أمثلة ؛ لأنها لا نهاية لها ، فكل إنسان يخفف عن محزونٍ ويمسح دمعته ، ويقضي الدين عن غارم ، وينصر مظلوماً ، ويقيل عثرة مغلوب ، ويدفع الشر عن الناس ويدافع عنهم ،.... فكل ذلك يعتبر أعمالاً صالحة إذا كانت النية فيها خالصة لوجه الله الكريم . ولذلك يجب على كل مسلم ألا يستهين بالعمل الصالح مهما قل ، فإن القليل إلى القليل كثير ، وأول الغيث قطرة - كما يقولون - والجبال الضخمة ما هي إلا حصىً مترام .

المطلب الثالث : الدعوة إلى العمل الصالح ، والحث عليه

إن العمل الصالح هو نتيجة الإيمان بالله ، وثمره مهمة جداً من ثماره ، قال تعالى : «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (2) ، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً به ، فحيثما ذكر الإيمان أو المؤمنون في القرآن الكريم تبعه ذكر العمل الصالح ؛ لأنه ترجمة واقعية له قال تعالى : «وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» (3).

وقال تعالى : « وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » (4).

من أجل ذلك حث القرآن الكريم على العمل الصالح ، ودعا إليه في مواطن كثيرة ؛ لبيان أهميته ، وعظيم أثره بدءاً بأمر الرسل أنفسهم ، وانتهاءً بأمر العباد على السنة الرسل ، وهاك الدليل :

1. أمر تعالى الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام - بالعمل الصالح ، وهم المعصومون عن ارتكاب الأخطاء والمعاصي .

أ- قال تعالى «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» (5) .

(1) أخرجه (خ) ، ك (الأذان) ، ب/32 (التهجير إلى الظهر) ، 207/1 ، 208 ، ح(652).

(2) الذاريات / 56 .

(3) العصر / 1-3 .

(4) إبراهيم / 23 .

(5) المؤمنون / 51 .

ب- وقال أيضاً -جلّ وعلا-: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (1).

فإذا كان الأمر بالعمل الصالح متوجهاً للأنبياء المغفور لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ، فهو في حقنا أكد وألزم ؛ لأننا نحن من يحتاج إلى مثل هذا العمل وذلك الجزاء ؛ لكثرة ذنوبنا ، وطول مسيرنا ، وقلة زادنا ، فنحن بحاجة إلى أقل حسنة توصلنا إلى برّ الأمان بعد رحمة الله - عزّ وجلّ -.

2. كما أمر تعالى عباده المسلمين على لسان نبيه - ﷺ - بالعمل الصالح في عدة مواضع .

(أ) قال تعالى : ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (2).

(ب) وقال أيضاً: ﴿أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ (3) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ (4) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (5).

(ج) وقال أيضاً : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (6).

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن عمل الإنسان لا يخفى عليه تعالى ، سواء كان خيراً أم شراً ، وسيرى الله هذا العمل ورسوله والمؤمنون بإطلاعه إياهم على هذه الأعمال ، لذا وجب على المؤمن الراغب في الكمال أن يزيد من الأعمال الصالحة ليجبر ما فاتته من ارتكاب السيئات ، وفيها أيضاً ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا يخفى -سواء كان خيراً أو شراً- رغب في أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير بن أبي سلمى حين قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم (7)

(1) سبأ / 13 .

(2) الأنعام / 135 .

(3) أي : الدروع الواقية .

(4) أي : يقدره حلقات ، ثم يدخل بعضها في بعض ، انظر تفسير السعدي : 414/2 .

(5) سبأ / 11 .

(6) التوبة / 105 .

(7) انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ط عالم

المعرفة - بدون تاريخ- 400/2، والتحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ، دار سحنون/تونس ط 1997م ،

25/11، والتفسير المنير للزحيلي : 30/11.

فتلك الآيات القرآنية الكريمة ، وغيرها كثير تحت على العمل الصالح ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، فحين يعلم الإنسان أن الله مطلع على عمله مهما كان في الخفاء ، وسيطلع الناس عليه ، فإن هذا يعطيه دفعة قوية ليبدل قصارى جهده ؛ لتكون أعماله سالحة ، وكذلك يحاول أن يبتعد عن كل الأعمال السيئة التي تغضب الله ورسوله والناس الأحياء منهم والأموات .

المطلب الرابع : بيان آثار العمل الصالح في حياة الفرد والجماعة

وعد الله - سبحانه وتعالى - عباده الذين يعملون أعمالاً سالحة موافقة لمنهاجه حال كونهم مسلمين موحدين أن لا يضيع سعيهم ، وألا يبطل ثواب أعمالهم ، بل يشكرها لهم ، ويوفيهم الجزاء الأوفى عليها مهما صغرت ودقت. قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (1).

وقال أيضاً : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (2).

كما وضح - جلّ وعلا- أن لهذه الأعمال الصالحة أهمية عظيمة وآثاراً حسنة في حياة الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة ، على النحو التالي :

أولاً : آثار العمل الصالح في حياة الفرد

للعمل الصالح آثار في حياة الفرد في الدنيا والآخرة ، لذا فإنني أذكر ثلاثة آثار له في الدنيا ، وأكثر من ضعفها من الفضائل في الآخرة :

أ. آثاره في حياة الفرد في الدنيا :

إن من رحمة الله تعالى بعباده أن جعلهم يتمتعون بآثار أعمالهم الصالحة في الدنيا قبل الآخرة ، ومن هذه الآثار :

1. التمتع بحياة طيبة :

قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (3).

(1) الكهف / 30 .

(2) الإسراء / 19 .

(3) النحل / 97 .

وأما الرأي القائل بأن الحياة الطيبة معناها الجنة ، فإنني أرى بُعدَه ؛ لأن بقية الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تعنى الدار الآخرة بلا شك - كما قال الطبري (1)- ، فبذلك يكون أول الآية يتكلم عن الحياة الدنيا ، وآخرها يتحدث عن الحياة الآخرة - والله أعلم-.

2. تيسير الأمور :

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (2).

يقول الزحيلي - رحمه الله- في بيان معنى الآية : ((أي وأما من آمن بالله ووحدهانيته ، وصدق دعوته وعمل عملاً صالحاً مما يقتضيه الإيمان ، فجزاؤه الجنة ، وسنطلب منه أمراً ذا يسر غير صعب ولا شاق ؛ ليرغب في دين الله ، ويحب فعل أوامر الله من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ونحوها، فلا نأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل الميسر)) (3).

3. المحبة والقبول :

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (4).

يقول ابن كثير - رحمه الله- في بيان معنى هذه الآية : (يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات - وهي الأعمال التي ترضى الله - عزاً وجل - لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه .

وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ومنها ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه- أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول

(1) انظر نفس المرجع : 226/14 .

(2) الكهف / 88 .

(3) التفسير المنير للزحيلي : 25/16 .

(4) مريم / 96 ، والود : محبة ووداد في قلوب أوليائه ، وأهل السماء والأرض ، تفسير السعدي :

في الأرض) (1) (2) .

(ب) آثاره في حياة الفرد في الآخرة :

من منطلق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (3) . فإن الإنسان المؤمن الذي يعمل الصالحات لا بد وأن يرى آثار عمله الصالح في الآخرة ، ومن هذه الآثار :

1. دخول الجنة والتمتع بها :

وهذا هو أفضل الآثار ، وغاية كل مؤمن وهدفه الذي يسعى إليه ، والآيات

الدالة على ذلك كثيرة جداً ، منها :

(أ) قال - عز وجل - : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (4) .

(ب) وقوله تعالى أيضاً واصفاً حال المؤمنين الذين يعملون الصالحات في الجنة : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ (5) وَإِسْتَبْرَقٍ (6) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (7) .

(ج) وقوله - عز من قائل - : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (8) .

(1) أخرجه (خ) ، ك (التوحيد) ، ب/33 (كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة) ، 2336/4 ، ح (7485) .

(2) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، المكتبة القيّمة / القاهرة ، ط 1411 هـ - 1991 م ، 143/3-144 .

(3) الكهف / 30 .

(4) البقرة / 25 .

(5) أي : ثياب رفاه رفاق كالقمصان ، وما جرى مجراها .

(6) أي : غليظ الديباج وفيه بريق . تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 84/3 .

(7) الكهف / 31 .

(8) النساء / 124 ، والنقير : قدر النقرة في ظهر النواة . جامع البيان للطبري : 401/5 .

يقول الزحيلي في بيان هذه المعاني : ((بشر يا محمد - أنت وورثتك من العلماء - المؤمنين والمتقين الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات والحسنات أن لهم حدائق ذات أشجار ومساكن ، تجرى من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها - كما ورد في الصحيحين - ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁽¹⁾ ، فيها الأرزاق الدائمة ، والثمار الشهية المتنوعة ، كلما قدمت لهم ثمرة منها في أول النهار وآخره ، قالوا متعجبين : هذه الثمرة كالتي رزقناها في الدنيا ، فإذا أكلوها وجدوا لها طعماً غير الطعم المعتاد ، وأدركوا أنها تشبه ثمار الدنيا في المنظر والشكل والجنس فقط ، وتختلف في الذوق والطعم والحجم ، فهي مما لم يروه أبداً))⁽²⁾.

كما كنى - سبحانه وتعالى - في سورة الأنعام وغيرها عن الجنة بدار السلام ، فقال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁽³⁾.

وقد بين السعدي - رحمه الله - سبب هذه التسمية فقال : ((وسميت الجنة دار السلام ؛ لسلامتها من كل عيب ، وآفة ، وكدر ، وهم ، وعم ، وغير ذلك من المنغصات . ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال ، ونهاية التمام بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه المتمنون من نعيم الروح والقلب والبدن ولهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون))⁽⁴⁾.

2. نزع الغل وغيره من أمراض النفوس :

قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾⁽⁵⁾.

(1) السجدة / 17 .

(2) التفسير المنير للزحيلي : 105/1 .

(3) الأنعام / 127 .

(4) تفسير السعدي : 542/1 .

(5) الأعراف / 43 .

يقول الزحيلي : ((ومن نعم الله على أهل الجنة صفاء نفوسهم ، وسلامة صدورهم ، لا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم ، ولا يحزنهم فزع ، ولا يحدث بينهم شر ؛ لأن الله نزع ما في صدورهم من حسد ، وحقد ، وعداوة ، وغل ونحوها من أمراض النفوس في الدنيا)) (1).

3. حفظ المساعي وعدم جحودها :

قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (2).

ومن حكمة الله تعالى وعلمه بعباده الضعفاء أنه جعل من يأتي ببعض الأعمال الصالحة له الأجر والثواب ، ولم يطالبهم بأن يأتوا بها جميعاً ، فهو العالم بطبيعة النفس البشرية وقدراتها، لذا قال - ﷺ - (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتهم عن شيء فدعوه) (3).

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((والمعنى من يعمل شيئاً من الطاعات ، سواء كانت فرضاً أو نافلة - وهو موحد - فلا جحود لعمله ، ولا يضيع جزاؤه ؛ بل هو محفوظ ، سيجازى عليه - بإذن الله- ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (4).

4. نيل المغفرة والأجر العظيم :

فالعامل الصالح سبب في مغفرة الذنوب ، ونيل الدرجات العلا ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها :

- (أ) قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (5).
(ب) وقوله أيضاً : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (6).

(1) التفسير المنير للزحيلي : 209/4 .

(2) الأنبياء / 94 .

(3) أخرجه (م) ، ك (الحج) ، 447/9 ، ح (412) .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 356/11 ، 357 بتصريف ، والآية / 195 من آل عمران .

(5) المائدة / 9 .

(6) هود / 11 .

فالذين آمنوا ، وصبروا وعملوا الصالحات ، إن أصابتهم شدة في الحياة الدنيا لا يثيبهم ذلك عن طاعة الله ، بل يصبرون لحكمه وقضائه ، وإن أصابتهم سعة ، ورخاء ، ورغد شكروا الله ، وأدوا حقه عليهم ، فهؤلاء لهم من الله مغفرة ذنوبهم ثواباً على أعمالهم الصالحة التي يعملونها في دار الدنيا ، ولهم جزاء عظيم (1).

5. حصول الاستقرار النفسي :

وقد دلت عليه العديد من الآيات ، اكتفي منها بإثنتين تخفيفاً :

(أ) قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ (2) وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (3).

(ب) وقال أيضاً : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (4) .

يخبر تعالى أنه من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً من واجب ومسنون فلهم النجاة ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ، ولا هم يحزنون بسبب خوفهم من زيادة سيئاتهم ، أو نقصان حسناتهم ، بل تكفر ذنوبهم ، وتطهر عيوبهم ، وتضاعف حسناتهم (5).

وإذا تحققت هذه الأمور للإنسان فهو في قمة الاستقرار النفسي .

6. تكفير السيئات وصلاح البال :

(أ) قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (6).

(ب) وقال أيضاً : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (7).

(1) انظر جامع البيان للطبري / 13/12 .

(2) جمع صابيء ، وهو كل خارج عن دين كان عليه إلى آخر غيره ، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه . نفس المرجع : 455/1 .

(3) المائة 69 .

(4) طه / 112 .

(5) انظر تفسير السعدي : 462/1 ، 463 ، 33/2 .

(6) العنكبوت / 7 .

(7) محمد / 2 .

يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة بأنه سوف يغفر ويكفر سيئات عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، كما أنه سوف يجزيهم ثواب أحسن ما كانوا يعملون .

7. تبديل السيئات حسنات :

لم يقتصر المولى - جل ثناؤه - على تكفير سيئات الذين يعملون الصالحات بعد التوبة والإنابة ، وإزالتها من صحائفهم بالمغفرة ، بل زاد على ذلك بأن بدل تلك السيئات حسنات ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (1).

يقول القرطبي - رحمه الله - في بيان معنى الآية : ((اختلفت أقوال العلماء في معنى التبديل على خمسة أقوال :

فمنهم من قال : أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاصٍ مطيع .

وقيل : يبدلهم الله من الشرك إلى الإيمان .

وقيل : إن التبديل في الدنيا ، يبدلهم الله إيماناً من الشرك ، وإخلاصاً من الشك ، وإحصاناً من الفجور .

وقيل : ليس بجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ، أي يغفر الله تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات (2).

ثم بعد أن أورد - رحمه الله - تلك المعاني عقب قائلاً ((فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ، وقد قال - ﷺ - لأبي ذر رضي الله عنه : "أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن")) (3) (4).

(1) الفرقان / 68-70 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 84/13 بتصريف .

(3) أخرجه (ت) في سننه ، ك (البر والصلة) ، ب/55 (ما جاء في معاشرته الناس) دار الحديث/القاهرة ، ط1 1419م - 1999م ، 4/125 ، ح(1987) ، وأخرجه (حم) ، 5/299 ، ح(22052) . وقال الترمذي : حسن صحيح .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 84/13 . وانظر جامع البيان للطبري : 61/19 .

وأنا أوافقه - رحمه الله - الرأي ، ولا أرى صارفاً يصرف الآية عن مدلولها ومعناها المباشر ، ولا أرى مانعاً يمنع رحمة المولى - عز وجل - والتي ليس لها حدود - من أن يبدل سيئات عباده التائبين توبة نصوحاً بحسنات من باب الرحمة والمغفرة والفرحة منه تعالى بتوبة عبده ، دون أن يكون له تعالى حاجة إلى تلك التوبة .

والأحاديث التي تؤكد هذا المعنى كثيرة أيضاً ، أكتفي منها بواحد صحيح :

ورد في الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال :
(ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات) ، فقيل : ومن هم ؟ قال : (الذين يبذل الله سيئاتهم حسنات) (1) .

ومن كل ما سبق يتقرر أن العمل الصالح لا يكون بذاته سبباً مباشراً في دخول الجنة ، فليس للإنسان الذي يعمل الصالحات أن يطمئن ويركن إليها ، بل لا بد من عدل الله ورحمته وفضله الذي يتفضل به على عباده فيدخلهم الجنة .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (2) .

فهذه الآية الكريمة دليل على أن الإنسان يرث منازل الجنة بعمله ، ودخوله إياها يكون برحمة الله وفضله ، كما قال تعالى : ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ (3) .
وقال أيضاً : ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ (4) .

وكذا روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (إن يُنْجَى أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) (5) الحديث .

(1) أخرجه (كم) ، ك (التوبة والإنابة) ، دار المعرفة ، بيروت/لبنان ، ط(1) - بدون تاريخ-، 252/4 . وصححه محمد ناصر الدين الألباني في صحيحه ، المسمى : صحيح الجامع الصغير وزيادته -المسمى بالفتح الكبير- ، المكتب الإسلامي /جمعية إحياء التراث الإسلامي ، ط³ 1421هـ-2000م، 946/2، ح(5359) .

(2) الأعراف / 43 .

(3) النساء / 70 .

(4) النساء / 175 .

(5) أخرجه (خ) ، ك (الرقائق) ، ب / 18 (القصد والمداومة على العمل) ، 2028/4 ، ح (6463) .

ويذكر الزحيلي خلاصة لهذه المسألة قائلاً : ((العمل الصالح في رأي أهل السنة لا بد منه لدخول الجنة في ميزان العدل ، ولإيجاد تكافؤ الفرص بين جميع الناس ، لكن لا بد أن ينضم إليه رحمة الله وفضله ، فإنه جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمة ، وكافأ على القليل بالكثير فضلاً منه ورحمة ؛ لا أن ذلك مستحق عليه وواجب لعباده وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، كما فهم المعتزلة (1) ؛ لأنه يستحيل عقلاً إيجاب شيء على الله تعالى)) (2).

ثانياً : آثار العمل الصالح على الجماعة

كما أن للعمل الصالح آثاراً يتمتع بها الأفراد ، كذلك له آثار تنعم بها الجماعات أو المجتمع بكامله ، ومن هذه الآثار :

1. الاستخلاف في الأرض :

وهو من أهم الآثار المترتبة على العمل الصالح ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (3).

يقول ابن كثير رحمه الله- في بيان معنى هذه الآية الكريمة : ((يخبر تعالى في هذه الآية عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثته الأرض في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (4) . وأخبر سبحانه أن هذا مسطور في الكتب الشرعية

(1) المعتزلة : رأس المعتزلة واصل بن عطاء (ت 1315هـ) ، وهم فرق متعددة تجمعهم الأصول الخمسة التي تتضمن تعطيلاً للصفات ، ونفي القدر ، وتخليد عصاة الموحدين في النار ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وتجويز الخروج على أئمة المسلمين .

انظر : مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، (ت) محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية / القاهرة ، ط 1389هـ ، 235/1 .

- والتنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي ، - بدون بيانات نشر - ص 35 .

- والمال والنحل للشهرستاني ، (ت) محمد سيد الكيلاني ، شركة مصطفى الحلبي / القاهرة ، ط 1396هـ ، 43/1 .

(2) التفسير المنير للزحيلي : 211/8 .

(3) الأنبياء / 105 .

(4) الأعراف / 128 .

والقدرية ، وهو كائن لا محالة)) (1).

ولقد اختلف المفسرون في بيان المراد بالأرض على ثلاثة أقوال ذكرها الإمام

الرازي في تفسيره ، وهي :

الأول : أنها أرض الجنة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ (2).

الثاني : هي الأرض المقدسة (3).

الثالث : هي أرض الدنيا بدليل قول الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (4).

ويقول الطبري - رحمه الله - في تأويل الأرض : ((إنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد - ﷺ - ، وهذا القول عن ابن عباس - رضي الله عنهما -)) (5).

ولا مانع من إرادة جميع الأقوال السابقة ، حيث يمكن الله لعباده الصالحين في الدنيا، فيورثهم الأرض بما فيها ، أرض الأمم الكافرة ، ثم في الآخرة يورثهم الجنة.

2. التمكن في الأرض :

قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (6).

يقول الشوكاني - رحمه الله - : ((المراد بالتمكين هنا : التثبيت والتقرير أي يجعله ثابتاً مقرراً ، يوسع لهم في البلاد ، ويظهر دينهم على جميع الأديان ، والمراد بالدين هنا : الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (7)....

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 206/3 .

(2) الزمر / 74 .

(3) ولكن لا دليل على ذلك القول .

(4) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخر الدين العلامة ضياء الدين ، دار الفكر، لبنان/بيروت ، ط 1401هـ - 1981م ، 229/2 وما بعدها بتصرف ، والآية في النور / 55 .

(5) جامع البيان للطبري : 139/17 .

(6) النور / 55 .

(7) المائدة / 3 .

ثم يجمع بين الأثرين السابقين قائلاً : ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً وهو جعلهم ملوكاً ، ثم ذكر التمكين ثانياً ، فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه الفرض والطرّوء ، بل على وجه الإستقرار والثبات ، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم)) (1).

3. تبديل الخوف أمنا :

قال تعالى : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (2).

يقول الطبري - رحمه الله - : ((أي وليغيرن حالهم عما هي عليه من الخوف إلى الأمن)) (3).

المطلب الخامس : الإخلاص في العمل

أبدأ أولاً بذكر معاني الإخلاص في اللغة والاصطلاح ، وفي القرآن الكريم ، ثم أنتي بذكر مزاياه ، وأختم بالإخلاص في الدعاء وقت الشدة:

أولاً : معاني الإخلاص :

(أ) الإخلاص لغة :

خَلَصَ الشيء - بالفتح - يَخْلُصُ خُلُوصاً وَخَلَاصاً ؛ وأخلص الشيء : اختاره ، والمُخْلِص : الذي أخلصه الله ، وجعله مختاراً خالصاً من الدنس ، والمخلص : الذي وحد الله تعالى خالصاً (4).

(ب) الإخلاص اصطلاحاً :

عرّفه الزحيلي بقوله : ((هو القصد في العبادة إلى أن يُعبد بها المعبود وحده)) (5).

وعرّف ابن عاشور معنى الإخلاص في العبادة فقال : ((أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور ، وإلى ترك المنهي إرضاءً لله تعالى ، وهو معنى قولهم : لوجه الله ،

(1) فتح القدير للشوكاني : 56-55/4 .

(2) النور / 55 .

(3) جامع البيان للطبري : 211/18 ، وانظر التفسير المنير للزحيلي : 284/18 .

(4) انظر لسان العرب : 173/4 ، والقاموس المحيط : 312/2 .

(5) التفسير المنير للزحيلي : 114/16 .

أي القصد والامتثال ، بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة ، مثل أن يعبد الله ليمدحه الناس ، بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة)) (1).

مما سبق يتضح أن :الإخلاص مقابل الرياء ، وهو يعني : أفراد المعبود وحده بالقصد في كل أمرٍ أمر به أو نهى نهى عنه ؛إرضاءً لله تعالى ،وبعيداً عن كل سمعة ورياء ومدح من قِبَل الناس.

(ج)معاني الإخلاص في القرآن الكريم :

جاءت كلمة الإخلاص في القرآن الكريم لعدة معانٍ ، منها :

1- الصفاء من الشوائب :

قال تعالى : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ (2) وَدَمٍ لَبَّأً خَالِصًا ﴾ (3).

أي لا يخالطه دم ولا فرث (4).

2- عدم الاختلاط :

قال تعالى عن إخوة يوسف - عليه السلام - : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (5).

أي انفردوا وتميزوا عن سواهم ، فلا يختلط بهم غيرهم (6).

3- عدم المشاركة :

قال تعالى فيما حكاه عن المشركين : ﴿ خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا ﴾ (7).

أي لا يشاركونهم الإناث (8).

4- التمتع بالزينة والطيبات خاص بالمؤمن في الدنيا والآخرة :

قال تعالى في الزينة والطيبات : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (9).

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 318/23 .

(2) الفَرْثُ : هو ما في الكرش من الزبل . انظر فتح القدير للشوكاني : 174/3 .

(3) النحل / 66 .

(4) انظر جامع البيان للطبري : 175/14 .

(5) يوسف / 80 .

(6) انظر جامع البيان للطبري : 43/13 .

(7) الأنعام / 139 .

(8) انظر نفس المرجع : 65/8 .

(9) الأعراف / 32 .

أي لا يشاركون فيها الكفار (1).

من خلال ما سبق يتضح أن هناك صلة بين المعنى اللغوي ، والمعنى الاصطلاحي يوضحه د. عمر الأشقر بقوله : ((الإخلاص يهدف إلى تخلص القصد المتوجه إلى الله تعالى من الشوائب، والأخلاق ، والفساد الذي يزاحمه ويخالطه ، بحيث يتصفى القصد لله - عز وجل - دون سواه في جميع العبادات)) (2).

وباستعراض معاني الإخلاص في القرآن الكريم نلاحظ أنه ليس كل إخلاص يعني إخلاص العباداة لله ، بل من معانيه أيضاً ما يكون خاصاً بالمخلوقات بمعنى التمايز والتفريق وعدم الاختلاط ، ولكن إذا أطلق الإخلاص فالمقصود به إخلاص العباداة لله في جميع الأقوال والأفعال، وعدم توجيه شيء منها لأحد سواه ، سواء كان ملكاً أو مَلِكاً ، أو شجراً ، أو حجراً ، أو شمساً أو قمراً ، فالعمل الذي لا يقصد به وجهه الكريم لا يتقبله ، وليس له قيمة، ولا فائدة تُرجى من ورائه ، قال تعالى : ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((والمعنى هو : اقصدوا بكل عبادة ، ودعاء ، وعمل، وجه الله ؛ فإن الإخلاص هو المأمور به ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾)) (4).

ويقول الشوكاني - رحمه الله - : ((هذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات ؛ لأن الإخلاص من عمل القلب)) (5).

ثانياً : مزايا الإخلاص

للإخلاص مزايا عديدة ، ألخص أهمها في ثلاث نقاط :

(1) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت /

لبنان ، ط 1 1411 هـ - 1990 م : 151/3 .

(2) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين ، د. عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس / الكويت ، ومكتبة

الفلاح / بيروت ط 2 1411 هـ - 1991 م ، ص 360 .

(3) غافر / 65 .

(4) تفسير السعدي : 573/2 ، والآية في البيئنة / 5 .

(5) فتح القدير للشوكاني : 476/5 .

1. إن الإخلاص في جميع الأعمال هو مهمة الرسل الأساسية التي أرسلهم الله - عز وجل - من أجلها .

(أ) قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (1).

(ب) وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (2).

فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان أن مهمة جميع الرسل الإرشاد إلى الإخلاص في العبادة لله تعالى كي تؤتي العبادة ثمارها المرجوة منها.

2. والإخلاص في العبادة هو شرط من شروط صلاح العمل ، لا يصح ولا يقبل إلا به (3).

3. كما أن الإخلاص سبب في عدم تسلط الشيطان على النفس وقد دلت عليه بعض الآيات ومنها :

(أ) وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (4).

(ب) قال تعالى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (5) .

يقول ابن عاشور - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية الكريمة : ((إن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً أو مائلاً للغواية مكتسباً لها، دون من كبح نفسه عن الشر ؛ فإن العاقل إذا تعلق به وساوس الشيطان علم ما فيه من إضلال ، وعلم أن الهدى في خلافه ، فإذا توفق وحمل نفسه على اختيار الهدى ، وصرف إليه عزمه ، قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان ، وإذا مال إلى الضلال واستحسنه ، واختار إرضاء شهوته ، صار متهيئاً إلى الغواية ،

(1) الأنبياء / 25 .

(2) النحل / 36 .

(3) انظر شروط العمل الصالح ص 4 من هذا البحث .

(4) الحجر / 39 ، 40 .

(5) ص / 82 ، 83 .

فأغواه الشيطان فغوى)) (1).

ثالثاً : الإخلاص في الدعاء عند الشدائد فطرة إنسانية

والإنسان بطبعه مفسور على الإخلاص في الدعاء والتوجه إلى الله وقت الشدائد ، فيتجه إلى الله - عز وجل - بكل جوارحه ، يدعو متضرعاً ، متذللاً ، مستسلاً ، ولكنه غالباً إذا ما فرّج الله تعالى كربته ، نسيه ، وعاد إلى الغفلة والعصيان والبعد عنه - جلّ وعلا - والعياذ بالله - ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي :

(أ) قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِيَمِّ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (2).

(ب) وقال أيضاً : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((ألزم الله تعالى المشركين بالإخلاص له منهم في حال الشدة عند ركوب البحر ، وتلاطم أمواجه ، وخوفهم الهلاك ، يتركون وقتذاك أندادهم ، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له ، فلما زالت عنهم الشدة ، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ، أشركوا به من لا نجاهم من شدة ، ولا أزال عنهم مشقة فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال البرخاوة والشدة ، واليسر والعسر ؛ ليكونوا مؤمنين حقاً ، مستحقين ثوابه ، مندفعاً عنهم عقابه)) (4).

من كل ما سبق يتضح أن الإخلاص في العمل ليس أمراً هيناً ، بل هو من أشق الأمور على النفس ، لا يستطيعه إلا من استقر الإيمان في قلبه ، وقويت عزيمته ، فقد ورد عن رسول الله - ﷺ - أنه كان دائماً يدعو فيقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي

(1) التحرير والتوير لابن عاشور / 52/14 .

(2) يونس / 22-23 .

(3) العنكبوت / 65 .

(4) تفسير السعدي : 324/2 .

المبحث الثاني

محبطات العمل الصالح

أبدأ في هذا المبحث بتعريف المحبطات ، وأذكر أسباب الوقوع فيها ، مع
الاستعراج على التوبة والاستغفار كأسباب للتخلص من آثار الذنوب بعد وقوعها ،
وذلك في المطالب الثلاثة التالية :

المطلب الأول : تعريف المحبطات لغة واصطلاحاً

أذكر هنا المعنى اللغوي والاصطلاحي والعلاقة بينهما، ثم أسرد الضروب
الثلاثة لحبوط العمل.

(أ) المحبطات لغة :

يقول ابن فارس : الحاء والباء والطاء أصل واحد يدل على بطلان أو ألم ،
يقال : أحبط الله عمل الكافر : أي أبطله ، وحَبَطَ العمل حَبُوطاً : فسد وهدر ، وحَبِطَ
حَبِطاً : عمل عملاً ثم أفسده ، والحَبِطُ - محرّكة - : آثار الجرح ، أو السياط بالبدن
بعد البرء ، وفعل حَبِطَ يؤذن بأن الحابط كان صالحاً فانقلب إلى فساد (1).
ويقول المفسرون : الحَبِطُ هو : فساد المواشي في بطونها من كثرة أكلها الكلاً فتنتفخ
أجوافها ، وربما تموت من ذلك (2).

(ب) المحبطات اصطلاحاً :

يقول ابن عاشور : ((حَبِطُ الأعمال : زوال آثارها المجعولة مرتبةً عليها شرعاً
، فيشمل آثارها في الدنيا ، والثواب في الآخرة)) (3).

(1) انظر معجم مقاييس اللغة : 129/2 ، والمصباح المنير ص 65 ، والقاموس المحيط : 366/2 ، ولسان
العرب : 23/3 ، وتهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، مكتبة ابن تيمية ، الدار
المصرية / مطابع سجل العرب ، (ت) أ . عبد الكريم الغرباوي 395/4 ، والعين لأبي عبد الرحمن
الخليل بن أحمد الفراهيدي ، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات ، بيروت/لبنان ، - بدون تاريخ - 174/3 ،
وتاج العروس : 192/19 ، والصحاح للجوهري : 1118/3 .

(2) انظر جامع البيان للطبري : 482/2 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 50/3 ، وروح المعاني في تفسير القرآن
العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ، دار الفكر /بيروت - بدون
تاريخ - 110/1 ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : 332/2 ، 125/6 ، وفتح القدير للشوكاني : 218/1 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 332/2 .

ثم يستأنف موضحاً ذلك فيقول : ((فالآثار التي في الدنيا هي ما يترتب على الإسلام من خصائص المسلمين ، وأولها آثار كلمة الشهادة من حرمة الأنفس ، والأموال ، والأعراض ، والصلاة عليه بعد الموت ، والدفن في مقابر المسلمين ،..... وأما الآثار التي في الآخرة : فهي النجاة من النار بسبب الإسلام ، وما يترتب على الأعمال الصالحات من الثواب والنعيم)) (1).

مما سبق يتضح أن محبطات العمل الصالح هي : المعتقدات والأقوال والأفعال التي تفسد ثواب الأعمال الصالحة ، وتوجب العقوبة .

(ج) علاقة المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي :

حبط العمل مأخوذ من حبط البطن ؛ لأن صاحب البطن يهلك ، وكذلك عمل المنافق يحبط ، فالإبل تأكل نوعاً من الخضرة شهوة فيؤول عليها بالموت؛ لانتفاخ بطونها بسببه انتفاخاً قاتلاً، وذلك يشبه حال المنافق الذي يعمل الأعمال الصالحة لنفعها في الآخرة، فلم يجد لها أثراً (2).

ضروب حبوط العمل :

حبوط العمل على ثلاثة أضرب ، هي :

الأول : أن تكون الأعمال دنيوية ، فلا تغني في القيامة غناءً ، كما أشار إليه تعالى - بقوله : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (3).

الثاني : أن تكون أعمالاً أخروية ، ولكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله - تعالى - ، كما روى : أنه يؤتى يوم القيامة برجل فيقال له : بم كان اشتغالك ، قال : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به إلى النار (4).

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 332/2 ، 333 .

(2) انظر نفس المرجع : 332/2 .

(3) الفرقان /23.

(4) الحديث ذكره المؤلف بالمعنى ، وهو عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ ، قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم أُلقي في النار). أخرجه (م) ، (ك) الإمارة ، 42/13 ، ح (152) .

(ب) وعن ثوبان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل :ومن قلة نحن يومئذ ؛ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، فقال قائل :يا رسول الله وما الوهن ؛ قال :حب الدنيا وكراهية الموت) (1).

2. الغفلة وعدم الاعتبار :

غرّت الحياة الدنيا وطول الأمل كثيراً من الخلق ، فتركوا سبيل الهدى والرشاد ، ووقعوا في شرك الردى والشيطان ، وظنوا أن يُتركوا سُدىً ، وغفلوا عن العديد من الآيات ، ومنها :

(أ) قوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ ﴾ (2).

(ب) وقوله - جلّ وعلا - : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعِ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (3).

(ج) وقوله أيضاً : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (4).

وبذلك استمروا في غفلتهم التي تؤدي بهم إلى ارتكاب ما حرم الله ، وبالتالي إلى ضياع حسناتهم ، وهم لاهون غافلون لا يعلمون شيئاً مما حولهم ، إلى أن يستيقظوا بعد فوات الأوان ، وحينها لا ينفع الندم .

3. تزيين الشيطان للمعصية وإلقاء الشبهة في النفوس :

إن الشيطان حريصٌ أشد الحرص على إهلاك الإنسان ، لذا يعمل جاهداً ليكون مصيره إلى النار ، وسوء العاقبة والقرار ، وذلك بتزيين المعصية له ، وإلقاء محبتها في قلبه، ودليل ذلك بعض الآيات ، ومنها :

(أ) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (5).

(1) أخرجه (د) في سننه ،ك (الملاحم) ،ب/5 (تداعي الأمم على الإسلام) ،4/1838 ،ح(4297)، دار الحديث /القاهرة ط 1420هـ - 1999م ، (ت) السيد محمد الشهيد ، وصححه الألباني في صحيحه ، 2/1359 ، ح(8183).

(2) القلم / 45 .

(3) المؤمنون / 55 ، 56 .

(4) الحجر / 3 .

(5) فاطر / 6 .

(ب) وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (1).

كما ويسعى جاهداً لصدّه عن فعل الخير ، ويدفعه لفعل الشر ويُحسِّن في نظره الحرام والمنكر.

(ج) قال تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (2).

لذا فالواجب على الإنسان العاقل أن يحاول التعرف على حكمة الله في خلقه ، وليعلم جيداً أن ما يصيبه في هذه الحياة الدنيا من شر أو مرض إنما هو امتحان واختبار من الله تعالى ؛ ليرى أيصبر أم يجزع . كما يجب عليه ألا يغفل عن خالقه ، ويركن إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها الزائلة ، وليحذر من الشيطان فلا ينصاع لأوامره ، بل يتخذهُ عدواً .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (3).

المطلب الثالث : كيفية التخلص من آثار الذنوب

يجب على المسلم أن يحذر من الذنوب والمعاصي ، وأن يفر منها فراره من الأسد ؛ لأنها إن تراكمت على القلب أمانته ، وأبعدته عن خالقه ، وبالتالي عن كل خير ، وعليه ألا يستهين بها مهما كانت صغيرة في نظره ؛ لأن الصغائر تتراكم حتى تصبح كبيرة مهلكة .

وقد ورد عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن وادٍ ، فجاء ذا بعودٍ ، وجاء ذا بعودٍ ، حتى أنضجوا خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه) (4).

كما يجب عليه أن يسعى جاهداً وبكل الوسائل الممكنة للتخلص مما ارتكبه من الذنوب أولاً بأول ؛ كي يلقى ربه - عزّ وجل - وصحيفته خالية من تلك الذنوب ، وكأنه لم يرتكبها.

(1) يوسف / 5 .

(2) النمل / 24 .

(3) فاطر / 6 .

(4) أخرجه (حم) ، 414/5 ، ح(22804) . وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، وشيء من

فقهها وفوائدها ، المكتب الإسلامي/بيروت ط⁴ 1405هـ-1985م ، 673/1 ح(389) بنحوه .

ومن هذه الوسائل التي تزيل الذنوب وتنجي منها :

1. التوبة :

((وهي الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً)) (1).
أي أنها تعنى ترك الذنوب استشعاراً بقبحها ، وخوفاً من الله - عز وجل -
والعمل بما يرضيه - جلّ وعلا- في الظاهر والباطن .

حقيقة التوبة :

إن حقيقة التوبة هي الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب ، وترك ما يكره ،
وهي شعور وجداني بالندم على ما وقع ، وكف عن الذنب ، وعمل صالح يحقق التوبة
بالفعل ، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور ،
فاستحق التائب أن يكون حبيب الله ؛ لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ فهم
خواص الخلق لديه (2).

والتوبة أمر هام في حياة المسلم ؛ لأن الذنوب والمعاصي إذا توالى على
القلب، وطال ليلها عليه اسودّ وابتعد عن خالقه ، فكانت التوبة هي الطهور الذي يعيد
إليه نقاءه ، ويرد إليه ضيائه ، وهي النور الذي يضيئ معالم الطريق ، وهي الهداية
الواقية من اليأس والقنوط ، وهي ينبوع لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة ، وهي
من أعظم الحسنات ، وقد أمر الله - تعالى - المؤمنين بها .

قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (3).

وقد فتح لعباده أبواب الرجاء في عفوهِ ومغفرته فجعل باب التوبة مفتوح لكل
إنسان حتى يغرغر ، وحتى تخرج الشمس من مغربها ، وحذرهم من القنوط من
رحمته ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (4).

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية ، (ت) عماد عامر ، دار
الحديث/القاهرة ، ط¹ 1416هـ - 1996م ، 279/1.

(2) انظر نفس المرجع : 278/1 ، ووجوب التوبة إلى الله ، د.صالح بن غانم السدّان - بدون بيانات نشر -

ط¹ 1408هـ - 1988م ، ص 10-11.

(3) النور / 31 .

(4) الزمر / 53 .

فمن تاب تاب الله عليه ، ولو بلغت ذنوبه عنان السماء .

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (1).

والتائب من ذنوبه محل رعاية الله وأهل لحفظه ورعايته .

قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (2).

وباب التوبة مفتوح على مصراعيه ، يدخل فيه من يشاء ، لا يطرده من رحمة

الله طارداً ، ولا يُؤصد بينه وبين الله باب .

قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (3).

فعلى كل مسلم الرجوع إلى الله تعالى ، والتوبة من ذنوبه توبة نصوحاً ، وعقد

النية على عدم الرجوع إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي والآثام مرة أخرى عسى الله أن

يكفر ذنوبه ، ويحط عنه خطاياها ، ويبدله عنها حسنات ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (4).

وقد ورد عن رسول الله - ﷺ - أنه كان يقول : (رب اغفر لي وتب عليّ إنك

أنت التواب الرحيم) (5).

فإذا كان رسول الله - ﷺ - دائماً يطلب المغفرة من الله ، وهو المغفور له ما

تقدم من ذنبه وما تأخر ، فنحن أولى بذلك منه صلى الله عليه وسلم .

2. الاستغفار :

وهو طلب المغفرة من الله بمحو الذنوب وستر العيوب .

(1) آل عمران / 135 .

(2) آل عمران / 136 .

(3) مريم / 60 ، 61 .

(4) التحريم / 8 .

(5) أخرجه (د) ، ك (الصلاة) ، ب/361 (الاستغفار) ، 654/2 ، ح (1516) . وأخرجه (ج) ، ك (الأدب) ، ب/57

(الاستغفار) ، 321/2 ، ح (3075) . وصححه الألباني في صحيحه : 656/1 ، ح (3486) .

الباب الأول

محبطات العمل الصالح في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : محبطات قلبية

الفصل الثاني : محبطات قولية

الفصل الثالث : محبطات فعلية .

الباب الأول

محبطات العمل الصالح في القرآن الكريم

ثبت عن أهل السنة أنهم عرفوا الإيمان بقولهم : (هو معرفة بالجنان وقول باللسان، وعمل بالأركان) (1).

ومن مفهوم المخالفة (2) فإن الأمور التي تؤدي إلى نقص الإيمان أو زواله ، وبالتالي إلى حبوط عمل الإنسان الصالح هي أيضاً وليدة اعتقاد، أو قول، أو فعل . ولكن من الضروري أن نعلم أن الآثار المترتبة على ارتكاب شيء من تلك الذنوب والمعاصي ليست على نفس الدرجة من الإثم ، بل هي على درجات متفاوتة ، فمنها ما يُخرج صاحبه من دائرة الإسلام بالكلية ، وبذلك يصبح مرتكبها كافراً - والعياذ بالله - ومنها ما هو دون ذلك ، فقد يبقى مرتكبها في دائرة الإسلام ، ولا يخرج منها بتلك الذنوب ، بل ينقص إيمانه، ويحبط عمله أو بعضه ، فلا يصبح له فائدة تُرجى من ورائه ، وما ذلك إلا بسبب الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها .

قال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (3).

وانطلاقاً من ذلك قمت - بعون الله وتوفيقه- بجمع جملة من الأسباب التي تؤدي إلى حبوط العمل الصالح، وصنفتها ، فوجدت أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1. منها ما يتعلق بالقلب وهي المحبطات الاعتقادية .
2. ومنها ما يتعلق باللسان وهي المحبطات القولية .
3. ومنها ما يتعلق بالجوارح والأركان وهي المحبطات الفعلية .

وبذلك كان هذا الباب يحتوي على ثلاثة فصول ، كل فصل عبارة عن قسم من هذه الأقسام الثلاثة .

(1) انظر التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر بن عبد البر ، ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية/المغرب - بدون تاريخ - ، 248/9 . ومجموع الفتاوى 308/7 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 40/1 .

(2) مفهوم المخالفة : هو ما يخالف حكمه المنطوق . الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ط³ 1415هـ - 1995م ، 69/2 .

(3) هود / 15 ، 16 .

الفصل الأول

محبطات قلبية

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : محبطات قلبية تخرج من الإسلام

ويشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

المطلب الثاني : الكفر بالله وأنواعه

المطلب الثالث : الشك في حكم من أحكام الله - عزَّ وجلَّ -

أو خبر من أخباره

المطلب الرابع : كفر النفاق (النفاق الاعتقادي)

المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن

المطلب السادس : إنكار البعث

المطلب السابع : إنكار حكم معلوم من الدين بالضرورة

الفصل الأول

محيطات قلبية

لقد تقرر أن الإيمان هو معرفة بالجنان وقول باللسان ، وعمل بالأركان ، ولكن أصل الإيمان موجود في القلب ، وقد شهد بذلك العديد من النصوص ، ومنها :

(أ) قال - عز وجل - : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (1).

(ب) وقال : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ (2).

(ج) وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (3).

(د) وقال أيضاً : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (4).

(هـ) وقال - ﷺ - : (يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه) (5).

لذا كان إيمان القلب شرطاً في قبول الإيمان ، ولا يصح بدونه ، قال - ﷺ - :

(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) (6).

ولكن قد يعتقد القلب أحياناً اعتقادات باطلة فيصدق بها ، ويطمئن إليها ، فنكون سبباً في حبوط عمله الصالح إما بالكلية ، وبذلك يخرج من الإسلام ، إن مات وهو مصر عليها ، أو دون ذلك فيحبط عمله ، ولكنه يبقى في دائرة الإسلام .

وقد قمت - بعون الله تعالى - في هذا الفصل بجمع جملة من المعتقدات التي

تحبط عمل القلب ، وقسمتها إلى مبحثين :

المبحث الأول : يتضمن المحيطات التي تخرج من الإسلام .

المبحث الثاني : يتضمن المحيطات التي لا تخرج من الإسلام .

(1) الحجرات / 7 .

(2) المجادلة / 22 .

(3) النحل / 106 .

(4) الحجرات / 14 .

(5) أخرجه (د) ، ك (الأدب) ، ب/40 (في الغيبة) ، 2081/4 ، ح(4880) ، وقال صحيح ، وصححه الألباني في

صحيحه : 1322/2 ، ح(7984).

(6) أخرجه (خ) ، ك (الإيمان) ، ب/39 (فضل من استبرأ لدينه) ، 41/1 ، ح(52).

المبحث الأول محبطات قلبية تخرج من الإسلام

وتناولت فيه سبعة معتقدات ، كل منها يحبط العمل الصالح ، ويخرج من الإسلام - إن مات الإنسان وهو مصرّاً عليها- .
علماً بأن كل معتقد يمثل مطلباً .

المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

أستهل هذا المطلب بتعريف الشرك ، ثم أذكر أنواعه ، وأرصد قبضةً من مظاهر خطورته في الدنيا والآخرة .

أولاً : تعريف الشرك

هو جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته (1).

ثانياً : أنواع الشرك

الشرك نوعان :

النوع الأول : شرك أكبر يُخْرِجُ من الملة ، ويخلد صاحبه في النار ، إذا مات ولم يتب منه ، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه في هذا المطلب .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (2).

النوع الثاني : شرك أصغر لا يُخْرِجُ من الملة ، لكنه ينقص التوحيد ، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر (3).

(1) عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها أو ينقضها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك للشيخ الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، دار العاصمة ، السعودية /الرياض، ط¹ 1420هـ-1999م ، ص92 ، وانظر لسان العرب : 100/7 .

(2) يونس / 18 .

(3) عقيدة التوحيد وما يضادها : ص 95 ، 96 .

وهو ما سأتناوله في المبحث الثاني من هذا الفصل تحت عنوان الرياء
بمشيئة الله - تعالى - .

إن من أصول الإيمان أن يؤمن الإنسان إيماناً قاطعاً بأن الله وحده هو الخالق ،
والرازق، والنافع ، والضار ، والمحبي ، والمميت ، وهو المتصرف في جميع شئون
الكون . وقد وردت هذه المعاني في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة :

(أ) قال تعالى موجهاً نبيه ﷺ : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ﴾ (1).

(ب) وقال : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (2).

(ج) وقال أيضاً : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (3).

وهذه الأمور والقضايا من الوضوح والبيان بحيث أقر بها الكفار والمشركون
الأوائل فيما حكاه القرآن الكريم عنهم :

(أ) قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (4).

(ب) وقال أيضاً : ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (5).

فقد كان الكفار والمشركون الأوائل يعتقدون أن الله هو الخالق ، والرازق ،
والعليم ؛ لذا كانوا يصرفون بعض العبادات إليه تعالى .

قال - عز من قائل - : ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ (6).

فقد كانوا مؤمنين ولكن إيمانهم مشوب ، بالشرك ، قال تعالى واصفاً حالهم :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (7).

(1) الأعراف / 188 .

(2) آل عمران / 154 .

(3) الأنفال / 10 .

(4) يونس / 31 .

(5) المؤمنون / 88 ، 89 .

(6) الأنعام / 136 .

(7) يوسف / 106 .

فكانوا بالرغم من تيقنهم من هذه الحقائق وإدراكهم لها إدراكاً تاماً يشركون معه غيره - جلّ وعلا - مما لا ينفعهم ولا يضرهم .

قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (1).

يقول ابن عاشور : ((أفادت هذه الآية الكريمة التوبيخ على شكر ما لا يستحق الشكر ؛ فإن العبادة شكر، فهم عبدوا ما لا يستحق العبادة، ولا بيده نعمة، وهو الأصنام ؛ لأنها لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها، ولا تستطيع رزقهم لعجزها وملك الرزق المقدر على إعطائه)) (2).

ثالثاً : مخاطر الشرك

1. بيّن - سبحانه وتعالى - أن هذا النوع من الشرك هو ظلم عظيم لله قبل أن يكون للنفس؛ بل هو أظلم الظلم ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((ووجه كونه ظلماً عظيماً أنه لا أفضح ولا أبشع ممّن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب ، وسوّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كلّهُ ، وسوّى من لا يستطيع أن ينعم بمقتال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو ، فهل أعظم من هذا الظلم شيء)) (4).

2. كما أخبر - سبحانه وتعالى - أنه لن يغفر للمشركين إلا إذا تابوا ، بالرغم من مغفرة ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده ولم لم يتب .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (5).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب صغائرها وكبائرها ، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك ، إذا اقتضت حكمته مغفرته ، فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله

(1) النحل / 73 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 221/14 .

(3) لقمان / 13 .

(4) تفسير السعدي : 351/2 ، 352 .

(5) النساء / 48 .

إخلاص التوبة لله .

إذن فالشرك ممكن أن يغتفر بالتوبة الصحيحة ، الصادقة .

3. كما أخبر تعالى أنه حرّم الجنة على المشرك ، وبيّن أن مأواه في نار جهنم - والعياذ بالله - . قال تعالى : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (1).

4. وقد ورد في القرآن أن الشرك يحبط جميع الأعمال .

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (2).

وقال أيضاً : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (3).

بينت هذه الآيات الكريمة أن الشرك بالله يحبط العمل الصالح ، ويخرج الإنسان من الإسلام بالكلية ، وتنطبق عليه أحكام الكافر .

يقول السعدي - رحمه الله - في معنى هذه الآيات : ((فإن الشرك بالله محبط للأعمال ، مفسد للأحوال ، ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال)) (4).

وقال المرادوي : ((من أشرك بالله ، أو جحد ربوبيته ، أو وحدانيته ، أو صفة من صفاته كفر بلا نزاع في الجملة)) (5).

5. وطالما أن الشرك يحبط العمل ، ويخرج من الإسلام فإن المشرك حلال الدم والمال ، حيث أمر تعالى بقتل المشركين .

قال تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ (6).

(1) المائدة / 72 .

(2) الأنعام / 88 .

(3) انظر تفسير السعدي : 519/1 ، 542/2 ، وجامع البيان للطبري : 342/7 ، 343 ، وأضواء البيان للشنقيطي : 154/2 والآية في الزمر / 65.

(4) تفسير السعدي : 329/1 .

(5) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد المرادوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت / لبنان، ط¹ 1377هـ - 1957م، 326/10.

(6) التوبة : 5 .

(أ) تعريف الكفر لغة واصطلاحاً :

الكفر لغة :

التغطية والستر (1).

الكفر شرعاً :

((ضد الإيمان)) (2). فالكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن، بل كان مجرد شك وريب ، أو إعراض ، أو حسد ، أو كبر ، أو اتباع لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة ، وإن كان المكذب أعظم كفراً ، وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل (3).

(ب) أنواع الكفر : الكفر نوعان

النوع الأول :

كفر أكبر يخرج من الملة ، وهو خمسة أقسام : كفر جحود وتكذيب ، وكفر استكبار وإياء مع التصديق (4) ، وكفر إعراض (5) ، وكفر شك (6) ، وكفر نفاق (7) .
فأما كفر التكذيب : فهو اعتقاد كذب الرسل ، وهذا القسم قليل في الكفار ، فإن الله أيّد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام الحجة ، وأزال به المعذرة (8).

قال تعالى عن فرعون وقومه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (9) ، وقال لرسوله - ﷺ - : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (10).

(1) انظر لسان العرب : 118/12 ، والمصباح المنير : 196/2 .

(2) مجموع الفتاوى : 335/12 .

(3) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(4) نحو كفر إبليس ، فإنه لم يجحد أمر الله ، ولا قابله بالإنكار ، إنما تلقاه بالإباء والاستكبار .

(5) كأن يعرض بسمعته وقلبه عن الرسول ، لا يصدقه ، ولا يكذبه ، ولا يواليه ، ولا يعاديه ، ولا يصغي

إلى ما جاء به . مدارج السالكين : 305/1 .

(6) سيأتي تعريفه في المطلب الثالث من هذا المبحث ص 52 .

(7) سيأتي تعريفه في المطلب الرابع من هذا المبحث ص 56 .

(8) مدارج السالكين : 305/1 ، وعقيدة التوحيد : ص 100 ، 101 .

(9) النمل / 14 .

(10) الأنعام / 33 .

يقول تعالى مسلماً لنبيه - ﷺ - في تكذيب قومه له ، ومخالفتهم إياه : قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، ولكن الحقيقة أنهم لا يكذبونك فيما أتيتهم به من وحي الله ، فهم لا يتهمونك بالكذب ، بل يعلمون صحة ما جئت به ، ولكنهم يجحدون حقيقته ، فلا يؤمنون به، ويعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم (1).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن رسول الله - ﷺ - مرَّ بأبي جهل وأصحابه، فقالوا : يا محمد والله لا نكذبك وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به فنزلت (2).

يقول ابن القيم - رحمه الله - : ((وكفر الجحود نوعان : كفر مطلق عام ، وكفر مقيد خاص .

فالمطلق : أن يجحد جملة ما أنزله الله ، وإرسال الرسل .
والخاص المقيد : أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام ، أو تحريم محرّم من محرماته أو صفة وصف الله بها نفسه ، أو خبراً أخبر الله به عمداً، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض)) (3).

(ج) مخاطر الكفر الأكبر :

يترتب على الكفر الأكبر عدة أمور ، منها :

1. أنه يخرج من الملة ، ويحبط الأعمال : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (4).
- وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ (5).

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((أي ومن يجحد الإيمان فقد بطل عمله)) (6).
 وقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - أن أعمال الكافرين كالسراب لا حقيقة لها ، وأنها كالرماد في مهب الريح لا تثبت ولا تستقر ، وبالتالي لا تنفع أصحابها .

(1) انظر جامع البيان للطبري : 238/7 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 132/2 .
 (2) انظر أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، ط1 1402هـ - 1982م ص123 .
 (3) مدارج السالكين : 306/1 .
 (4) البقرة / 217 .
 (5) المائدة / 5 .
 (6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 81/6 .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (1).

وقال أيضاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ (2).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((بخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب ، فإنه لا يبقى منه شيء ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل ، فكذلك أعمال الكفار ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ ، ولا على متقال ذرة منه ؛ لأنه مبني على الكفر والتكذيب)) (3).

2. أنه يبيح الدم والمال : قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (4)، وقال أيضاً: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (5).

3. أنه يخلد صاحبه في النار : قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (6).

وبذلك أصبح واضحاً أن الكفر الأكبر يخرج من ملة الإسلام ، ويحبط أعمال صاحبه - إن مات وهو مصرّاً عليه - ، وقد أجمع العلماء على ذلك ، وحكى ذلك الإجماع القاضي عياض - رحمه الله - حين قال : ((وكذلك من أنكر القرآن ، أو حرفاً منه ، أو غير شيئاً منه ، أو زاد فيه ،.... وكذلك من أنكر شيئاً مما نصّ فيه القرآن - بعد علمه - أنه من القرآن الذي في أيدي الناس ومصاحف المسلمين ، ولم يكن جاهلاً به ، ولا قريب عهد بالإسلام ،.... وكذلك من أنكر الجنة والنار ،

(1) النور / 39 .

(2) إبراهيم / 18 .

(3) تفسير السعدي : 892/1 .

(4) محمد / 4 .

(5) التوبة / 12 .

(6) البقرة / 39 .

أو البعث أو الحساب أو القيامة ، فهو كافر بإجماع للنص عليه ، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً...)) (1).

وكذلك قال ابن بطة - رحمه الله - : ((فكل من ترك شيئاً من الفرائض التي فرضها الله - عز وجل - في كتابه ، أو أكدها رسول الله - ﷺ - في سنته على سبيل الجحود لها والتكذيب بها ، فهو كافر بين الكفر ، لا يشك في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر)) (2).

أما النوع الثاني من أنواع الكفر : فهو كفر أصغر لا يخرج من الملة ، ويُسمى الكفر العملي ، وهو الذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفراً ، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر ، مثل كفر النعمة المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ (3) ومثل قتال المسلم المذكور في قوله - ﷺ - : (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر) (4). وفي قوله - ﷺ - : (لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).

فلم يُخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله أخاً لولى القصاص ، فقال : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءِ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ (5). والمراد : أخوة الدين بلا ريب .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (6)، إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (7) (8).

(1) الشافعي بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ، (ت) على محمد البجاوي مكتبة الإيمان - بدون تاريخ - ، 1076/2 ، 1077.

(2) الإبانية عن شريعة الفرقة الناجية ، للحافظ ابن بطة العكبري ، (ت) رضا معطي ، دار الراية/الرياض ، ط 1 1409 هـ : 764/2.

(3) النحل / 112 .

(4) متفق عليه ، أخرجه (خ) ، ك (الإيمان) ، ب/36 (خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) ، 40/1 ، ح (48) ، وأخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 242/2 ، ح (16).

(5) البقرة / 178 .

(6) الحجرات / 9 .

(7) الحجرات / 10 .

(8) شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز ، (ت) جماعة من العلماء ، خرَّج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي/بيروت ، ط 8 1404 هـ - 1984 م ، ص 320-321 .

فقد سماهم - سبحانه وتعالى - مؤمنين ، بالرغم من اقتتالهم ، مع بعضهم البعض .

المطلب الثالث : الشك في حكم من أحكام الله - عز وجل - ، أو خبر من أخباره الشك لغة : نقيض اليقين ، وهو التردد بين شيئين (1) .

وكفر الشك هو القسم الثالث من أقسام الكفر الأكبر ، وهو كفر الظن فلا يجزم بصدقه ، ولا يكذبه ، بل يشك في أمره (2) .

قال تعالى موضعاً معنى كفر الشك ، أو الظن : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (3) .

يحكى تعالى في هذه الآيات الكريمة قصة رجل أعطاه الله ما يشتهي من الأموال والثمرات ، فدخل بستانه يوماً وهو ظالم لنفسه بكفره بالبعث ، وشكه في قيام الساعة ، وإنكاره المعاد إلى الله تعالى ، فاغتر لما رأى فيه من الزروع والثمار والأشجار والأنهار ، فظن أنها لن تفتنى ، ولن تهلك ، ولن تتلف أبداً ؛ وذلك نتيجة كفره ، وتمرده ، وتكبره ، وتجبره ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها ، فشك في رجوعه يوماً إلى الله تعالى ، ثم منى نفسه أمنية ، وافترض فرضاً مبنيين على الظن والشك بأنه لو عاد يوماً إلى الله تعالى سوف يجد أفضل منها ؛ لأنه تعالى لم يعطه هذه الجنة في الدنيا إلا لأنه صاحب فضل عند الله - عز وجل - .

(وكلامه هذا لا يخلو من أمرين : إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال ، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء ، فيكون زيادة كفر إلى كفره ، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة ، فيكون من أجهل الناس ، وأبخسهم حظاً من العقل والظاهر أنه يعلم الحقيقة ، ولكنه قال هذا الكلام ، على وجه التهكم والاستهزاء ، بدليل قوله تعالى :

(1) انظر لسان العرب : 174/7 .

(2) عقيدة التوحيد : ص 101 ، ومدارج السالكين : 306/1 .

(3) الكهف / 35-38 .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ . فإثبات أن وصفه بالظلم في حال دخوله ، بسبب الذي جرى منه من القول ، ، يدل على تمرده وعناده (1).

وأنا أؤيد اختيار السعدي -رحمه الله- بأنه يعلم الحقيقة ، ولكنه قال ما قال بدافع الغرور ، والتكبر ، والتجبر ، والكفر ، والعناد ، والتهكم والسخرية ، بدليل قول صاحبه له بعد ذلك : (أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ) الآية .

فصاحبه يعلم تمام العلم أنه كافر معاند ، وإلا لو كان سبب قوله الجهل لحاول أن يوضح له الحقيقة ، ويصحح له مفاهيمه وعقيدته ، ولكنه وصمه مباشرة بالكفر ، مما يدل على كفره .

ويوضح ابن القيم - رحمه الله - معنى كفر الشك في معرض كلامه عن أنواع الكفر الأكبر فيقول : ((أما كفر الشك : فإنه لا يجزم بصدقه -أي رسول الله ﷺ- ولا يكذبه ، بل يشك في أمره ، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ - جملة ، فلا يسمعا ولا يلتفت إليها ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك)) (2).

كفر الشك يخرج من الإسلام ، ويحبط للأعمال :

وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - على أن كفر الشك مخرج من الملة ، محبط للأعمال ، في معرض ذكرهم أمثلة عليه ، منها :

1. ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - من نواقض الإسلام : ((الثالث : من لم يكفر المشركين ، أو شك في كفرهم ، أو صحح مذهبهم ، كفر إجماعاً)) (3).
2. وقال ابن سحمان - رحمه الله - : ((وقد دل القرآن على أن الشك في أصول الدين كفر والشك : هو التردد بين شيئين ، كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ - ولا كذبه ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه ، ونحو ذلك كالذي لا يعتقد وجوب الصلاة ولا عدم وجوبها أو لا يعتقد تحريم الزنا ولا عدم تحريمه ، وهذا كفر بإجماع العلماء)) (4).

(1) تفسير السعدي : 1010/1 بتصرف يسير .

(2) مدارج السالكين : 305/1 .

(3) مجموعة التوحيد (عشر رسائل) لابن تيمية ، وابن عبد الوهاب ، وأئمة الدعوة ، دار الإفتاء/السعودية ، ص 213 .

(4) الضياء الثارق في رد شبهات الماذق المارق ، لسليمان بن سحمان ، (ت) عبد السلام بن برجس عبد الكريم ، دار

عليان ودار العاصمة ، ط 4 ، 1412 هـ ، ص 374 .

ومعلوم أن الكفر يحبط العمل ، كما مرَّ في المطلب الثاني - كفر الجحود والتكذيب - (1) لذا يجب على المسلم أن يؤمن إيماناً يقينياً بكل أمر أو حكم قضى به الله - سبحانه وتعالى - ؛ لأن ذلك الإيمان واليقين يعتبر شرطاً من شروط كلمه التوحيد - لا إله إلا الله - ، حيث إن من شروطها : اليقين المنافي للشك .

يقول ابن القيم - رحمه الله - موضعاً منزلة اليقين وأهميته ، ومعارضته لكل شك وريب : ((فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصديقية ، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره ، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلاً نوراً وإشراقاً ، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط)) (2).

وقد بيّن الله - عزّ وجل - أن من صفات المؤمنين : الإيمان بالله ، وعدم الشك والريبة في أمور الدين ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ (3).

وفي المقابل بيّن - سبحانه تعالى - أن الريبة والشك من صفات المنافقين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (4).

يقول الشوكاني - رحمه الله - : ((والمعنى : فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين ، بل مرتابين ، حائرين ، لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق)) (5).

ويقول ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((وفي هذه الآية تصريح للمنافقين بأنهم كافرون)) (6).

أي أن الله تعالى نفى صفة الإيمان عن هؤلاء الشاكين المرتابين ، وبذلك يتأكد كفرهم وحبوط أعمالهم - والعياذ بالله - .

(1) ص 49 .

(2) انظر مدارج السالكين : 374/2 .

(3) الحجرات / 15 .

(4) التوبة / 45 .

(5) فتح القدير للشوكاني : 366/2 .

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور : 214/10 .

وقد أكد رسول الله - ﷺ - أن اليقين وعدم الشك ليس لها جزاء إلا الجنة ، فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال - ﷺ - : (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بها عبد غير شك فيهما إلا دخل الجنة) (1) .
 وقال أيضاً لأبي هريرة - رضي الله عنه - : (اذهب بنعليّ (2) هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط (3) يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة) (4) .
 ومن مفهوم المخالفة (5) : أن من شك في كلمة التوحيد - لا إله إلا الله - ، أو شك في أي أمر من أمور الدين ، فإنه لن يدخل الجنة ، والنار مثواه - والعياذ بالله - .

وفي نهاية هذا المطلب لا يسعني إلا أن أذكر فائدة ذكرها شيخ الإسلام - ابن تيمية - رحمه الله - في التفريق بين الشك والريبة ، فإنهما وإن اتحدتا في المعنى الإجمالي ، إلا أنه ذكر فرقاً دقيقاً بينهما ، فقال : ((والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب ، بخلاف الشك ، فإنه لا يكون إلا في العلم ، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً)) (6) .

المطلب الرابع : كفر النفاق (النفاق الاعتقادي)

أشعر في هذا المطلب بتعريف النفاق ، ثم أبين أنواعه ، وأرصد العديد من مخاطره .

أولاً : تعريف النفاق

(أ) النفاق في اللغة :

يطلق النفاق في اللغة على عدة معاني متشابهة :

- قيل إنه نسبة إلى النفق ، وهو السرب في الأرض ؛ لأن المنافق يستتر كفره ويغيبه .

(1) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 179/1 ، ح (44) .

(2) علة إعطائه النعلين ؛ لتكون علامة ظاهرة معلومة عندهم ، يعرفون بها أنه لقي النبي ﷺ ويكون أوقع في نفوسهم لما يخبرهم به عنه ﷺ .

(3) الحائط : هو حائط للأصوار ، وهو عبارة عن بستان ، وسمى بذلك ؛ لأنه حائط لا سقف له . صحيح مسلم بشرح النووي ، (ت) رضوان جامع رضوان ، مؤسسة المختار/القاهرة ط¹ 2001م ، 276/1 ، 277 .

(4) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 188/1 ، ح (52) .

(5) سبق تعريف مفهوم المخالفة ص 39 .

(6) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ، المكتب الإسلامي/بيروت ط⁴ 1413هـ - 1993م ، ص 267 .

- وقيل : نسبة إلى نفاق اليربوع ، له جحر يقال له : النافقاء ، وآخر يقال له : القاصعاء، فإذا طلب من القاصعاء قصع ، فخرج من النافقاء ، كذلك المنافق يخرج من الملة والإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه (1).

(ب) النفاق في الاصطلاح الشرعي :

هو إظهار القول باللسان ، أو الفعل ، بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد (2).

ثانياً : أنواع النفاق : النفاق نوعان :

النوع الأول :

النفاق الاعتقادي : وهو النفاق الأكبر : وهو إظهار الإيمان ، وإبطان الكفر (3).

أي أن يظهر المنافق الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كله ، أو بعضه ، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله - ﷺ - ، ونزل القرآن الكريم بدم أهله وتكفيرهم (4).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((النفاق أنواع منه : الاعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب)) (5).

وبالتالي يتضح الفرق بين النفاق الاعتقادي ، والنفاق بمعناه الاصطلاحي ، فالنفاق الاصطلاحي يطلق على النفاق الاعتقادي ، كما يطلق على النفاق العملي ، وهو صفة للمنافقين ، كما قد يكون أيضاً صفة للمؤمنين ، فهم قد يعملون بعض أعمال المنافقين التي لا تُخرجُ من الملة ، أما النفاق الاعتقادي فلا يوصف به المسلمون أبداً .

(1) انظر لسان العرب : 358/10 ، 359 ، ومفردات غريب القرآن ص502 ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، (ت) ظاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية/عيسى البابلي الحلبي ، ط¹ 1383هـ ، 98/5 ، والقاموس المحيط : 296/3 .

(2) عارضه الأحوذى لشرح صحيح الترمذي ، بشرح الإمام ابن العربي المالكي ، دار الكتاب العربي ، - بدون طبعة - ، 97/10 ، 98 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 47/1 ، وانظر مدارج السالكين : 313/1 .

(4) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي (ت) أبو معاذ ، دار ابن الجوزي ، ط¹ 1415هـ - 1995م ، 538/2 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 47/1 .

ثالثاً : مخاطر النفاق

1. النفاق الاعترادي مخرج من الإسلام محبط لجميع الأعمال ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها :

(أ) بيّن تعالى أن المنافقين أقرب للكفر منهم للإيمان ، ومعلوم أن الكفر يخرج من الملة ويحبط العمل.

قال تعالى : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (1).

يقول القرطبي - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((أي بيّنوا حالهم وهتكوا أسرارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون ؛ فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال ، وإن كانوا كافرين على التحقيق)) (2).

(ب) وبالرغم من أن الآية الكريمة السابقة تعني حبوط جميع أعمال المنافقين، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - نصّ وأكدّ على حبوط بعض الأعمال التي يقومون بها مراعاةً وخداعاً؛ كالصلاة والإنفاق.

قال تعالى : ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (3).

فهذه الآية الكريمة صريحة الدلالة على كفر المنافقين ، وبالتالي كان العقاب العادل أن لا يقبل الله - سبحانه وتعالى - منهم الإنفاق ؛ لأنهم ينفقون وهم كارهون لذلك الإنفاق معتبرين ذلك ضياعاً للأموال ، وكذلك لا تقبل صلاتهم ؛ لأنهم يصلون خوفاً من المسلمين فقط ، أما إذا خلوا إلى أنفسهم فإنهم لا يصلون ، وبذلك يكون قد حبط أجر الصلاة والإنفاق .

(1) آل عمران / 167 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 277/4 .

(3) التوبة / 53 ، 54 .

(ج) ومما يدل صراحة على حبوط أعمالهم قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (1).

(د) وقال أيضاً: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ (2) فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ (3) كَالَّذِي خَاضُوا أَوْلَيْكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (4).

يقول ابن عاشور : ((هذا الخطاب للمنافقين لقصد التقرير والتهديد بالموعظة ، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال بأن آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة ، وأن يحق عليهم الخسران ومعنى حبطها في الدنيا : استئصالها وإتلافها بطول مختلف العذاب بأولئك الأمم ، وفي الآخرة : بعدم تعويضها لهم)) (5).

2. النفاق الاعتقادي لا يصدر من مؤمن : فقد بين - سبحانه وتعالى - أن المنافقين لا يرضون بحكم الله ورسوله .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (6).

عندئذ أقسم الحق - تبارك وتعالى - بنفسه المقدسة أنهم غير مؤمنين ، وبين أن شرط الإيمان منهم الرضا بحكم الله ورسوله .

قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (7).

(1) المائدة / 53 .

(2) أي استمتعوا بما قدر لهم من حظوظ الدنيا ، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه ، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف ، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم .

(3) أي وخضتم بالباطل والزور ، وجادلتهم بالباطل لقد حضوا به الحق . تفسير السعدي : 709/1 ، 710 .

(4) التوبة / 68 ، 69 .

(5) التحرير والتنوير لابن عاشور : 256/10 ، 259 بتصرف يسير .

(6) النساء / 61 .

(7) النساء / 65 .

الحكم على المنافق بالكفر :

3. النفاق الأكبر يوجب الخلود في النار .

قال تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (1).

وقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (2).

وقال أيضاً : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدرجات من العذاب ، وأشرُّ الحالات من العقاب ، فهم تحت سائر الكفار ؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله ، وزادوا عليهم بالمكر والخديعة ، والتمكين من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب)) (4).

وما ذلك العذاب الأليم للمنافقين ، وخلودهم في الدرك الأسفل من النار ، إضافة إلى خروجهم من الإسلام وبطلان أعمالهم ؛ إلا لأن عداوتهم للمسلمين أشدُّ خطراً من الكفار ؛ لأن الكفار أمرهم واضح مكشوف لكل مسلم ، أما هؤلاء المنافقون فينتسبون إلى المسلمين ظاهراً ، ويخالطونهم ، ويطلعون على عوراتهم ، ثم يرشدون العدو إليها ، يتربصون بالمسلمين الدوائر ، دون علم منهم ، فألسنتهم أسنة المسالمين ، وقلوبهم قلوب المحاربيين ، قال تعالى : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ (5).

وقد وصف ابن القيم - رحمه الله - مدى خطورة المنافقين على الإسلام والمسلمين ، فأحسن وأجزل - جزاءه الله خيراً - ، وكان مما قاله : ((فله كم من معقل للإسلام قد هدموه ، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه ، وكم من علم له قد

(1) النساء / 138 .

(2) التوبة / 68 .

(3) النساء / 145 .

(4) تفسير السعدي : 396/2 .

(5) المنافقون / 4 .

طمسوه ،..... فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليّة ، ولا يزال يطرق من شبههم سرّية بعد سرية ، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (1).

4. النفاق الأكبر في الغالب لا يتوب صاحبه ، ولو تاب فقد اختلف في قبول توبته عند الحاكم ، قال تعالى واصفاً حالهم : ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (2).

يقول السيوطي - رحمه الله - : ((لا يرجعون إلى هدى ولا إلى خير)) (3).
وقال تعالى فيهم : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (4).

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : ((وقد اختلف العلماء في قبول توبتهم في الظاهر ؛ لكون ذلك لا يُعلم ؛ إذ هم دائماً يظهرهم الإسلام)) (5).

النوع الثاني من أنواع النفاق :

النفاق العملي :

وهو عمل شيء من أعمال المنافقين ، مع بقاء الإيمان في القلب ، وهذا لا يخرج من الملة، ولكنه وسيلة إلى ذلك ، وصاحبه يكون فيه إيمان ونفاق ، وإذا كثر صار بسببه منافقاً خالصاً.

والدليل عليه : قوله - ﷺ - : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) (6).....

ومنه التكاثر عن الصلاة مع الجماعة في المسجد ، فإنه من صفات المنافقين .
فالنفاق شر خطير جداً ، وكان الصحابة يتخوفون من الوقوع فيه .

(1) انظر مدارج السالكين : 313/1 والآية في : البقرة / 12 .

(2) البقرة / 18 .

(3) الدر المنثور للسيوطي : 72/1 .

(4) التوبة / 126 .

(5) مجموع الفتاوى : 434/28 ، 435 .

(6) أخرجه (خ) ، (ك) الإيمان ، ب/24 (علامة المنافق) ، 35/1 ، ح (34) ، وأخرجه (م) ، (ك) الإيمان ، 236/2 ،

ح(106).

قال ابن أبي مليكة : ((أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله - ﷺ - كلهم يخاف النفاق على نفسه)) (1).

فإذا كان أصحاب رسول الله - ﷺ - رضوان الله عليهم أجمعين - يخافون النفاق على أنفسهم وهم خير القرون ، وجميعهم عدول ، فنحن من باب أولى أحق بذلك منهم . كما أن له صور عديدة ، ذكرها سعيد حوى ، فقال : ((والنفاق العملي أن تكون له أخلاق المنافقين في موالاته الكافرين ، أو في مودتهم ، أو في ربط المصير معهم ، أو إخلاف الوعد ، أو في اعتياد الكذب ، أو في الخيانة والغدر)) (2).

المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن

إن الإيمان بالغيب يُعتبر من أهم صفات المؤمنين ، وبه يتميز المسلم عن الكافر ؛ لأن من مستلزمات الإيمان أن يؤمن الإنسان بكل ما أخبر به الله - عزّ وجل - أو أخبر به رسوله - ﷺ - ، سواء شاهده أو لم يشاهده ، وسواء عقله أو لم يعقله . ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالملائكة - عليهم السلام - ، والإيمان بالجن أيضاً ، وذلك ركن من أركان الإيمان لا يتحقق إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم ، ومنكرهم جاحد كما سيأتي .

أولاً : إنكار وجود الملائكة - عليهم السلام -

إن الإيمان بالملائكة هو الركن الثالث من أركان الإيمان ، لذا يجب الاعتقاد الجازم بأن الله ملائكة مخلوقين من نور ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم بالقيام بها ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ولا يتناكحون ، إنما هم عباد مكرمون ، مقربون من ربهم (3) . ووجودهم ثابت بالكتاب والسنة .

1. بين الله - سبحانه وتعالى - أن الإيمان بهم من البر ، بل هو من أصول الإيمان ، فقال - عزّ وجل - : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

(1) عقيدة التوحيد : ص 108 .

(2) المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى دار الأرقم/عمان ، ط 1403هـ - 1983م ، ص 186 .

(3) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم / بيروت ، ط 2 1399هـ -

1979م ، ص 279 .

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿١﴾

2. كما وضّح - سبحانه وتعالى - أن الإيمان بالملائكة هو من صفات الأنبياء وأتباعهم المخلصين، قال تعالى: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾ (2).

3. وكذا بيّن - جلّ وعلا - أن الإيمان بهم هو من صفات المتقين ، قال تعالى : ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (3). والإيمان بالملائكة هو جزء من الغيب.

4. كما ورد ذكرهم في الأحاديث النبوية الشريفة ، فقد ورد في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، عندما سأل جبريل - عليه السلام - رسول الله - ﷺ - عن الإيمان، فقال : (أن تؤمن بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) (4).

وبذلك يكون وجود الملائكة ثابتاً بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه شك ، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بنص القرآن العظيم :

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (5).

يقول الألوسي - رحمه الله - : ((أي ومن يكفر بأي شيء من ذلك فإن الحكم المتعلق بالأمور المتعاطفة بالواو قد يرجع إلى كل واحد ، وقد يرجع إلى المجموع، والتعويل على القرائن ، وههنا قد دلت القرينة على الأول ؛ فالإيمان بالكل واجب ، والكل ينتفي بانتفاء البعض)) (6).

(1) البقرة / 177 .

(2) البقرة / 285 .

(3) البقرة / 1-3 .

(4) أخرجه (خ) ، ك(الإيمان) ، ب/37(سؤال جبريل النبي - ﷺ - عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة) ، 40/1 ، ح(50).

(5) النساء / 136 .

(6) روح المعاني للألوسي : 170/5 .

وأيضاً فقد نص العلماء على كفر جاحد وجودهم -عليهم السلام- .
يقول البهوتي : ((إن من جحد الملائكة ، أو أحداً ممن ثبت أنه ملك ، كفر لتكذيبه
القرآن)) (1).

حيث إن وجودهم ثابت بالقرآن العظيم ، لذا فإن منكرهم يعتبر مكذباً للقرآن ،
ومن كذب بالقرآن فإنه يعتبر كافراً .

وبذلك يتقرر حبوط عمل منكر وجود الملائكة ؛ لأن الكفر من دواعي إحباط
العمل .

بعض صور الكفر بالملائكة عند أهل الجاهلية :

اختلف المنكرون الجاحدون في كيفية إنكارهم وجود الملائكة -عليهم السلام- ،
وإن اتفقوا جميعاً في الحكم عليهم بالكفر :

1. فمنهم من كان يؤمن بوجودهم كقريش وبعض مشركي العرب ، كما حكى الله -
تعالى- عنهم ذلك في كتابه المجيد بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ (2) ، وقوله
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ (3) ، ولكنهم
كانوا ينكرون بعضهم ، كما قال أبو جهل لقريش حين أنزل الله - تعالى- في شأن
جهنم : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (4) : (أسمع ابن أبي كبشة (5) يخبركم أن خزنة النار
تسعة عشر ، وأنتم الدُّهُم (6) ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة
جهنم) (7) .

فأبو جهل لم ينكر وجودهم ، بدليل أنه أقرَّ عددهم ، ولكنه أنكر مدى
قوتهم ، وبأنهم لا يُغلبون من قبل البشر ، وبذلك يكون مكذباً لما أخبر به رسول الله
ﷺ - عنهم .

(1) كشاف القناع عن متن الإقناع لمنصور البهوتي مطبعة الحكومة/مكة ، ط 1394هـ ، 168/6 .

(2) الأنعام / 8 .

(3) الفرقان / 21 .

(4) المدثر / 30 .

(5) يعني بذلك النبي ﷺ ، وأبو كبشة هو زوج حليلة السعدية مرضعته -ﷺ- .

(6) الدُّهُم : العدد الكثير ، جامع البيان للطبري : 199/29 .

(7) أخرجه الطبري في تفسيره : 199/29 .

2. ومنهم من لم يُنزل الملائكة منازلهم التي تنبغي لهم ، وقد انقسموا إلى قسمين ، معتقداتهم في الملائكة على طرفي نقيض :

(أ) منهم من غالى فيهم حتى عبدهم من دون الله .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (1).

(ب) ومنهم من جفاهم ، ووصفهم بما لا يليق ، حين زعموا أن الملائكة إناث .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ (2).

وقال - جل وعلا- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ (3).

3. ومن صور الكفر أيضاً : عداء اليهود لجبريل - عليه السلام - ، كما قال تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (4).

قال الطبري - رحمه الله- : ((أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت

جواباً لليهود بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم)) (5).

وبيّن موقف اليهود من جبريل عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - الصحابي

الجليل حين سمع بمقدم النبي - ﷺ - إلى المدينة ، فأتاه وقال له : إني سائلك عن

ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما

ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال - ﷺ - : (أخبرني بهن جبريل آنفاً) قال :

جبريل ، قال : نعم ، قال ذلك عدو اليهود من الملائكة (6) (7) الحديث .

(1) سبأ / 40 ، 41 .

(2) الزخرف / 19 .

(3) النجم / 27 .

(4) البقرة / 98 .

(5) جامع البيان للطبري : 616/1 .

(6) أخرجه (خ) ، ك (التفسير) ، ب/6 (من كان عدواً لجبريل) 1353/3 ، ح(4480) ، وتكملة الحديث :

(أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد

الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت) الحديث .

(7) المسائل التي خالف فيها رسول الله - ﷺ - أهل الجاهلية لشيوخ الإسلام الإمام محمد عبد الوهاب ،

(ت) يوسف بن محمد السعيد ، دار المؤيد ، ط¹ 1416هـ - 1996م ، 750/2-752 بتصرف .

إذن فصور الضلال في مسألة الإيمان بالملائكة مختلفة الأشكال على مر الأزمان - والله المستعان - .

ثانياً : إنكار وجود الجن :

ومن مستلزمات الإيمان بالغيب أيضاً : الإيمان بوجود الجن في هذا العالم ، وأنهم خلق من خلق الله غير الملائكة ، وأنهم أحياء عقلاء ، ومأمورون ومنهيون ، وأنهم خلقوا قبل الإنس ، وأن لهم قدرات كبيرة ، ومهارات صناعية كالقدرة على التشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية، وأن منهم المسلمون ومنهم الكافرون (1).

وأن بينهم وبين الإنسان قِدرًا مشتركاً من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك ، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير أو الشر .

وهم يخالفون الإنسان في أمور ؛ أهمها : أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان ، وسموا جنًا ؛ لاجتنائهم : أي استتارهم عن العيون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (2).

وإن وجودهم ثابت بالقرآن والسنة ، فقد ذكرهم الله - تعالى - في القرآن الكريم في مواضع متعددة ، بل لقد انفردت سورة كاملة في الحديث عنهم ، وسميت باسمهم .

1. قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (3).

2. وقال أيضاً : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ ⁽⁴⁾ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⁽⁵⁾ ﴾ (6).

(1) انظر تفصيل ذلك في العقيدة الإسلامية وأسسها ص 283-288.

(2) عالم الجن والشياطين د.عمر سليمان الأشقر ، المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة/القاهرة - بدون تاريخ - ، ص 7 ، والآية في الأعراف / 27.

(3) الجن / 1 ، 2 .

(4) أي يعبدوهم .

(5) أي : طغياناً وتكبراً لما رأوا الإنس يعبدونهم ، تفسير السعدي : 937/2 .

(6) الجن / 6 .

3. وكذا فإن وجودهم ثابت بالسنة النبوية المطهرة ، فقد روى عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول - ﷺ - : (لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام ، فإنها زاد إخوانكم من الجن) (1) ، (2) .

وقد خلق الجن للغاية نفسها التي خلق من أجلها الإنسان ، وهي العبادة .

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (3) .

من خلال ما سبق يتضح أن الإيمان بوجود الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة ، وجاحده ومنكره كافر خارج من الملة ، ويؤكد ذلك قول العلماء :

فهذا القرطبي - رحمه الله - يقول : ((وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن اجترأ على الله ، وافترأ ، والقرآن والسنة ترد عليهم)) (4) .

وأما الألووسي - رحمه الله - فيقول : ((ونفى الجن كفر صريح كما لا يخفى)) (5) .

ومعلوم أن الكفر يحبط الأعمال ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ (6) إذن فعل المنكر والجاحد لوجود الجن حابط - والعياذ بالله تعالى - .

المطلب السادس : إنكار البعث

أبدأ أولاً بذكر أهمية الإيمان باليوم الآخر ، وأدلة ثبوته ، ثم أعرج على طائفة من مخاطره ، مفصلة في أسباب إحباط إنكاره للأعمال .

(1) أخرجه (خ) ، ك (مناقب الأنصار) ، ب/32 (ذكر الجن ...) ، 1178/3 ، ح(3860) ، وأخرجه (ت) ،

ك (الطهارة) ، ب/14 (ما جاء في كراهية ما يستجى به) ، 107/1 ، ح(18) واللفظ له .

(2) ظاهر هذه الرواية أن كلاً من الروث والعظم هي زاد إخواننا من الجن ، وهذه هي العلة في النهي عن

تدنيها بالاستنجاء بها ، والصحيح أن العظم وحده هو زاد إخواننا منهم ، وأما الروث فهو زاد دوابهم ؛

لأن العلة فيه ليست تنجيه ، فهو رجز أصلاً ودليل ذلك رواية مسلم من حديث ابن مسعود - رضي الله

عنه - مرفوعاً : (..... وسألوه الزاد ، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما

يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم) . أخرجه (م) ، ك (الصلاة) ، 125/4 ، ح (150) .

(3) الذاريات / 56 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 9/19 .

(5) روح المعاني للألووسي : 102/29 .

(6) المائدة / 5 .

أولاً : أهمية الإيمان باليوم الآخر وأدلته

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان التي يجب الإيمان بها ، وقد ورد ذلك في حديث جبريل - عليه السلام - حين سأل الرسول - ﷺ - عن الإيمان ، فأجابته - ﷺ - قائلاً : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) (1) .

وقد حفل القرآن الكريم بذكر هذا اليوم العظيم ، واهتم بتقريره في مواضع عديدة ، وأكد وقوعه بأساليب شتى ، وربط الإيمان به بالإيمان بالله - عز وجل - ، وسماه بأسماء متعددة تدل على تحقق وقوعه .

ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بالبعث والنشور : وهو إحياء الله - تعالى - الخلق بعد موتهم (2) .

وقد دل على تحقق وقوع البعث الكتاب والسنة ؛ ومن ذلك :

1. قال تعالى : ﴿ تَمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (3) .
2. وجاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً أن الله تعالى يقول : (كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدني كما بدأتي ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد) (4) .

لذا يعتبر الإيمان بالبعث من صميم الركن الخامس من أركان الإيمان ، وهو أساس صلاح القلوب .

يقول السعدي - رحمه الله - في بيان أهمية الإيمان بالبعث : ((إن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان ، وهو أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل)) (5) .
وليس أدل على أهمية البعث من أن الله - سبحانه وتعالى - قد أقسم على وقوعه في مواطن كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

(1) سبق تخريجه في المطلب السابق ص 62 .

(2) انظر كتاب الإيمان د. محمد نعيم ياسين ، دار التوزيع والنشر الإسلامية - بدون تاريخ - ، ص 64-65 .

(3) المؤمنون / 15 ، 16 .

(4) أخرجه (خ) ، ك (التفسير) ، ب/1 (قوله : "قل هو الله أحد") ، 1603/3 ، ح (4974) .

(5) تفسير السعدي : 34/1 .

2. أنه يعتبر تعطيلاً لأسماء الله وصفاته ، وإنكاراً لعلم الله تعالى ، وقدرته وحكمته ، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (1).

فمن اعتقد أن الله - سبحانه وتعالى - قد خلق الخلق سدىً وباطلاً ، لا يأمرهم ، ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ، ولا يعاقبهم ، فإنه يكون قد عطل أسماء الله - تبارك وتعالى - ، وصفاته التي تتضمن اتصافه بالخلق والتجبير ، والحساب ، والجزاء ،

3. أنه يُعتبر تكديباً لظاهر الآيات الصريحة في إثبات البعث ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (2).

والكفر باليوم الآخر وما فيه من أحداث موجود على مر الأزمان :

(أ) فقد كذب به أقوام سابقون ، قال تعالى على لسانهم : ﴿ وَلَئِنِ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ . أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ . هِيَئَاتِ هِيَئَاتٍ لِمَا تُوْعَدُونَ . إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (3).

(ب) وكذلك أنكرته قريش ، قال تعالى في شأنهم : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (4).

وقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ (5).

(ج) وقال أيضاً : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴾ (6).

فهذه الآيات وغيرها الكثير توضح أن الأميين كانوا ينكرون البعث إنكاراً تاماً .

وأما أهل الكتاب فإنهم ينقسمون في ذلك إلى قسمين :

(1) المؤمنون / 115-116 .

(2) النساء / 56 .

(3) المؤمنون / 34-37 .

(4) هود / 7 .

(5) النحل / 38 .

(6) الجاثية / 32 .

المقصود بحكم معلوم من الدين بالضرورة (1):

هو ما كان ظاهراً متواتراً من أحكام الدين ، معلوماً عند الخاص والعام ، مما أجمع عليه العلماء إجماعاً قطعياً ، مثل وجوب أحد مباني الإسلام كالصلاة والزكاة ونحوها ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة ، مثل الربا وغيرها (2) .
إن الإيمان قائم على أساس تصديق حكم الله - تعالى - ، وحكم رسوله - ﷺ - ،
وأهم هذه الأحكام وأكدها الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : ((إن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين ، والجاحد لها كافر بالاتفاق)) (3) .

ثانياً : أنواع الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة

(أ) علم العامة : ((وهو الذي لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله ، مثل : الصلوات الخمس، وأن الله على الناس صومَ شهر رمضان ، وحجَّ البيت إذا استطاعوه وزكاةً في أموالهم ، وأنه حرّم عليهم الزنا ، والقتل ، والسرقه ، والخمر ، وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ، ولا التأويل ، ولا يجوز فيه التنازع)) (4) .
(ب) وعلم الخاصة : كبيان أن القاتل عمداً لا يرث ، وأن اللجدة السدس ، وما أشبه ذلك من الأحكام. ولا يستوي النوعان في الحكم عليهما ، فالقسم الأول يكفر جاحده ؛ لمخالفته التواتر ، لا لمخالفته الإجماع (5) ، والقسم الثاني لا يكفر جاحده؛ بل يعذر فيه ؛ لعدم استفاضة علمه في العامة (6) .

(1) المراد بالضرورة هنا : ما لا يقع فيه شك أو شبهة ، مما هو معلوم ظاهر عند الجميع. انظر : أصول الدين لعبد القاهر البغدادي ، دار الكتب العلمية / بيروت ، ط 1 1346هـ ، ص 8 ، والتعريفات للجرجاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 1403هـ - 1983م ، ص 138 .
(2) انظر فتاوي محمد رشيد رضا ، (ت) صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد / بيروت ، ط 1390هـ - 2539/6 .

(3) مجموع الفتاوى : 246/12 .
(4) الرسالة للشافعي ، (ت) أحمد محمد شاكر ، مكتبة دار التراث/القاهرة ، ط 2 1399هـ - 1979م : 357/1 - 359 بتصرف يسير .

(5) أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ، دار الكتب العلمية/بيروت ، - بدون تاريخ - : 84/4 .

(6) صحيح مسلم بشرح النووي : 246/1 .

ثالثاً : دلائل كفر الجاحد للمعلوم من الدين بالضرورة :

مما يدل على كفر الجاحد ، المنكر لبعض أصول الدين :

1. توعدده تعالى لمن أنكر ما أقر به وعيداً شديداً ، مع الحكم عليه بالخلود في النار - والعياذ بالله-، قال تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿1﴾ .

فهؤلاء المنكرون يُعتبرون مرتدين ، فهم دخلوا الإسلام ، وأقروا بما فيه من أصول وقواعد، ثم بعد ذلك أنكروا بعض هذه الأصول والكليات ، أو أنهم دخلوا الإسلام فأقروا ببعض أصوله دون بعض ، فاستحقوا بذلك العذاب الشديد ، والخلود في النار - والعياذ بالله- .

2. وقال أيضاً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (2).

يقول السعدي - رحمه الله- : ((يعني أنه يبعد كل البعد أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان ، ودخلوا فيه ، وشهدوا أن الرسول حق ، ثم ارتدوا على أعقابهم ، ناكسين ناكثين ؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه)) (3).

وقد نصَّ العلماء على كفر المنكر والجاحد ، ومنهم محمد بن إبراهيم آل الشيخ فهو يقول : ((إن من الأصول المنقررة المتفق عليها بين أهل العلم أن من جحد أصلاً من أصول الدين ، أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول - ﷺ - قطعياً فإنه كافر الكفر التام الناقل عن الملة)) (4).

(1) آل عمران / 86-90 .

(2) النساء / 137 .

(3) تفسير السعدي : 240/1 .

(4) تحكيم القوانين لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ ، ط 1380هـ ، مطابع دار الثقافة/مكة المكرمة ، ص 14

وانظر فتاوى اللجنة الدائمة ، دار عالم الكتب ، ط 1412هـ - 1991م ، 50/1 ، 17/2 .

فإذا تحقق أن من أنكر حكماً معلوماً من الدين بالضرورة كافر ، فإنه من البدهي أن يحبط عمله؛ لأن الكفر سبب في إحباط العمل .
يقول ابن حزم : ((ولا خلاف بين إثنين من الأمة كلها أن من كفر بالصلاة ، أو بالزكاة ، أو بالحج ، أو بالعمرة ، أو بما أجمع المسلمون عليه ، على أن الله تعالى بينه على لسان رسوله -ﷺ- ، ونص عليه من أعمال الشريعة ، فإنه كافر ، حابط العمل)) (1).

رابعاً : أسباب كون هذا الإنكار مخرجاً من الإسلام محبطاً للأعمال

1. إن هذا الإنكار افتراءً على الله - سبحانه وتعالى - ، ولا جريمة أعظم ولا أكبر من الكذب على الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (2).

2. يعتبر تكذيباً بآيات الله - عز وجل - ، وقد أمرنا تعالى بتصديق آياته ، والإقرار بها ، كما حكم تعالى بالكفر على من جدها وأنكرها ، وتوعدده بالعذاب المهين ، ودخول النار ، وعدم دخول الجنة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ (3) الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (4).

وقال أيضاً : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (5).

3. يعتبر تكذيباً ظاهراً للأحاديث الصحيحة عن رسول الله -ﷺ- والأحاديث في كفر منكر أحكام الدين المعلومة بالضرورة كثيرة ، منها حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - حيث قال : مرَّ بي عمي الحارث بن عمرو ، وقد عقد له النبي -ﷺ- لواء ، فقلت له : أين تريد؟ فقال : بعثني رسول الله -ﷺ- إلى

(1) الدررة فيما يجب اعتقاده ، لابن حزم ، (ت) أحمد الحمدي ، وسعيد القرقي ، مكتبة التراث/مكة المكرمة ط1 1408هـ ص337.

(2) النحل / 116-117 .

(3) يعني : الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 219/2 .

(4) الأعراف / 40 .

(5) العنكبوت / 47 .

رجل تزوج امرأة أبيه من بعده فأمرني أن أضرب عنقه (1).

فقد أمر رسول الله - ﷺ - بضرب عنق كل من أنكر حرمة الزواج من زوجة الأب ، وهو حكم معلوم من الدين بالضرورة .

خامساً : صور إنكار أحكام الدين المعلومة من الدين بالضرورة على مر الأزمان
إن إنكار الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة هو طبيعة الجاحدين الكافرين على مدى العصور :

(أ) فإن الأميين - أهل قريش - قد جحدوا أهم أركان الحج ، - وهو الوقوف بعرفة - فلم يقفوا بعرفات مع الناس في الحج ؛ لئلا يتساووا مع غيرهم ؛ بدعوى أنهم أهل الحرم ، مع كونهم مقرين بفرضيته عليهم في دينهم ، وأنه من شعائر الحج ، ومن دين إبراهيم - ﷺ - الذي يزعمون أنهم عليه (2).

قال تعالى راداً عليهم : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (3).
فهم قد ادعوا أنهم من أتباع إبراهيم - ﷺ - ، ولكن الله تعالى - ردّ عليهم ، فلو كانوا من أتباعه - ﷺ - حقاً لما رغبوا عن سنته وملته ، بل لاتبعوها بحذافيرها .

(ب) وكذلك أهل الكتاب فإنهم أنكروا بعض ما اعترفوا به وأقروا أنه من دينهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

1. موقف العدا من الرسول محمد - ﷺ - ، رغم أنهم كانوا مقرين ببعثته ، والإيمان به ، ولكنه لما بُعث أنكروا ذلك ، قال تعالى واصفاً حالهم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (4).

(1) أخرجه (جه) في سننه ، ك(الحدود) ، ب/35 (من تزوج امرأة أبيه من بعده) ، 90/2 ، ح(2111) وأخرجه (ت) ، ك(الأحكام) ، ب/25 (فيمن تزوج امرأة أبيه) ، 415/3 ، ح(1362) بنحوه . وأخرجه (د) ، ك(الحدود) ، ب/27 (في الرجل يزني بحريمه) ، 1906/4 ، ح(4457) ، وقال : صحيح .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ، (ت) مصطفى السقا ، شركة مكتبة ومطبعة البابلي الحلبي وأولاده ، ط2 - بدون تاريخ - ، 547/2.

(3) البقرة / 130 .

(4) البقرة / 89 .

2. إنكارهم وجوب توحيد الله -تعالى- بالعبادة ، قال تعالى مخبراً عن المسيح -ﷺ-
أنه قال : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (1). لكنهم
أنكروا ذلك ، وعبدوا مع الله غيره ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ
مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ﴾ (2).
3. إنكارهم ما وجب لله -تعالى- من الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، فإن ذلك
من الواجب عليهم في دينهم ، لكنهم أنكروا ذلك ، ووصفوه تعالى بما لا يليق به ، كما
قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (3)، وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (4).
4. إنكارهم وجوب الإيمان بالأنبياء كلهم ، والتفريق بين الرسل ، حيث آمنوا
ببعض ، وكفروا ببعض ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (5).
5. إنكارهم وجوب الإيمان بالكتاب كله ، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قال تعالى :
﴿أَفْتُمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (6).
6. إنكارهم ما أوجب الله -تعالى- عليهم في دينهم من بيان الكتاب وعدم كتمانها ،
كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا
يَشْتَرُونَ﴾ (7).

(1) المائدة / 117 .

(2) المائدة / 72 .

(3) المائدة / 64 .

(4) آل عمران / 181 .

(5) النساء / 150 .

(6) البقرة / 85 .

(7) آل عمران / 187 .

7. إنكارهم ما أخذه الله - تعالى - عليهم من سفك دماء بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ (1).

سادساً : صور الإنكار في العصر الحاضر

إن هذه الصفة الجاهلية - وللأسف الشديد- لا تزال موجودة في هذا العصر فكثير ممن يدعون الانتماء للإسلام قد استباحوا الشرك ، وعبدوا غير الله ، وغيروا دين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

وتجراؤا على الله - جلّ وعلا - فوصفوه - تعالى - بما لا يليق ، وعطلوا ما يجب له من صفات .

كما أنهم أنكروا التحاكم إلى كتاب الله - عزّ وجل - ، وسنه نبيه - ﷺ - واحتكموا إلى القوانين الوضعية .

وكذلك بعض الناس أنكروا تحريم بعض الأشياء ، كالتبرج والسفور ، والرشوة ، والربا ، .. وغير ذلك من المحرمات .

هذا هو حال كثير من الناس اليوم - إلا من رحم ربي - ونسأل الله لهم الهداية والرشاد والسداد ، والعودة إلى طريق الحق والصواب .

المبحث الثاني

محيطات قلبية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اليأس من رحمة الله (القنوط)

المطلب الثاني : الرياء (الشرك الخفي)

المطلب الثالث : الكبر والخيلاء .

المبحث الثاني

محبطات قلبية لا تخرج من الإسلام

المطلب الأول : اليأس من رَوْحِ الله (القنوط) :

اليأس لغة : القنوط ، وهو نقيض الرجاء ، والمصدر اليأس ، واليأسه ، واليأس - بالتحريك - ، والجمع يُؤوس (1).

اليأس اصطلاحاً :

اليأس فعل قلبي، وهو : اعتقاد عدم حصول الميئوس منه (2).

القنوط اصطلاحاً :

هو انفعال يُدني من أثر اليأس ، وهو انكسار وتضاؤل (3).

ويوضح القرطبي - رحمه الله - أن معناهما متقارب، فيقول :

اليأس : هو اليأس من زوال المكروه . والقنوط : هو الظن بدوام المكروه (4).

ويقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - : ((والقنوط أشدُّ اليأس ؛ لأن الإنسان

يقنط ويُبعد الرجاء والأمل ، بحيث يستبعد حصول مطلوبه ، أو كشف مكروبه)) (5).

من خلال ما سبق يتضح أن اليأس والقنوط يحملان معنيين متقاربين ، وهما

الاعتقاد بعدم حصول المأمول ، أو عدم زوال المكروه .

ولكن يبقى القنوط أشدَّ من اليأس ؛ لأن القنوط يحمل معنىً زائداً على اليأس

فالقنوط يكون مكسوراً مهزوزاً في نفسه إضافة لما يحمله اليأس من معانٍ ، أما

اليأس : فهو ييأس فعلاً من حصول ما يتمناه ، أو زوال ما يكرهه ، ولكن ربما تبقى

ثقلته عالية مرتفعة، لا يؤثر عليها هذا الشيء بصورة كبيرة لدرجة الانكسار والدمار .

والإنسان بطبعه ضعيف ، لا يستطيع الصمود أمام الشهوات ، وملذات الدنيا ،

فيقترب منها كلَّ حسب ضعفه ، فتتراكم عليه الذنوب والآثام ، ويوسوس له الشيطان

(1) انظر لسان العرب: 15/431 ، 432 ، ومختار الصحاح: ص740.

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 10/25.

(3) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 15/356.

(5) القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي/السعودية ، ط4

بأنه لا نجاة له من عذاب الله - تعالى - ، ولا فائدة ترجى من وراء أعماله الصالحة ، فيصدقها ، وقد نسي ذلك المسكين - اللاهي - أن رحمة الله - تعالى - وسعت كل شيء وأن بابه مفتوح أمام التائب في كل مكان ، وفي كل زمان .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) .
وقال أيضاً : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (2) .

وفي الحديث الشريف : (إن لله مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ، والبهائم ، والهوام ، منها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة ، يرحم بها عباده يوم القيامة) (3) .

يقول السعدي - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عباده المكثرين من الذنوب بسعة كرمه ، ويحثهم على الإنابة ، ويحذرهم من اليأس من رحمته ، فيقومون بإلقاء أيديهم إلى التهلكة بقولهم: قد كثرت ذنوبنا ، وتراكمت عيوبنا ، فليس لها طريق يزيلها ، فييقنون بسبب ذلك مصرين على العصيان ، متزودين بما يغضب الرحمن ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يخبرهم بأنه يغفر جميع الذنوب من شرك (4) ، وقتل ، وزناً ، ورباً ، وظلم ، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ؛ لأن المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان ، لا تنفك ذاته عنهما (5) .

إذن فالأصل في المسلم ألا يشعر باليأس من رحمة الله - تعالى - مطلقاً ؛ لأن اليأس ليس من صفات المؤمنين؛ بل هو من صفات الكافرين ، وقد ذمَّ تعالى القانطين في عدة آيات .

(1) الزمر / 53 .

(2) الأعراف / 156 .

(3) أخرجه (م) ، ك (التوبة) ، 229/17 ، ح (19) .

(4) لا بد وأنَّ الشيخ - رحمه الله - يقصد أن الله يغفر الشرك لمن تاب وأتاب وأصلح ، أما من غير توبة فلا

يمكن المغفرة ، بعكس باقي الذنوب المذكورة ، فإن الله قد يغفرها بدون توبة بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . النساء / 48 ، 116 .

(5) انظر تفسير السعدي : 537/2 ، 538 .

مخاطر اليأس :

قال تعالى : ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (1).

وقال أيضاً : ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (2).

يقول الزحيلي : ((لا يقنط من فرج الله إلا القوم الكافرون ، وهذا دليل على أن الكافر يقنط في حال الشدة ، وعليه فإن القنوط من الكبائر ، أما المؤمن فيرجو دائماً فرج الله تعالى)) (3).

ويقول الرازي : ((واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً)) (4).

وإذا ثبت أن اليأس هو صفة من صفات الكافرين ، والكافرون لا يقبل لهم عمل أصلاً ، بل جميع أعمالهم حابطة ، مردودة ، باطلة ، فحكم بذلك على اليأس بحبوط عمله - والعياذ بالله - (5).

المطلب الثاني : الرياء (الشرك الخفي)

أقسام الشرك : الشرك قسمان جلي وخفي :

فالجلي : (ما كان بالقول : مثل : الحلف بغير الله ، أو قول ما شاء الله وشئت ، أو بالفعل : مثل : الانحناء لغير الله تعظيماً ، وهو ما سأتناوله بالتفصيل (6)).

(1) الحجر / 56 .

(2) يوسف / 87 .

(3) التفسير المنير للزحيلي : 51/13 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي : 203/18 .

(5) لم أصنف اليأس ضمن المحبطات التي تخرج من الإسلام ، لأن معظم العلماء والمفسرين يفسرون الكفر في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ بأنه كفر دون كفر ، فهو كفر غير مخرج من الملة.

(6) في الفصل الثالث من هذا الباب - إن شاء الله - ص 138.

والخفي : ما كان في القلب ، مثل الرياء ؛ لأنه لا يتبين ؛ إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله ، ويسمى أيضاً (شرك السرائر) ، وهذا هو الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (1)؛ لأن الحساب يوم القيامة على السرائر ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (2). وهو ما نحن بصدد الحديث عنه الآن .

تعريف الرياء لغة :

مصدر راءى يرائى مرأاة ، أي عمل عملاً ليراه الناس ، كما يقال : جاهد جهاداً ومجاهدة ، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ، ويقال له مُسَمَّعٌ (3).

الرياء اصطلاحاً :

عرّفه القرطبي بقوله : ((حقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس)) (4).

وعرّفه أيضاً بقوله : ((الرياء أن يفعل شيئاً من العبادات التي أمر الله بفعلها له، لغيره)) (5).

وبالنظر في عدة تعريفات لدى عدد من العلماء (6) ، أجد أن تعريفاتهم تدور حول محور واحد، وهو : أن يقصد العبد بعمله الذي أمره الله - تعالى - أن يخلص له فيه غرضاً دنيوياً .

آثار الرياء :

يترتب على الرياء عدة أمور أهمها:

إحباط الأعمال ، وإبطال الثواب :

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ

(1) الطارق / 9 .

(2) القول المفيد : 133/2 ، والآية في العاديات / 9 ، 10 .

(3) انظر لسان العرب : 88/5 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 210/20 .

(5) نفس المرجع : 186/5 .

(6) راجع : الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي ، دار الكتب الحديثة / القاهرة ، ومكتبة المثنى / بغداد -

بدون تاريخ - ص 33 ، وميزان العمل للغزالي ، دار المعارف / مصر ، ط 1 1964م ، ص 285 .

مَالَهُ رِئَاءِ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١﴾ .

أي لا تبطلوا أجور صدقاتكم بالمن والأذى ، كما أبطل كفر الذي ينفق ماله رياء الناس صدقته ، حيث أظهر أنه يريد بهذه الصدقة وجه الله ، وهو في الحقيقة يريد مدح الناس له وشكرهم إياه (2).

فهنا سببان لإبطال صدقته :

01240592

(1) الأول وهو المراد : الرياء (2) الكفر .

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((وهو - يعني الرياء - مبطل للأعمال ، وهو خفي لا يعرفه كل جاهل غبي)) (3).

وقال أبو السعود - رحمه الله - : ((الرياء شعبة من الكفر)) (4).

ومعلوم أن عمل الكافر مردود حابط .

ولا تقف خطورة الرياء وضرره على إحباطه لأجر الصدقة فقط ؛ بل يحبط ويقضي على كل عمل أشرك به صاحبه مع الله - تعالى - غيره؛ كالجهاد، وقراءة القرآن ،..... فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها، قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جري، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها، قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : هو عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها ، قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال: كذبت ، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل ، ثم أمر به

(1) البقرة / 264 .

(2) أنظر جامع البيان للطبري : 90/3 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 318/1 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 186/5 .

(4) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث

العربي، بيروت/ لبنان - بدون تاريخ - 204/9 .

يقول د. عمر الأشقر : ((أخبر الرسول -ﷺ- أنه يخاف علينا الشرك الخفي أكثر مما يخاف علينا المسيح الدجال ، وما ذلك إلا لأن الداعي إلى الرياء قوي ؛ إذ النفوس مجبولة على حبّ الرئاسة والمنزلة في قلوب الخلق، إلا من سلّم الله ، وقد أحسن الشاعر حيث يقول :

**يهوى الثناء مبرّزاً ومقصرُ
حبُّ الثناء طبيعة الإنسان .**

وقد لا نكون مغالين في القول إذا ذهبنا إلى أنّ الداعي إلى الرياء أعظم من الداعي إلى الشرك الأكبر ، فالشرك الأكبر معدوم في قلوب المؤمنين الصادقين ، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر)) (1) .

وربما يكون الدليل على أن الإلقاء في النار أسهل عندنا من الكفر قول الرسول -ﷺ- فيما رواه عنه أنس بن مالك - رضي الله عنه- : (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) (2) .
حكم العبادة إذا خالطها الرياء:

العبادة التي يخالطها الرياء على ثلاثة أوجه :

الأول : أن يكون الباعث على العبادة مراعاة الناس من الأصل ، كمن قام يصلي من أجل مراعاة الناس ، ولم يقصد وجه الله ، فهذا شرك والعبادة باطلة .

الثاني : أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها ، بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله، ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة .

فإن كانت العبادة لا يبنّي آخرها على أولها ، فأولها صحيح ، وآخرها باطل (3) .

أما إذا كانت العبادة يبنّي آخرها على أولها فهي على حالين :

(1) مقاصد المكلفين ، ص439-440 .

(2) أخرجه (خ) ، ك (الإيمان) 2/9 (حلاوة الإيمان) ، 30/1 ، ح (16) .

(3) مثال ذلك : رجل عنده مائة ريال قد أعدها للصدقة ، فتصدق بخمسين مخلصاً ، ووراء في الخمسين الباقية

فالأولى حكمها صحيح ، والثانية باطلة

(أ) أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه ، بل يُعْرِضُ عنه ويكرهه ، فهذا لا يؤثر عليه شيئاً (1).

(ب) أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه ، فحينئذ تبطل جميع العبادة ؛ لأن آخرها مبني على أولها (2).

الثالث : ما يطرأ بعد انتهاء العبادة ، فإنه لا يؤثر عليها شيئاً ، إلا أن يكون فيه عدوان ، كالممن والأذى بالصدقة ، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (3).

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة، وليس الرياء أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه ، بل ذلك دليل على إيمانه (4).

المطلب الثالث : الكبر

الكبر لغة :

الرفعة والشرف ، والعظمة ، والتجبر ، وهو اسم من التكبر ، ومثله الكبرياء ، والاستكبار : الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً ، يقال تكبر ، أو استكبر ، وتكابر (5).

الكبر شرعاً :

عرّفه رسول الله - ﷺ - بقوله : (هو بظر الحق (6) وغمط الناس (7) (8).

(1) مثال ذلك : رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله ، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه ؛ فإن ذلك لا يضره ، ولا يؤثر على صلاته شيئاً .

(2) مثال ذلك : رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله ، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه فاطمأن لذلك ، ونزع إليه ، فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض .

(3) البقرة / 264 .

(4) القول المفيد : 125/2 ، 126 بتصرف يسير .

(5) انظر لسان العرب : 12/12-16 ، والمصباح المنير : 183/2 ، ومختار الصحاح ص 561 .

(6) بظر الحق : دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً .

(7) غمط الناس : استحقارهم وتعييبهم ، صحيح مسلم بشرح النووي : 93/2 .

(8) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 268/2 ، ح (147) .

(والكبر داءً من أدواء النفس الخطيرة التي تمثل انحرافاً خلقياً يجنح بالإنسان عن سبيل الحق) (1).

وهو حين يستشري في النفس ، ويتمكن من قلب الإنسان ، ويملك عليه حسه وفكره ، يكون أسوأ ما يصيب الإنسان من أمراض القلب، فما من خلق من الأخلاق المذمومة إلا ونجد صاحب الكبر متصفاً به (2).

أقسام الكبر :

ينقسم الكبر إلى عدة تقسيمات ، أهمها اثنان :

أولاً : بالنسبة لذاته :

ينقسم بذاته إلى قسمين : باطن وظاهر

1. الكبر الباطن :

وهو أن يرى المتكبر نفسه فوق من يتكبر عليه ؛ بحيث يصير ذلك كالعقيدة عنده، فيفرح به ، ويركن إليه ، ويعتزُّ في نفسه بسببه.

2. الكبر الظاهر :

وهو التعالي على الناس؛ بحيث يرى المتكبر نفسه أعلى من غيره؛ بحيث يحتقر كلَّ مَنْ سواه ، ويظهر الكبر في أفعاله وأقواله (3).

وبالنظر إلى أقسام الكبر نجد أن الكبر الباطن : معناه أن يعجب الإنسان بنفسه في داخله، ويرى نفسه فوق البشر، مما يؤدي به إلى الغرور بنفسه، دون أن يؤثر ذلك على تصرفاته مع غيره .

أما الظاهر : فهو تطبيق ما بداخله من شعور التعالي على الناس، سواء بالأقوال، أم الأفعال ، بحيث يحتقر كلَّ مَنْ سواه ، ويرى نفسه أكبر وأعلى منهم ، حتى ولو لم تكن الحقيقة كذلك.

فالباطن إذن هو الأصل ، وهو خلق يبدأ في نفس الإنسان ، وداءً ينشأ في باطنه ، ثم بعد ذلك يثمر الفرع، وهو طريقة التعامل مع الغير .

(1) الأخلاق الإسلامية وأسماها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم /دمشق ، والدار الشامية /بيروت ، ط5

1420هـ-1999م، 718/1.

(2) السلوك الاجتماعي في الإسلام لحسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ، بيروت/لبنان ، -بدون تاريخ- ، ص 51.

(3) نفس المرجع : ص 49 .

ثانياً : بالنسبة إلى المتكبر عليه : ينقسم إلى ثلاثة أقسام .

(أ) التكبر على الله - عز وجل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وهو أفضح أنواع الكبر وأخبثها ، ومثال ذلك قوله تعالى عن فرعون : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (1) . وقول النمرود لإبراهيم الخليل - عليه السلام - : ﴿ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (2) . وقول كفار قريش حين أمروا بالسجود للرحمن : ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ أَنسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ (3) .

(ب) التكبر على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - : وهو شنيع ، ولكنه أقل من الأول ، مثال ذلك قوله تعالى حاكياً عن فرعون ومن معه : ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (4) .

وقول كفار العرب في شأن رسول الله - ﷺ - ، فيما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ (5) .

وقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (6) .

(ج) التكبر على الناس : وهو أخف من النوعين السابقين .

ومثاله تكبر قارون وطغيانه على قومه حين أعطاه الله المال بعد أن كان فقيراً ، فتكبر ، وتجبر ، فما كان جزاؤه إلا أن خسف الله به وبداره الأرض ، قال تعالى حاكياً عن حاله : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *

(1) النازعات / 24 .

(2) البقرة / 258 .

(3) الفرقان / 60 .

(4) المؤمنون / 47 .

(5) الفرقان / 21 .

(6) الزخرف / 31 .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفَاهَمُ إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿١﴾

لذا فإنه يجب على كل المتكبرين المستعبدين للخلق أن يأخذوا العبرة والعظة من قصة قارون وأمثاله ، وليعلموا جيداً أن القوة والمنصب ، والمال كلها ملك الله ، إن شاء أطال لها البقاء وإن شاء رفعها عن العبد في لحظات، وليعلموا أيضاً أنهم مهما حصلوا في الدنيا فلن يبلغوا نفوذ قارون وجاهه وماله ، فلم يعجز الله ؛ بل جعله عبرة لمن اعتبر .

وبعد عرض أقسام الكبر نجد أن منه ما يحبط الأعمال ، ومنه ما هو دون ذلك .

فالذي يحبط الأعمال هو الذي يصل بصاحبه لدرجة الكفر ، وذلك كالتكبر على الخالق - جلّ وعلا - ، وذلك مثل قول إبليس عن آدم - عليه السلام - فيما حكاه القرآن الكريم عنه : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (2).

فهذه الآية الكريمة لا تعني تكبر إبليس على آدم - عليه السلام - فقط ؛ باعتقاده أنه أفضل منه، بل يعتبر ذلك التكبر تكبراً على الخالق - جلّ وعلا - ؛ حيث إنه لم ينصع لأوامر الله حيث أمره بالسجود .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (3).

فكان جزاؤه أن غضب الله - تعالى - عليه ، وأخرجه مما كان فيه من النعيم حين قال - تعالى - له : ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

(1) القصص / 76 - 81 .

(2) الأعراف / 12 .

(3) البقرة / 34 .

مِن الصَّاعِرِينَ (1) ﴿2﴾ .

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة ، وإنما يحصل له نقيض ذلك)) (3) .

فيفهم من ذلك أن الكبر وحده هو سبب كفر إبليس ، وإخراجه من النعيم ، إذ استكبر أن ينصاع لأوامر المولى - عز وجل - حين أمره بالسجود لآدم - عليه السلام - لأنه استصغر آدم - عليه السلام - ولم يره شيئاً ، فقال تعالى حاكياً عنه : ﴿ إِنَّا خَيْرٌ مِّمَّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (4) وقال أيضاً : ﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْتُونٍ ﴾ (5) ، فكفره الله بذلك (6) .

كما بيّن - رحمه الله - أن هذا الحكم - وهو كفر المتكبر - ينطبق على كل من فعَلَ فعلِ إبليس ، فقال : (فكل من سَفِهَ شيئاً من أوامر الله تعالى ، أو أمر رسوله - عليه السلام - حُكْمَهُ حُكْمَهُ ، وهذا ما لا خلاف فيه) (7) .

وبذلك يتأكد أن التكبر على الله - جلّ وعلا - والتكبر على رسوله - ﷺ - يحبط

الأعمال .

وما جعل الله - تعالى - هذه العقوبة للمتكبر ؛ إلا لأنه قاسمه في صفة من أخص صفاته - تعالى - .

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار) (8) .

كما بين - ﷺ - أن الكبر سبب في حرمان دخول الجنة ابتداءً ، فقال (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) (9) .

(1) الصغار : أشد الذل والهوان ، أضواء البيان للشنقيطي : 221/2 .

(2) الأعراف / 13 .

(3) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(4) الأعراف / 12 .

(5) الحجر / 33 .

(6) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 309/1 .

(7) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(8) أخرجه (م) ، ك (البر والصلة والآداب) ، 132/16 ، ح (136) وأخرجه (د) ، ك (اللباس) ، ب/28 (ما جاء في الكبر)

1754/4 ، ح (4090) واللفظ له ، وقال : صحيح .

(9) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 268/2 ، ح (147) .

وقال أيضاً : (ألا أخبركم بأهل النار ؛ كل عتل (1) جَوَاطِظ (2) مستكبر (3) .
أما التكبر على الخلق فهو دون ذلك، ولكن يكون صاحبه أرضاً خصبة لكل
الصفات الذميمة .

ويصف لنا فضيلة الشيخ حسن أيوب حال المتكبر قائلاً : ((فهو - يعني
المتكبر - لا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، ولا يقدر على التواضع ، ولا يتخلص من
الحقد ، ولا يتغلب على الغضب والغيظ، ولا يستطيع دفع الحسد عن نفسه ، ولا يقبل
نصيحة ناصح ، ولا تعليم عالم ، ولا يعامل الناس إلا بالازدراء والاحتقار، وإذا مشى
اختال ، وإذا تكلم افتخر ، وإذا نُصِح سخر من الناس وحقّرهم ، وإذا تحدث تقعر في
الكلام وتشدق ، وإذا جالس الناس غضب إذا لم يكن له صدر المجلس، وأول الكلام ،
وغاية التعظيم الاحترام)) (4) .

من كل ما سبق يتبين أن التكبر على الله كفر ، وأن التكبر على رسوله
- صلوات الله وسلامه عليهم - كفر ، وأن الكبر على العباد كفر إن أدى إلى رفض
ما جاء به الرسل من علم ودين ، أما إن لم يؤدي إلى كفر؛ بل كان مجرد تكبر على
العباد فإن هذا التكبر مُحَرَّم يستحق صاحبه بسببه عذاب الله (5) .

وفي تعريف رسول الله - ﷺ - للكبر يوضح هذين النوعين حين قال: (هو بطر
الحق، وغمض الناس) (6) .

فبطر الحق هو الكفر؛ لأنه تكبر على الله وعلى ما جاء به رسله الكرام .
وغمط الناس يتراوح بين الكفر ودون ذلك كما سبق ، وقد مرَّ أن الكفر يحبط العمل،
ويأكل الحسنات إن وجدت ، فكذلك الكبر على الله ورسله وعلى خلقه - أحياناً - ،
وهو سبب أيضاً في حبوط العمل (7) - والعياذ بالله - .

(1) عتل : بضم العين والتاء : الجافي الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل الجافي : الفظ الغليظ .

(2) الجَوَاطِظ : بفتح الجيم، وتشديد الواو بالطاء المعجمة : فهو كثير اللحم المختال في مشيته ، وقيل : الفاجر صحيح
مسلم بشرح النووي : 184/17 .

(3) أخرجه (م) ، ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، 316/17 ، ح(46) .

(4) السلوك الاجتماعي في الإسلام : ص 51 .

(5) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(6) سبق تخريجه ، ص 85 .

(7) لم أصنف الكبر ضمن المحبطات التي تخرج من الإسلام ؛ لأنه يشتمل على التكبر على الخلق وهو لا يخرج
من الإسلام ، كما أن الكبر إذا أطلق يفهم منه التكبر على المخلوقات .

الفصل الثاني المحيطات القولية

ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول : محيطات قولية تخرج من الإسلام

المبحث الثاني : محيطات قولية لا تخرج من الإسلام .

الفصل الثاني

المحبطات القولية

إن الكلام نعمة من نعم الله العظمى التي أنعم بها على الإنسان ، ولكن تلك القطعة الصغيرة من اللحم تعتبر سلاحاً ذا حدين ، فإما أن تكون نعمة على صاحبها ، فترتفع به إلى أعلى عليين ، وذلك إذا أحسن استغلالها، وجعلها سيفاً مشهوراً لإعلاء كلمة الله ، ومحاربة أعدائه ، وإما أن تكون نقمة تهوى بصاحبها إلى أسفل سافلين - والعياذ بالله- ؛ كأن يجعلها سيفاً مسلطاً لمحاربة الله ، ورسوله ، وأوليائه الصالحين ، ولنصرة أعدائهم ، وهذا يؤدي إلى الكفر أحياناً، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (1).

وقد بيّن الشاعر خطر ترك العنان للسان ، يصول ويجول كيف يشاء ، فقال :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغَنَّك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان (2)

ولكن الله - سبحانه وتعالى- يحذر من الخوض في مسألة التكفير بالظن والتخمين ، بل لا بد من التأكد بالبحث والتنقيب ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (3).

من أجل ذلك كان هذا الفصل الذي يشتمل على مبحثين ، ويتضمن الأقوال التي تخرج من الإسلام، وتحبط الأعمال ، والتي دون ذلك .

(1) المائدة / 73 .

(2) نقلاً عن الأذكار للنووي ، دار ابن حزم ، بيروت/لبنان ، ط 1412هـ-2000م ، ص 350 .

(3) النساء 94 .

المبحث الأول المحيطات القولية التي تخرج من الإسلام

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : سبُّ ما يتعلق بالعقيدة أو الاستهزاء به

المطلب الثاني : ادعاء النبوة

المطلب الثالث : الدعاء والاستغاثة بغير الله

المطلب الرابع : الكذب على الله - عزَّ وجلَّ - .

المبحث الأول

محبطات قولية تخرج من الإسلام

يُعَدُّ اللسان من أخطر الأعضاء في جسم الإنسان على الإنسان ، لذا قال -ﷺ-
لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه- حينما قال له : أننا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول
الله ، فقال له -ﷺ- : (تكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس على وجوههم في النار
إلا حصائدُ ألسنتهم) (1).

لذا لا يجوز للإنسان أن يترك للسانه العنان يصول ويجول ، ويتقوه بما يشاء
وقست ما شاء ، ولا أن يخوض ويلهو ويلعب في أمور لا تخضع للعب واللهو ؛ كأن
يستهزئ بالله ، وآياته ، ورسله ، إلى غير ذلك .
من أجل ذلك قمت في هذا المبحث بجمع جملة من الأقوال التي تخرج صاحبها من
الإسلام ، وتؤدي إلى حبوط عمله ، فاحتوى هذا المبحث على أربعة مطالب .

المطلب الأول : كفر سبِّ الله - عزَّ وجل - وملائكته ورسله والاستهزاء بهم
أبدأ أولاً بتعريف كل من السبِّ والاستهزاء :

(أ) السب لغة :

وهو كل كلام يدل على تحقير أحد ، أو نسبته إلى نقيصة ، أو معرفة بالباطل
أو بالحق وهو مرادف الشتم الوجيع (2).

ويذكر ابن تيمية - رحمه الله- أن حدَّ السبِّ وضابطه هو العرف ،
فيقول : ((فما عدَّه أهل العرف سباً وانتقاصاً ، أو عيباً ، أو طعناً ، ونحو ذلك، فهو
من السبِّ)) (3).

(ب) الاستهزاء لغة : السخرية (4).

(1) أخرجه (ت) ، ك (الإيمان) ، ب/8 (ما جاء في حرمة الصلاة) ، 439/4 ، ح (2616) ، وأخرجه (ج) ،
ك (الفتن) ، ب/12 (كف اللسان في الفتنة) ، 359/2 ، ح (3209) ، وقال أبو عيسى : حسن صحيح .

(2) انظر مفردات غريب القرآن ص 220 ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : 427/7 .

(3) الصارم المسلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي
المعروف بابن تيمية ، المكتبة العصرية ، صيدا/بيروت ، ط 1411 هـ - 1990 م ، ص 531 ، 540 .

(4) انظر لسان العرب : 84/15 ، والمصباح المنير ص 787 .

يقول البيضاوي : ((الاستهزاء : السخرية والاستحقار ، يقال هزئت واستهزأت بمعنى ، كأجبت واستجبت ، وأصله الخفة في الهزء ، وهو القتل السريع)) (1).

أولاً : كُفْرُ سَبِّ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أو الاستهزاء به

خلق الله -جلَّ وعلا- الناس جميعاً ، ومنَّ عليهم بنعمة الإسلام ، فمنهم من اهتدى ، وسار في طريق الحق ، ومنهم من ظلم نفسه ، وسار في طريق الشيطان ، ولكلٍ منهما تصرفاته الخاصة به النابعة من صميم عقيدته ، فتكون جميع تصرفات الإنسان المسلم مبنية على تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- وإجلاله ، والخضوع لعظمته والانقياد له ، وأما من رضي لنفسه الذل والهوان ، واتباع خطوات الشيطان ، فقد كان عكس ذلك تماماً ، لذا نجد أن جميع تصرفاته تابعة لهواه ، وأفعاله وأقواله تناقض الإيمان ، وبالتالي تناقض تعظيم الله - عزَّ وجلَّ - ؛ بل تستخف وتستهيين ، أو تستهزئ به أحياناً وبذلك يكون قد نفى عن نفسه صفة الإيمان ، وأدخل نفسه في وعيد الله - عزَّ وجلَّ - ؛ حيث إنه تعالى تَوَعَّدَ الَّذِينَ يُوذُونَهِ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ قَائِلًا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (2).

والسبُّ والشتم والاستهزاء كفر يخرج من الإسلام ، ويحبط الأعمال.

قال تعالى : ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((إن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج من الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله ، وتعظيم دينه ورسوله ، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ، ومناقض له أشد المناقضة)) (4).

ويقول الفخر الرازي : ((إن الاستهزاء بالدين كيف كان كفر بالله ، وذلك لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف ، والعمدة الكبرى في الإيمان تعظيم الله بأقصى

(1) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان ، ط¹ 1408هـ-1988م ، 28/1.

(2) الأحزاب / 57 .

(3) النبوة / 65 ، 66 .

(4) تفسير السعدي : 708/1 .

الإمكان ، والجمع بينهما محال)) (1).

فإذا كان الاستهزاء بالله كفراً، سواء استحله أو لم يستحله، فإن السب كفر من باب أولى (2).

الآثار المترتبة على سب الله - عز وجل - :

إذا ثبت أن السب والشتم والاستهزاء كفر بالله ، فيترتب على ذلك أن يخرج صاحبه من الإسلام ، وتحبط جميع أعماله؛ لأنه - وكما هو معلوم - أن الكفر سبب في الخروج من الإسلام، وحبوط الأعمال .

وإضافة إلى وضوح الأدلة في كفر الساب والمستهزئ ، فقد أجمع العلماء على كفره ، وقد حكي الإجماع عدد كبير منهم .

قال إسحق بن راهويه : ((قد أجمع العلماء على أن من سب الله - عز وجل - ، أو سب رسول الله - ﷺ - ، أو رفع شيئاً أنزله الله ، وهو مع ذلك مُقرّ بما أنزل الله أنه كافر)) (3).

ثانياً : كفر سب الملائكة - عليهم السلام - ، أو الاستهزاء بهم

إن من موجبات الإيمان ، الإيمان بالملائكة - عليهم السلام - ، وهو ركن من أركان الإيمان، لا يتحقق إيمان عبد حتى يوجب إجلالهم وإكرامهم ، فهم عباد مكرمون ؛ ولذا فإن سبهم أو الاستهزاء بهم لا يجتمع مع الإيمان؛ بل يناقضه بالكلية ، ويؤدي إلى الكفر وحبوط العمل، ولو كان الساب أو المستهزئ مقرراً بوجودهم .

قال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (4).

وقد أفرد الملكان بالذكر تشریفاً لهما ، ولبيان فضلها، والتنبيه على أن معادة الواحد والكل سواء في الكفر ؛ لأن الآية نزلت بسببهما ، حين قالت اليهود : جبريل عدونا ، وميكائيل ولينا ، وزعمت أنها كفرت بمحمد - ﷺ - ، من أجل أن

(1) مفاتيح الغيب للرازي : 127/15.

(2) انظر الصارم المسلول : ص 517 .

(3) التمهيد : 226/4 .

(4) البقرة / 98 .

جبريل صاحبه ، فأعلمهم الله أن من كان عدواً لجبريل ، فإن الله له عدو ، وأنه من الكافرين ، وبَيَّن أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر ، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع (1).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((فالعداوة لجبريل ... كفر بالله وآياته ، وعداوة لله ولرسله وملائكته)) (2).

ويعتبر سب الملائكة الكرام - عليهم السلام - ، أو الاستهزاء بهم، من أهم مظاهر عداوتهم المفضية إلى الكفر .

قال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (3).

في هذه الآية الكريمة وصف الله - سبحانه وتعالى - كل من يعاديه ، أو يعادي ملائكته الكرام بالكفر ، والخروج من الإسلام .

ويؤكد العلماء على كفر سب أي ملك من الملائكة ، أو الاستهزاء به.

يقول ابن غنيم المالكي : ((ومن سبَّ ملكاً مجتمعاً على ملكيته ، أو لعنه ، أو عابه ، أو قذفه، أو استخفَّ به ، أو غيَّرَ صفته ، أو ألحق به نقصاً في دينه ، أو بدنه ، أو خصلته ، أو غضَّ من مرتبته ، أو وفور علمه ، أو زهده ، أو أضاف له مالا يجوز عليه ، أو نسب إليه مالا يليق به على طريق الذم ... قتلِ حداً، ويستعجل بقتله)) (4).

الأثار المترتبة على سب الملائكة - عليهم السلام - :

وإذا ثبت أن سبَّ الملائكة يؤدي إلى الكفر ، فيتأكد بذلك حبوط عمل الساب، أو المستهزئ؛ لأنه - كما ثبت - أن الكفر من محبطات العمل الصالح .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ (5).

(1) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 132/1 .

(2) تفسير السعدي : 74/1 .

(3) البقرة / 98 .

(4) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، لأحمد بن غنيم ، دار الفكر/بيروت ، بدون

تاريخ - 227/26 بتصرف يسير .

(5) المائدة / 5 .

ثالثاً : كفر سب الكتب السماوية ، أو الاستهزاء بها

كما أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالإيمان بكتبه ، واعتبر ذلك ركناً من أركان الإيمان ، فلا يتم إيمان عبد حتى يجزم بأن جميع هذه الكتب منزلة من عند الله - عز وجل - ، وكذلك بيّن - سبحانه وتعالى - أن سبها ، أو الاستهزاء بها ، موجب للخلود في النار ، قال تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (1).

الآثار المترتبة على سب الكتب السماوية ، أو الاستهزاء بها :

1. حلول العذاب المهين :

قال تعالى : ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (2).

ومعنى اتخاذ الآيات هزواً : أنهم يلكونها بأفواههم لوك المستهزئ بالكلام ، ومن الاستهزاء ببعض الآيات تحريفها عن مواضعها ، وتحميلها غير المراد منها عمداً ؛ للاستهزاء ؛ كقول أبي جهل لما سمع قوله تعالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (3) ، أنا ألقاهم وحدي ، فالذين يفعلون هذا الفعل لهم يوم القيامة من الله عذاب مهين يهينهم ، ويدلهم في نار جهنم (4).

2. الخلود في النار :

قال - تبارك وتعالى - : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (5).

توعد الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات الكريمة الذين اتخذوا آياته - ومنها آيات القرآن الكريم - لعباً ، واستهزاءً ، بأن مسكنهم ، ومآلهم ، ومستقرهم نار جهنم لازمين لها ، دائمين فيها ، لا يخرجون منها أبداً - والعياذ بالله - (6).

(1) الجاثية / 35 .

(2) الجاثية / 9 .

(3) المدثر / 30 .

(4) انظر جامع البيان للطبري : 185/25 ، وأضواء البيان للشنقيطي : 223،224/7 .

(5) الجاثية / 34 ، 35 .

(6) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 172/16 ، 173 .

3. الحكم عليه بالكفر :

قال تعالى : ﴿قُلْ أِبَالِلَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (1).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((وفي هذه الآيات دليل على أن من أسرَّ (2) سريرة ، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه ، ويستهزئ به ، وبآياته ، ورسوله ؛ فإن الله تعالى يظهرها ، ويفضح صاحبها ، ويعاقبه أشد العقوبة ، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله ، وسنة رسوله الثابتة عنه ، أو سخر بذلك ، أو تنقصه ... فإنه كافر بالله العظيم)) (3).

4. حبوط العمل :

إذا تقرر أن الاستهزاء بآيات الله كفر ، فإنه يؤدي حتماً إلى حبوط العمل ؛ إذ إن الكفر من موجبات حبوط العمل .

قال - عز من قائل - : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ (4).

وقال - جل وعلا - : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ (5).

فقد توعد - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات الكريمة الذين كرهوا القرآن الكريم، الذي أنزله الله على رسوله الكريم ؛ إصلاحاً لعباده، وفلاحاً لهم ، فلم يقبلوه، بل أبغضوه، بأنه سيحبط أجر عملهم الصالح الذي فعلوه في الدنيا؛ وما ذلك إلا لكفرهم بآيات الله، واتخاذهم إياها هزواً وسخرية (6).

(1) التوبة / 65 ، 66 .

(2) تتضح السريرة في الآية بمعرفة سبب النزول ، فإن الآية الكريمة نزلت في غزوة تبوك ، حيث قال رجل من المنافقين : ما رأيت مثل قرانتنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب أسناً ، ولا أجبين عند اللقاء -يعني رسول الله - ﷺ- وأصحابه- فقال عوف بن مالك - رضي الله عنه-، كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله - ﷺ- فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله - ﷺ- وقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق . أسباب النزول للإمام أبي الحسن أحمد الواحدي النيسابوري ، بهامش المصحف المفسر ، دار الفجر الإسلامي/دمشق ، ط 8 1418هـ-1997م ، ص 210، 209.

(3) تفسير السعدي : 708/1 .

(4) الأعراف / 147 .

(5) الكهف / 105 .

(6) انظر تفسير أبي السعود : 249/5 ، 250 .

وقد أكد العلماء الأفاضل على كفر ساب الكتب السماوية ، أو المستهزئ بها .
يقول القاضي عياض : ((اعلم أن من استخف بالقرآن ، أو المصحف ،
أو بشيء منه ، أو جرده ، أو حرفاً منه ، أو آية ، أو كذب به ، أو بشيء منه
فهو كافر عند أهل العلم بإجماع .

قال تعالى : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (1)
وكذلك إن جحد التوراة ، والإنجيل ، وكتب الله المنزلة ، أو كفر بها ، أو لعنها ،
أو سبها ، أو استخف بها فهو كافر عند أهل العلم بإجماع)) (2).

يتضح من خلال ما سبق أن الحكم بالكفر لا ينطبق على من سب القرآن
الكريم ، أو استهزأ به فقط ، بل ينطبق على كل من سب أي كتاب من كتب الله
- عز وجل - ، أو استهزأ بها .

رابعاً: كفر سب الأنبياء والاستهزاء بهم

أكد - سبحانه وتعالى - على وجوب محبة رسوله الكريم - عليه أفضل الصلاة
وأتم التسليم - ، وأخبرنا بأنه يجب أن تقدم محبته على محبة النفس ، والولد ، والوالد ،
والناس أجمعين ، وتوعد الذين يقدمون محبة أحد على محبته - ﷺ - ، ووصفهم
بالفسق .

فقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (3).

فهذه الآية الكريمة يفهم منها وجوب تقديم محبة الرسول - ﷺ - على الآباء
والأبناء ،

وأما الدليل على تقديم محبته - ﷺ - على محبة النفس فيفهم من قوله تعالى :
﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (4).

(1) فصلت / 42 .

(2) الشفا : 1101/2 .

(3) التوبة / 24 .

(4) الأحزاب / 6 .

وكذا بما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال :
 (يا رسول الله ، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي -
 ﷺ- : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال
 عمر: فإنه الآن ، والله لأنت أحب إليّ من نفسي ، فقال النبي - ﷺ- :
 الآن يا عمر) (1) .

كما بيّن - جلّ وعلا- أن بغض الرسول - ﷺ- من أشنع الذنوب ، وأخطرها ،
 فقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (2) .

الآثار المترتبة على إيذاء الرسول ﷺ :

يترتب على إيذاء الرسول - ﷺ- أمور ؛ منها :

1. الكفر بالله :

قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةً تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ
 قُلِ اسْتَهْزِؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
 وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ . لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
 إِيمَانِكُمْ ﴾ (3) .

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((حکم تعالی بکفر المستهزئ برسله
 الكرام)) (4) .

فهذه الآية الكريمة دليل واضح على كفر المستهزئ بالرسول الكرام - عليهم
 الصلاة والسلام - ، وبالتالي يحكم بالكفر على الشاتم ؛ لأن السبّ والشتم أشدّ وأصعب
 - كما مرّ معنا- .

2. حبوط الأعمال :

إن عدم احترام الرسول - ﷺ- أو شتمه ، أو الاستهزاء به يؤدي إلى حبوط
 العمل .

(1) أخرجه (خ) ، ك(الإيمان والنذر) ، ب/3(كيف كانت يمين النبي - ﷺ-) ، 2073/4 ، ح(6632) .

(2) الكوثر / 3 . وشانئك : مبغضك ، والأبتر : أي المقطوع الذي لا عقب له . اضواء البيان للشنقيطي :
 312/9 .

(3) التوبة / 64-66 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 183/8 .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (1).
 يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((اعلم أن عدم احترام النبي - ﷺ - المشعر
 بالغضب منه ، أو تنقيصه - ﷺ - ، والاستخفاف به ، أو الاستهزاء به ، ردة عن
 الإسلام وكفر بالله)) (2).

ويقول ابن عاشور : ((إن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي - ﷺ - بعد
 هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم، يأتي على عظيم من صالحاته ، أو يفضي به
 إلى الكفر)) (3).

وبالنظر في أحد أسباب نزول الآية الكريمة (4) يتضح أنها نزلت في أبي بكر
 وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - حين وَقَدَ ركبٌ من بني تميم ، فأشار أبو بكر
 بتأمير القعقاع بن معبد، واقترح عمرُ الأقرعُ بن حابس ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت
 إلا خلقي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا وارتفعت أصواتهما في المسجد ،
 فأنزل الله هذه الآية (5).

ومعلوم أن أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - أفضل البشر على الإطلاق بعد
 رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - ، وواضح أنهما لم يرفعا أصواتهما على
 رسول الله - ﷺ - ، وإنما رفعا أصواتهما على بعضهما البعض بحضرة الرسول - ﷺ -
 - وبينهما فرق كبير- ، بدون قصد منهما، ورغم ذلك حذرهما الله - سبحانه وتعالى -
 بحبوط أعمالهما بسبب ذلك، وهما اللذان ورد في فضلهما الكثير الكثير.

فما بال المستهزئ عمداً ، والشاتم علناً ، فإن هؤلاء أولى بذلك الحكم 1؟.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : ((فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي ،
 والجهر له بالقول، يُخاف من أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ، ويحبط عمله بذلك ،

(1) الحجرات / 2 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 409/7.

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 221/26.

(4) وأما السبب الآخر فيقال : أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، كان في أذنه وقر ، وكان جهوري

الصوت ، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم الرسول - ﷺ - فيتأذى بصوته .

(5) انظر أسباب النزول ص 401، 402.

وأن رفع الصوت قد يشتمل على أذى له ، واستخفاف به ، وإن لم يقصد الرفع ذلك ، فإذا كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل فيه سوء الأدب من غير قصد صاحبه يكون كفراً ، فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفر بطريق الأولى)) (1).

ولا يقتصر ذلك الحكم وهو الكفر وحبوط العمل على سب الرسول الكريم - محمد ﷺ - ، بل هو حكم سب سائر الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - والطعن فيهم ، والاستهزاء بهم ، وتنقصهم ، وإنكار نبوة واحد منهم ، أو إنكار معجزاتهم وآياتهم .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ (2).

وإضافة لذلك أجمع العلماء على تكفير ساب أي نبي من الأنبياء ، ويحكي ذلك الإجماع ابن تيمية - رحمه الله - قائلاً : ((من خصائص الأنبياء أن من سب نبياً من الأنبياء قُتل باتفاق الأئمة، وكان مرتداً ، كما أن من كفر ، بما جاء به كان مرتداً ، فإن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله)) (3).

3. الخلود في جهنم :

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ (4) قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ (5).

توعد الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة الذين يؤذون رسوله الكريم - ﷺ - ، سواء بالأقوال ، أو الأفعال ، بأن يرثهم جهنم ، خالدين فيها أبداً ، لا يخرجون

(1) الصارم المسلول : ص 55 ، 56 باختصار .

(2) النساء / 150 ، 151 .

(3) الصفدية لابن تيمية ، (ت) محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية / القاهرة ، - بدون تاريخ- ، : 261/2.

(4) أي : أذن سامعة، يسمع من كل أحد ما يقول ، فيقبله ويصدقه . جامع البيان للطبري : 215/10 .

(5) التوبة / 61-63 .

منها ، وبذلك يُحرمون من كل خير ونعيم .

بعد كل ما سبق يتضح مدى خطورة سبِّ الله - عزَّ وجلَّ - ، وملائكته ،
ورسله، وكتبه، أو أيِّ واحد منهم، فإنَّ سَبَّ أَحَدِهِمْ كَسَبُ الْجَمِيعِ فِي الْحُكْمِ .
فليُنقِ الله الذين يسبون، ويشتمون ، ويستهزئون، ويظنون أنهم غير محاسبون؛
لأنهم يمزحون - كما يزعمون - ، ونسوا قول الحق - جلَّ وعلا- : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ
وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (1).

المطلب الثاني : ادعاء النبوة

إن الله - سبحانه وتعالى- حينما خلق الخلق لم يتركهم يتخبطون في ظلمات
الجهل و الضلال، بل أرسل إليهم رسلاً كراماً اصطفاهم من بين سائر خلقه؛ ليلبغوا
رسالاته و أوامره ، ووحيه إلي عبادته، و يبينوا لهم طريق الخير من طريق الشر، قال
تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (2).
وباستقراء قصص الأنبياء يتأكد لدينا بأن هذا الاختيار من قبل الله لرسله لا يكون
باكتساب، ولا بوراثنة، بل هو اصطفاء و اختيار من عنده تعالى لمن يشاء من
خلقه ويصطفي .
يقول السفاريني:

ولا تُتَّالِ رُتْبَةُ النَّبِوَةِ بالكسبِ والتَّهْذِيبِ وَ الْفَنَوَةِ
لَكِنَّهَا فَضْلٌ مِنَ الْمَوْلَى الْأَجَلِّ لَمَّا يَشَاءُ مِنْ خُلُقِهِ إِلَى الْأَجَلِّ (3)

لذا لا يجوز لأي شخص أن يدَّعي النبوة كذباً وزوراً؛ لأن ذلك يعتبر من أشنع
الكذب، وأعظمه، بل هو من أظلم الظلم، وأشد الافتراء، وقد وضح - سبحانه
وتعالى - أن هذا الادعاء والافتراء من صفات الكافرين المكذبين الذين لا يؤمنون
بآيات الله، وتوعدهم بالعذاب المهين. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (4).

(1) التوبة / 65 .

(2) الحج / 75 .

(3) لوامع الأنوار البهية شرح الدرّة المضية لمحمد السفاريني، المكتب الإسلامي / بيروت - بدون تاريخ - 267/ 2.

(4) الأنعام / 21 .

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((و نفي الفلاح عنه يدل علي هلاكه، وأنه من أهل النار)) (1).

ويقول ابن كثير - رحمه الله - : ((أي لا أظلم ممن نقول علي الله فادعى أن الله أرسله)) (2).

وقد حُكِم علي مدعي النبوة بالكفر لعدة اعتبارات:

(أ) أن ادعاء النبوة كذب و افتراء علي الله - سبحانه وتعالى - ، حيث زعم بأن الله أرسله، ولم يرسله.

1. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (3).

2. وقال أيضاً: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (4).

3. وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (5).

فهذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها الكثير توضح مدي عقوبة المفترري علي الله - سبحانه وتعالى- الكذب ، تؤكد كفره ، كما أنها تبين أنه لا أحد أعظم ظلماً، ولا أعتى ولا أشد جرماً، ممن كذب علي الله - تعالى- ، وزعم أن الله أرسله، ويوحى إليه وهو كاذب في ذلك، بالإضافة إلي جرأته علي الله - سبحانه وتعالى- ويوجب علي الخلق أن يتبعوه، ويقتفوا أثره .

(ب) أن ادعاء النبوة تكذيب لصريح القرآن الكريم، حيث أكد القرآن أن محمداً ﷺ - خاتم النبيين ، ولا نبي بعده.

(1) أضواء البيان للشنقيطي: 5 / 567.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 2 / 129.

(3) الأنعام / 93 .

(4) يونس / 17 .

(5) الأنعام / 21 .

1. قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (1).

يقول الألووسي : ((والمراد بكونه - عليه الصلاة والسلام - خاتمهم انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقليين بعد تحليه - ﷺ - بها في هذه النشأة)) (2).
(ج) أن ادعاء النبوة تكذيب وإنكار لما تواتر عن رسول الله - ﷺ - من أحاديث تبين وتؤكد أنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده.

1. روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون) (3).

2. كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فحسنته وجملة، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون به، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟، قال : فأنا اللبنة، أنا خاتم النبيين) (4).

فهذه الأحاديث النبوية الشريفة نص صريح في أنه - ﷺ - خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، وبالتالي فإن منكر ذلك كافر جاهد.

كما أجمع علماء الأمة الإسلامية علي تكفير مدعي النبوة :

يقول الألووسي : ((وكونه - ﷺ - خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعي الخلافة، ويقتل أن أصر)) (5).

ويقول الإمام النووي : ((إذا ادعي النبوة بعد نبينا - ﷺ - ، أو صدق مدعياً لها... فكل هذا كفر)) (6).

(1) الأحزاب / 40 .

(2) روح المعاني للألووسي : 34/22 .

(3) أخرجه (خ) ، ك(أحاديث الأنبياء) ، ب/50(ما ذكر من بني إسرائيل) ، 1073/2 ، ح(3455) .

(4) أخرجه (خ) ، ك(المناقب) ، ب/18(خاتم النبيين ﷺ) ، 1097/3 ، ح(3535) .

(5) روح المعاني للألووسي : 41/22 .

(6) روضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي ، المكتب الإسلامي/بيروت ، ط2 /1405هـ-1985م ،

. 64،65/10

وبذلك يتأكد كفر مدعي النبوة حيث نص القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والإجماع علي كفره، وما دام كفر فقد أحبط عمله.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (1).

المطلب الثالث : الدعاء و الاستغاثة بغير الله - عز وجل - :

أبدأ أولاً بذكر معاني الدعاء والاستغاثة، وما يقاربهما في المعني كالاستعانة والاستعاذة، ثم أنتى بذكر معاني الدعاء في القرآن الكريم.

الدعاء لغة :

السؤال والطلب ، يقال : دعوت الله أدعوه، ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير (2) .

الاستغاثة لغة:

طلب الغوث ، والنصرة، وأغاثة إذا نصره (3).

الاستعاذة لغة:

هي الالتجاء والاعتصام والتحرز، ويقال: عاذ به: أي لاذ به، ولجأ إليه واعتصم (4).

وأما الاستعانة :

هي طلب المعونة، والعون- وهو الظهير علي الأمر- (5).

الدعاء اصطلاحاً :

يقول الخطابي : ((ومعنى الدعاء استدعاء العبد ربه-عز وجل- العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية ، واستشعار الذلة البشرية، وفيه الثناء علي الله -عز وجل -، وإضافة

(1) إبراهيم / 18 .

(2) المصباح المنبیر ، ص103 ، وانظر لسان العرب : 360/4 .

(3) انظر نفس المرجع :ص236 ، ونفس المرجع : 139/10 .

(4) انظر نفس المرجع : ص225 ، ونفس المرجع : 464/9 ، 465 .

(5) انظر نفس المرجع : ص226 ، ونفس المرجع : 484/9 ، 485 .

الجود والكرم إليه)) (1).

الاستعانة اصطلاحاً:

هي طلب المعونة على ما لا قِيلَ للبشر بالإعانة عليه أولاً قَبْلَ للمستعين بتخصيله بمفرده (2).

معني الدعاء في القرآن الكريم :

ورد الدعاء في القرآن الكريم بعدة معاني منها:

أولاً : الدعاء بمعنى العبادة:

قال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (3).

يقول الشوكاني - رحمه الله - : ((قال أكثر المفسرين: المعني: وحدوني وابدوني)) (4).

وكذلك ورد عن النعمان بن بشير (5) - رضي الله عنه - أنه قال : سمعت

رسول الله - ﷺ - يقول علي المنبر : (الدعاء هو العبادة)، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ

لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (6).

ثانياً : الدعاء بمعنى الدين :

قال - تعالى - : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (7).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((فوضع كلمة الدين موضع الدعاء، وهو في

القرآن الكريم كثيراً جداً؛ ليدل علي أن الدعاء هو لب الدين ، وروح العبادة)) (8).

(1) شأن الدعاء للخطابي ، دار المأمون/دمشق ، ط1 1404هـ ، ص 4 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 184/1 .

(3) غافر / 60 .

(4) فتح القدير للشوكاني : 498/4 .

(5) النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي أبو عبد الله ، له ولأبويه صحبة ، وهو أول مولود ولد في الأنصار

بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة ، كان أميراً على الكوفة في عهد معاوية بن أبي سفيان ، قتل سنة ست وستين .

انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ جمال الدين المزي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط1 1413هـ ،

1992م ، 411/29 .

(6) أخرجه (ت) ، ك (تفسير القرآن) ب/3 (ومن سورة البقرة (م16-ت تابع 3) 54/5 ، ح(2969) ، وقال حسن

صحيح ، وأخرجه (د) ، ك (الصلاة) ، ب/358 (الدعاء) 641/2 ، ح(1479) ، وأخرجه (ج) ، ك(الدعاء) ،

ب/1 (فضل الدعاء) 324/2 ، ح(3086) وقال صحيح ، والآية في غافر / 60 .

(7) غافر / 14 .

(8) القواعد الحسان لتفسير القرآن ، لعبد الرحمن السعدي ، مكتبة المعارف/الرياض ، ط/1400هـ ، ص155 .

ولكن المقصود بالدعاء في هذا المطلب هو التذلل والخضوع، والرجوع والإنابة
لله وحده.

وبذلك يتضح أن الدعاء والاستغاثة والاستعانة والاستعاذة عبادات يجب صرفها
لله وحده، ولا يجوز إشراك غيره معه.
حكم من دعا أو استغاث بغير الله :

أما من دعا الإنسان ، أو استعان ، أو استعاذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله
- عز وجل - فقد كفر وخرج من الملة، مهما كان ذلك الغير .

1. قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (1).

يقول ابن عاشور : ((لا أحد أشد ضلالاً ، وأعجب حالاً ممن يدعون
من دون الله من لا يستجيب له دعاءه ، فهو أقصى حد من الضلالة ، ووجه
ذلك : أنهم ضلوا عن دلائل الوجدانية ، وادعوا الله شركاء بلا دليل ،
واختاروا الشركاء من الحجارة، وهي أبعد الموجودات عن قبول صفات الخلق
والنكوين، والتصرف، ثم يدعونها في نوائبهم، وهم يشاهدون أنها لا تسمع ولا تبصر
ولا تجيب)) (2).

2. وقال - تعالى - : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((ينهي تعالى رسوله أصلاً، وأمه أسوة له في
ذلك عن دعاء غير الله من جميع المخلوقين ، وأن ذلك موجب العذاب الدائم، والعقاب
السرمدى؛ لكونه شركاً، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار)) (4).
كما يؤكد علي أن الدعاء والاستغاثة وكذا الاستعانة والاستعاذة بغير الله مخرج
من الملة عدة آيات منها :

(1) الأحقاف / 5 ، 6 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 11/26 ، 12 .

(3) الشعراء / 213 .

(4) تفسير السعدي : 235/2 ، 236 .

1. قول الله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (1).

2. وقوله - عز وجل - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (2).

3. وقوله أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ (3) . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (4).

فهذه الآيات الكريمة وغيرها الكثير، توضح أن دعاء غير الله تعالى يعتبر من الشرك بالله عز وجل، وذلك يؤدي إلي الكفر - والعياذ بالله -، وإذا ثبت دعاء داع غير الله ، فإنه يتأكد حبوط عمله حيث إن الكفر من موجبات حبوط العمل .
كما أجمع أهل العلم علي أن من دعى غير الله، أو استغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو كافر خارج من الملة الإسلامية وبالتالي فقد حبط عمله.

وقد حكى ذلك الإجماع شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حين قال :
((فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ، ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفرغ الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين)) (5).

كما أكد ابن القيم - رحمه الله - علي أن دعاء غير الله يعتبر من الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة فيقول : ((ومن أنواعه- الشرك الأكبر- طلب الحوائج

(1) الأنعام / 40 ، 41 .

(2) الأعراف / 37 .

(3) أي : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 324/14 .

(4) فاطر / 13 ، 14 .

(5) مجموع الفتاوى : 124/1 .

من الموتى ، والاستعانة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه خيراً أو نفعاً، فضلاً عن استغاث به ، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له.... وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده)) (1).

وأختم ذلك المطلب بفائدة رأيت من الضروري تذييل المطلب بها وهي أنه يجب علي العباد دعاء الله - عزّ وجل - ، ولكن لا يجب على الله الاستجابة ؛ لأنه لا يجب علي الله شيء للعباد.

يقول ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (2).

((والآية دلت علي أن إجابة دعاء الداعي تفضل من الله علي عباده، غير أن ذلك لا يقتضي التزام إجابة الدعوة من كل أحد، وفي كل زمان....؛ لأنه لم يقل : إن دعوني أجبتهم)) (3).

ولكن هناك أسباب تجعل احتمال قبول الدعاء وتحققه أقوى وأكبر.

يحدثنا السعدي - رحمه الله - عن هذه الأسباب قائلاً : ((فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء من مأكّل الحرام ونحوه ، فإن الله وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ، ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به الموجب للاستجابة)) (4).

المطلب الرابع : الكذب على الله - عزّ وجل - :

الكذب لغة : نقيض الصدق، يقال : كذب يكذب كذباً، وكذباً، وكذباً، وكذباً... ويقال : رجل كاذب وكذاب، وتكذاب، وكذوب، وكذوبة، وكذبية، مثال همزة (5).

(1) مدارج السالكين : 312/1 .

(2) البقرة / 186 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور / 180/2 .

(4) تفسير السعدي : 138/1 .

(5) لسان العرب : 704/1 ، وانظر مختار الصحاح : ص 565 .

الكذب اصطلاحاً:

هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ، سواء تعمد ذلك الكاذب أم جهله (1).

وباستقراء المعنى اللغوي ، و الآيات التي تتحدث عن الكذب ، يتبين أن المعنى الاصطلاحي للكذب يشتمل على أمرين :

الأول : أن يقول المسلم خلاف الصدق فيما لا يتعلق مباشرة بالدين ، كأن يكذب الإنسان فيقول حدث كذا وهو لم يحدث ، أو فلان قال كذا وهو لم يقل .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (2) .
وقال أيضاً : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ (3) .

الثاني : أن يقول المسلم خلاف الصدق فيما يتعلق بالدين مباشرة ، وذلك بأن يكذب على الله ورسوله ، كأن يقول إنسان أوحى إليّ ، ولم يوح إليه ، أو يقول هذا القرآن ليس كلام الله ، أو غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (4) .

والذي نعنيه في هذا المطلب هو الكذب بالمعنى الثاني ، أي أن يكذب المسلم فيما يتعلق بأمور الدين مباشرة وهو حرام بالإجماع .

(1) انظر الأذكار ، ص 397 .

(2) يوسف / 26 ، 27 .

(3) الأنعام / 24 .

(4) آل عمران / 78-80 .

حكم الكذب على الله - عز وجل - :

يقول النووي - رحمه الله - : ((وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، وإجماع الأمة منعقد على تحريمه مع النصوص المتظاهرة)) (1).

وهذا النوع من الكذب يبطل و يحبط العمل ؛ لأدلة كثيرة منها:

1. قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (2).

يقول الزحيلي : ((ويحمل حال هؤلاء المتكبرين أن الله لم يخلقهم مطبوعين علي الكفر والضلال ، ولم يجبرهم عليه ، بل حدث ذلك باختيارهم، إذ أنهم كذبوا بالآيات وانغمسوا بأهوائهم وشهواتهم ، وحجبوا أفهامهم عن إدراك الحق والهدي، وسلوك سبيل السعادة والنجاة... ثم وضع الله تعالى مآل ما قد يعملونه من أعمال خيِّرة في الدنيا، وهو إحباطها وإبطالها، وتلاشي آثارها، وعدم ترتيب الثواب عليها، فقال : والذين كذبوا بآياتنا المنزلة علي رسلنا، ولم يؤمنوا بها، ولم يصدقوا بالآخرة والبعث، وما فيه من جزاء علي الأعمال ثواباً علي الخير، وعقاباً علي الشر، واستمروا علي وضعهم هذا إلي الممات، وبطلت أعمالهم وذهبت سدى)) (3).

2. قال أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (4).

3. قال أيضاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ (5).

إن هذه الآيات الكريمة توضح مدي هوان المكذبين علي ربهم، كما توضح عظم وشدة عذابهم حيث إنه تعالى قرنهم في الآية الأولى مع الكافرين، وجعلهم أصحاب النار، مما يدل علي الملازمة .

أما الآية الأخرى : فالهول فيها أشد و أكبر.

(1) الأذكار ، ص 395 .

(2) الأعراف / 147 .

(3) التفسير المنير للزحيلي : 92/9 بتصرف يسير جداً .

(4) البقرة / 39 .

(5) الأعراف / 40 .

يقول الشيخ السعدي عند تفسيره لها : ((يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبروا عنها، فلم ينقذ لأحكامها، بل كذب وتولي ، أنهم آيسون من كل خير ، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد الخروج إلي الله ، فتستأذن فلا يؤذن لها ، كما لم تصعد في الدنيا إلي الإيمان بالله ومعرفته ، ومحبته، وكذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل)) (1).

كما أكد رسول الله -ﷺ- علي تحريم الكذب ، وبين أن مآل صاحبه النار وبئس القرار ، فقال ﷺ : (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) (2) .

(1) تفسير السعدي : 795/1 .

(2) أخرجه (ت) ، ك (تفسير القرآن) ، ب/1 (ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه) ، 183/5 ، ح (2950).

المبحث الثاني

محبطات قولية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : القذف

المطلب الثاني : الغيبة

المطلب الثالث : النميمة

المطلب الرابع : المنُّ في العطاء

المطلب الخامس : أذية المسلمين وشتمهم .

المبحث الثاني

محبطات قولية لا تخرج من الإسلام

وسأتناول في هذا المبحث الحديث عن الأقوال التي إن نفوه بها الإنسان ، تحبط عمله الصالح ، ولكنه يبقى في دائرة الإسلام ، لا يخرج منها بهذا القول .

المطلب الأول : القذف

(أ) القذف لغة :

الرمي، يقال: قذف بالحجارة أي رمي بها، و قذف المحصنة رماها بزنية ، والتقاذف الترامي، وهو في الأصل رمي الشيء بقوة ، ثم استعمل في الرمي بالزنى ونحوه (1).

(ب) القذف شرعاً:

الرمي بالزنى (2).

يقول الإمام الذهبي- رحمه الله - : ((القذف هو أن يقول شخص عن امرأة، أو فتاة محصنة عفيفة أنها زنت ، أو نحو ذلك)) (3).

عقوبة القذف :

بيّن الله تعالى عقوبة القذف في عدد من الآيات :

1. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (4).
2. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (5).

فالقاذف إذن له عقوبتان ، دنيوية ، وأخروية :

(1) القاموس المحيط : 3 / 83 .

(2) فتح القدير للشوكاني 10/4، وتفسير السعدي: 2 / 144 .

(3) الكباير للإمام الذهبي، دار ابن المبارك للنشر و التوزيع، ط⁴ 1416هـ ، ص²¹.

(4) النور / 4 .

(5) النور / 23 .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة.... فأوجب علي القاذف إذا لم يقدّم البينة علي صحة ما قال ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . والثاني : أن ترد شهادته أبداً .

والثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعدل ، لا عند الله ، ولا عند الناس))⁽¹⁾ .

وهذه الأمور الثلاثة هي بمعنى اللعن في الدنيا .

يقول ابن عاشور - رحمه الله - : ((واللعن في الدنيا: الفسق، وسلب أهلية الشهادة، واستباحاش المؤمنين، وحدّ القذف . أما اللعن في الآخرة : فهو الإبعاد من رحمة الله، والعذاب العظيم: وهو عذاب جهنم))⁽²⁾ .

أي أن القاذف محروم من رحمة الله - عزّ وجل - في الآخرة، وليس له إلا عذاب جهنم - والعياذ بالله -، إلا أن يتغمده الله - تعالى - برحمته .

وهذا الحكم والعقاب كما أنه ينطبق علي قاذف النساء؛ فهو أيضاً ينطبق علي قاذف الرجال بلا خلاف، وإنما خصت النساء بالذكر: إما للتغليب، أو لأن القذف في حقهن أشنع .

يقول الإمام الشوكاني موضعاً تلك المسألة : ((والمراد بالمحصنات: النساء، وخصهن بالذكر؛ لأن قذفهن أشنع، والعار فيهن أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة))⁽³⁾ .

كما ذمّ رسول الله - ﷺ - القذف، و عدّه كبيرة من الكبائر، بل من الموبقات السبع، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول ما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)⁽⁴⁾ .

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 273/3 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 191/18 .

(3) فتح القدير للشوكاني : 10/4 .

(4) أخرجه (خ) ك (الوصايا) ، ب/23 (قول الله تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما

يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً ﴾) ، 2 / 853 ، ح (2766) ، وأخرجه (م) ، ك (الإيمان)

ح/264 ، ح(145) .

يقول ابن قدامة : وعلى هذا انعقد الإجماع في تحريم القذف جج (1).
وقد اختلف المفسرون فيمن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ
الْمُحْسَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (2).
فقال سعيد ابن جبير: هي خاصة فيمن رمى عائشة - رضي الله عنها - ،
وقال مقاتل: هي خاصة بعبد الله رأس المنافقين، وقال الضحاك والكلبي: هذه الآية في
عائشة وسائر أزواج النبي - ﷺ - دون سائر المؤمنين والمؤمنات، وقيل : إنها خاصة
بمشركي مكة؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر (3).
واختار الطبري القول القائل بأنها نزلت في شأن عائشة - رضي الله عنها -
وأردف قائلاً : والحكم بها عام في كل من رمى محصنة غافلة مؤمنة بالفاحشة لأن
الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (4).

والقذف يحبط العمل ويبطله، حيث إنه يأكل حسنات القاذف، وينقلها إلى
المقذوف، فإن لم يكن له حسنات نقلت من سيئات المقذوف إلى سيئات القاذف حتى
يقضي ما عليه - والعياذ بالله - ويؤكد ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن
رسول الله - ﷺ - حين سأل أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - : (أتدرون من
المفلس؟ قالوا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة
بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا،
وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي
ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار) (5).

يقول الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث الشريف : ((أما حقيقة المفلس هذا
المذكور في الحديث فهو الهالك الهالك التام، والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ
حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم، فوضع عليه، ثم ألقى في النار،
فتمت خسارته، وهلاكه، وإفلاسه)) (6).

(1) انظر المغني لابن قدامة ، هجر / القاهرة ، ط 2 1413 هـ - 1992 م ، 383/12 .

(2) النور / 23 .

(3) فتح القدير للشوكاني : 4 / 22 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 213 / 12 .

(4) انظر جامع البيان للطبري : 140/18 .

(5) أخرجة (م) ،ك(البر والصلة والآداب) ، 104/16 ، ح(59).

(6) صحيح مسلم بشرح النووي : 141/16.

ولكن يرى الإمام القرطبي - رحمه الله - غير ذلك، فيرى أن القذف لا يحبط العمل، قائلًا: (في هذه الآية (1) دليل على أن القذف - وإن كان كبيراً - لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله - يعني قذفه لعائشة - - رضي الله عنها - بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (2).

ولا أدري من أين جاء - رحمه الله - بهذا الجزم والقطع بأن الكبيرة لا تحبط العمل، وأنه لا يحبط العمل غير الشرك بالله، فماذا صنع - رحمه الله - بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (3).

فالآية الكريمة تتحدث عن أحب الدنيا، وأرادها إرادة تامة، بالرغم من إيمانه. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (4).

فهذه الآية الكريمة تتحدث عن وآلى غير المسلمين، برغم انتمائه للإسلام. وماذا صنع - رحمه الله - بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (5).

فهذه الآية الكريمة صريحة الدلالة، حيث إنها تخاطب المؤمنين، وتحذرهم من احتمال حبوط عملهم الصالح إذا رفعوا أصواتهم فوق صوت النبي - ﷺ -، بالرغم من إيمانهم.

وبالنظر في سبب نزول هذه الآية الكريمة نرى أنها نزلت في أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -، وهما أشد أهل الأرض إيماناً بعد الأنبياء (6).

(1) يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ النور/11.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 211/12، والآية في الزمر/65.

(3) هود / 16 .

(4) المائدة / 53 .

(5) الحجرات / 2 .

(6) انظر أسباب النزول، ص 219 .

وأيضاً باقي الآيات الكريمة التي تتحدث عن محببات العمل الصالح ، وهي ستة عشر آية.

وكذلك ماذا فعل - رحمه الله - بالأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن المحببات ، والتي منها قوله - ﷺ - : (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)⁽¹⁾. ومعلوم أن المسلمين هم الذين يصلون، وأيضاً حديث المفلس السابق الذكر . فهذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، توضح أنه توجد أقوال وأفعال غير الشرك بالله تحبط العمل الصالح وتبطله .

ولكن باب التوبة مفتوح ، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً بشروطها ، تقبلها الله منه - بإذنه - وكفر عنه ذنوبه ، ولو من الكبائر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾⁽²⁾ .

إلا أن يكون - رحمه الله - بقوله : ((القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال الأعمال ... ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله)) حبوطاً كاملاً بحيث يذهب بجميع الحسنات لا بعضها ، ومعلوم كما سيتقرر لاحقاً أن الحبوط قسمان كلي وجزئي . فيكون المراد هنا الحبوط الجزئي .

المطلب الثاني: الغيبة

الغيبة خلق ذميم، ياباه الشرع، والعقل السليم ، والمجتمع النظيف، وهي مرض اجتماعي خطير، آثاره مدمرة للفرد والمجتمع.
(أ) الغيبة لغة :

من الاغتيال، واغتاب الرجل صاحبه اغتياًباً: إذا وقع فيه، وغابه يغيبه : إذا عابه، وذكر منه ما يسوءه⁽³⁾.

(ب) الغيبة اصطلاحاً :

إن خير من عرفها هو المعلم الأول - ﷺ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال لأصحابه الكرام - رضي الله عنهم - (أتدرون ما الغيبة؟

(1) أخرجه (خ)،ك(مواقيت الصلاة)، ب/15(من ترك العصر)، 184/1، ح(553).

(2) الزمر / 53 .

(3) لسان العرب :152/10، وانظر القاموس المحيط :1/116 .

قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : ذكرك أخاك بما يكره، قيل : أ رأيت إن كان في أخي ما أقول ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهتته (1).

ثم استنبط المفسرون لها من خلال تعريف الرسول -ﷺ- عدة تعريفات متقاربة: فعرّفها الإمام الشوكاني بقوله: الغيبة أن تذكر الرجل بما يكرهه (2). وعرّفها ابن عاشور بقوله : الاغتيا ب : ذكر أحد غائب بما لا يجب أن يذكر به (3).

فالغيبة إذن هي: أن يذكر أخٌ له في الإسلام بشيء يكرهه في غيبته، بحيث لو كان موجوداً لم يرضَ بسماع ما قيل عنه، وسواء كان ذلك الذكر في الدين ، أو في النفس، أو في الخلق، أو في أي أمر يتعلق به.

والغيبة لا تقتصر على اللسان ، بل تكون بجميع الجوارح ، فحيثما استطاع المغتاب إفهام الغير ما ينوي قوله بأي طريقة فهي الغيبة بعينها، ولها نفس حكم الغيبة. يقول القحطاني - رحمه الله -: ((والغيبة لا تختص باللسان، فحيثما أفهمت الغير بما يكره المغتاب ولو بالتعريض، أو الفعل ، أو الإشارة ، أو الغمز، أو اللمز ، أو الكتابية ، وكذا سائر ما يتوصل به إلي المقصود ؛ كأن يمشى مشيه ، فهو الغيبة ، بل هو أعظم من الغيبة ؛ لأنه أعظم وأبلغ في التصوير والتفهيم)) (4).
أدلة تحريم الغيبة :

والغيبة محرمة بالكتاب والسنة ، و إجماع علماء الأمة ، حيث نهى الشارع الحكيم عن الغيبة في عدة مواطن ؛ أذكر منها:
أولاً : من القرآن الكريم :

1. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (5).

(1) أخرجه (م) ،ك(البر والصلة والآداب) ، 16/109 ، ح(70).

(2) فتح القدير للشوكاني : 5/65 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 26/254 .

(4) آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة لسعيد بن علي القحطاني ، مكتبة أبي بكر الصديق/القاهرة - بدون

تاريخ - ص 12 .

(5) الحجرات / 12 .

يقول الإمام الشوكاني : ((مَثَلُ اللَّهِ سبحانه الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه ،... وفيه إشارة إلي أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم لحمه يحرم الاستطالة في عرضه)) (1).

2. وقال - عز وجل - : ﴿ وَيَلَّ لُكُلٌ هُمْزَةً لُْمَزَةً ﴾ (2).

يقول الشوكاني - رحمه الله - : ((والمعنى : خزي ، أو عذاب ، أو هلكة ، أو واد في جهنم لكل هُمْزَةً لُْمَزَةً... والهمزة اللزمة : الذي يغتاب الناس)) (3).
ثانياً : من السنة النبوية المشرفة :

كما أكدَّ الرسول الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - حرمة الغيبة والخوض في أعراض المسلمين .

عن أبي بكرة (4) - رضي الله عنه - قال : قال - ﷺ - في خطبة الوداع : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) (5).

ففي هذا الحديث الشريف ينهى الرسول الكريم - ﷺ - عن الغيبة ، ويبين شدة خطورتها، ويحذر منها.
ثالثاً : إجماع العلماء :

أجمع العلماء على تحريم الغيبة ، وهاك بعض أقوالهم :

1. قال الطبري - رحمه الله - : ((حرَّم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء ، كما حرَّم الميتة)) (6).

2. وقال القرطبي : ((ولا خلاف أن الغيبة من الكبائر)) (7).

(1) فتح القدير للشوكاني : 5/65 ، وانظر جامع البيان للطبري : 26/178 .

(2) الهمزة / 1 .

(3) فتح القدير للشوكاني : 5/492 ، وانظر أضواء البيان للشنقيطي : 9/281 .

(4) هو نُفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة ، وإنما قيل له : أبا بكرة ؛ لأنه تدلى من حصن الطائف إلى النبي ﷺ فأعتقه يومئذ ، مات بالبصرة في ولاية زياد سنة خمسين . تهذيب التهذيب

لابن حجر العسقلاني ، دار الفكر ، ط 1415 هـ - 1995 م ، 8/537 ، 538 .

(5) أخرجه (خ) ، ك(العلم) ، ب/37 (ليبلغ العلم الشاهد الغائب) ، 1/60 ، ح(105) .

(6) جامع البيان للطبري : 26/178 .

(7) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 16/321 ، وانظر تفسير السعدي : 2/722 .

3. وقال ابن كثير - رحمه الله - : ((والغيبية محرمة بالإجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة)) (1).

ويبين ابن عاشور العلة من تحريم الغيبة قائلاً : ((والغيبية حرام.....؛ وذلك أنها تشتمل على مفسدة ضُعب في أخوة الإسلام ، وقد تبلغ الذي اغتیب ، فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه، فينتلم (2) بناء الأخوة ؛ ولأن فيها من الاشتغال بأحوال الناس ، وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له ، وترك ما لا يعنيه)) (3).

ولكن - وكما مرَّ معنا في كلام ابن كثير السابق - ليس كل الغيبة محرمة ، بل يستثنى منها مواطن ستة رخص الإسلام بها في تلك المواطن ، وهي مجموعة في قول الشاعر:

القدح ليس بغيبة في سنة متظلم، ومعرّف، ومحذر
ومجاهر فسقاً، ومستفت، ومن طلب الإعانة في إزالة منكر (4)

بواعث الغيبة :

- 1- إشفاء الغيظ من المغتاب ، فإن الرجل إذا غضب من آخر دفعته نفسه إلى الانتقام ولا يجد صاحب النفس المريضة إلا الغيبة .
- 2- موافقة الأقران ومجاملة الرفاق ، ومساعدتهم على الكلام .
- 3- التصنع والمباهاة والغرور بالنفس .
- 4- الحسد ، فبعض ضعاف القلوب عند سماعهم أناساً يكثرون الثناء على رجل علم أو أخلاق يحاولون تشويه صورته .
- 5- إشغال وقت الفراغ بالهزل والضحك .

الآثار المترتبة على الغيبة :

1. نفي كمال الإيمان عن قلب المستغيب :

نفي رسول الله - ﷺ - الإيمان الكامل عن قلب المستغيب ، فيما رواه عنه ابن عمر - رضي الله عنه - أنه قال : (يا معشر من أسلم بلسانه ، ولم يفض الإيمان إلى

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 214/4 .

(2) أي ينكسر . انظر لسان العرب : 124/2 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 256/26 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية ص48.

قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله (1).

والغيبة تشمل كل هذه الأمور ، فهي أذية للمسلمين ، كما أنها تتبع لعوراتهم .

2. إحباط العمل .

والغيبة كذلك تحبط العمل الصالح ، وتبطل ثوابه ، وتأكل حسنات الخائض فيها .
عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، أن رسول الله - ﷺ - قال : (رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر) (2).

هذا الحديث الشريف يوضح أن الغيبة قد أبطلت أجر الصيام ، فلم ينله منه إلا الجوع والعطش ، دون الأجر ، وكذلك أبطلت أجر الصلاة ، فلم ينله منها إلا القيام ، والسهر ، والتعب ، ولم يحصل له الأجر والثواب المرجو من وراء مثل هذه العبادات .
يقول الهيثمي : (يتعين معرفة علاج الغيبة ، وهو إما إجمالي ؛ بحيث يتعرض فيها المغتاب لسخط الله وعقوبته ، كما دلت عليه الآية والأخبار ، وهي أيضاً تحبط حسناته ، كما في ذلك الحديث ؛ حيث يؤخذ من حسناته إلى أن تفتى ؛ فإن بقي عليه شيء وضع عليه من سيئات خصمه ، ومن المعلوم أن من زادت حسناته كان من أهل الجنة ، أو سيئاته كان من أهل النار .. ، فليحذر المغتاب أن تكون الغيبة سبباً لفناء حسناته ، وزيادة سيئاته ، فيكون من أهل النار) (3).

ولا يقع إثم الغيبة على المغتاب فقط ، بل على المستمع أيضاً ؛ لذا يجب على من سمعها أن ينكرها بكافة الطرق والوسائل ، أو أن يدافع عن المغتاب ما استطاع ، روى أبو الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : (مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ رَدًّا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ أَنْ يَكْفُرْ بِهِ) (4) ، فإن لم يستطع ذلك فارق المجلس فوراً .

(1) أخرجه (ت) ، ك(البر والصلوة) ، ب/85 (ما جاء في تعظيم المؤمن) ، 4/144 ، ح(2032) ، وصححه الألباني في صحيحه ، 2/1322 ، ح(7984).

(2) أخرجه (ج) ، ك(الصيام) ، ب/21 (ما جاء في الغيبة والرفق للصائم) ، 1/282 ، ح(1371) ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني : 1/656 ، ح(3488) .

(3) الزواجر عن اقتراف الكبائر للشيخ ابن حجر الهيتمي ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة للرياض ، ط¹ 1417هـ - 1996م ، 20/563 بتصرف يسير .

(4) أخرجه (حم) ، 6/499 ، ح(27530) ، وصححه الألباني في صحيحه : 2/1074 ، ح(6262).

المطلب الثالث : النميمة

النميمة مرض من أمراض النفوس التي انتشرت في المجتمع الإسلامي، فهدمت الأسر، وفرقت الأحبة، وقطعت الأرحام .

(أ) النميمة لغة :

رفع الحديث على وجه الإشاعة والإفساد، وقيل: تزيين الكلام بالكذب، يقال: نمَّ يَنِمُّ، ونمَّ به، وعليه نمًّا ونميماً، فالنميمة والنميم هما الاسم، والنعت نمَّام، وقيل النميم جميع النميمة (1).

(ب) النميمة اصطلاحاً:

هي نقل كلام بعض الناس لبعض؛ بقصد إفساد قلوبهم، وقطع صلاتهم، وذهاب موداتهم (2).

أدلة تحريم النميمة :

والنميمة محرمة بالكتاب ، والسنة، وإجماع علماء الأمة، وهي كبيرة من

الكبائر:

أولاً : من القرآن الكريم

1. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلِافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (3).

اتفق المفسرون على أن المشاء بنميم هو المنام الذي يمشي بالنميمة بين الناس؛ ليفسد بينهم ، ودافعه إلى ذلك احتقار الناس ، والطعن فيهم. من أجل ذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن طاعة ذلك الإنسان الكذاب، خسيس النفس، سيئ الأخلاق، كثير المعاصي (4).

2. وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (5).

(1) انظر لسان العرب : 295/14 ، والقاموس المحيط: 185/4 ، والمصباح المنير: 298/2.

(2) انظر تفسير السعدي : 909/2 ، وصحيح مسلم بشرح النووي : 113/2.

(3) القلم / 10 ، 11.

(4) انظر جامع البيان للطبري : 29 / 29 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 18 / 222 ، وتفسير السعدي

909 / 2 ، وتفسير أبي السعود : 9 / 13 ، والتفسير المنير للزحيلي: 29 / 52.

(5) الحجرات / 6 .

في هذه الآية الكريمة يصف الله - سبحانه وتعالى - النمام بالفسق، ويطلب من المؤمنين عدم تصديقه؛ لأنه فاسق كذاب، بل يجب عليهم أن يتأكدوا مما ينقله إليهم ، ويذكر القرطبي صفات النمام عند تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(أ) أنه كذاب.

(ب) معطن بالذنب.

(ج) لا يستحي من الله (1).

فهذه الصفات الثلاثة هي من أشنع الصفات، وأقبحها ، جمعها جميعاً النمام ، فاستحق بذلك أن يكون أخسَّ الناس.

3. وقال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (2).

والنميمة تعتبر من أشد الأذى الذي يلحق بالمؤمنين، ويفسد ذات بينهم، وينشر العداوة والحقد والبغضاء بينهم، وربما يكون من غير جناية منهم توجب الأذى، وخصوصاً إذا كانت تلك النميمة التي أشاعوها بين الناس مفعمة بالأكاذيب، والأقاويل الباطلة .

من أجل ذلك اعتبر المولي- جلّ وعلا - النميمة كبيرةً من الكبائر.

قال القرطبي : ((وقد بيّن تعالى أن أذى المؤمنين كبيرة)) (3).

4. وقال -جلّ ذكره-: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِذْعِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (4).

ذكر المفسرون بأنه سيكون في عنق زوجة أبي لهب حبل مفتول من سلاسل من النار ؛ لأنها كانت نمّامة، تحمل الحديث، وتنقله بين الناس؛ إفساداً بينهم علي رأى بعض المفسرين (5) (6).

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 16 / 297.

(2) الأحزاب / 58 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 14 / 230 .

(4) المسد / 4 ، 5 .

(5) أما الرأي الآخر للمفسرين : فلأنها كانت تحمل الشوك والحطب، وتضعه في طريق الرسول -ﷺ- .

(6) انظر جامع البيان للطبري: 15/447 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 4/564 ، والدر المنثور للسيوطي :

702/6

ثانياً : من السنة النبوية المطهرة:

ذمَّ الرسول -ﷺ- النميمة ، وبيّن أنها كبيرة ، وأنها سبب لدخول صاحبها النار في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة أذكر منها:

1. عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: (لا يدخل الجنة نَمَامٌ) (1).

2. وفي رواية عنه أيضاً: (لا يدخل الجنة قتات) (2).

يقول النووي : ((القتات هو النمام)) (3).

فإذا لم يدخل الجنة ، لم يكن له مأوي إلا النار على رأي بعض العلماء ؛ لأنه لا يكون في الآخرة : إلا الجنة أو النار .

ويوضح هذه المسألة الإمام النووي قائلاً: (وأما قوله -ﷺ- : (لا يدخل الجنة نَمَامٌ) ففيه تأويلان :

أحدهما: يحمل على المستحيل بغير تأويل مع العلم بالتحريم.

والثاني: لا يدخلها دخول الفائزين . والله أعلم. (4)

3. والنمام يبدأ عذابه في أول منازل الآخرة- القبر-.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: مرّ رسول الله -ﷺ- بقبرين ، فقال: (يعذبان وما يعذبان في كبير- ثم قال- بلي، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشى بالنميمة) (5).

يقول ابن حجر فقوله-ﷺ- (بلي إنه كبير): دليل على أن النميمة كبيرة من الكبائر (6).

النميمة محبطة للعمل الصالح :

4. والنميمة تحلق الحسنات، وتأكلها، أي أنها تؤدي إلي إحباط العمل.

(1) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 2 / 286 ، ح (168) .

(2) متفق عليه: أخرجه (خ) ، ك (الأدب) ، ب/50 (ما يكره من النميمة) ، 4/1912 ، ح (6056) ، وأخرجه

(م) ، ك (الإيمان) ، 286/2 ، ح (169) .

(3) صحيح مسلم بشرح النووي: 2/114 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي: 2 / 115 .

(5) أخرجه (خ) ، ك (الوضوء) ، ب/55 (من الكبائر أن لا يستتر من بوله) ، 1/91 ، ح (216) .

(6) فتح الباري : 1/397 .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال لأصحابه: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة) (1).

يقول العظيم آبادي في شرحه لقوله - ﷺ - : (وفساد ذات البين هي الحالقة) ، : (أي هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق الدين وتستأصله، كما يستأصل الموس الشعر وفساد ذات البين ثلثة في الدين) (2).

أي أن الإفساد، والسعي بين الناس بالنميمة يحلق الدين ويستأصله، وهذا دليل على حبوط العمل، فإن من حلق دينه، تبعه حلقٌ وحبوطٌ لحسناته - والعياذ بالله - .

ثالثاً : الإجماع :

وأما الإجماع على حرمة النميمة فقد حكاها الإمام النووي قائلاً: ((والنميمة محرمة بإجماع المسلمين، وقد تظاهر على تحريمها الدلائل الصريحة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة)) (3).

النميمة الجائزة :

ليس كل النميمة محرمة، بل هناك حالات تجوز فيها النميمة، كأن يخبر الرجل صاحبه بما يقال فيه إن كان في ذلك مصلحة .

ودليل ذلك ما رواه ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: (قَسَمَ رسول الله - ﷺ - قَسَمًا، فقال رجل: إنها قسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فأتيت النبي - ﷺ - فساررتة، فغضب من ذلك غضباً شديداً، واحمرَّ وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له، قال : ثم قال: (قد أوزي موسى بأكثر من هذا فصبر) (4).

(1) أخرجه (د) في سننه ، ك (الأدب) ، ب/58 (في إصلاح ذات البين)، 2097/4 ، ح (4919)، وأخرجه (ت) ، ك (صفة القيامة) ، ب/56 (م 56 - ت 121)، 387/4 ، ح (2509) وصححه الألباني في صحيحه ، 506/1 ، ح (2595).

(2) عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، ط 1411 هـ - 1991 م ، 178/13 .

(3) الأذكار ص 351.

(4) أخرجه (خ) ، ك (فرص الخمس) ، ب/19 (ما كان النبي - ﷺ - يعطي المؤلفه قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه) ، 9701/2 ، ح (3150) و أخرجه (م) ، ك (الزكاة) ، 126 /7 ، ح (141) واللفظ له.

ولم يرد عن رسول الله - ﷺ - أنه نَهَرَ أو وبخ ابن مسعود - رضي الله عنه -
على ما قاله ، ولكن صبر واحتسب - ﷺ - .

الفرق بين الغيبة و النميمة :

الغيبة و النميمة ، توأمان وهما متغايرتان ، وبينها فروق .

فالغيبة : هي أن يذكر المسلم أخاه المسلم بظهره بشيء يكرهه ، سواء كان بالقول ،
أو بالفعل ، بما فيه حقيقة ، ولكنه لو سمع ذلك الكلام لما رضى به .

أما النميمة : فهي أن ينقل الإنسان ما سمعه من كلام لمن قيل عنه بهدف
الإفساد بين الناس ، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، وربما يكون الكلام المنقول غير
صحيح ، أو مبالغاً فيه ، بعكس الغيبة ، فما قيل فيها يكون صدقاً ، ولو كان كذباً يصبح
بهتاناً لا غيبة .

فالنميمة إذن أعم من الغيبة ، فهي جمعت معنى الغيبة ، وزيادة .

فعلى الذين يسعون بين الناس بالنميمة أن يتقوا الله ، وينظروا إلى حجم
المصائب التي تسببوا بها ، فكم فرقوا بين الأهل والأصحاب ، وكم أشعلوا نار الفتنة
والحقد والخلاف بين الأحباب ، وليعلموا أن الله لن يتركهم سدى ، بل سوف يحاسبهم
على ذلك ، ولا يحسبون أن السعادة التي يشعرون بها عند إيقاع الخلاف بين الناس
دائمة ، بل هي كالسراب سرعان ما تزول ؛ ليحل محلها الحزن والندم ، والأسى
والحسرة على أنفسهم قبل غيرهم حين يجدون حبوط عملهم - والعياذ بالله - .

كما يجب على الذين تنقل إليهم النميمة ألا يصدقوا ما يقال لهم ، وألا يحقدوا
على إخوانهم المسلمين ، بل يجب أن يظهروا إسلاميتهم في مثل هذه المواطن ،
فينهروهم وينهوهم ، ولا يصدقوهم ، وليتأكدوا أن من ينقل لهم ينقل عنهم .

المطلب الرابع: المن في العطاء

(أ) المن لغة :

يقول ابن فارس: الميم والنون أصلان: أحدهما يدل على قطع وانقطاع ،
والآخر على اصطناع الخير ، أما ما يدل على اصطناع الخير فهو: من يمن مناً ، إذا
صنع صنيعاً جميلاً ، وربما قالوا: من بيد أسداها ، إذا قرع بها ، وهذا يدل على أنه قطع

الإحسان، فهو من الأول (1).

(ب) المن اصطلاحاً:

هو ذكر النعمة على معنى التعدد لها، والتفريع بها، مثل أن يقول: قد أحسنت إليك، وشبهه (2).

وعليه يكون المن: بأن يتحدث المعطي بعبائه أمام من أعطاه، أو أمام غيره من الناس، إشعاراً بالفضل عليه.

والمن يكسر قلب المعطى، ويشعره بالذل والهوان؛ لذلك كان مفسداً للعطاء، فكثير من أهل العطاء يفسدون عطاءهم وبذلهم بالمن على الذين يعطونهم من ذوي الحاجات؛ من أجل ذلك كان المن مبطلاً أجر تلك الصدقة .

مراحل محاربة القرآن الكريم للمن في العطاء :

أَكَّدَ اللهُ - تبارك وتعالى - النهي عن إتباع الصدقة بالمن، وصور ذلك النهي في ثلاث مراحل :

الأولى: من خلال بيان أجر عدم المن في العطاء.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (3).

ففي هذه الآية الكريمة بيان لمبلغ الأجر العظيم للمنفقين في سبيل الله، الذين لا يتبعون ما أنفقوا مناً، أو أذى .

ومن مفهوم المخالفة أن من أتبع صدقته مناً، أو أذى، فإنه قد حرم نفسه من أجرها. يقول الإمام ابن كثير: ((بمدح الله - تبارك وتعالى - الذين ينفقون في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً علي من أعطوه، فلا يمتنون به)) (4). ويقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((يفهم من هذه الآية أن من أتبع إنفاقه المن والأذى لم يحصل له هذا الثواب المذكور)) (5).

(1) معجم مقاييس اللغة : 267/5.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 308/3 ، وانظر تفسير أبي السعود: 258/1.

(3) البقرة / 262 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 317/1 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي : 178/1 .

الثانية : من خلال المقارنة بين العطاء والمنّ، وبين المنع والقول اللين.
قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٌ﴾ (1).

ففي هذه الآية الكريمة صورة للمقارنة بين عطاء يتبعه أذى، ومنع مقرون بقول معروف، لين، مهذب، وبيان أن هذا خير وأفضل.
ويقول الإمام الطبري: ((القول الجميل، ودعاء الرجل لأخيه المسلم، وستره عليه لما علم من سوء حالته، فذلك خير عند الله من صدقة يتصدقها عليه، ثم يتبعها أذى، يعني: يشتكيه عليها، ويؤذيه بسببها)) (2).
الثالثة: أن المنّ يحبط العمل .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ (3).
ففي هذه الصورة بيان أن إتباع الصدقة بالمنّ والأذى يبطل لها، مفسدًا لجوهرها الكريم، محبطًا للأجر عليها.
يقول ابن كثير- رحمه الله - : ((أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنّ والأذى، فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المنّ والأذى)) (4).
من خلال هذا العرض القرآني السريع يتضح أن المنّ في العطاء، وإظهار التفضل علي المعطي، يبطل أجر تلك الصدقة مهما كانت، ويجعلها هباءً منثوراً كأن لم تكن .

الصورة البيانية التي رسمها القرآن الكريم لحبوط أجر المنّ:

شبه القرآن الكريم حال من يبطل صدقته بالمنّ والأذى بحال المرائي الذي ليس له أجر أصلاً؛ لأنه لم ينفق في سبيل الله، وإنما أنفق رثاء الناس، فكلاهما حابط العمل ومثّل لحبوط أجريهما بالحجر الأملس الذي عليه تراب، فأصابه مطر شديد، أزال الله ما عليه من تراب وتركه أملس لا شيء عليه .

(1) البقرة / 263 .

(2) جامع البيان للطبري : 89/3 بتصريف .

(3) البقرة / 264 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 318/1.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (1).

خاطب الله - سبحانه وتعالى- في هذه الآيات الكريمة عباده المؤمنين، وطلب منهم أن يلتزموا بأداب الصدقة، فلا يبطلوها بالمنِّ والأذى ، كما تبطل صدقة من راعى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة؛ ليُشكر بين الناس، فهؤلاء كمثل حجر عليه تراب، فهبطت عليه السماء من مائها ، فغسل الماء الغزير ما على الحجر من تراب، فتركه صلداً أملس ناعماً ، كذلك المنِّ والأذى يغسل ويمحو ثواب الصدقة كأن لم يكن، فهؤلاء مهما عملوا فسيحبط الله أعمالهم (2).

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (3).

ولكن من رحمة الله تعالى بعباده أن المنِّ في العطاء يبطل أجر تلك الصدقة الممنون بها وثوابها فقط، ولا يتعدها إلى غيرها من الأعمال الصالحة.

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((قال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ، أو يؤذي بها، فإنها لا تقبل، وقيل: بل قد جعل الله للملك عليها أمانة، فهو لا يكتبها)) (4).

فليحذر المنان من حبوط أجر صدقته، وليحافظ على ثواب ما تجود به نفسه، وليعلم أن الشيء المبدول قد خرج من يده ، فليحرص على أن يناله الأجر من ورائه أضعافاً مضاعفة .

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (5).

(1) البقرة / 264 .

(2) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 318/1 .

(3) الفرقان / 23 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 311/3 .

(5) البقرة / 261 .

وليحرص على ألا يكون المنُّ سبباً في ضياع المبدول منه، وضياع ثوابه، ونيل العقاب عليه يوم يكون في أمس الحاجة لأقل من أجر تلك الصدقة فليبدل، ولا يمنن، وليبتغ الأجر والثواب من رب العالمين .

المطلب الخامس : الاستهزاء والتنايز بالألقاب

بيَّن الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز أن جميع المؤمنين أخوة، تربطهم روابط المحبة، والصفاء، والإخاء، والعطف، والود،... إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي تقرب القلوب ، وتزيد أوامر الود والمحبة بينهم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (1).

كما مدح رسول الله - ﷺ - شدة ارتباط المؤمنين بعضهم ببعض، ومثلهم بالجسد الواحد.

فعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم، و تعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) (2).

وعلى النقيض من ذلك تماماً، فقد ذمَّ الله - تعالى - الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات، سواء بالأقوال، أو الأفعال القبيحة، التي هم بُرءاءُ منها، وبيَّن أن ذلك الأذى يشبه البهتان، والتكذيب الفاحش المخلوق، والذي من أمثاله: تعبيرهم بحسبِ مذموم، أو حرفة مذمومة، أو أي شيء يتقل عليهم إذا سمعوه، كما بيَّن - سبحانه - أن أذاهم حرام، وهو كبيرة من الكبائر، وهو جرم من أشد الجرائم (3).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (4).

(1) الحجرات / 10 .

(2) أخرجه (خ) ، ك(الأدب) ، ب/27 (رحمة الناس و البهائم) ، 4/1901 ح(6011).

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 14/229-230 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: 3/ 534 ،
والتحرير والتنوير لابن عاشور: 22/105.

(4) الأحزاب / 58 .

وقال أيضاً -جلّ وعلا- : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (1).

فهاتان الآيتان وغيرهما تنهى المؤمنين عن إيذاء بعضهم بعضاً، وعن السخرية من بعضهم؛ لأنه ربما يكون المسخور منه أفضل عند الله - تعالى - من الساخر، كما نهى عن نداء بعضهم بأسماء لا يحبونها، بل يكرهونها، ويتضايقون ويتأذون عند سماعها، وحذر - سبحانه وتعالى - من لم ينته عن تلك الأفعال بأنه يعد ظالماً أثماً. كما ذم رسول الله - صلوات ربي وسلامه عليه - ذلك الإيذاء، وبين أنه فسق، وأنه من صفات المنافقين، وأكد أن المؤمن الحق لا يمكن أن يتصف بالشتم، واللعن في أحاديث كثيرة، أكتفي بذكر أربعة منها :

1. عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر) (2).

2. عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: (أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) (3).

فهذان الحديثان الشريفان ينهيان المسلم عن سب أخيه المسلم؛ لأن السب واللعن يعتبر فسقاً، كما يوضح الحديث الثاني أن الشتم مردود على صاحبه، إن لم يكن المشتوم أهلاً له.

3. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: (المستبان ما قال، فعلى الباديء ما لم يعتد المظلوم) (4).

ومعنى الحديث : أن المتشاتمين اللذين يسب كل منهما الآخر يكون إثمهما على الذي ابتدأ بالشتم، ما لم يتعد المظلوم الحد؛ بأن سبه بأكثر وأخس منه ، أما إذا اعتدى

(1) الحجرات / 11 .

(2) أخرجه (خ) ، ك(الأدب) ، ب/44(ما ينهى عن السباب واللعن) ، 4/1909 ، ح(6044).

(3) أخرجه (خ) ، ك(الأدب) ، ب/73 (من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال) ، 4/1925 ح(6104).

(4) أخرجه (م) ، ك(البر) ، 16/108 ح(68) ، وأخرجه (د) ، ك(الأدب) ، ب/47(المستبان) ، 4/2086

ح (4894) .

فعلية إثم ما اعتدى عليه، والباقي على المبتدئ .

والحاصل أنه إذا سبَّ كل واحد الآخر ، فإثم ما قالاً على الذي بدأ بالسب ، وهذا إذا لم يعتد ويتجاوز المظلوم الحد (1).

4. وضح -ﷺ- أن أذية المسلمين وشتمهم، وضربهم، والتقليل من شأنهم يحبط العمل، ويأكل الحسنات، وذلك في الحديث المتقدم الذكر: (أتدرون من المفلس) (2).

فذكر رسول الله -ﷺ- في هذا الحديث النبوي الشريف أن المفلس من أمته من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، وقد شتم هذا، وضرب هذا، وأخذ من مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرح عليه، ثم يطرح في النار - والعياذ بالله - .

من خلال ذلك يتضح أن شتم المؤمنين، والمؤمنات يُعتبر حرام ، بل هو كبيرة من الكبائر، كما ذكر ذلك القرطبي - رحمه الله - (3).

كما أن السبَّ والشتمَ والضربَ يأكل حسنات صاحبه ، حيث يُعطى المشتوم والمضروب من حسنات شاتمته وضاربه بقدر شتمه إياه، فإن فنيت تلك الحسنات، ولم يُنفه ما عليه من وزر، أخذ من سيئات المشتوم، ووضعت على أكتاف الشاتم، وبذلك تؤخذ حسناته منه ، وتوضع عليه سيئات أخرى، فيزيد الطين بلة - كما يقولون - ؛ وما ذلك إلا لارتكابه أمراً ربما يكون في نظره هيناً، بسيطاً، لا وزر من ورائه، ولا حسرة، ولا ندامة.

فأفسيقوا يا من تؤذون إخوانكم المسلمين بسبب، أو بدون سبب، ليس لشيء إلا لأنه أصبح طبعاً متأصلاً فيكم، أفيقوا قبل فوات الأوان، وحافظوا على حسناتكم، فإنه سيأتي يوم تعز فيه الحسنات، ويتنكر الإنسان لأقرب الناس إليه .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (4).

(1) انظر عون المعبود : 162/13 .

(2) سبق تخريجه ص 117 .

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 230/14 .

(4) عبس / 34-37 .

الفصل الثالث

المحيطات الفعلية

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : محيطات فعلية تخرج من الإسلام

المبحث الثاني : محيطات فعلية لا تخرج من الإسلام

المبحث الثالث : محيطات فعلية مختلف فيها .

الفصل الثالث

محبطات فعلية

تقرر أن الإيمان قول ، وعمل ، واعتقاد ؛ لذا لا بدّ للمسلم أن توافق أعماله الظاهرة اعتقاد قلبه ، وأقوال لسانه ، أما إن خالفتها ، فيكون قد عصى الله - سبحانه وتعالى - ، وارتكب من الإثم والعقوبة على قدر تلك المخالفة ، فإن كانت المخالفة كبيرة مع الاستحلال فإنها تخرج صاحبها من الملة ، وبذلك يصبح كافراً ، لا ينفعه عمل صالح .

قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1).

في هذه الآية الكريمة حكم الله - سبحانه وتعالى - عليهم بالكفر ؛ وعدم الإيمان ، بسبب توليهم ، وامتناعهم عن الطاعة ، رغم قولهم بلسانهم إنهم مؤمنون بالله ورسوله ، فلم ينفعهم قولهم ؛ لأنه خالف ما وقرّ في قلوبهم ، وما صدر عنهم من أفعال ، وأما إن كانت المخالفة ، فهذه دون الأولى ، فإنها تغتفر بالتوبة الصادقة ، والاستغفار ، وتجديد الطاعة ، والعهد مع الله - تعالى - .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (2).

من أجل ذلك كان هذا الفصل ، ليتحدث عن المحبطات الفعلية ، التي تخرج من الإسلام والتي لا تخرج منه ، والمختلف فيها .

(1) النور / 47 .

(2) النساء / 48 ، 116 .

المبحث الأول

محيطات فعلية تخرج من الإسلام

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : الشرك في العبادة

المطلب الثاني : الاستهانة بالمصحف

المطلب الثالث : الإعراض التام عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به

المطلب الرابع : الولاء المطلق لغير المسلمين .

المبحث الأول

محيطات فعلية تخرج من الإسلام

من المعلوم أن الكفر قد يكون تبعاً للعمل الظاهر بالأركان والجوارح ، كالسجود ، والذبح ، والنذر لغير الله ،...إلى غير ذلك .
لذا قمت بجمع عدد من الأفعال التي تحبط العمل ، وتخرج من الإسلام ؛ كي يحذرَها الناس ، ويبتعدوا عنها ، ولا تكون سبباً في هلاكهم ، ودمارهم .
وإنّ هذا المبحث يشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : الشرك في العبادة

إن الله - سبحانه وتعالى - خلق البشر ؛ ليعبدوه وحده ، ولا يشركوا به شيئاً ، وبذلك أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وهذا هو أصل الدين ، حيث يجب أن تصرف جميع أنواع العبادات لله وحده ، وقد وردت تلك المعاني في عدد من الآيات الكريمة، منها :

1. قال تعالى : ﴿وَالِهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (1).
2. وقال -عزّ من قائل- : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (2).

ويؤكد ابن القيم - رحمه الله - على وجوب صرف جميع أنواع العبادة لله وحده قائلاً : ((فالسجود ، والعبادة ، والتوكل ، والإنابة ، والتقوى ، والخشية ، والتحسب ، والتوبة ، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً ، والطواف بالبيت ، والدعاء ، كل ذلك محض حقّ لله ، لا يصح ولا ينبغي لسواه : من ملكٍ مقرب ، أو نبي مرسل)) (3).
وأما ضد التوحيد في العبادة فهو الشرك ، وهو صرف شيء من العبادة لغير الله .

(1) البقرة / 163 .

(2) النحل / 36 .

(3) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - المسمى بالداء والدواء - لابن قيم الجوزية ، جمعية إحياء

التراث العربي/الكويت ، ط 1 1421هـ - 2000م ، ص 173 ، 174 .

وبيين رسول الله ﷺ - معنى الشرك في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال قلنا : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ... (1) الحديث

فهذا الحديث النبوي الشريف يوضح أن الشرك بالله هو من أعظم الذنوب على الإطلاق.

ويوضح ابن القيم - رحمه الله - في قصيدته مظاهر الشرك الأكبر ، وبيّن أنه يخرج من الملة ، وبالتالي يحبط العمل قائلاً :

وَالشُّرْكَ فَاحْذَرهُ فَشُرْكَ ظَاهِرٌ	ذَا الْقِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الْغَفْرَانِ
وَهُوَ اتِّخَاذُ النَّدَى لِلرَّحْمَنِ أَيًّا كَانَ	مَنْ حَجَرَ وَمَنْ إِنْسَانٌ
يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ، ثُمَّ يَخَافُهُ	وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَةِ الدِّيَانِ (2)

والشرك في العبادة العملية له مظاهر كثيرة جداً، كما ورد في كلام ابن القيم رحمه الله .

ولكني سأكتفي هنا بذكر اثنين منها على سبيل المثال ، لا الحصر .

المظهر الأول : السجود والركوع لغير الله - عز وجل -

إن السجود والركوع عبادتان خاصتان بالله وحده ، تظهر فيهما أسمى معاني التذلل ، والخضوع ، والانقياد ، والحب .

وقد أكد - سبحانه وتعالى - على هذه الخصوصية حين ذكر في كتابه العزيز أن جميع من في السموات ومن في الأرض يسجد له وحده .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (3)

(1) متفق عليه ، أخرجه (خ) ، ك(الأدب) ، ب/20(قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، 4/1899، ح(6001)،

وأخرجه (م) ، ك(الإيمان) ، 2/261، ح(141).

(2) شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ، المكتب الإسلامي / دمشق ، ط1

1394هـ ، 2/263 .

(3) الحج / 18 .

وبالنظر في هذه الآية الكريمة نجد أن الله - تعالى - ذكر أن جميع الأشياء من حيوان، وطيور، وجماد تسجد لله وحده، ولا تشرك معه شيئاً، وحينما ذكر الإنسان قال بأن كثيراً من الناس يسجدون لله وحده، مما يدل على أن أكثر الناس يسجد لغير الله (1) أي يشرك معه غيره، وبذلك يكون هؤلاء أخس وأحق من الحيوان والجماد .

المظهر الثاني : الذبح لغير الله

إن الذبح من العبادات الخالصة لله - تعالى - ، والتي يجب أن يقصد بها التقرب إليه - عز وجل - وحده ، ويُسمى نسكاً .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (2) .
والنسك ههنا : الذبيحة (3) .

أما من صرفه لغير الله - عز وجل - فقد أشرك معه ذلك الغير .

قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَحُمُّ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَّةُ (4) وَالْمَوْقُوذَةُ (5) وَالْمُتْرَدِيَةُ (6) وَالنَّطِيحَةُ (7) وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ (8) ذَلِكَمْ فِسْقٌ ﴾ (9) .

(1) وذلك بصريح القرآن الكريم ومن ذلك :

أ- ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يوسف / 103 .

ب- ﴿ وَإِنْ تَطَعْتَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الأنعام / 116 .

ج- ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء / 89 . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

(2) الأنعام / 162 ، 163 .

(3) انظر جامع البيان للطبري : 147/8 ، والدر المنثور للسيوطي : 123/3 ، وتفسير القرآن العظيم

لابن كثير : 203/2 .

(4) المنخفة : أي الميتة بخنق .

(5) الموقوذة : هي الميتة بسبب الضرب .

(6) المتردية : أي الساقطة من علو كجبل أو جدار ونحوه .

(7) النطيحة : هي التي تنطحها غيرها فتموت .

(8) الاستقسام بالأزلام : الأزلام هي فداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية ، مكتوب على أحدها إفعال ، وعلى الثاني

لا تفعل ، والثالث لا كتابة فيه . تفسير السعدي : 417/1 ، 418 .

(9) المائدة / 3 .

يقول ابن عطية - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: ((يعني: ما ذبح لغير الله تعالى، وقصد به صنم، أو بشر من الناس، كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يُسمي مقصوده، ويصيح به، فذلك إهلاله)) (1).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾: فقد كانت النصب عبارة عن حجارة حول الكعبة، وكانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح، حتى ولو ذكر اسم الله عليها عند الذبح على النصب، فهذا من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله (2).

يقول الشوكاني - رحمه الله - : أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾: ((فهو إما إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا، والفسق: الخروج عن الحدّ، وفي هذا وعيد شديد؛ لأنّ الفسق هو أشد الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر)) (3)، (4).

يفهم من أقوال المفسرين السابقة الذكر أن الذبح لغير الله يعتبر من أنواع الشرك في العبادة، وأنه محرم شرعاً، بل هو من أشد أنواع الكفر، وطالما أنه نوع من أنواع الكفر - باعتبار أنه فسق -، فيترتب على ذلك أن فاعله خارج من الملة، حابط العمل، - العياذ بالله -.

ويؤكد هذه المعاني الإمام النووي حين حكم على الذابح لغير الله بالكفر، وبالتالي الخروج من الملة؛ لأنه اعتبره كالساجد لغيره تعالى تماماً، فيقول: ((اعلم أن الذبح للمعبود، وباسمه نازلة منزلة السجود له، وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم، والعبادة المخصوصة بالله - تعالى -، الذي هو المستحق

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، (ت) عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال إبراهيم، ط 1403 هـ - 1983 م، 21/5.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 11، 12/2 بتصرف.

(3) فتح القدير للشوكاني: 10/2.

(4) لعلى الإمام الشوكاني - رحمه الله - يقصد بذلك المعتزلة، الذين يقولون أن مرتكب الكبائر، لا يعتبر

مؤمناً مطلقاً، ولا كافراً مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن، ولا كافر.

انظر الملل والنحل: ص 48.

لها ، فمن ذبح لغيره من حيوان ، أو جماد ، كالصنم على وجه التعظيم ، والعبادة ، لم تحل ذبيحته ، وكان فعله كفراً ، كمن سجد لغيره سجدة عبادة⁽¹⁾ .

ويقول ابن القيم - رحمه الله - في معرض حديثه عن شرك العبادة : ((وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل))⁽²⁾ .

أسلوب القرآن الكريم في تقرير كون السجود والركوع عبادة خاصة لله وحده : استخدم القرآن الكريم عدة أساليب في تقرير تلك المعاني ؛ وذلك للمغايرة ، والتأكيد ، ولبيان أهمية الموضوع ، ومن تلك الأساليب :
أولاً : أسلوب الأمر :

استخدم القرآن الكريم أسلوب الأمر ، حيث أمر - سبحانه وتعالى - عباده المؤمنين بالسجود والركوع له وحده ، وبين أن ذلك هو سرُّ الفلاح والنور .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾⁽³⁾ .

يقول السعدي - رحمه الله - : ((يأمر - تعالى - عباده المؤمنين بالصلاة ، وخصَّ منها الركوع والسجود ؛ لفضلهما ، وركنيتهما ، وعبادته التي هي قرّة العيون ، وسلوة القلب المحزون ، وإن ربوبيته وإحسانه على العباد تقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة ، ويأمرهم بفعل الخير عموماً .

وعلق - تعالى - الفلاح على هذه الأمور ، فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . أي : تفوزون بالمطلوب المرغوب ، وتتجوزون من المكروه المرهوب ، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق ، والسعي في نفع عبده ، فمن وفق لذلك فله القدر المعلن⁽⁴⁾ من السعادة ، والنجاح ، والفلاح))⁽⁵⁾ .

(1) روضة الطالبين : 205/3 ، 206 .

(2) الجواب الكافي ص 169 .

(3) الحج / 77 .

(4) هو القدر السابع في الميسر ، وهو أفضلها ، فإذا فاز حاز سبعة أنصاب من الجزور ، وهو كناية عن

قمة السعادة ، وأكثرها حظاً . انظر لسان العرب : 383/9 .

(5) تفسير السعدي : 110/2 ، 111 .

ثانياً : أسلوب النهي

كما استخدم القرآن الكريم أسلوباً مضاداً، وهو النهي عن السجود والركوع لغير الله - تعالى - ، مبيناً أن ذلك هو عين الشرك به - جلّ وعلا- .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (1).

يقول ابن عاشور - رحمه الله - : ((أي لا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به)) (2).

يفهم من هذه العبارة أن الشرك لا يغفر أبداً ، والصحيح أن الشرك لا يغفر لمن مات دون توبة ، أما من تاب وآمن وعمل صالحاً فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ومنها الشرك ، ودليل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (3).

وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ (4).

يفهم من الآية السابقة الذكر أن عدم السجود لغير الله - تعالى - ، سواء كان شمساً ، أو قمراً ، أو غيرهما ، هو من صفات المؤمنين ، المخلصين العبادة لله وحده ومن مفهوم المخالفة ، أن السجود لأي شيء غير الله - عزّ وجلّ - يعتبر شركاً ، بل هو عين الشرك ، وبذلك يخرج فاعله من الإسلام ، وبالتالي يحبط ، ويبطل عمله ، - والعياذ بالله - .

ومن أدلة حيوط العمل بالشرك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (5).

(1) فصلت / 37 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 102/4 .

(3) الفرقان / 68-70 .

(4) الأنفال / 38 .

(5) الأنعام / 88 .

وقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ (1).

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال - بزعمه- يسجد للأقدام الجهلة ، سواء كان للقبلة ، أم لغيرها جهالة منه ، ضلّ سعيهم ، وخاب عملهم)) (2).

ثالثاً : أسلوب المدح

وكذلك استخدم القرآن الكريم أسلوب المدح للذين لا يسجدون إلا لله وحده، دون سأم أو ملل ؛ لعله يكون سبباً في إخلاص العبادة له وحده - جلّ وعلا - .

1. قال تعالى: ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ (3).

2. وقال أيضاً: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ (4).

أي أن من سجد لله وحده ، فقد خضع وانقاد له - جلّ وعلا - ، وحقق كمال الذل والمحبة لله - تعالى - ، أما إن تكبر الكفار عن توحيد الله ، وإفراده بالعبادة والتي - منها السجود والركوع - فقد توعدهم الله - تعالى - بالعذاب المهين . وقد مدح الله - تعالى - من عنده من الملائكة لأنهم يسبحون له ، ويعبدونه وينزهونه دائماً ليلاً ونهاراً، وهم لا يملون من عبادته ؛ لاستلذاذهم لها ، وحلاوتها عندهم ، مع خوفهم منه - جلّ وعلا - ، كما قال تعالى: ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (5).

وبهذا يتقرر أن السجود والركوع لغير الله شرك مخرج من الملة ، محبط للعمل ؛ لذا يجب تركه فوراً - لمن ابتلى به - .

(1) الزمر / 65 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 307/1 .

(3) فصلت / 38 .

(4) الأعراف / 206 .

(5) انظر أضواء البيان للشنقيطي : 88/7 ، 89 ، والآية في الرعد / 13 .

أقوال العلماء في الحكم على الساجد والراكع لغير الله - تعالى - :

وبالرغم من وضوح الحكم بالشرك ، والخروج من الإسلام على الساجد والراكع لغير الله تعالى ، إلا أننا نؤكد ذلك ببعض أقوال العلماء الأفاضل في هذه المسألة :

1. يقول ابن نجيم الحنفي : ((والسجود للجبابرة كفر إن أراد به العبادة ، لا إن أراد به التحية على قول الأكثر)) (1).

2. ويقول القاضي عياض : ((وكذلك نُكْفِرُ بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا (2) من كافر ، وإن كان صاحبه مصرحاً بالإسلام مع فعله ذلك الفعل كالسجود للصنم ، أو الشمس، والقمر ، والصليب ، والنار)) (3) .

المطلب الثاني : الاستهانة بالمصحف (4)

إن القرآن الكريم هو كلام الله - عزَّ وجلَّ - ، نزل به الروح الأمين على قلب خير المرسلين - عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم - والدليل على ذلك :

1. قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ (5).

2. وقال -جلَّ وعلا- : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ (6).

ومن المؤكد أنه لا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة ، ومن علم أن يأتي بشيء من مثله ؛ لذا وجب تعظيمه وتوقيره ، وإجلاله ؛ لأنه لا يتم إيمان عبد إلا بذلك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإِسُّ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (7).

(1) البحر الرائق ، شرح كنز الرقائق، لابن نجيم الحنفي ، دار الكتاب الإسلامي ، - بدون تاريخ - : 134/5 .

(2) ساقطة في الأصل .

(3) الشفا : 1072/2 .

(4) الاستهانة تعني : الاستخفاف، والاستهزاء، والاحتقار، انظر لسان العرب : 164/15، ومختار الصحاح : ص 702 .

(5) الفرقان / 1 .

(6) الزمر / 23 .

(7) الإسراء / 88 .

الدليل على أن القرآن الكريم كلام الله - تعالى - ، وليس بكلام البشر :
من المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن الكريم كلام الله - تعالى - ، وأنه
لا يستطيع أحد مضاهاته ، ولن يدخله التحريف والتبديل مهما طال الزمان ، ولن
يستطيع المشككون بالرغم من مساعيهم الجبارة الدؤوب أن يجدوا فيه اختلافاً لو كانوا
منصفين .

قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
اِخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (1).

1. يقول ابن عطية - رحمه الله - : ((هذا أمر بالنظر والاستدلال ، ثم عرّف
تعالى بمواقع الحجة ، أي لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من قصور
وظهر فيه التناقض ، والتنافي الذي لا يمكن جمعه ، إذ ذلك موجود في كلام البشر ،
والقرآن منزّه عنه ، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علماً ، فإن عرضت لأحد شبهة ،
وظن اختلافاً في شيء من كتاب الله ، فالواجب أن يتهم نظره ، ويسأل من هو
أعلم منه)) (2).

2. ويقول محمد رشيد رضا : ((وإن تعجب فعجب أن تمرّ السنون ، والأحقاب ،
وتكرّر القرون ، والأجيال ، وتتسع دوائر العلوم والمعارف ، وتتغير أحوال العمران ،
ولا تنقص كلمة من كلمات القرآن ، لا في أحكام الشرع ، ولا في أحوال الناس
وشؤون الكون ، ولا في غير ذلك من فنون القول)) (3).

صور الاستهزاء بالمصحف المخرج من الملة :

والاستهانة بالمصحف قد تكون قولية ، وقد تكون عملية .
ومن الاستهانة العملية بالمصحف : أن يفعل متعمداً ما من شأنه أن يعتبر
احتقاراً ، واستخفافاً به ، مثل أن يلقيه في القانورات ، أو يضعه تحت قدميه ،
أو يحاول تغييره بالزيادة والنقصان ، كما انتشر ذلك عند بعض الفرق - التي تدّعي
الإسلام - فحاولوا تغييره ، وتحريفه ؛ كي يوافق مذاهبهم ، ويتلاءم مع ما يحملونه من
أفكار ضالة ، ولكنهم نسوا أن ذلك لن يكون ؛ لأن الله - عزّ وجل - قد تعهد ، بحفظ

(1) النساء / 82 .

(2) المحرر الوجيز لابن عطية : 83/2 .

(3) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 289/5 .

كتابه من كل ما من شأنه أن يضرَّ به .

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (1).

صور حفظ الله - تعالى - للقرآن الكريم :

والحفظ للقرآن الكريم من عدة وجوه ، وضَّحها العلماء حين فسروا الآية الكريمة

السابقة، وسأذكر تلك الصور من خلال ذكر أقوال بعض المفسرين - رحمهم الله - .

1. قال الطبري - رحمه الله - : (يقول - تعالى ذكره- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ :

وهو القرآن ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يزداد فيه باطل ما ليس منه ، أو ينقص منه ما هو منه، من أحكامه، وحدوده، وفرائضه) (2).

2. وقال أبو السعود - رحمه الله - : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من كل ما لا يليق به ،

فيدخل فيه تكذيبهم له ، واستهزاؤهم به دخولاً أولاً ، فيكون وعيداً للمستهزئين ، وأما

الحفظ من مجرد التحريف ، والزيادة ، والنقص ، وأمثالها فليس بمقتضى المقام ،

فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدر فيه من الطعن فيه ، والمجادلة

في حقيقته .

ويجوز أن يراد حفظه بالإعجاز دليلاً على التنزيل من عند الله ، إذ لو كان من

عند غيره لتطرق إليه الزيادة ، والنقص ، والاختلاف) (3).

3. وقال الألويسي : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي من كل ما يقدر فيه كالتحريف ،

والزيادة ، والنقصان ، وغير ذلك ، حتى إن الشيخ المهيب لو غير نقطة يرد عليه

الصبيان ، ويقول له من كان : الصواب كذا) (4).

الحكم على المستهزئ بالمصحف بالكفر :

إن الاستهانة بالمصحف الشريف تناقض الإيمان ، وتنافيه بالكلية ، فإن الله

- تعالى - قد حكم على المستهزئ بكلامه ، وآياته بالكفر ، والخروج من الملة ،

وبالتالي حبوط عمله الصالح .

(1) الحجر / 9 .

(2) جامع البيان للطبري : 11/14 .

(3) تفسير أبي السعود : 68/5 .

(4) روح المعاني للألويسي : 16/14 .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (1).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((من استهزأ بشيء من كتاب الله ، وسنة
رسوله الثابتة عنه ، أو سخر ، أو تنقصه فإنه كافر بالله تعالى)) (2).

كما توعده الله - سبحانه وتعالى - من يستهزئون بالمصحف ، ويتخذون آياته
هزواً بالعذاب المهين ، والخلود في النار ، وبئس القرار - والعياذ بالله - والدليل
على ذلك :

1. قال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (3).

2. وقال - عز وجل - : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ
النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ . ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (4).

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن الله - تعالى - أعدَّ للمستهزئين بالمصحف
العذاب الأليم، المهين، المخزي ، وتوعدهم بأنه لن يكون لهم مأوى وقرار سوى
الخلود في النار ، وما ذلك العقاب والعذاب ؛ إلا لأنهم استهانوا بكلامه المتمثل في
المصحف واستخفوا به ، فدلل ذلك على تكذيبهم واستهانتهم بمن أنزله ، وتكلم به ،
وبذلك يكونون قد هدموا أصول الدين كاملة ، ونقضوا الشريعة ، فحق عليهم
الوعيد والعذاب.

أقوال العلماء في الحكم على المستهزئ :

أجمع العلماء الأفاضل على أن من زاد شيئاً في القرآن ، أو نقص منه ،
أو حرّف فيه ، أو بدله ، أو استهان به بأي شكل من الأشكال، بأنه كافر، وخارج
من الإسلام ، وقد حكى ذلك عددٌ كبير منهم أكتفي بذكر ثلاثة أقوال لهم :

(1) التوبة / 65 ، 66 .

(2) تفسير السعدي : 708/1 .

(3) الجاثية / 9 .

(4) الجاثية / 34 ، 35 .

1. يقول القرطبي - رحمه الله - : ((لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله - تعالى - ، الذي جاء به محمد - ﷺ - معجزة له ، وأنه محفوظ في الصدور ، مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، معلوم على الاضطرار سورة ، وآياته ، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه ، وكلماته ، فلا يحتاج في تعريفه بحدّ ، ولا في حصره بحدّ ، فمن ادعى زيادة عليه ، أو نقصاناً منه ، فقد أبطل الإجماع ، وبهت الناس ، وردّ ما جاء به الرسول - ﷺ - من القرآن المنزل عليه ، وردّ قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (1) ، وأبطل آية رسوله - عليه السلام - ؛ لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدوراً عليه ، حين شيب بالباطل ، ولما قدر عليه ، لم يكن حجة ، ولا آية ، وخرج من أن يكون معجزاً)) (2).

2. ويقول ابن حزم - رحمه الله - : ((إن العلماء اتفقوا على أن كل ما في القرآن حق ، وأن من زاد فيه حرفاً من غير القراءات المروية ، المحفوظة ، المنقولة نقل الكافة ، أو نقص حرفاً ، أو بدل منه حرفاً مكان حرف ، وقد قامت عليه الحجة أنه من القرآن ، فتمادى متعمداً لكل ذلك ، عالماً بأنه بخلاف ما فعل ، فإنه كافر)) (3).

3. وقال النووي - رحمه الله - : ((الأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح ،... كإلقاء المصحف في القاذورات)) (4).

وبذلك أصبح واضحاً وضوحاً لا مجال فيه للشك أن المستهين بالمصحف أو المستهزئ به ، المحتقر له ، كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة ، محبطاً لأعماله ؛ لأنه كما هو معلوم أن شرف العلم تبع للمعلوم ، فكذلك شرف القول تبع للقائل ، والقرآن كلام الله - عزّ وجل - فإن من استهزأ بشيء من كلامه - جلّ وعلا - كأنه استهزأ به - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ، وأي ذنب أعظم ، وأي جرم أكبر

(1) الإسراء / 88 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 97/1 .

(3) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات لابن حزم ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، - بدون تاريخ - ، ص 174 .

(4) روضة الطالبين : 64/10 ، وانظر نهاية المحتاج : 416/7 ، ومعنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للنووي ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي ، 1387هـ - 1958م : 136/4 .

من الاستهزاء بالله ، أو بكلامه ، وبذلك يستحق المستهزئ العقاب الذي أعده الله - جلّ وعلا - له بجدارة .

المطلب الثالث : الإعراض التام عن دين الله لا يتعلمه ، ولا يعمل به

إن الإيمان الحقيقي يتضمن طاعة وانقياداً لله - تعالى - ، وتسليماً وقبولاً للحق الذي أنزله الله على رسوله الكريم - عليه الصلاة والسلام - ، واستجابة وخضوعاً لدين الله - جلّ وعلا - .

أما الإعراض عن دين الله فإنه ينافي الإيمان ، ويضاده بالكلية ؛ حيث إنه يخرج فاعله من دائرة الإسلام ، وبالتالي يؤدي إلى حبوط عمله .

الآثار المترتبة على الإعراض عن دين الله :

رتّب الله - سبحانه وتعالى - للمعرضين عن دينه إعراضاً تاماً عدة أوصاف ذميمة أذكر منها :

(أ) الوصف بعدم الإيمان

قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوثِرُوا بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (1) .

يقول النسفي - رحمه الله - : ((قوله : ﴿ وَمَا أُوثِرُوا بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ : فيه إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان ؛ والإعراض وإن كان من بعضهم ، فالرضا بالإعراض من كلهم)) (2) .

كما يقول ابن كثير : ((وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، أي : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله ، أعرضوا عنه ، واستكبروا في أنفسهم من اتباعه ... وأياً ما كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو منطوق عليه من الصفات)) (3) .

(1) النور / 47 ، 48 .

(2) تفسير القرآن الجليل ، المسمى بمدارك التنزيل ، وحقائق التأويل للنسفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت/لبنان - بدون تاريخ - : 516/2 ، بتصريف يسير .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 307/3 ، 308 .

فكلام ابن كثير - رحمه الله - هذا يؤكد على عدم إيمان المعرض عن دين الله - جلّ وعلا - .

(ب) الوصف بالكفر صراحة .

قال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (1).

يقول البيضاوي : ((وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم ، والدلالة على أن التولي كفر ، وأنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله ، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين)) (2).

وكذلك يقول أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة ، والإشعار بعلته ، فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم ، والإيذان بأن التولي عن الطاعة كفر)) (3).

(ج) الوعيد بالخلود في النار :

ومما يؤكد على كفر المعرضين عن دين الله ، أن الله - سبحانه وتعالى - توعدهم بالخلود في النار .

قال تعالى : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (4).

يقول الشوكاني - رحمه الله - : ((أي لا يصلها صلياً لازماً على جهة الخلود إلا الأشقى ، الذي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وأعرض عن الطاعة والإيمان)) (5).

(د) الوصف بالنفاق .

ولم يقف الحال عند وصف المعرضين بالكفر ، وعدم الإيمان ، وتوعدهم بالخلود في النار بل وصفهم تعالى بوصف آخر ، وهو النفاق ، وقد مرّ في كفر

(1) آل عمران / 32 .

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي : 156/1 .

(3) تفسير أبي السعود : 25/2 ، وانظر روح المعاني للأوسى : 130/3 .

(4) الليل / 14-16 .

(5) فتح القدير للشوكاني : 453/5 .

النفاق أن خطر النفاق على الإسلام والمسلمين أشد من خطر الكفر الصريح ، إضافة إلى أن النفاق الأكبر يؤدي إلى الخروج من الإسلام ، وبالتالي يؤدي إلى حبوط العمل . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (1) .

(هـ) الوقوع في النفاق :

لما كان الله أعدل الحاكمين ، وبما أن الجزاء من جنس العمل فإن الله - سبحانه وتعالى - قد جازى المعرضين ، وعاقبهم على توليهم عن دينه ، وإعراضهم عن طاعته؛ بسبب النفاق الموجود في قلوبهم ، بالوقوع في النفاق ، أي أن الإعراض أصبح هو السبب في وقوع صاحبه في النفاق ، فيكون النفاق جزاءً على توليه ، وإعراضه .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (2) .

أي أنهم حينما أعرضوا عن طاعة الله، وامتنعوا عن إخراج صدقات ما من به الله عليهم من فضله؛ بسبب البخل والشح، أعقبهم الله نفاقاً كائناً في قلوبهم، متمكناً منها، مستمراً فيها (3) .

يفهم من كل ما سبق أن الإعراض عن دين الله أمر خطير نتیجته الخروج من الإسلام ، والدخول في الكفر ، والقرار في النار ، والوصم بعار النفاق ، مما يؤدي إلى ضياع الأجر ، وحبوط ثواب العمل .

هذه بعض الآثار المترتبة على الإعراض عن دين الله - عز وجل - إعراضاً تاماً ، والتي بموجبها خرج المعرض من الإسلام بالكلية ، ودخل في الكفر - والعياذ بالله - .

(1) النساء / 61 .

(2) التوبة / 75-77 .

(3) انظر فتح القدير للشوكاني : 384/2 ، 385 .

ولكن يوجد آثار سيئة ، وعواقب وخيمة أخرى مترتبة على الإعراض ، ولكنها دون الأولى . تقع للمعرض في الدنيا والآخرة ؛ بسبب توليه وإعراضه عن دين الله . وقد أورد الشنقيطي - رحمه الله - جملة من تلك العواقب ، والآثار عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (1) .

قائلاً : ((وما ذكره - تعالى- في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم ، قد زاد عليه في مواضع أخر بيان أشياء في النتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة ؛ ومن تلك النتائج :

1. أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً .
2. ومن نتائج السيئة جعل الأكنة على القلوب ؛ حتى لا تفقه الحق ، وعدم الاهتمام أبداً .

3. ومنها : انتقام الله - جلَّ وعزَّ - من المعرض عن التذكرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (2) .

4. ومنها : كون المعرض كالحمار .
قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ (3) .
5. ومنها : الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .
قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (4) .
6. ومنها : تقييض القرناء من الشياطين .
قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ⁽⁵⁾ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (6) .

(1) الكهف / 57 .

(2) السجدة / 22 .

(3) المدثر / 49 ، 50 .

(4) فصلت / 13 .

(5) أي يعرض ويصد . تفسير السعدي : 630/2 .

(6) أضواء البيان للشنقيطي : 110/4 بتصرف يسير ، والآية في الزخرف / 36 .

وباستقراء آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الإعراض ، وجدت عدداً آخر من الآثار المترتبة عليه ، أذكر منها :

1. أنه سبب في وقوع البلايا والمصائب :

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْنَا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (1).

يقول ابن عاشور : ((أي فإن حكمت بينهم بما أنزل الله ، ولم تتبع أهواءهم ، وتولوا ،.. فتلك أمانة أن الله أراد بهم الشقاء والعذاب ببعض ذنوبهم ، وليس عليك في توليهم حرج ، وأراد ببعض الذنوب بعضاً غير معين ، أي أن بعض ذنوبهم كافية في إصابتهم ، وأن توليهم عن حكم أمانة خذلان الله إياهم)) (2).

2. إن الإعراض والتولي يعتبر سبباً في وصف المعرض بصفة الفساد :

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (3).

أي أن المعرضين إضافة إلى الصفات السابقة قد وصموا على جبينهم بوصمة الفساد، والانحلال.

3. إن الإعراض عن الدين يعتبر سبباً في ضيق الصدر ، وعدم الطمأنينة ، واستمرار حالات القلق ، وهوان العبد على ربه في الدنيا والآخرة :

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ (4).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((أي : من خالف أمري ، وما أنزلته على رسولي ، وأعرض عنه وتناساه ، وأخذ من غيره هداة ، فإن له معيشة ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج ؛ لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، وليس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق ، وحيرة ، وشك ، فلا يزال في ريبه يتردد)) (5).

(1) المائدة / 49 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 226/6 ، 227 .

(3) آل عمران / 63 .

(4) طه / 124-126 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 173/3 بتصرف يسير جداً .

وبالنظر إلى النتائج يتضح عظم الذنب الذي ترتبت عليه تلك الآثار ، فعلم بذلك أن الإعراض أمره خطير ؛ لأن معناه أنه يرفض الحق النازل من عند الله - عز وجل - ، وبالتالي رفض المنزل له ، كما أنه يرفض الانصياع والانقياد لمن نزل عليه - عليه الصلاة والسلام- وهذا من أعظم الذنوب ؛ لذلك استحق المعرض جميع الآثار المترتبة على فعله ، والتي يكفي منها أنه أصبح بإعراضه كافراً ، خارجاً من الملة ، بكل ما يترتب على ذلك الخروج من آثار .

وبالرغم من وضوح الحكم على المعرض بالكفر ، وعدم الإيمان ، إلا أنني سأختم بذكر حكم ابن القيم - رحمه الله- في هذه المسألة عند ذكره لأنواع الكفر . فيقول : ((... وكفر إعراض محض ، لا ينظر فيما جاء به الرسول ، ولا يحبه ، ولا يبغضه ، ولا يواليه ، ولا يعاديه ، بل هو معرض عن متابعتة ، ومعاداته)) .

المطلب الرابع : الولاء المطلق لغير المسلمين وآثاره

إن الولاء والبراء شرط في قبول العمل .

قال تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (1) .

يقول السعدي - رحمه الله - : ((إن الإيمان بالله ، وبالنبي ، وما أنزل إليه ، يوجب على العبد موالاة ربه ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة من كفر به وعاداه ، ووقع في معاصيه ، فشرط ولاية الله والإيمان به ، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء)) (2) .

والولاء والبراء من أعمال القلب ، فالقلب هو في الأصل من يوالي ، أو يعادي ، ولكن تظهر آثارها على اللسان والجوارح ، من أجل ذلك تم إدراجها ضمن المحبطات الفعلية ؛ لأنه أشد ما تظهر آثارها على أفعال الموالى .

فالأصل في الإنسان المسلم أن يكون ولاؤه لله - سبحانه وتعالى- ، ولرسوله - ﷺ- وللمؤمنين ، وأن يكون براءؤه من أعداء الله ، أعداء الدين .

(1) المائدة / 80 ، 81 .

(2) تفسير السعدي : 468/1 .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (1).
 أما إذا انقلب الحال ، وأصبح ولاء الإنسان - الذي يعتبر نفسه مسلماً- لأعداء
 الله ، فإن تلك الموالاتة تنافي الإيمان ، وتناقضه بالكلية ؛ إذا كانت الموالاتة مطلقة .
 فالموالاتة إذن لأعداء الله تخرج من الإسلام ، ويصبح الموالي كافراً .
 وقد فرق بعض العلماء بين التولي والموالاتة ، ولكن جمهور المفسرون فسروا
 التولي بالموالاتة ، واعتبروهما بمعنى واحد من خلال تفسيرهم لبعض آيات القرآن
 الكريم، ومنها :

1. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (2).
 يقول ابن عطية - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((أي والاهم ،
 واتبعهم في أعراضهم)) (3).

2. وقال - جلّ وعلا - : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (4).
 يقول البيضاوي - رحمه الله - : ((أي من والاهم منكم ، فإنه من جملتهم ،
 وهذا للتشديد في وجوب مجانبتهم)) (5).

ولما كانت موالاتة الكفار على هذه الدرجة من الخطورة ، وجب أن
 نتعرف على معنى الولاء ، والبراء أولاً ، ثم على بعض مظاهر موالاتة الكفار
 الفعلية ، التي تخرج من الإسلام ثانياً ، ثم التعرف على الآثار المترتبة على هذه
 الموالاتة ثالثاً .

أولاً : معنى الولاء والبراء

- (أ) معنى الولاء : المحبة ، والمودة ، والقرب (6).
 (ب) والبراء : هو البغض ، والعداوة ، والبعد (7).

(1) المائدة / 55 .

(2) التوبة / 23 .

(3) المحرر الوجيز لابن عطية : 18/3 .

(4) المائدة / 51 .

(5) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي : 270/1 ، وانظر فتح القدير للشوكاني : 50/2 .

(6) انظر لسان العرب : 404/15 ، ومختار الصحاح ص 736 .

(7) انظر نفس المرجع : 354/1 ، 355 ، ونفس المرجع ص 45 .

وأصل الموالة الحب ، وأصل المعادة البغض ، وينشأ عنهما من أعمال القلوب ، والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالة ، والمعادة كالنصرة ، والأنس ، والمعونة ، والجهاد ، والهجرة ، ونحو ذلك من الأعمال (1).

ثانياً : مظاهر الموالة

إن لموالة الكفار الفعلية مظاهر عديدة ، كلها تخرج صاحبها من الإسلام ، وتدخله في الكفر ؛ إن كانت الموالة مطلقة ، أذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

1. القيام في ديارهم ، وبين أظهرهم - بغير ضرورة تبيح ذلك - ، والرضى بدينهم .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَةَ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا . فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (2).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع)) (3).

أما إن كانت هناك ضرورة ، - كالعلاج أو غيره - وهو قادر على إقامة شعائر دينه ، فلا حرج في ذلك ؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات (4).

2. طاعة الكفار في التشريع ، والتحليل ، والتحریم ،... وغير ذلك من الأمور .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (5).

(1) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد سالم القحطاني ، دار طيبة / الرياض ، ط 2 1404هـ - ، ص : 42 .

(2) النساء / 97 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 542/1 .

(4) انظر الأنساب والنظائر للشيخ العلامة جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/ لبنان ، - بدون تاريخ- ، 269/1 .

(5) آل عمران / 100 .

يقول أبو السعود - رحمه الله - : ((وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم ، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية ، فإنه في قوة أن يقال : لا تطيعوا فريقاً)) (1).

فيجب على الإنسان المسلم أن يكون انقياده ، وانصياعه لله رب العالمين ، وأن يأخذ جميع الأحكام والتشريع من القرآن والسنة فقط ، وأن يبتعد ، ويقاوم ويحارب الأحكام الوضعية، التي يضعها أعداء الدين بقصد هدمه ، والقضاء عليه حتى لو أعجبته ، وكانت أيسر عليهم من أحكام القرآن ، فإن الخير دائماً فيما يختاره الله - جلّ وعلا - .

أما من يفعل ما ينهى عنه ، وينصاع لهم ، وينقاد لأحكامهم ، فإن الله - سبحانه وتعالى - قد حكم عليه بالكفر ، والخروج من الدين .

3. طاعتهم في الطعن في الإسلام ، والتشكيك فيه ، بقصد هدمه وتصدعه من الداخل .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (2).

يقول ابن عاشور : ((أي وإن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه ، وهو الطعن في الإسلام ، والشك في صحة أحكامه إنكم لصاترون إلى الشرك)) (3).

آثار الولاء المطلق لغير الله :

انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (4).

فإنه لا بد وأن ترتب على تلك المظاهر ، والصور لموالات الأعداء آثار ؛ ليكون الجزاء من جنس العمل ؛ وتحقيقاً للعدل الإلهي ، ومصادقاً لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (5).

(1) تفسير أبي السعود : 64/2 .

(2) الأنعام / 121 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 42/8 .

(4) النساء / 123 .

(5) الزلزلة / 7 ، 8 .

ومن هذه الآثار :

1. حلول سخط الله - تعالى - ، والخلود في العذاب :

إن مظاهر الكفار ضد المسلمين تعتبر سبباً موجباً لسخط الله - تعالى - وللخلود في عذابه - جلّ وعلا - .

قال تعالى : ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (1).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((وقوله : ﴿لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين ، وتركهم موالات المؤمنين ، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم)) (2).

2. هوان الموالى للكفار على الله - عزّ وجل - :

قال تعالى : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (3).

يقول الطبري - رحمه الله - : ((ومعنى ذلك : لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً ، توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين ، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني بذلك : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه ؛ بارتداده عن دينه ، ودخوله في الكفر)) (4).

فالطبري - رحمه الله - يحكم على الموالى للكفار موالات تامة ، دون أن يكون له عذر لذلك ، كخوف كيدهم وبطشهم ، بالكفر والارتداد عن الدين ، وبذلك يتأكد كون الموالى كافراً ، خارجاً من الإسلام - والعياذ بالله - .

3. الحكم عليه بالنفاق :

إن مظاهر الكفار على المسلمين شعبة من شعب النفاق ، وخصلة من خصال المنافقين .

(1) المائدة / 138 ، 139 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 86/2 .

(3) آل عمران / 28 .

(4) جامع البيان للطبري : 309/3 .

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((إن ذلك العذاب الأليم ؛ بسبب محبتهم الكفار ،
ومواليتهم ، ونصرتهم ، وتركهم لموالاتة المؤمنين ،وفي هذه الآية الترهيب
العظيم من موالاتة الكافرين ، وترك موالاتة المؤمنين ، وأن ذلك من صفات المنافقين ،
وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين ، وموالاتهم ، وبغض الكافرين وعداوتهم)) (2).

4. الحكم عليه بالكفر :

ومن مظاهرها أيضاً : خروج المتولى من الإسلام ، ودخوله في الكفر ،
وتطبيق أحكامه عليه ، وهو من أخطر المظاهر على الإطلاق ؛ فلو لم يكن
للمتولى أمر غير هذا لكفاه ، وكان سبباً في هلاكه ودماره ، إن لم يكن في الدنيا
ففي الآخرة .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ (3).

يقول الطبري - رحمه الله - : ((من تولاهم ، ونصرهم على المؤمنين ، فهو
من أهل دينهم وملتهم ، فإنه لا يتولى متولٍ أحداً إلا وهو به وبدينه ، وما هو عليه
راضٍ ، وإذا رضى به ، ورضى بدينه؛ فقد عادى ما خالفه وسخطه ، وصار حكمه
حكمه)) (4).

وبهذا أصبح واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أن الموالى لأعداء
الدين ، ولأعداء المسلمين ، المحب لهم ، والحريص على مصلحتهم ، يصبح منهم ،
فيخرج من الإسلام، ويدخل في الكفر مثلهم ، وتبعاً لذلك تنطبق عليه جميع الأحكام
التي تنطبق عليهم من حبوط عمل وغيره - أعاننا الله والمسلمين من ذلك - .

(1) النساء / 138 ، 139 .

(2) تفسير السعدي : 393/1 .

(3) المائدة / 51 .

(4) جامع البيان للطبري : 375/6 .

وما ذلك العقاب الشديد ، والحكم الشنيع على الموالين للأعداء ؛ إلا لشدة ما يقترفونه ، وخطورة ما يرتكبونه في حق إخوانهم المسلمين .

فكم دلووا على عورات ، وكم أهدوا إلى أماكن الشرفاء ، وكم كانوا سبباً في حصول مجازر ، ومذابح ، وانفجارات ، فكانوا السبب في انتهاء أعمار كثير من الشيوخ ، والنساء ، والأطفال ، والرجال ، والشباب بلا تمييز ولا تفريق . فأصبحت النساء بسببهم بلا أزواج ، والأمهات بلا أبناء ، والأطفال بلا آباء أو أمهات ، فأدى ذلك إلى حلول كثير من المصائب ، كانتشار ظاهرة الفقر ، والجوع ، والتشريد ، والسرقة ، وغيرها الكثير .

كل ذلك والموالي فرح بما يلقيه إليه أعداء الله من فتات على الأرض يلتهمه كالحبوان ، غير ناظر إلى عظم حجم ما اقترفت يدها النجستان من مصائب وويلات . فأفبقوا أيها الموالون للكفار ، وأعيدوا حساباتكم ، وحكموا عقولكم ، وقلوبكم ، إن كنتم ما زلتم تمتلكونها ، وانظروا حولكم في كل بلدة ، في كل حارة ، بل في كل بيت ، لتزوا بصمات أصابعكم تشير إليكم قائلة : أنتم السبب في حلول ذلك الدمار ، والهلاك ، والتشريد ، والتفريق ، حتى الحيوان ، والطير ، بل حتى الجماد لم يسلم منكم .

أفبقوا وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، واعلموا أن ما يلقيه إليكم الأعداء مهما كان كثيراً - وهو ليس كذلك - لا يساوي - دمة حزن على خد طفل فقد أحد أبويه ، أو كليهما بسببكم ، أو عويل أم تكلى تبكي أبناءها ، أو بكاء زوجة فقدت المعيل الوحيد بعد الله تعالى لها ولأبنائها ، وانظروا حولكم لتعلموا أنكم المسئولون عن كل ذلك أمام الله - عز وجل - .

فكيف بالله عليكم تستطيعون أن تناموا ، أو تأكلوا ، أو تشربوا ، أو تتمتعوا في هذه الحياة الزائلة ، وأثار جرائمكم أمام أعينكم في كل مكان .

فحاولوا أن تعودوا إلى الله ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحاً ، وأن تكفروا عن خطاياكم ، وجرائمكم المدمرة بما يمليه عليكم وجدانكم الذي كان يفكر في إهلاك المسلمين .

وتعلموا جيداً أن القليل بالحلال خير من الكثير بالحرام ، فإن الحرام لا يدوم ، وإن دام لا ينفع أصحابه - والله المستعان - .

المبحث الثاني

محبطات فعلية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الزنا واللواط

المطلب الثاني : شرب الخمر

المطلب الثالث : الربا .

المبحث الثاني

محبطات فعلية لا تخرج من الإسلام

سأتناول في هذا المبحث - إن شاء الله - محبطات فعلية أخرى ، تحبط العمل الصالح ولكنها دون الأولى ، حيث إن الأولى يخرج مرتكبها من الإسلام ، ويدخل في الكفر ، وبالتالي يحبط عمله ، ويبطل ، أما هذه فإن ارتكابها يؤدي إلى حبوط عمل مرتكبها ، ولكنه يبقى في الإسلام ، ولا يخرج منه بهذه الفعلة .
علماً بأن هذا المبحث يحتوي على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الزنا واللواط

يدور هذا المطلب حول تعريفهما ، وبيان آثارهما على الفرد والمجتمع ، وبيان شدة خطورتهما ، وحكمهما .

أولاً : الزنا

الزنا لغة : الزنا يُمد ويُقصر يقال زنى مزاناة ، وزنى : نسبة إلى الزنا ، والمرأة تزنى مزاناة ، وزناء : أي تباغى ، وهو وصف للرجل والمرأة (1).
الزنا شرعاً : إدخال فرج في فرج مشتهى طبعاً ، محرم شرعاً (2).
إن الزنا من أعظم الفواحش التي حرمها الله - تعالى - في كتابه العزيز ، وعلى لسان نبيه الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (3).

يبين أبو بكر الجزائري الحكمة من تحريمه قائلاً : ((تحريم الزنا للمحافظة على طهارة المجتمع الإسلامي ، وصيانة أعراض المسلمين ، وطهارة نفوسهم ، والإبقاء على كرامتهم ، والحفاظ على شرف أنسابهم ، وصفاء أرواحهم)) (4).

(1) انظر لسان العرب : 96/6 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 165/12 ، وانظر المغني : 349/12 .

(3) الإسراء / 32 .

(4) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري ، مكتبة الإيمان/المنصورة ، ط 1384هـ - 1964م ، ص 370 ، 371 ، بتصرف يسير .

والزنا خلق مذموم ، قبيح ، معلوم فسقه وقبحه حتى عند فاعليه ، بل حتى عند الحيوانات التي لا تعقل .

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن ميمون الأودي (1) - رضي الله عنه - أنه قال : (رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها ، فرجمتها معهم) (2).

وهذا الفعل في الحيوان لا يعني أن الحيوانات مكلفة ، وأنه يلزمها الرجم عند ارتكاب تلك الفاحشة ، إنما يحتمل أن يكون الذين مسخوا قردة من بني إسرائيل لما صاروا على هيئة القردة مع بقاء عقولهم وأفهامهم كما هي ، فحينما عاشروا القردة الأصلية ، حصلت تلك الفاحشة ، فقاموا برجم مرتكبيها ، فتلفت عنهم القردة الأصلية هذا الفعل فحفظوها ، وصار فيهم (3).

والزنا سبيل الهلاك ، والدمار ، والافتقار في الدنيا ، وسبيل العذاب والخزي ، والنكال في الآخرة .

ومفسدته تلي مفسدة الشرك ، والقتل ؛ لذا قرنهم الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (4).

وقد علق الله - سبحانه وتعالى - فلاح العبد ونجاته على حفظ فرجه ، فلا نجاة للعبد بدون ذلك .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَىٰ

(1) هو عمر بن ميمون بن بحر بن سعد بن الرماح البلخي ، أبو علي ، قاضي بلخ ، يقال : تولى قضاء بلخ أكثر من عشرين سنة ، وكان محموداً في ولايته ، مذكوراً بالحلم والعلم ، والصلاح والفهم ، وعمي في آخر عمره ، مات في رمضان سنة إحدى وتسعين ومائة . تهذيب التهذيب : 105/6 .

(2) أخرجه (خ) ، ك(مناقب الأنصار) ، ب/27(الفسافة في الجاهلية) ، 1173/3 ، ح(3849) .

(3) انظر فتح الباري : 199/7 .

(4) الفرقان / 68 .

وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (1).

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((نكر - جلّ وعلا- في هذه الآيات الكريمة : أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ، ويخلدون فيها ، حفظهم لفسروجهم : أي من اللواط والزنى ، ونحو ذلك ،.... وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه وراء ذلك غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين: أي المعتدين حدود الله ، المجاوزين ما أحله الله إلى ما حرمه)) (2).

عقوبة الزنا :

ومما يدل على فحش الزنا ، وشناعته ، ما رتب الله - تعالى - عليه من الحدّ الصارم ، حيث حكم على الزانى البكر بالجلد مائة جلدة .

قال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (3).

أما المحصن - الثيب - فحدّه الرجم بالحجارة حتى الموت (4).

ثانياً : اللواط

اللواط لغة : أصل اللواط الإلحاق بالنفس، ولواط الرجل لوطاً ولاوط : أي عمل عمل قوم لوط (5).

اللواط شرعاً : الوطء في دبر الرجال (6).

واللواط أشد وأنكى من الزنا ؛ حيث إنه يزيد عن الزنا أنه منافع للطبيعة البشرية .

ومما يدل على أن اللواط أعظم شناعة من الزنا - وكلاهما شنيع - أنه

- تعالى - قال في الزنا : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (7).

وقال في اللواط : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (8).

(1) المؤمنون / 1-7 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 518/5 .

(3) النور / 2 .

(4) سيأتي بيان ذلك الحكم بالتفصيل في المبحث الأول من الفصل الأول من الباب الثاني - إن شاء الله - .

(5) انظر لسان العرب : 358/12 ، ومختار الصحاح ص 608 .

(6) المغني : 340/12 .

(7) الإسراء / 32 .

(8) الأعراف / 80 .

فقد نكرتعالى الفاحشة في الزنا ، أي هي فاحشة من الفواحش ، وعرفها في اللواط ؛ ليدل أنه اسم جامع لكل معاني اسم الفاحشة (1).

مفاسد اللواط :

اللواط له مفاسد كثيرة ، ذكرها ابن عاشور من خلال ذكره لوجه تسمية هذا الفعل الشنيع بالفاحشة ، ومن تلك المفاسد :

1. استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه ؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية ؛ لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل ، حتى يكون الداعي إليه قهرياً ، ينساق إليه الإنسان بطبعه ، فبقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة ، والنوع .

2. تغيير خصوصية الرجولة بالنسبة للمفعول به ؛ إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته .

3. فيه امتهان محض للمفعول به ؛ إذ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً .

4. أنه مفض إلى قطع النسل ، أو تقليبه .

5. إن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل ، والمفعول به ؛ بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له (2).

عقوبة اللواط :

جعل الله - سبحانه وتعالى - على لسان نبيه - ﷺ - ، عقوبة اللواط القتل للفاعل والمفعول به حداً بلا فرق بين محصن ، وغير محصن .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل ، والمفعول به) (3).

(1) انظر الجواب الكافي ، ص 219 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 232/8 بتصرف .

(3) أخرجه (ت) ،ك(الحدود) ،ب/24(ما جاء في حد اللوطي) ،373/3 ،ح(1456) ، وأخرجه (جه) ك(الحدود) ،ب/12(من عمل عمل قوم لوط) ،82/2 ،ح(2075) ، وصححه الألباني في صحيحه 1121/2 ،ح(6589).

الآثار المترتبة على الزنا واللواط :

(أ) حبوط العمل :

الزنا واللواط يحبطان العمل الصالح ، ويأكلان حسنات فاعليهم ، وقد ورد ذلك الحكم في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة :

1. روى مسلم في صحيحه عن النبي -ﷺ- أنه قال : (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتكم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم) (1).
2. وفي رواية له أيضاً : (فخذ من حسناته ما شئت) (2).

يقول النووي - رحمه الله - عند شرحه لهذين الحديثين الشريفين : ((قوله -ﷺ- في الذي يخون المجاهد في أهله : (إن المجاهد يأخذ يوم القيامة من حسناته ما شاء فما ظنكم) ، معناه : ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته ، والاستكثار منها في ذلك المقام ، أي : لا يبقى منها شيئاً إن أمكنه)) (3).

إن هذين الحديثين الشريفين يوضحان أن من ارتكب الفاحشة مع حليلة جاره فإنه حابط العمل ، ولا يعني ذلك أن الحكم مقصور على ذلك؛ بل إن جميع من ارتكب هذه الفاحشة يحبط عمله ، بغض النظر عن المفعول بها ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - حينما وصف الزنا قائلاً : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (4) ، لم يميز بين أن تكون حليلة الجار أو غيرها ، لكن زنى هذا الجار أشد جرماً ؛ لأن زوجها استأمنه عليها ، وهو ذاهب للجهاد في سبيل الله .

ويعضد ذلك المعنى ، قول رسول الله -ﷺ- : (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزيكهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل (5) مستكبر) (6).

(1) أخرجه (م) ،ك (الإمارة) ، 36/13 ، ح (139) .

(2) أخرجه (م) ،ك (الإمارة) ، 36/13 ، ح (140) .

(3) صحيح مسلم بشرح النووي : 47/13 .

(4) الإسراء / 32 .

(5) الفقير صاحب المال .

(6) صحيح مسلم بشرح النووي : 119/13 .

الشيخ هنا : تعني الكبير في السن. فهل يعقل إن ارتكب الشيخ الفاحشة لا يكلمه الله ، ولا ينظر إليه ، أما الشاب الصغير السن إن ارتكب نفس الفاحشة ، لا ينطبق عليه هذا الحكم !!.

إن الأدلة تقول : إنه لا فرق في الحدود بين كبير وصغير ، ولا بين غني وفقير .

وإنما خصَّ الشيخ الكبير ؛ لأن الفاحشة منه أشدُّ نكالا ، وأكثر مصاباً ؛ لكمال عقله ، وتعديه مرحلة عدم الاتزان العاطفي ، وضعف أسباب الشهوة عنده.

(ب) إهدار الدم :

إن الزنا يؤدي إلى إهدار دم فاعله.

قال - ﷺ - : (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة) (1).

يقول ابن حجر العسقلاني : (أي : فيحل قتله بالرجم) (2).

(ج) حلول اللعنة على اللوطي :

إن اللوطي ملعون من الله تعالى ، ملعون من رسوله - ﷺ - ، ملعون من سائر المؤمنين .

قال - ﷺ - : (لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل قوم لوط) (3).

في هذا الحديث النبوي الشريف لعن رسول الله - ﷺ - اللوطي ثلاث مرات ، واللعن : هو الطرد من رحمة الله .

ولم يلعن رسول الله - ﷺ - أحداً ثلاث لعنات إلا اللوطي ، أما باقي أهل الكبائر فلعنهم مرة واحدة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة خطورة هذا الفعل الشنيع ، وبيان مدى شدة آثاره المدمرة .

(1) مستفق عليه ، أخرجه (خ) ، ك(الديبات) ، ب/6 (قول الله تعالى : ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن﴾ ، 4/145 ، ح(6878) ، وأخرجه (م) ، ك(القسامة) ، 11/313 ، ح(25).

(2) فتح الباري : 241/12 .

(3) أخرجه (حم) ، 5/26 ، ح(2816) ، وقال إسناده جيد ، ورجاله رجال الصحيح .

(د) نفى صفة الإيمان الكامل :

نفى رسول الله - ﷺ - عن الزاني كونه مؤمناً كامل الإيمان .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال النبي - ﷺ - : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) (1) الحديث

فإذا كان لهذه الجريمة المنكرة الشنيعة كل هذه العقوبات ، والحدود ، والمفاسد والآثار السيئة ، في الدنيا والآخرة ، فإنه يجب على مرتكبيها أن يعيدوا النظر في حساباتهم ، وأفعالهم ، وأن يتقوا الله ربهم ، ويتعدوا عنها حالاً ، مخافة الله ، كما يجب عليهم أن يتعدوا عن كل عمل يفضي إليها ، كغض البصر ، وحفظ الفرج .
مخافةً لله تعالى ، كي يذوق الإنسان تلك الحلاوة التي وعد الله - سبحانه وتعالى - بها .

وليعلموا جيداً أن ذلك العمل الشنيع القبيح تزول آثاره التي سَعَوْا إليها في لحظات ، ويبقى ذله وهوانه ، ودماره فلا يزول .

وصدق سفيان الثوري - رضي الله عنه - حين قال :

تفنى اللذائة ممن ذاق صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في نذة من بعدها النار (2)

يقول ابن القيم - رحمه الله - : (النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فإن النظرة تولد الخطرة ، ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير جازمة ، فيقع الفعل ولا بد ، ما لم يمنع منه مانع ، ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها كم بلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر (3)

(1) أخرجه (خ) ، ك(المظالم) ، ب/30 (النهجى بغير إذن صاحبه) ، 743/2 ، ح(2475).

(2) نقلاً عن روضة الناظر ونزمة الخاطر في الجزاء من جنس العمل ، د.سيد حسين العفاني ، المطبعة العمرانية للأوفست/الجزيرة ، ط⁵ 1412هـ - 2001م ، 214/2 .

(3) الجواب الكافي ، ص 195 .

فعلى من ينشرون أسباب الفاحشة بقصد وبدون قصد أن يتقوا الله ، ومن تخرُج متبرجة سافرة خليعة أن تتقي الله ، وعلى من حملوا الأمانة فكانوا المسئولين عن الإذاعة والتلفاز والمجلات والنشرات فقدموا فيها الغث والسمين أن يتقوا الله ، وأن يجعلوا جميعاً حديث رسول الله - ﷺ - نصب أعينهم ، ومنهاجاً لهم في الحياة .
 عن سالم بن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته) (1) الحديث .

المطلب الثاني : شرب الخمر

(أ) الخمر لغة : اسم مشتق من مصدر خَمَّرَ الشيء يخمره ، إذا ستره ، ومنه : خمارة المرأة ، وكل شيء غطى شيئاً فقد خَمَّرَه ، والخمر تخمر العقل : أي تغطيه وتستره (2) .
 (ب) الخمر شرعاً :

هو المسكر من كل شراب أياً كان نوعه (3) .

التدرج في التحريم :

وردت أدلة تحريم الخمر في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - لم يحرمها دفعة واحدة ، بل تدرج في تحريمها ؛ لشدة تعلق شاربها بها ، حيث كانوا مولعين بها ، فأراد الله - تعالى - تهينة النفوس لاستقبال أمر التحريم النهائي بنفوس راضية ، مطمئنة ، هادئة ، ورغم ذلك كانت أشد ما حُرِّمَ عليهم .
 1. فكان أول ما نزل في شأنها قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا... ﴾ (4) . حيث جعل (السكر) مقابلاً للرزق الحسن ، فأشار إلى أنه رزق سيئٌ تنفيراً عن تعاطيه ، أو الاتجار به .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (5) . أي : في تجارتهم .

(1) أخرجه (خ) ، ك (الجمعة) ، ب/11 (الجمعة في القرى والمدن) ، 267/1 ، ح (893) ، وأخرجه (م) ك (الإمارة) : 523/12 ، ح (20) .

(2) انظر لسان العرب : 213/4 ، ومختار الصحاح ص 189 .

(3) منهاج المسلم ص 369 .

(4) النحل / 67 .

(5) البقرة / 219 .

- ولما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس ، وقالوا : لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير ، ولم يتركها بعض الناس ، وقالوا : نأخذ منفعتها ، ونترك إثمها .
2. ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... ﴾ (1) .
3. ثم نزل قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (2) .

فتركها بعض الناس ، وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، وشربها بعضهم في غير أوقات الصلاة .

4. ثم تدرج الحكم فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (3) .
- فصارت الخمر بهذه الآية حراماً عليهم ، لا مجال فيها للتأويل ، حتى صار يقول بعضهم : ما حرّم الله شيئاً أشد من الخمر (4) .

آفات شرب الخمر :

الخمر أم الخبائث ، ومن أكبر الكبائر ، ومجمع الفواحش ، وهي مفتاح كل إثم ، ومنبع كل شر .

وقد وصف المناوي هذه القبائح فقال : ((الخمر أم الفواحش الأخروية ؛ بل والديوية ؛ لأنها تصدع ، وتكثر اللغو على شاربها ، بل لا يطيب شرابها إلا باللغو ، وهي كريهة المذاق ، ورجس من عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء ، وتصدّ عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وتستر العقل الذي هو نور الهدى ، وآلة الرشد ، ومن قبحها وفضائحها : أنها تُذهِبُ الغيرة ، وتورث الخزي ، والفضيحة ، والندامة ، وتلحق شاربها بأحقر أنواع الإنسان ، وهم المجانين ، وتسهل قتل الإنسان ، ومؤاخذة الشيطان وهتك الأستار ، وإظهار الأسرار ، وتدلل على العورات ، وتهوّن ارتكاب الجرائم والقبائح ، وكم أهاجت من حرب ، وأفقرت من غني ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف ، وسلبت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وفرقت بين رجل وزوجته ، فذهبت

(1) البقرة / 219 .

(2) النساء / 43 .

(3) المائدة / 90 .

(4) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 270-271/6 .

بقلبه ، وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عبّرة ، وأوقعت في بليّة ، وأجلّت من منيّة، وكم ، وكم ، ولو لم يكن من فواحشها ، إلا أنها لا تجتمع هي وخرم الجنة في جوف واحد لكفى، وآفاتنا لا تحصى ، وفضائحها لا تستقصى)) (1).

الآثار المترتبة على شرب الخمر :

لما كان كل هذه الآفات ، والقبايح لشرب الخمر ، ولما كان دائماً الجزاء من جنس العمل ، فمن يعمل سوءاً لا يُجزَّ إلا به ، فقد ترتب على شرب الخمر عدد من الآثار جزاءً وفاقاً، ومنها :

1. **وجوب الحد :**

بيّن -ﷺ- في السنة النبوية المطهرة أن شارب الخمر يجب عليه الحد ، أربعين جلدة .

عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما-، أن -ﷺ- قال عن شارب الخمر : (إذا شربوا الخمر فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاقتلوهم) (2).

أي إذا شرب الخمر، فيجب جلده أربعين جلدة ، وإن نهي عنها وانتهى وتاب ، عفا الله عنه ، وتاب عليه - بإذنه تعالى- ، ولكن إن عاد عليها ثانية ، عاد الجلد مرة أخرى ، وإن تكرر الشراب ثلاثة فيجب قتله ؛ لأنه يكون من المصرين على فعل المعاصي - والعياذ بالله- .

2. **الحرمان من دخول الجنة :**

بيّن -ﷺ- أن شرب الخمر سبب في الحرمان من دخول الجنة ، والتمتع بكل ما فيها من نعيم، مما لا عين رأت مثله ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ إذا مات وهو مُصرّ عليها، وبدون توبة .

عن ابن عمر - رضي الله عنهما- أن رسول الله -ﷺ- قال : (لا يدخل الجنة مدمن خمر) (3).

(1) فيض القدير ، شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ، دار الفكر ، بدون تاريخ- 507/3 ، 508 .
(2) أخرجه (د) ،ك(الحدود) ،ب/37(إذا تتابع في شرب الخمر) ،4/1918 ،ح(4482) وقال :حديث صحيح وأخرجه(ت) ،ك(الحدود) ، ب/15 (ما جاء فيمن شرب الخمر فاجلدوه ، ومن عاد الرابعة فاقتلوه) ، 3/466 ح(1444) ، وأخرجه (ج) ،ك(الحدود) ،ب/17(من شرب الخمر مراراً)2/84 ،ح(2085) بنحوه وقال : حديث حسن صحيح .

(3) أخرجه (ج) ،ك(الأشربة) ،ب/3(مدمن الخمر) ،2/241 ،ح(2721)وقال حديث صحيح ، وصححه الألباني في صحيحه :2/1270 ، ح(7673).

فإذا كان لا يدخل الجنة ، فإن مصيره حتماً إلى النار ، إلا إن عفا الله عنه ، كما في بقية الكبائر ، وهو في المشيئة .

3. الحرمان من شرب الخمر في الآخرة :

إن شارب الخمر في الدنيا يُحرم شرابها في الآخرة ، جزاءً وفاقاً ، فمن استعجل الشيء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه .

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها ، حُرِمها في الآخرة) (1).

قال ابن حجر : ((قال الخطابي والبخاري ، في (شرح السنة) : معنى الحديث : لا يدخل الجنة ؛ لأن الخمر شراب أهل الجنة ، فإذا حُرِم شرابها ، دلَّ على أنه لا يدخل الجنة ، وقال ابن عبد البر : هذا وعيد شديد يدل على حرمان دخول الجنة)) (2).

فيا لها من حسرة ، وندامة ، حين لا ينفع الندم ، ولا تجدي الحسرة ، حيث باع ذلك الشارب أنهاراً من خمر في الجنة لذة للشاربين ، بشراب دنيوي نجس ، كربه .

4. نفي كمال الإيمان عن شاربها :

إن شارب الخمر ينفي عن نفسه كمال الإيمان بشربه ذلك المشروب النجس .

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) (3).

يقول ابن حجر العسقلاني عند شرحه لذلك الحديث : ((قال ابن بطال : وحمل أهل السنة الإيمان هنا على الكامل ؛ لأن العاصي يصير أنقص حالاً في الإيمان ممن لا يعصي ، ويحتمل أن يكون المراد أن فاعل ذلك يتول أمره إلى ذهاب الإيمان)) (4).

(1) أخرجه (خ) ،ك(الأشربة) ، ب/1(قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾) ، 4/1791 ، ح(5575).

(2) فتح الباري : 41/10 .

(3) أخرجه (خ) ،ك(الأشربة) ، ب/1(قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾) ، 4/1792 ، ح(5578).

(4) فتح الباري : 41/10 .

وعلى هذا فإن الخمر قد تكون سبباً لزوال الإيمان بالكفاية ، أو تنقصه - على رأي بعض العلماء - ولكن ذلك القول لا يخفف من شدة خطورتها .

5. حلول اللعنة على المتعاملين بها :

إن من مظاهر خبث الخمر ، ونجاستها ، حلول اللعنة ، ليس على شاربها فقط ، بل على كل من تعامل بها ، أو لمسها ، سواء بالشرب ، أو البيع ، أو العصر ، أو الحمل ، أو بتقاضي الثمن .

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (لعن الله الخمر، وشاربها ، وساقياها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وأكل ثمنها) (1).

ومعلوم أن اللعن : هو الطرد من رحمة الله - عز وجل - .

6. حبوط عمل شاربها :

كما أن شرب الخمر يؤدي إلى حبوط عمل شاربها الصالح ، المتمثل في الصلاة ، ومعلوم من الدين بالضرورة أن الصلاة عمود الدين ، إن صلحت صلح سائر عمل الإنسان ، وإن فسدت فسد عمله كله ، فإذا أفسد شرب الخمر الصلاة ، وأحبط أجرها ، فإن معنى ذلك أنه أبطل سائر أعماله ، وقد وردت تلك المعاني في عدد من الأحاديث الصحيحة أكتفي بذكر اثنين منها :

(أ) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن مات دخل النار ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن مات دخل النار ، وإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردة الخبال يوم القيامة : قالوا يا رسول الله: وما ردة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار) (2).

(1) أخرجه (د)ك(الأشربة) ، ب/2(العنب يُعصر للخمر) ، 1590/3 ، ح(3674) ، وقال صحيح . وصححه

الألباني في صحيحه : 907/2 ، ح(5091)

(2) أخرجه (ج)ه(ك(الأشربة) ، ب/4(من شرب الخمر لم تقبل له صلاة) ، 242/2 ، ح(2722) وصححه

الألباني في صحيحه : 1082/2 ، ح(6313).

(ب) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب لم يتب الله عليه ، وسقاه من نهر الخيال) (1).

فهذان الحديثان الشريفان يوضحان أن شرب الخمر يؤدي إلى حبوط أجر صلاة الشارب لمدة أربعين يوماً ، ثم إن عاد ثانية وشربها ، أحبط أجر صلاته أربعين يوماً أخرى ، وإن عاد وشرب الثالثة ، أيضاً فإنه يحبط أجر صلاته أربعين يوماً مرة ثالثة . ومعنى ذلك أنه إن لم يتب يكون قد أحبط أجر صلاة مائة وعشرين يوماً ، سيأتي عليه يوم يكون فيه أحوج ما يكون إلى حسنة واحدة ، وأجر ركعة واحدة ، فما بالك بضياح أجر ستمائة صلاة ، حينها تكون الحسرة والندامة في وقت لا تجدي فيه شيئاً .

ويلاحظ أن الله - سبحانه وتعالى - قد أعطى فرصة للتوبة ، فمن تاب أول مرة ، قبل الله توبته ، ومن عاد ثم تاب ، قبل الله توبته ، ومن عاد ثالثة ثم تاب يقبل توبته ، أما إن عاد الرابعة وتاب ، فقد أخبر - ﷺ - أنه لن يقبل الله توبته ، وسيسقيه من عرق أهل النار ودمهم وقيحهم بعد دخوله فيها - نسأل الله السلامة - ؛ وذلك لأن ذلك الإنسان يكون مصراً على المعصية معانداً ، مكابراً ، مستخفاً بأحكام الإسلام ؛ لذا لم تقبل توبته ، مع استحقاقه للوعيد .

ويلاحظ أيضاً رحمة الله - سبحانه وتعالى - بعباده العاصيين ؛ حيث إنه أعطاهم ثلاث فرص للتوبة ، ولم يوجب عليهم العقاب من أول معصية ؛ لعلمه - جلّ وعلا - أن النفوس إذا تعلقت بها يصعب عليها تركها دفعة واحدة .

فليعلم شاربوا الخمر أن الأمر ليس هيناً ، بل هو جد خطير ؛ لذا يجب عليهم الإقلاع عنها فوراً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، ويبدلهم عنها بأنهار في الجنة من خمر لذة للشاربين .

(1) أخرجه (ت) ، ك(الأشربة) ، ب/1 (ما جاء في شارب الخمر) ، 70/4 ، ح(1862) ، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن ، وصححه الألباني في صحيحه : 1081/2 ، ح(6312) .

وبالنظر في تعريف الخمر - هي كل شراب مسكر - تبطل دعاوى بعض الناس في هذا الزمان ، حين حاولوا قلب الحقائق ، وتغطية الشمس بغربال ، يوم أن تحايّلوا على الدين ، فسمّوا الخمر بأسماء جديدة غير اسمها الحقيقي ، كالحشيش ، والأفيون ، والوسكي ، والشمبانيا ، وزعموا أن هذه الأشياء غير الخمر ، وأنه لم يرد في تحريمها نصٌّ شرعي ، ونسوا أو تناسوا أنها جميعاً تندرج تحت نفس الحكم ، رغم اختلاف الأسماء ؛ لأنها جميعاً تحمل نفس علة التحريم ، وهو الإسكار .

ونسوا أيضاً قول المصطفى - ﷺ - : (كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام) (1) . فهذا الحديث النبوي الشريف يؤكد أن العلة في التحريم الإسكار ، وليس الاسم ، فكل ما أسكر شرابه فهو حرام ، بغض النظر عن اسمه ، سواء حمل اسم الخمر ، أم لا .

ومما يؤكد هذه المعاني أن النبي - ﷺ - - الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى - ، قد علم أن المصرين على شرب الخمر سيتلاعبون بالأسماء ، فقال - ﷺ - فيما رواه أبو مالك (2) الأشعري - رضي الله عنه - عنه : (ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها) (3) .

وفي هذا الحديث النبوي الشريف قطع كل حيلة ، وإفساد كل تخطيط ، فهو واضح الدلالة لأن جميع المشروبات التي تسكر عائدة إلى الخمر ، بل هي الخمر بعينها ، وإن سميت بغير اسمها .

فلو لم يكن للخمر من آثار ، وآثام غير هذا لكفى ، ولكان دافعاً قوياً لتركه ، فإننا مأمورون بالمحافظة على أجسامنا وصحتنا .

قال تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (4) .

(1) أخرجه (م) ، ك (الأشربة) ، 176/13 ، ح (73) .

(2) اسمه الحارث بن الحارث ، وقيل غير ذلك ، طعن هو ومعاذ بن جبل ، وأبو عبيدة بن الجراح في يوم واحد ، في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - . تهذيب التهذيب : 244/10 .

(3) أخرجه (د) ، ك (الأشربة) ، ب/6 (في الداذي) ، 1596/3 ، ح (3688) ، وقال : صحيح . وصححه الألباني : 959/2 ، ح (5453) .

(4) البقرة / 195 .

فلو كانت الخمر غير محرمة ، ولكنها تُودي بصحة الإنسان ، لكان ذلك سبباً قوياً لتركها ، فها هم مرضى السكر ، ومرضى ضغط الدم يتركون كثيراً جداً من الأطعمة والأشربة الحلال ؛ حفاظاً على الصحة .
فهلا اقتدى بهم شاربوا الخمر، ومدمنوها؟!

المطلب الثالث : الربا

نهى الله - سبحانه وتعالى- عباده المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل ظلماً وعدواناً ، واعتبر ذلك من كبائر المحرمات التي يجب تركها، والابتعاد عنها، في عدد من آيات القرآن الكريم ، أذكر منها :

1. قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (1).

2. وقال -جل ذكره- أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (2).

كما شدد الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام- تشديداً عظيماً على آكلي حقوق الناس، وأموالهم بالباطل في عدد من الأحاديث النبوية ، والتي منها :

1. عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه- أن رسول الله - ﷺ - خطب خطبته المشهورة في حجة الوداع، فقال فيها : (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا) (3).

2. وعن سعيد بن زيد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (من أخذ شبراً من الأرض ظلماً ، فإنما يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين) (4).

ومن أشنع مظاهر أكل أموال الناس بالباطل : الربا

(أ) الربا لغة : الزيادة مطلقاً ، يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد (5).

(1) البقرة / 188 .

(2) النساء / 29 .

(3) أخرجه (خ) ، ك (العلم) ، ب/9 (قول النبي - ﷺ - : (رب مئسف أوعى من سامع) ، 49/1 ، ح (67) .

(4) أخرجه (خ) ، ك (بدء الخلق) ، ب/2 (ما جاء في سبع أرضين) ، 987/2 ، ح (3198).

(5) انظر مختار الصحاح ص 231 ، 232 ، وجامع البيان للطبري : 139/3 ، والجامع لأحكام القرآن

للقرطبي : 349/3.

(ب) الربا شرعاً : ((هو الزيادة في أشياء من المال مخصوصة)) (1).

والربا كسب خبيث ، محرم ، مشؤوم ، لا خير فيه ، ولا بركة ، بل يجلب الضرر ، والنقبة في الدين والدنيا ، وكل من نبت لحمه من الحرام ، وأكل الربا فالنار أولى به .

الآثار المترتبة على التعامل بالربا :

إن للربا أضراراً كثيرة ، وعواقب وخيمة على الفرد والجماعة الذين يشتركون فيه ، والمجتمع الذي يرى المنكر فيقره ، ولا ينكره ، ولا يسعى إلى تغييره ؛ فإن التعامل بالربا ، أو الذي يعين عليه يخالف ما جاء عن الله - تعالى - ، ورسوله - ﷺ - بخصوصه .

قال تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (2).

وقد بين - سبحانه وتعالى - أن مصير العصاة ، ومآلهم الخلود في النار : قال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ (3).

وإن بعض هذه الآثار معجل ، وبعضها مؤجل ، ومن هذه الآثار :

1. حلول اللعنة على جميع المتعاملين به :

إن الربا سبب حلول اللعنة - وهي الطرد من رحمة الله - لكل من تعامل به ، أكله ، وموكله ، والشاهدين عليه ، وكاتبه ، جميعهم في اللعنة سواء .

قال - ﷺ - : (لعن رسول الله - ﷺ - آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء) (4).

2. محق البركة :

فكما أنهم محقوا بركة أموال الغير ؛ بدفعها فوائد ربوية ، فإن الله - سبحانه وتعالى - توعدهم بمحق بركة أموال آكلي الربا .

(1) منهاج المسلم ، ص 265 .

(2) النور / 63 .

(3) النساء / 14 .

(4) أخرجه (م) ، ك (المساقاة والمزارعة) ، 208/11 ، ح (106).

قال تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (1).

قال ابن كثير - رحمه الله - : ((أي : يذهب ، فإما أن يذهب بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركه ماله ، فلا ينتفع به ، بل يعذبه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (2) .
وقال تعالى : ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ (3).

وقال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيُرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (4) (5).

3. الحرمان من الطيبات :

قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (6).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات، التي كانت حلالاً لهم ، وهذا تحريم عقوبة ؛ بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصددهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ،... فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات ، التي كانوا بصدد حلها ؛ لكونها طيبة)) (7).

فهذه الآية الكريمة تحمل تصريحاً بأن أخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل، كان من أسباب تحريم الله - تعالى - الطيبات على اليهود ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ،

(1) البقرة / 276 .

(2) المائدة / 100 .

(3) الأنفال / 37 .

(4) الروم / 39 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 358/1 .

(6) النساء / 160 ، 161 .

(7) تفسير السعدي : 403/1 .

فالمتشبهون من هذه الأمة باليهود ، في أخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، قد عرّضوا أنفسهم للإصابة بمثل ما أصاب اليهود .

4. إعلان الحرب على المرابين من الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (1).

يقول ابن القيم - رحمه الله - : ((في ضمن الوعيد : أن المرابي محارب لله ولرسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا ، وقطع الطريق ، والسعي في الأرض بالفساد ؛ لأن كلاّ منهما مفسد في الأرض ، قاطع الطرق على الناس : هذا بقهره لهم ، وتسلمته عليهم ، وهذا بامتناعه عن تفريج كرباتهم ، إلا بتحملهم كربات أشدّ منها ، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وأذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله)) (2).

وطالما أن خطورة المرابي على نفس الدرجة من خطورة الساعي في الأرض بالفساد ، فهذا يعني أن يكون لهما نفس الحكم ، وقد سبق أن السعي في الأرض بالفساد ، وأذية المسلمين بالأقوال والأفعال ، يؤدي إلى إحباط العمل ، فمعنى ذلك أن عمل المرابي حابط مردود .

ومما يؤكد ذلك المعنى ما نقله القرطبي عن ابن خُوَيْرِزٍ مَنَادٍ : ((ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالاً ، كانوا مرتدين ، والحكم فيهم كالحكم على أهل الردة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالاً ، جاز للإمام محاربتهم)) (3).

وهذا يعني أن المرابي إن كان مستحلاً لما يفعله فهو مرتد ، وبذلك يكون الربا في حقه مخرجاً من الملة ، محبطاً للعمل تبعاً لذلك .

أما إن لم يكن مستحلاً له ، فهذا لا يعفيه من العقاب ، بل جاز للإمام محاربتة ، ولو أدى إلى إهدار دمه .

(1) البقرة / 278 ، 279 .

(2) التفسير القيم لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، - بدون تاريخ - ، ص 172 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 363/3 .

ومعلوم أن دم المسلم لا يحل إلا بإحدى ثلاث: قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والزنا بعد الإحصان ، والردة .

وأرى أن المرابي قد جمع سببين لاستحلال دمه لا سبباً واحداً ، فهو في منزلة القاتل ، فهو قاتل نفسه يوم أن رضي لها أن تتعامل بما حرمه الله - سبحانه وتعالى - ونهى عنه ، وقتل غيره يوم أن فرض عليه ما لا يطيق ! استغلالاً لحاجته ، وبذلك يكون قد ارتد ، وترك جماعة المسلمين ؛ لأن الانتماء لهذه الجماعة لا بد أن يكون أساسه التكافل والتراحم والمودة ، والمحبة ، والأخوة ، لا الاستغلال وحب الذات .

5. حبوط أجر صدقته :

أصبح واضحاً أن المال العائد عن طريق الربا كسب خبيث ، نجس ، لذا فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يقبله ، ولا يرفعه ، ولا ينفع صاحبه به ؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ (1).

فإن الله - سبحانه وتعالى - ينهى عباده في هذه الآية الكريمة عن الإنفاق في سبيل الله بما هو خبيث ، والربا من أخبث الخبائث ، فكأنه تعالى نهى عن الإنفاق من مال الربا .

أما إن لم يستمع الإنسان للنهي ، وأنفق من ذلك المال الخبيث ، فإن الله - تعالى - لن يقبله ، مما يدل على حبوط أجر تلك الصدقة .

ومما يؤكد هذا المعنى قول المصطفى - صلوات ربي وسلامه عليه - مبيناً العلة من عدم قبول تلك الصدقة ، فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه - :
(إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) (2).

يقول النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث : ((المراد بالطيب هنا : الحلال وأصل الطيب : الزكاة ، والطهارة ، والسلامة من الخبث ، وفيه الحث على الإنفاق من الحلال ، والنهي عن الإنفاق من غيره)) (3).

(1) البقرة / 267 .

(2) أخرجه (م) ، ك (الزكاة) ، 82/7 ، ح (65).

(3) صحيح مسلم بشرح النووي : 103،104/7 .

6. القيام كالممسوس :

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (1).

قال ابن كثير - رحمه الله - : ((شرع في ذكر أكلة الربا ، وأموال الناس بالباطل....، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها لبعثهم ، ونشورهم ، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، أي : لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً)) (2).

وهذا هو رأي الجمهور : أن القيام الوارد في الآية يعني القيام من القبور ، عند البعث ، حيث جعل الله - سبحانه وتعالى - من علامة المرابين يوم القيامة ، أنه يبعثهم كالمصروعين .

أما ابن عطية - رحمه الله - فيرى معناه آخر للقيام ، فيقول : المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يُصرع بحركات مختلفة قد جُنَّ (3).

وقد جمع محمد رشيد رضا بين رأي الجمهور ، ورأي ابن عطية ، فقال : ((إذا كان ما شُنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف ، هو أثر اضطراب نفوسهم ، وتغير أخلاقهم ، كان لا بد أن يبعثوا عليه ، فإن المرء يبعث على ما مات عليه ؛ لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر الصفات الحسية في أقباح مظاهرها ، كما تتجلى صفات النفس الزكية، في أبهى مجالها)) (4).

وهذا الجمع حقيقة ظاهرة في نفسه ، حيث إن المرابين المولعين بالمال ، جعلوه أكبر همهم ، ومبلغ مساعيهم ، والمسيطر على تفكيرهم ، فحاولوا جمعه بكافة الطرق

(1) البقرة / 275 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 326/1 .

(3) انظر المحرر الوجيز لابن عطية : 480،481/2 .

(4) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 95/3 .

والوسائل ، فظهر ذلك في حركاتهم ، فتكون غير منتظمة، تشبه تماماً حركات المتخبط من المس ، وإذا مات الإنسان وهو على هذا الحال ، بعث يوم القيامة على هذا الحال ، فيكون قيامه كقيام المسوسين - والعياذ بالله - .

ولكن - وللأسف الشديد - رغم كل هذه الآثار الضارة للربا إلا أنه انتشر في زماننا هذا انتشاراً واسعاً ، وأصبح ضرورة في معاملات كثير من الناس إلا من رحم ربي، وذلك مصداقاً لقول المصطفى - ﷺ - فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه - : (يأتي على الناس زمان يأكلون الربا ، فمن لم يأكله أصابه غباره) (1).

والطامة الكبرى أن المروجين له، حاولوا قلب الحقائق ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، فأطلقوا عليه عدة أسماء : نظام مصرفي ، قرض ، فائدة ، حساب توفير ، ودائع ائتمان ، خدمات، ونحو ذلك .

فعلى الذين يتعاملون بالربا أن يستيقظوا من سباتهم ، وليعلموا أن الربا هو الربا مهما اختلفت الأسماء ؛ لأن العبرة بالحقائق لا بالمسميات ، ولأن كل ما جرَّ نفعاً فهو ربا ، وتطبق عليه جميع أحكام الربا والمرابي .

وليعلموا جيداً أن الربا محرم، سواء كانت نسبة الفائدة عالية أم منخفضة، وسواء كان المبلغ كبيراً أم صغيراً .

(1) أخرجه (س) ، ك(البیوع) ، ب/1(اجتنب الشبهات في الكسب) ، 4/4 ، ح(6042) .

المبحث الثالث

محيطات فعلية مختلف فيها

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ترك الصلاة

المطلب الثاني : الحكم بغير ما انزل الله

المطلب الثالث : السحر .

المبحث الثالث

محيطات فعلية مختلف فيها

هذا المبحث يشتمل على الأفعال المختلف في الحكم عليها؛ تبعاً لاختلاف حال الفاعل ، بين الكفر المخرج من الملة ، وبين ما هو دون ذلك . وهو يشتمل على ثلاثة مطالب .

المطلب الأول: ترك الصلاة

وسأتناول في هذا المطلب بيان فضل الصلاة وأهميتها، ثم بيان شدة إثم تركها، ثم انكر الحكم على تاركها مفصلاً.

أولاً: بيان فضل الصلاة

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (1) .
فقد مدح الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات الكريمة عباده المؤمنين بعدة أعمال، بدأها بذكر الصلاة، ثم كرر ذكرها في نفس الموضع؛ إعظاماً لقدرها، وبياناً لفضلها، ولم يمدح - تعالى - أحداً من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مثل مدحه لمن واطب على الصلاة .

قال - جلّ وعلا - : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (2) .

عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: (رأس الأمر كله الإسلام، وعموده الصلاة، و ذروة سنامه الجهاد) (3) .
ثانياً: إثم ترك الصلاة:

لما كان هذا فضل الصلاة، و فضل المحافظة عليها، كان تركها من أكبر الكبائر، و أعظم الذنوب، و أشدها .

(1) المؤمنون / 1 ، 2 .

(2) المعارج / 34 ، 35 .

(3) أخرجه (حم) : 293/5 ، ح (22011) ، وقال صحيح بطرقه وشواهده .

و يذكر ابن القيم - رحمه الله - شدة إثم تارك الصلاة قائلاً: ((فإنه مما لا يختلف فيه المسلمون: أن ترك الصلاة المفروضة عمداً من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، و أن إثمه أعظم من إثم قتل النفس، و أخذ الأموال، و من إثم الزنا، و السرقة، و شرب الخمر، و أنه معرض لعقوبة الله و سخطه، و خزيه في الدنيا و الآخرة)) (1).

وقد ورد بيان شدة إثم ترك الصلاة، و التهاون فيها في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، و الأحاديث النبوية الشريفة.

(أ) الأدلة من القرآن الكريم:

1. قال - تعالى - : ﴿فَخَافَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (2)﴾ (3).

وقال - تعالى - : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (4).

وقال - جل ثناؤه - : ﴿مَا سَأَلَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (5).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، التي تقرر الأذان، و تنصك الأسماع، و التي تتوعد التارك للصلاة، و المتهاون فيها بالعذاب الشديد يوم القيامة.

(ب) الأدلة من السنة النبوية:

وجاءت عدة أحاديث عن النبي - ﷺ - أخبر فيها عن عظيم ذنب تارك الصلاة

أو المتهاون بها، و المتخاذل عنها، أكتفي بذكر اثنين صحيحين :

1. عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: (بين الرجل و بين الشرك و الكفر ترك الصلاة) (6).

(1) الصلاة و حكم تاركها للإمام ابن قيم الجوزية ، (ت) مصطفى بن العدوي ، دار ابن رجب / المنصورة ،

ط 1423 هـ - 2002 م ، ص 10 .

(2) الغي : واد في جهنم / كلمات القرآن تفسير وبيان لحسنين محمد مخلوف ، مكتبة أيوب / نيجيريا

ط 1420 هـ - 2002 م ، ص 210 .

(3) مريم / 59 ، 60 .

(4) الماعون / 4 ، 5 .

(5) المدثر / 42 ، 43 .

(6) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 255/2 ، ح (82) .

2. عن بريدة بن الحصيب (1) - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر) (2) .

فهذه الأحاديث النبوية الشريفة ترهب من ترك الصلاة، وتحكم على تاركها بالكفر، وسيأتي الحكم بالتفصيل عما قريب - إن شاء الله - .
ثالثاً : حكم ترك الصلاة

إن الحكم على ترك الصلاة يختلف تبعاً لاختلاف حال التارك؛ وبناءً عليه فإن الحكم ينقسم إلى قسمين:
(أ) تركها جحوداً:

اتفق الأئمة و العلماء على تكفير تارك الصلاة جحوداً، وإنكاراً لوجوبها، و هذه بعض أقوال العلماء.

1. قال ابن تيمية - رحمه الله- : ((اتفق العلماء على تكفير تاركها - الصلاة - جحوداً، و كذا إن جحد و جوبها، و لم يترك فعلها)) (3) .

2. وقال الشنقيطي - رحمه الله- : ((أجمع العلماء على أن تارك الصلاة، الجاحد لوجوبها كافر، و أنه يقتل كفراً ما لم يتب)) (4).

3. ويقول الإمام النووي تعليقاً على حديث جابر - رضي الله عنه - المتقدم: ((وأما تارك الصلاة، فإن كان منكراً لوجوبها، فهو كافر بإجماع المسلمين، خارج من ملة الإسلام، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه)) (5).
وبذلك يتأكد أن تارك الصلاة جحوداً لها ، وإنكاراً لفرضيتها كافر ، خارج من ملة الإسلام ، حابط عمله تبعاً لذلك ، فقد تقرر أن الكفر من محبطات الأعمال .

(1) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي ، صحابي جليل ، غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة ، وغزا خراسان في زمن عثمان ، ومات في مرو سنة 63 هـ . انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، (ت) علي محمد البجاوي ، دار النهضة / مصر - بدون تاريخ - : 286/1 ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط 1409 هـ : 469/2 .

(2) أخرجه (جه) ، ك (إقامة الصلاة والسنة فيها) ، ب / 77 (ما جاء فيمن ترك الصلاة) ، 1 / 177 ، ح (884) ، وصححه الألباني في صحيحه : 2 / 760 ، ح (4143) .

(3) مجموع الفتاوي : 97/20 ، 40/22 .

(4) أضواء البيان للشنقيطي : 235/4 .

(5) صحيح مسلم بشرح النووي : 73/2 .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ (1).

(ب) تركها تهاوناً وكسلاً :

اختلف العلماء في الحكم على تارك الصلاة تهاوناً وكسلاً، مع اعتقاده بوجوبها، بين مكفر، وغير مكفر، وبين قاتل يقتل كفراً، أو حداً، أو لا يقتل، ولكل فريق أدلته من الكتاب والسنة، وكذلك كل فريق قام بالرد، و مناقشة أدلة الفريق الآخر، وليس هنا موضع بسط هذه المسألة، فإنها معروضة بالتفصيل في مظانها، من كتب الفقه القديمة، والحديثة، وبعض كتب التفسير، وخصوصاً القديمة .

ولكن الجمهور على أن تارك الصلاة تهاوناً وكسلاً لا يكفر بذلك، بل يفسق، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك :

1. قال الإمام النسوي - رحمه الله - : (وإن كان تركه تكاسلاً مع اعتقاده وجوبها - كما هو حال كثير من الناس - ، فقد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعي - رحمهما الله - و جماهير السلف والخلف إلى أنه لا يكفر، بل يفسق، ويستتاب، فإن تاب، وإلا قتلناه حداً كالزاني المحصن، ولكنه يقتل بالسيف) (2).

2. وقال الشنقيطي - رحمه الله - : ((وقالت جماعة من أهل العلم إن تارك الصلاة عمداً تكاسلاً، وتهاوناً، مع إقراره بوجوبها لا يقتل، ولا يكفر، بل يعزر ويحبس حتى يصلى)) (3) .

فرأى السلف إذن في المسألة أن تارك الصلاة تهاوناً وكسلاً لا يكفر، بل يفسق، ويعتبر مسلماً عاصياً ، فيستتاب، فإن تاب تاب الله عليه، وإلا فإنه يحبس ويعزر حتى يصلى، فإن تاب وصلى تاب الله عليه، وإن لم يتب، ولم يُصلِّ قتلٌ حداً ، لا كفراً.

أدلة الجمهور :

استدل القائلون بعدم تكفير تارك الصلاة بجملة من الأدلة، أذكر منها على سبيل

التمثيل لا الحصر :

1. قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (4).

(1) المائة / 5 .

(2) صحيح مسلم بشرح النووي : 73/2 ، 74 .

(3) أضواء البيان للشنقيطي : 242/4 .

(4) النساء ، 48 ، 116 .

من مفهوم الآية الكريمة يتضح أن الله - سبحانه وتعالى - يغفر كل الذنوب التي دون الشرك به - جلّ وعلا - ومن المؤكد أن ترك الصلاة كسلاً مع الاعتقاد بوجوبها، هو دون الكفر والشرك.

2. عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: (وخمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن، وصلاتهن لوقتهن، وأتم ركوعهن، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه) (1).

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : ((وهذا الدليل أجود ما اعتمدوا عليه)) (2).

فهذا الحديث الشريف يدل على أن تارك الصلاة تهاوناً لا يكفر، وهو في مشيئة الله إن شاء غفر له، وأدخله الجنة دون عذاب، وإن شاء عذبه، ثم يدخله الجنة؛ لأنه من الموحدين.

قال الطحاوي - رحمه الله - : ((دلّ الحديث أنه لم يخرج بذلك عن الإسلام، فيجعله مرتداً مشركاً ؛ لأن الله تعالى لا يدخل الجنة من أشرك به ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ (3) ، ولا يغفر له ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (4).

3. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة المكتوبة، فإن أتمها، وإلا قيل انظروا هل له من تطوع؟، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك) (5).

(1) أخرجه (د)، ك(الصلاة)، ب/9 (المحافظة على وقت الصلوات)، 216/1، ح(425)، وصححه الألباني في صحيحه: 616/1، ح(2342).

(2) انظر مجموع الفتاوي : 614/1.

(3) المائدة / 72 .

(4) مشكل الآثار، للطحاوي، دار صادر / بيروت - بدون تاريخ - ، 226/4 و الآية في النساء / 48.

(5) أخرجه (ج)، ك(الصلاة) ، ب / 202 (ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة) 1 / 240 ، ح (1172) ، وقال صحيح.

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((وجه الاستدلال بالحديث المذكور على عدم كفر تارك الصلاة، أن نقصان الصلوات المكتوبة، وإتمامها من النوافل، يتناول بعمومه ترك بعضها عمداً، كما يقتضيه ظاهر عموم اللفظ كما ترى)) (1).

فهذا الحديث الشريف يدل على أن تارك بعض الصلوات عمداً، ونكاسلاً، يدخل الجنة، ويكمل له النقص من النوافل التي كان يؤديها، ولو كان تارك الصلاة تهاوناً كافراً، مخرج من الإسلام، وأدى ذلك إلى حبوط جميع أعماله؛ لأن الكفر من دواعي إحباط العمل - كما مر -، وبناءً عليه فلن يدخل الجنة أبداً، ولما كان الحال غير ذلك، تأكد أن تارك الصلاة تهاوناً لا يكفر بذلك، ولا يقتل كفراً.

بعد هذا العرض، يتضح أن من ترك الصلاة جاحداً لوجوبها، مستهيناً بها، فهو كافر وعمله حابط بلا خلاف.

أما من تركها تهاوناً وكسلاً مع اعتقاد وجوبها، فقد اختلف فيه العلماء، فقال بعضهم: إنه كافر، ويقتل ردة، ويحبط عمله، وقال البعض الآخر: لا يكفر بذلك، ويقتل حداً، كالزاني المحصن.

ورأي الجمهور في المسألة: أنه غير كافر، بل هو مسلم عاصٍ فاسق، وهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له - والله أعلم -.

فليتق الله المفرطون، والمتهاونون بالصلاة، وليرجعوا إلى ربهم، وليتوبوا إليه قبل أن يفاجئهم الموت، وهم لاهون، فيندموا، ويتحسروا وقت لا ينفع الندم، ولا الحسرة.

كما يجب عليهم ألا يتكلموا على كونهم في مشيئة الله، وأن الله إن شاء غفر لهم، فما يدريهم أن يكونوا ضمن المغفور لهم، بل ربما كانوا ضمن من شاء تعذيبهم والتكيل بهم.

* قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (2).

(1) أضواء البيان للشنقيطي: 4 / 241 ، 242.

(2) البقرة / 80 .

لذا يجب عليهم الخوف والرهبية من الله - جلّ و علا- مع الرجاء ، وألا يأمّنوا مكر الله ، فإنه لا يأمّن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قال تعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (1).

المطلب الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله - تعالى-

بين الله - سبحانه وتعالى- أنه أنزل شريعة الإسلام، وفرض على عباده الحكم بها، والاحتكام إليها.

فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (2).

كما جعل - سبحانه وتعالى- التفرّد بالحكم، والاختصاص به، من أهم صفاته - جلّ و علا - .

قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (3).

لذا كان الاحتكام إلى شرع الله من شروط صحة الإيمان.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (4).

أي أن من لم يحكم بما أنزل الله فليس بمؤمن، بل هو كافر، وما ذلك إلا لأن شرع الله فيه الحياة، والصلاح، والخير، والفلاح.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (5).

مخاطر الحكم بغير ما أنزل الله تعالى :

إن للحكم بغير ما أنزل الله، والاحتكام لشرع غير شرعه -جلّ و علا- مخاطر، وآثاراً ؛ منها:

(1) الأعراف / 99 .

(2) النساء / 105 .

(3) الأنعام / 57 ، ويوسف / 40 ، 67 .

(4) النساء / 65 .

(5) الأنفال / 24 .

(أ) أنه صفة للمنافقين:

بيّن الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز أن الاحتكام للشرائع الوضعية، وترك شرع الله - عزّ وجل - هو صفة من صفات المنافقين.

1. قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (1).

في هذه الآية الكريمة يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، أن من صفاتهم أنهم إذا حدث بينهم وبين أحد حكومة، يرفضون الاحتكام لشرع الله، ويطلبون الاحتكام للقوانين غير الشرعية، فهؤلاء لا يخرج أمرهم عن أن تكون قلوبهم مريضة مرضاً ملازماً لها، أو عرض لقلوبهم الشك في حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق، أو أنهم يخافون أن يظلمهم الله - تعالى - بحكمه، ويجور عليهم، وأياً ما كان حالهم فهو كفر محض (2).

2. وقال - عزّ وجل - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (3).

يقول محمد رشيد رضا : ((والآية ناطقة بأن من صدّ ، وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً ، ولا سيما بعد دعوته إليه ، وتذكيره به ، فإنه يكون منافقاً ، لا يُعتد بما يزعمه من الإيمان ، وما يدعيه من الإسلام)) (4).

(ب) أنه سبب للخلود في النار:

وكذلك فإن رفض شريعة الله - عزّ وجل - يعتبر ضلالاً شنيعاً في الدنيا، وعذاباً شديداً مقيماً في نار جهنم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (5).

(1) النور / 48-50 .

(2) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 307/3 ، 308 ، وتفسير السعدي : 167/2 ، 168 .

(3) النساء / 61 .

(4) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 227/5 .

(5) النساء / 14 .

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: ((أي لكونه غير ما حكم الله به، وضاداً لله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله، وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم)) (1).

حكم من يحكم بغير ما أنزل الله :

عند إرادة تفصيل القول في الحكم على الحكم بغير ما أنزل الله -تعالى- وجدت أنه ينقسم إلى قسمين، فمنه ما يعتبر كفراً أكبر يخرج من ملة الإسلام، ومنه ما هو كفر أصغر لا يخرج من الملة.

أولاً : حالات كون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر مخرجاً من الملة

وسأتناول فيه الحديث عن بعض الحالات والصور، التي تخرج أصحابها، وفاعليها من الإسلام، وتحكم عليهم بالكفر، وبالتالي تؤدي إلى حبوط عملهم، وهي عبارة عن أربع حالات :

1. تشريع غير ما أنزل الله - تعالى - :

من المعلوم أن التشريع حق خالص لله - تعالى - وحده لا شريك له، من أجل ذلك حكم الله - سبحانه وتعالى - على من ينازعه في شيء منه بالشرك ، والخروج من الإسلام . قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (2).

يذم الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة اليهود، الذين جعلوا أحبارهم، ورهبانهم - أي علماءهم - كالآرباب؛ فأطاعوهم في كل شيء، لدرجة أنهم إذا أحلوا لهم الحرام استحلوه، وإذا حرموا عليهم الحلال حرموه.

ويؤكد ذلك المعنى حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقرأ سورة براءة، فلما قرأ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قلت: يا رسول الله، أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم، قال: صدقت، ولكن كانوا يصلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه (3).

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 1 / 461.

(2) التوبة / 31 .

(3) أخرجه (ت)، ك(تفسير القرآن)، ب/10 (م-10-ت تابع 10)، 122/5، ح (3095) بنحوه وقال أبو عيسى:

هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

2. جحود وإنكار أن الحق في الحكم هو الله - تعالى -، ورسوله - ﷺ - :

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (1).

أي أن من ترك التحاكم إلى شرع الله جاحداً، ومنكراً له، معتقداً جواز فعله ذلك، معتقداً أن غير الله يحق له وضع القوانين، والتشريعات، فإن اعتقاده هذا يكون كفراً ينقل عن الملة (2).

وقد مرّ بنا (3)، أن الجاحد، والمكذب، والمنكر لحكم معلوم من الدين بالضرورة كافر، خارج عن الإسلام.

3. تفضيل حكم الطاغوت على حكم الله - تعالى - :

أي أن يعتقد أن حكم غير الله - تعالى - أفضل من حكمه - جلّ وعلا - ، وحكم رسوله - ﷺ - ، سواء كان تفضيلاً مطلقاً ، أم مقيداً في بعض المسائل .

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (4).

فلا شك في كفر من يستحسن القانون، ويفضله على الشرع، ويقول: هو أوفق بالحكمة، وأصلح للأمة، ويتميز غيظاً، ويتقصّف غضباً إذا قيل له في أمر: أمر الشرع فيه كذا..... فلا ينبغي التوقف عن تكفير من يستحسن ما هو بين المخالفة للشرع - أي القوانين - ، ويقدمه على الأحكام الشرعية منتقاصاً لها (5).

4. الاستخفاف والاستهانة بحكم الله - تعالى - :

فمن وقع في شيء من ذلك فقد خرج عن الملة؛ لأن الاستهانة، والاستخفاف من دواعي الكفر، والخروج من ملة الإسلام كما مرّ سابقاً (6).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ أَيْمَانُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (7).

(1) المائدة / 44 .

(2) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 184/6، أضواء البيان للشنقيطي: 79، 80/2 ، وتفسير السعدي : 448/1 .

(3) ص 49 .

(4) المائدة / 50 .

(5) انظر روح المعاني للأكوسي : 155/6 ، 156 .

(6) في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الباب .

(7) التوبة / 12 .

يقول القرطبي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية الكريمة: ((استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين، إذ هو كافر، والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله، واستقامة فروعه)) (1).

هذه بعض الحالات و الصور في الحكم بغير ما أنزل الله - تعالى - والتي تؤدي إلى كفر أصحابها وخروجهم من الإسلام بالكلية ، إضافة إلى حبوط عملهم الصالح .

ثانياً: كون الحكم بغير ما أنزل الله كفوفاً أصغراً لا يخرج من الملة

وكما وُجِدَتْ حالات، وصور يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله - تعالى - كفوفاً، يخرج صاحبها من الإسلام بالكلية، ويحكم عليه بالردة، فإنه توجد بعض الصور والحالات التي لا يحكم فيها على الحاكم بغير ما أنزل الله بالكفر، والخروج من الإسلام، بل يحكم عليه بالفسق - والعياذ بالله - .

ويتحقق ذلك إذا حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأفضل، و هو الواجب الحكم به، ولكنه عدل عنه هوىً ومعصية، ويؤكد ذلك قول عدد من العلماء، أذكر منها:

1. يقول القرطبي - رحمه الله - : ((إن حكم به - أي بغير ما أنزل الله - ، هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين)) (2).
2. ويقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((من لم يحكم بما أنزل الله معتقداً أنه مرتكب حراماً، فاعل قبيحاً، فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة)) (3).
3. يقول الإمام ابن القيم : ((إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفرٌ أصغر)) (4).

وقد وردت في القرآن الكريم ثلاث آيات كريمات، توضح حكم من يحكم بغير ما أنزل الله ، كما وضح المفسرون حال تفسيرهم لها أن الحكم ليس موحداً ،

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 80/8.

(2) نفس المرجع : 185/6 .

(3) أضواء البيان للشنقيطي : 81/32 .

(4) مدارج السالكين : 304/1 .

بل يختلف باختلاف حال الحاكم.

قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (1).

وقال - جل ذكره - : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (2).

وقال - عز من قائل - : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ﴾ (3).

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر، والظلم، والفسق، كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة، والكفر المخرج عن الملة تارة أخرى، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ معارضة للرسول، وإطالاً لأحكام الله، فظلمه، وفسقه، وكفره، كلها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكم بما أنزل الله" معتقداً أنه مرتكب حراماً، فاعلٌ قبيحاً، فكفره، وظلمه، وفسقه، غير مخرج عن الملة)) (4).

وبذلك أصبح واضحاً، أن من حكم بغير حكم الله معتقداً حل ذلك، مقتنعاً به، ضارباً بحكم الله عرض الحائط، فإنه كافر كفاً أكبر يخرج عن الملة، أما إن حكم بغير حكم الله، مع علمه أن ذلك لا يجوز، ومع تأكده من أفضلية حكم الله - عز وجل - ولكنه انصرف عن هوى، ومعصية، فهو مسلم فاسق، عاصٍ، ويكون فعله ذلك كبيرة من الكبائر - والعياذ بالله -.

والناظر إلى واقع المسلمين اليوم يشعر بالضيق والحسرة والأسى لما وصل إليه حالهم - وللأسف الشديد - حيث ترك الناس شرع الله، واتبعوا تشريع غيره، أو أنهم جعلوا شرع الله في مرتبة متأخرة عن التشريع الوضعي والعرف، مدعين أن أحكام القرآن الكريم نزلت لفترة زمنية انقضت، ولأحوال وحوادث مضت - والعياذ بالله - ، لذلك وقعت بينهم البغضاء والشحناء ، وعمهم الفقر والبلاء، بالرغم من الإمكانيات الطبيعية المتوفرة لديهم ، ولكنهم نسوا الله فنسيهم وأنساهم أنفسهم، - والله المستعان - .

(1) المائدة / 44 .

(2) المائدة / 45 .

(3) المائدة / 47 .

(4) أضواء البيان للشنقيطي : 81/2 .

فليتق الله المشرعون بغير ما أنزل الله، وليعلموا أنهم ميتون، وأنهم سيحاسبون على ما شرعوه ، بل وسيؤخذون بذنب كل من تحاكم إلى قوانينهم إلى يوم القيامة ، فيزداد بذلك إصرهم، ويتعين هلاكهم ، ولو نظر أولئك المشرعون لغير شرع الله بعين التفكير ، والتدبر ، والموضوعية؛ لعلموا أنه لا يصلح شرع مهما كان ليحكم جميع البشرية ، في جميع بقاع الأرض سواه ، فهو الصالح لكل زمان ، ومكان، وهو الذي لا يأتيه الباطل مهما امتدت به الأزمان .

ويكفي للتأكيد ، أن ينظروا إلى القوانين الوضعية ليروا أن ما صلح منها فترة من الزمن، لا يصلح لفترة أخرى ، بل يلزم وضع قوانين جديدة بين الحين والآخر ، وحتى دون التزام المشرع لهم بها ، أما أحكام الإسلام فهي ثابتة ، صالحة لكل الأحوال والأوقات .

المطلب الثالث : السحر

من الأمور البدئية المسلّم بها أن النفع والضّرّ بيد الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو وحده - تعالى - النافع ، الضار ، الخالق ، المدبر .

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (1).

لذا يجب علينا أن نؤمن بأن كل خير أو شر يحصل لنا في هذه الحياة الدنيا هو بتقدير الله - عزّ وجل - ، قال - عزّ وجل - ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (2) .

ولكن ضعفت نفسية بعض من ينسبون للإسلام، فسلكوا طرقاً غير مشروعة ؛ لإيقاع الضرّ بغيرهم ؛ بسبب الحقد ، والكرهية ، والحسد،... وما إلي ذلك من أسباب غير مشروعة، مضحين في سبيل ذلك بدينهم ، وأدميتهم ، وما يفعلونه هذا يسمى السحر .

(1) الأنعام / 59 .

(2) الزمر / 38 .

وسأبدأ في هذا المطلب - إن شاء الله- بتعريف السحر لغة ، واصطلاحاً ، ثم أذكر أقسامه، وأختتم ببيان حكم كل قسم منها :

أولاً : تعريف السحر لغة واصطلاحاً
(أ) السحر لغة :

هو كل ما لطف مأخذه ، وودق ، وأصل السحر : صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، وسحره : بمعنى خدعه ، وسحره بكلامه : استماله برقته، وحسن تركيبه (1).

(ب) السحر في اصطلاح الشرع :

السحر ليس نوعاً واحداً يمكن حده بحدٍ يميزه عن غيره ، لذا فقد اختلفت عبارات المعرفين له ، وقد أشار الشنقيطي - رحمه الله- إلى ذلك بقوله : ((اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع ؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته ، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها ، ومانعاً لغيرها ، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً)) (2).

فَعَرَّفَهُ أَبُو بَكْرِ الْجِصَّاصُ بِقَوْلِهِ : ((كُلُّ أَمْرٍ خَفِيَ سَبَبُهُ ، وَتُخِيلَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، وَيَجْرِي مَجْرَى التَّمْوِيهِ وَالدَّخَاعِ)) (3).

وقال ابن العربي - رحمه الله- في معنى السحر : ((وهو كلام مؤلف يُعْظَمُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَنْسَبُ إِلَيْهِ الْمَقَادِيرُ وَالْكَائِنَاتُ)) (4).

وقال ابن قدامة - رحمه الله - : ((السحر هو عقد ، ورقى ، وكلام يتكلم به ، أو يكتبه ، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور ، أو قلبه ، أو عقله)) (5).

ثانياً : أقسام السحر

ينقسم السحر إلى قسمين :

(1) انظر لسان العرب: 4/ 348 ، والقاموس المحيط : 2/ 46، المصباح المنير ص 141 ، ومختار الصحاح ص 288 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 4/ 337 .

(3) أحكام القرآن للجصاص ، دار الفكر - بدون تاريخ - 1/ 42 .

(4) أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان، ط1 1408-1988 ، 1/ 48 .

(5) المغني : 12/ 299 .

الأول: عَقَّدَ ورقِيّ ، أي : قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور ، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (1) .

أي : هو اتفاق بين ساحر و شيطان ، على أن يقوم الساحر بفعل بعض المحرمات ، أو الشركيات ، في مقابل مساعدة الشيطان له ، و طاعته فيما يطلب منه .

الثاني : أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور ، وعقله ، وإرادته ، وميله ، فنجدّه ينصرف، و يميل ، وهو ما يسمى عندهم بالصرف ، والعطف ، فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته ، أو امرأة أخرى ، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء ، والصرف بالعكس من ذلك ، فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك ، وفي تصويره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه، وفي عقله فربما يصل إلى الجنون - والعياذ بالله- (2) .

حكم السحر و الساحر :

السحر محرم بالكتاب ، و السنة، وفي جميع أديان الرسل-عليهم السلام-. و لكن اختلف أهل العلم في الحكم على الساحر ، فمنهم من قال: إنه يكفر، و منهم من قال: إنه لا يكفر (3) .

ولكن ابن عثيمين- رحمه الله - وضع حلاً لهذه المسألة بناءً على التقسيم السابق للسحر، فقال : ((من كان سحره بواسطة الشياطين ، فإنه يكفر ؛ لأنه لا يتأتى إلا بالشرك غالباً ؛ لقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ (4) .

(1) البقرة / 102 .

(2) الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار ، لوحي عبد السلام بالي ، مكتبة الصحابة/جدة ط2/ 1412 ص8 . والقول المفيد : 489/1 .

(3) انظر مجموع الفتاوي : 171/35 ، و فتح المجيد ص222 .

(4) البقرة / 102 . والخلاق : نصيب من الخير ، كلمات القرآن : ص 21 .

ومن كان سحره بالأدوية ، و العقاقير ، و نحوها ، فلا يكفر ، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً)) (1).

رأي الشرع في السحر

قد وردت الأدلة في القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة و أقوال علماء الأمة ، توضح الحكم على الساحر المتردد بين الكفر ودونه ، سابداً أولاً بذكر أقوال المكفرين ، ثم أنني بأقوال المفصلين في المسألة.

أولاً: أدلة المكفرين

(أ) الأدلة من القرآن الكريم

1. قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (2).

فقد دلت هذه الآية الكريمة على تحريم السحر (3).

2. يقول الجصاص عن تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((فجعل ضد هذا الإيمان فعل

السحر؛ لأنه جعل الإيمان في مقابلة فعل السحر ، وهذا يدل على أن الساحر كافر ، فإذا ثبت كفره ، فإن كان مسلماً قبل ذلك فقد كفر بفعل السحر ، فاستحق القتل)) (4).

ويقول ابن كثير - رحمه الله - : ((وقد استدل بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ مَنْ ذهب إلى تكفير الساحر)) (5).

(1) القول المفيد : 490/1 .

(2) البقرة / 102 ، 103 .

(3) فتح المجيد ، شرح كتاب التوحيد ، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، المكتبة التوفيقية - بدون تاريخ - ص 222 .

(4) أحكام القرآن للجصاص ، 53/1 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 144/1 .

قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (1).

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((إن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ) يعم النفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر ، و أكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله تعالى (حَيْثُ أَتَى) و ذلك دليل علي كفره ؛ لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفيّاً عاماً إلا عمن لا خير فيه و هو كافر)) (2).
السرُّ في ذلك أن الفعل عند علماء الصرف في منزلة الاسم النكرة ، والنكرة في سياق النفي من ألفاظ العموم عند الأصوليين ، فالفعل في سياق النفي كذلك .
وبناءً عليه فإن نفي الفلاح في قوله ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ شامل لجميع ما يُسمى فلاحاً ، ومنه الفلاح في الآخرة ، والذي لا يفلح في الآخرة هو كافر ، فيكون الساحر كافراً .
(ب) الأدلة من السنة النبوية المطهرة:

وردت الأدلة على كفر الساحر في السنة النبوية المطهرة متمثلة في فعل الصحابة - رضوان الله عليهم - أكتفي بذكر اثنين منها:
1. عن بجالة بن عبدة (3) قال: (كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر) (4).
2. عن جندب الخير (5) - رضي الله عنه - ، قال : (حد الساحر ضربة بالسيف) (6).

(1) طه / 69 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 334/4 ، 335 .

(3) بجالة بن عبدة التميمي، البصري، كان كاتباً لجزء بن معاوية في خلافة عمر ، وثقه جمع من العلماء ، وقد أدرك النبي - ﷺ - ، ولم يره . انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، دائرة المعارف / الهند ، ط1 1326هـ : 417/1 ، والإصابة : 339/1 .

(4) أخرجه (د) ، ك (الخراج والإمارة ، والفيء) ، ب/31 (في أخذ الجزية من المجوس) ، 1329/3 ، ح(3043) ، وقال : صحيح .

(5) أبو عبد الله جندب بن عبد الله الأزدي، صاحب النبي - ﷺ - ، قدم دمشق و يقال له جندب الخير. انظر الإصابة : 509/1-511 ، وسير أعلام النبلاء ، 175/3 .

(6) أخرجه (ت) ، ك (الحدود) ، ب/28 (ما جاء في حد الساحر) ، 475/3 ، ح(1460) ، انفرد به الترمذي وصححه الحاكم في مستدركه : 360/4 ، ووافقه الذهبي.

فهذان الحديثان الشريفان يؤكدان قتل الساحر ، ومعلوم أن (دم المسلم لا يحل إلا بأحد ثلاثة أمور ، الزنا بعد الإحصان ، والقتل عمداً ، والردة) (1).
ومعلوم أن الساحر ليس زانياً ، ولا قاتلاً إلا إذا قتل بسحره ، فتعين أن يكون كافراً ، مرتداً .

ثانياً: أقوال المفصلين في المسألة:

هذا الفريق لم يحكم بكفر الساحر على إطلاقه ، بل فصلوا في المسألة، فاعتبروه أحياناً كافراً، وأحياناً أخري لا يصل إلى درجة الكفر ، ولكنه يصل إلى درجة المعصية الكبيرة ، وهذه جملة من أقوالهم:

1. قال الإمام الشافعي - رحمه الله - : ((والسحر اسم جامع لمعان مختلفة ، فيقال للساحر صف السحر الذي تسحر به، فإن كان ما يسحر به كلاماً صريحاً استتيب منه، فإن تاب، وإلا قتل، وأخذ ماله ، وإن كان ما يسحر به كلاماً لا يكون كافراً ، وكان غير معروف، ولم يضر به أحداً نهي عنه ، فإن عاد عُزِّرَ...)) (2).

2. وقال الشنقيطي - رحمه الله - : ((التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل ، فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب ، والجن ، وغير ذلك ، مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع ، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة البقرة ، فإنه كفر بلا نزاع ،..... وإن كان السحر لا يقتضي الكفر ، كالأستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات، وغيرها ، فهو حرام حرمة شديدة ، ولكنه لا يبلغ بصاحبه إلى الكفر)) (3).

3. ولالإمام النووي - رحمه الله - عبارة جامعة في حكم السحر، حيث قال : ((قد يكون السحر كافراً ، وقد لا يكون كافراً ، بل معصية كبيرة ، فإن كان فيه قول ، أو فعل يقتضي الكفر كفر ، وإلا فلا ، وأما تعلمه ، وتعليمه فهو حرام ، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر ، وإلا فلا ، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزِّرَ واستُتِيب)) (4).

الخلاصة

بعد هذا العرض للسحر ، وأقسامه ، وحكمه ، تتضح عدة أمور :

(1) سبق الحديث بنصه وتخريجه ص 169 .

(2) الأم للشافعي ، دار الفكر ، بيروت/ لبنان - بدون تاريخ - ، 293/1 .

(3) أضواء البيان للشنقيطي: 345/4 ، 346 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي: 184/14 .

1. إن السحر حقيقة لا خيال فيها، وهو ثابت بالقرآن والسنة، ومن قال غير ذلك، فكلامه مردود عليه .

قال القرطبي - رحمه الله - : ((ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت ، وله حقيقته ، وذهب المعتزلة... إلى أن السحر لا حقيقة له ، إنما هو تمويه، وتخيل، وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾⁽¹⁾ ، ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال : (يخيل إليه) ، وقال أيضاً: (سحروا أعين الناس) ، وهذا لا حجة فيه؛ لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر ، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جاوزها العقل ، وورد بها السمع ، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية الكريمة من ذكر السحر و تعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة))⁽²⁾.

2. السحر من الموبقات :

عَدَّ رسول الله - ﷺ - السحر من الموبقات السبع التي ذكرها في الحديث ، كما أنه قرنه بالشرك بالله - تعالى - ؛ مما يدل على شدة خطورته.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، و السحر)⁽³⁾ الحديث يقول ابن عثيمين - رحمه الله - في بيان معنى الحديث الشريف : ((قوله : والسحر ؛ أي من الموبقات ، ظاهر كلام النبي - ﷺ - أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين، أو بواسطة العقاقير والأدوية؛ لأنه إن كان بواسطة الشياطين ، فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم ، فهو داخل في الشرك بالله .

وإن كان دون ذلك، فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، فيصبح كالبهائم ، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي ، فإنه إذا صرف عن

(1) طه / 66 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 51/2 ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي : 182/14 .

(3) سبق تخريجه ص 116 .

طبيعته ، وفطرته، لَحَقَهُ من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله - عزَّ وجلَّ - (1).

فقول ابن عثيمين - رحمه الله - ذلك يدل على الفرق في الحكم بين قسمي السحر، فالقسم الأول يعتبر كفراً وشركاً بالله، أما القسم الثاني فهو جريمة ، ومعصية، وكبيرة من الكبائر.

3. اختلاف العلماء في الحكم على السحر:

من خلال سرد أقوال العلماء و أدلتهم ، يتضح أن الحكم على السحر ليس واحداً بل يختلف تبعاً لاختلاف حال السحر و الساحر.

أولاً : فمنه ما يكون كفراً ، يخرج من الملة إذا استعان الساحر بالشياطين. يقول ابن حجر : ((وقد استدل بهذه الآية ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (2) ، على أن السحر كفر ، ومتعلمه كافر، وهو واضح في بعض أنواعه... كالتعبد للشياطين ، أو للكواكب)) (3). وقد عُدَّ ذلك النوع من السحر كفراً ، وشركاً من جهتين :

(أ) أن فيه التعلق بالشياطين ، والتقرب إليهم بما يحبون؛ ليقوموا بخدمة الساحر ، ومطلوبه .

(ب) إضافة لذلك فإن السحر يتضمن دعوى علم الغيب ، ودعوى مشاركة الله في علمه ، وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك ، وذلك من شعب الشرك والكفر (4).

ثانياً : ومن السحر ما لا يكون كفراً، بل يكون معصية وكبيرة من الكبائر ، وفاعله مرتكب حراماً ؛ وذلك إذا لم يستخدم الشياطين في سحره، بل استخدم الأدوية ، والعقاقير.

كما قال ابن حجر - رحمه الله - : ((... وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة ، فلا يكفر به من تعلمه أصلاً)) (5).

(1) القول المفيد : 498/1 .

(2) البقرة / جزء من 102 .

(3) فتح الباري : 271/10 .

(4) انظر القول السديد في مقاصد التوحيد، لعبد الرحمن السعدي، مكتبة المعارف/الرياض ، - بدون تاريخ-، ص 74 ، 75 .

(5) فتح الباري : 271/10 .

وبالنظر إلى هذين الحكمين للساحر ، بين الكفر ، ودونه فإنه لا يوجد اختلاف جوهري بينهما، بل عند التفصيل يزول الإشكال، وتجتمع الأدلة ، فإن كان السحر لا يتحقق إلا بالشرك، واستخدام الشياطين ، وعبادة الكواكب ، فهذا كفر بالإجماع ، ولا خلاف .

أما السحر بالأدوية ، والعقاقير، والتدخين ، ونحوه فلا يعتبر شركاً وكفراً؛ لأنه ليس سحراً من أصله ، بل سمي سحراً على سبيل المجاز ، كتسمية القول البليغ ، والنميمة سحراً ، وهو حرام لمضرته، ويعزز من يفعله تعزيراً بليغاً (1).

4. السحر يحبط العمل :

من البدهي أن من وصل لدرجة الشرك والكفر، فإن عمله محبط، باطل ، مردود عليه ، وكذا الشأن في السحر ، فإن المكفر منه يحبط العمل، ويبطله .

قال ابن عثيمين - رحمه الله- عند شرحه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ (2) : ((أي : ماله من نصيب ، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق فمقتضاه أن عمله حابط ، باطل ، لكن إما أنه ينتفي انتفاء كلياً فيكون العمل كفراً أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقاً)) (3).

حكم الذهاب إلى الساحر، والكاهن (4)، والمنجم (5) وتصديقهم:

ومن باب تتممة الفائدة ، واستكمالاً لهذا المطلب، لا بد من ذكر حكم الذهاب

(1) انظر تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي/بيروت، ط3 1397هـ ، ص384 .

(2) البقرة / 102 .

(3) القول المفيد : 491/1 .

(4) الكاهن لغة: الكاهن في كلام العرب الذي يقوم بأمر الرجل ويسعى في حاجته والقيام في أسبابه، والعرب ويسمى كل من يتعاطى عملاً دقيقاً كاهناً ، ومنهم من يسمى المنجم والطبيب الكاهن . انظر لسان العرب: 181/13 . الكاهن اصطلاحاً: هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عما سيقع في الأرض ، مع الاستناد إلى سبب . المسائل التي خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية : 872/2 بتصريف يسير، وانظر أضواء البيان للشنقيطي: 151/2 .

(5) المنجم لغة: نجم الشيء ظهر وطلع و بابه دخل ، و النجم: الوقت المضروب و منه سمي المنجم، و المنجم الذي ينظر في النجوم يحسب موافقتها و سيرها. وانظر لسان العرب 60/14 ، مختار الصحاح/ ص647 . المنجم اصطلاحاً: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية ، بمعنى أن المنجم يربط ما يقع في الأرض في النجوم بحركاتها، وطلوعها ، وغروبها، واقتنائها، وتفرقتها " ثم يقول (و المنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء . انظر مجموع الفتاوي : 192/35 .

للسحرة ، والكهنة، وطلب معرفة أمور الغيب منهم ، فذلك نوع من السحر، وهو محرم؛ لأنه مبنى على أوهام لا حقيقة لها ، فلا علاقة لما يحدث في الأرض بما يحدث في السماء (1) كما أن طلب معرفة أمور الغيب من الكاهن والمنجم يُعتبر شركاً بالله يخرج صاحبه من الملة ؛ لأن في ذلك ادعاء معرفة علم الغيب لأحد غير الله ، وقد صرح سبحانه وتعالى بأنه لا يعلم الغيب إلا هو، ولا يطلعُ علي غيبه أحداً إلا بمشيئته وأن ذلك صفة من صفاته الخاصة، فقال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (2) وقال أيضاً: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((إن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب ، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة ، أو عرافة، أو غيرها، أو صدق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه ، وقد كذب الله ورسوله)) (4).
وقال الشنقيطي - رحمه الله - : ((لما جاء القرآن العظيم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله ، كان جميع الطرق التي يراد بها التوصل إلي شيء من علم الغيب غير الوحي من الضلال المبين)) (5).

الآثار المترتبة على الذهاب للسحرة، أو الكهنة، وتصديقهم:

إضافة لوضوح أدلة حرمة ذلك، فإنه يترتب عليه أيضاً عدة أمور، جميعها تؤكد حرمة:

1. أنه يؤدي إلى الكفر:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، أن رسول الله - ﷺ - قال: (من أتى عرافاً، أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد) (6).

فهذا الحديث النبوي الشريف، يحكم بالكفر، والخروج من الإسلام، على كل من أتى كاهناً، أو منجماً أو ساحراً،... أو كل من يدعي معرفة الغيب بطرق غير

(1) انظر المسائل التي خالف فيها الرسول - ﷺ - أهل الجاهلية: 875/2، وفتاوي العقيدة للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، مكتبة السنة/القاهرة ، ط 1 1413 هـ - 1992 ، ص 366 .

(2) الأنعام / 59 .

(3) الجن / 26 .

(4) القول السديد : ص 77 ، 78 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي: 2 / 150 .

(6) أخرجه (حم) ، 565/2 ، ح(9515) ، وصححه الألباني في صحيحه: 2 / 1031 ، ح (5939) .

مشروعة، ويصدقه .

2. حبوط العمل :

كذا يؤدي سؤال السحرة، و الكهنة، إلى حبوط الأجر، وبطلانه، متمثلاً ذلك العمل في الصلاة، حيث حكم رسول الله ﷺ - بحبوط أجر صلاة الذاهبين للسحرة ، المصدقين لهم أربعين يوماً .

فقد ورد عن بعض أمهات المؤمنين، أن رسول الله ﷺ - قال: (من أتى عرفاً، فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) (1).

فهذا الحديث واضح الدلالة في بطلان أجر الصلاة أربعين يوماً، متمثلاً في بطلان مائتي صلاة - والعياذ بالله - ، فإذا كان السحر يبطل ويحبط أجر الصلاة ، وهي رأس المأمورات ، وعمود الدين ، وركن الإسلام ، فغيرها من الأعمال أخرى بالحبوط ، - والله أعلم - .

وبالنظر إلى حقيقة السحر المكفر بعين الاعتبار، وبموضوعية نجد أنه لا يندرج فقط تحت المحبطات الفعلية، بل يتفرع في جميع أنواع المحبطات القولية، والاعتقادية، والفعلية.

فالسحر الذي يأتي باستغاثة الشياطين ودعائهم، والتمتمة إليهم، بأقوال كفرية، يعتبر محبطاً قولياً، وفي حالة اعتقاد نفعهم وضرهم بغير إذن الله - تعالى - فإنه يندرج تحت المحبطات الاعتقادية، وأما إذا ذبح لتلك الشياطين، تقرباً إليها، لنيل رضاها، ومساعدتها له بالباطل فهذا على قمة المحبطات الفعلية.

فيكون السحر بذلك قد جمع من الآثام، ما لم يجمعه محبط آخر - والله المستعان - بعد هذا العرض الموجز لما يتعلق بالسحر، وما يلحق به، أصبح واضحاً وضوحاً لا جدال فيه، الحكم بالكفر على السحرة الذين يتعاملون مع الشياطين؛ لأن تلك المعاملة هي بمثابة عبادتهم، وكذا كفر من يذهب إليهم لسؤالهم، وتصديقهم .

ولكن للأسف الشديد ذهب بعض من ينتسبون إلى الإسلام إليهم؛ لسؤالهم عن الغيب المتعلق بهم، أو لإيقاع الضرّ بغيرهم؛ مضحين في سبيل ذلك بدينهم، فانتشر بذلك السحر في البلاد الإسلامية انتشاراً واسعاً، بسبب ضعف الإيمان، وبُعد الناس عن

(1) أخرجه (م) ، ك (السلام) 1751/4 ، ح (230).

ربهم، وجهلهم بأمور دينهم، مما جعل السحرة يجدون أرضاً خصبة في بلاد المسلمين، بين ذاهب إليهم ليسحر الناس، وبين مسحور يذهب؛ ليقضي على السحر ويحلّه، ويتحرر منه، فالسحرة يجلبون الداء، ويصفون الدواء - والله المستعان - .

فليتق الله، ويحذرّه، كل من يحاول مضرة أخيه الإنسان المسلم، وليعلم جيداً أن من ضرّه فهو عند الله مظلوم، سيعوضه الله خيراً، أما هو فقد فقد دينه إضافة إلى إنسانيته، يوم أن رضي لنفسه أن تتمتع بأذية المسلمين، ودمارهم، فلا يوجد أي سبب على وجه الأرض مهما كان يجعلهم يضرّون المسلمين بهذه الدرجة، وليعلموا جيداً أن الدنيا فانية، زائلة، ومهما عمّر فيها الإنسان لا بد وأن يترك ويغادر؛ ليحاسب على كل ما اقترفت يده، فيأتي الندم يوم لا ينفع الندم .

وليتق الله المسحورون أيضاً، فيحاولوا حلّ سحرهم بالرقى والتائم المشروعة، والواردة عن معلّم البشرية الأول محمد ﷺ - (1)؛ لينالوا رضا الله - عزّ وجل - فإن حصل لهم بذلك الشفاء فهو المطلوب، وإن لم يتيسر، فما عليهم إلا الصبر، والالتجاء إلى الله - تعالى -، والتوكل عليه في حلّ ما حلّ بهم، قال - تعالى -
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (2).

وليعلموا جيداً أنهم يوم أن ذهبوا للساحر ليقضي لهم على سحرهم، شاركوه في كفره، وإثمه، وحبوط عمله، وأصبحوا جناة، بعد أن كانوا مجنباً عليهم - والعياذ بالله - .

(1) إن علاج السحر بعدة طرق منها :

أ. المداومة على الأذكار الشرعية، فإنها أعظم ما ينتصر به، فإن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية وهي كثيرة، وكلها نافعة بإذن الله -، ومنها: فاتحة الكتاب، أربع آيات من أول سورة البقرة، والآيات /163، 164 منها 117، 119، وآية الكرسي، وآخر ثلاث آيات منها، والآية /18 من سورة آل عمران، والآية /154 من سورة الأعراف، والآيات /116-118 من سورة المؤمنين، والآية /3 من سورة الجن، وعشر آيات من أول سورة الصافات، وآخر ثلاث آيات من سورة الحشر، والآيتان /81، 82 من سورة يونس، والآية /69 من سورة طه .

ب. النشرة الجائزة، وهي بأخذ بعض الأعشاب وأوراق الشجر، ثم تدق، وتوضع في ماء فيغتسل به، ونص بعض العلماء على القراءة فيه ببعض الآيات السابقة الذكر .

انظر زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم الجوزية، (ت) شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، ط³ 1421، 2000، 116/4 .

(2) الطلاق / 2 .

خلاصة :

هذه هي أهم الأقوال ، والصفات ، والأفعال ، التي استطعت أن أجد لها دليلاً من القرآن الكريم ، أو من السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، يدل على إحباطها لعمل الإنسان الصالح ، الذي طالما تعب ، وجدّ ، وكدّ ، وسهر الليالي من أجل تحصيله ، فجاءت هذه المحبطات فجعلته هباءً منثوراً، كأن لم يكن ، لا يجد له يوم القيامة وزناً .

قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (1).

هذه الآيات الكريمة توضح أن من ارتكب شيئاً من الأقوال ، والأفعال ، والصفات التي تعرفنا عليها خلال الباب كاملاً ، يحبط عمله الصالح ، ويبطله ، ويصبح كأن لم يكن .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : هل يعود العمل المحبط بالتوبة الصادقة ، النابعة من القلب ، أم لا ؟

اختلف أهل العلم في تلك المسألة على قولين :

يرى الإمامان مالك ، وأبو حنيفة - رحمهما الله - : أنه لا يعود ، حيث إنه في رأيهما من ارتد من المسلمين ثم عاد إلى الإسلام ، وتاب لم ترجع إليه أعماله التي عملها قبل الارتداد حتى إن كان حجّ لزمه الحجّ مرة أخرى ، وإن كان عليه نذور ، أو أيمان ، لم يكن عليه شيء منها بعد عودته إلى الإسلام .

أي على قولهما أن من ارتكب أي أمر مما سبق - من الأمور التي تخرج من الإسلام - يخرج صاحبه من الإسلام ، وبالتالي يحبط عمله الصالح ، وأن هذا العمل لا يعود بالتوبة ، حتى ولو كانت مستوفية لشروطها (2) .

ذلك أنه رضي لنفسه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، أن تعود للكفر والضلال مرة أخرى ، فكان جزاؤه أن يحرم من جميع ما عمل قبل الردة .

(1) الكهف / 103-105 .

(2) وهي : أ. الندم الصادق على ما فعل ، ب. الإقلاع فوراً عن ارتكاب الذنب ج. والعزم على عدم العودة لارتكاب الذنب مرة أخرى .

دليلهما :

1. قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ (1).

2. وقوله - جلّ وعلا - : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (2).

أما الإمام الشافعي - رحمه الله - ، فيرى : أن من ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام ، لم يحبط عمله ، ولا حجه الذي حجه ، وكذلك من تاب من المعاصي ، فإنها تعود عليه أعماله المتقدمة ماله ، وما عليه ، أما من مات على الردة فحينئذ تحبط أعماله .

ودليله : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (3).

فقد علق - رحمه الله - حبوط العمل على الموت على الكفر والشرك (4) .

بالنظر في أدلة الفريقين ، وفي آيات القرآن الكريم الأخرى ، وإلى سماحة الدين الإسلامي أرى أنه دين ترغيب بالدرجة الأولى؛ فإن القلب يميل لرأى الإمام الشافعي - رحمه الله - والأدلة على ذلك :

1. قال - عزّ وجل - : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (5).

هذه الآيات الكريمة توضح أن عدم قبول التوبة لمن مات وهو مصرّ على المعصية ، أما من تاب ، وأناب ، وعاد فإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته ، ويغفر له ذنوبه ، وخطاياها ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - غفور رحيم ؛ ومن مقتضى الرحمة أن لا يجرمه أجر عمله الذي تعب وكذّب في تحصيله .

(1) المائدة / 5 .

(2) الزمر / 65 .

(3) البقرة / 217 .

(4) انظر تفصيل تلك المسألة في : تفسير السعدي : 164/1 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 52/1 ،

والتحريير والتنوير لابن عاشور : 333/1 .

(5) آل عمران / 86-89 .

2. وقال - جل ثناؤه - : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَٰئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَتَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (1).

توضح هذه الآيات الكريمة أن الاستغفار ، والتوبة النصوح ، ليس لهما جزاء إلا المغفرة ، والخلود في الجنات ، مهما كان ذلك الذنب المرتكب ، حتى ولو كان الشرك بالله ، فإن الظلم هو عبارة عن الشرك : قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (2).

3. وقال - عز من قائل - : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (3).

أيضاً هذه الآيات الكريمة توضح أن من ارتكب الكبائر من الشرك بالله تعالى ، وقتل النفس التي حرم الله ، وارتكاب فاحشة الزنا ، فإنه محبط العمل ، مما يؤدي إلى خلوده في النار ، أما من تاب منهم فإن الله - سبحانه وتعالى - ، يقبل توبتهم ، ويتوب عليهم ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه - تعالى - يبدل سيئاتهم التي فعلوها حال ارتدادهم حسنات .

وهذا مما يستأنس به في هذا المقام ، فلا يعقل أن تبدل سيئاتهم حسنات ، ثم ما عملوه من حسنات تحبط ، وتبطل .

4. قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (4).

(1) آل عمران / 135 ، 136 .

(2) لقمان / 13 .

(3) الفرقان / 68-70 .

(4) الزمر / 53 .

الباب الثاني

عقوبات الذنوب وآثارها

خلق الله - سبحانه وتعالى - الخلق ليعبدوه ويخافوه ، ويخشوه ، ويبين لهم الأدلة على كبريائه ليهابوه ، ثم وصف لهم شدة عذابه ليسارعوا إلى امتثال أوامره ، وفعل ما يحبه ، واجتناب ما ينهي عنه ويأباه ولكن بعض الناس عمدوا إلى ما حرم الله فارتكبوها ، ومأموراته فاجتنبوها ، فقطعوا بذلك الأسباب بينهم وبين خالقهم ؛ لأن الذنوب حجاب يحجبهم عنه - جلّ وعلا - ، كما أنها تورث الذل والهوان على الله - تعالى - أولاً ، ثم على الخلق ثانياً .

وصدق عبد الله بن المبارك حين قال :

رأيتُ الذنوبَ تميّتُ القلوب ويورثُ الذلَّ إيمانها
وتركُ الذنوبَ حياةَ القلوب وخيرُ نفسك عصيانها (1)

من أجل ذلك كان هذا الباب بعنوان: (عقوبات الذنوب وآثارها) ، وهو يشتمل

على فصلين :

الأول : يبين عقوبات الذنوب على الفرد مشتملاً على العقوبات الدنيوية التي تزول بالتوبة ، والتي لا تزول بها ، كما يبين العقوبات الأخروية .

والثاني : يبين العقوبات على المجتمع وهي : عقوبات إهلاك ، وعقوبات دون الإهلاك .

(11) نقلاً عن الذنوب وقبح آثارها على الأفراد والشعوب ، لمحمد بن أحمد سيد أحمد ، مكتبة السواري / مكة

المكرمة ، ط3 1413هـ - 1993م ، ص 6 .

المبحث الأول

عقوبات دنيوية لا تزول بالتوبة

ويتضمن مطلباً واحداً ، ويشتمل على ثلاثة فروع :

الفرع الأول : القتل

الفرع الثاني : القطع

الفرع الثالث : الجلد .

الفصل الأول

عقوبات على الفرد

إن العقوبات التي تطارد الأفراد تنقسم ابتداءً إلى عقوبات دنيوية ، وأخرى أخروية ، غير أن الدنيوية بعضها يزول بالتوبة ، وبعضها لا تسقطه التوبة ، فانقسم بذلك هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : عقوبات دنيوية لا تزول بالتوبة

تناولت فيه - بعون الله وتوفيقه - العقوبات التي إن ارتكب الإنسان من المعاصي والآثام ما يوجبها ، ثم تاب ورجع إلى الله تعالى ، تاب الله عليه - بإذنه - ؛ لأن الندم والإخلاص في التوبة من أسباب قبولها ، ولكن هذه العقوبات لا تزول عنه ، ولا تسقط بتوبته طالما وصلت إلى الحاكم أو السلطان ، كما أنه يحرم على أي إنسان مهما كان أن يتوسط بالشفاعة لشخص وجبت عليه إحدى هذه العقوبات ؛ لأنه لا يملك أي شخص العفو عنها ؛ فهي حق لله وحده ، لا يجوز التنازل عنه ، أو التهاون فيه ؛ (ولأن في الحدود مصالح للعباد في الدنيا والآخرة، وهي صادرة عن رحمة الله - تعالى - بعباده ، والإحسان إليهم ، بل إن إقامتها من العبادات التي يُدبُّ بها عن المسلمين كالجهد في سبيل الله) (1).

ويشمل هذا المبحث مطلب واحد :

(2) الحدود

أستهل هذا المطلب بتعريف الحدود ، ثم أذكر بعض الذنوب التي تكون عقوبتها إقامة الحد على مرتكبها ، والتي دليل إقامة الحد فيها من القرآن الكريم فقط ؛ حيث إن

(1) فقه الأشربة وحدّها، لعبد الوهاب عبد السلام طويلة ، دار السلام/القاهرة ، ط¹ 1406هـ-1986م ، ص237.
(2) الحدود لغة : جمع حد ، والحد في الأصل هو الشيء الحاجز بين شيئين ، ويقال : هو ما ميز الشيء عن غيره مثل حدود الدار ، وحدود الأرض ، وورد أيضاً بمعنى المنع ، انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس : 3/2 ، والمعجم الوسيط، د.إبراهيم أنيس وجماعة ، دار المعارف /مصر ، ط2 1392هـ-1972م ، 160/1 ، والمعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط1 1400هـ-1980م ، ص139.
والحدود فقهاً : هي عقوبة مقدرة شرعاً تجب حقاً لله تعالى ؛ لمنع تكرارها ، أو الوقوع في غيرها .
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين بن مسعود الكاسائي الحنفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، ط2 1406هـ-1986م ، 33/7 ، والمبسوط لشمس الدين السرخسي ، دار المعارف ، بيروت /لبنان ، ط3 1398هـ-1978م ، 36/9.

هذا البحث دراسة قرآنية بالدرجة الأولى .

إن الحدود حق لله - تعالى - لا يجوز التهاون فيها ، أو التنازل عنها طالما وصلت إلى السلطان ، وكذا لا يجوز الشفاعة فيها لما ورد عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال لأسماء بن زيد - رضي الله عنه - حين أتاه متشفعاً للمرأة المخزومية التي سرقت : "أتشفع في حد من حدود الله؟" ، ثم قام فاخطب ، ثم قال : (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) (1) .

أما العفو والشفاعة فيها قبل الوصول إلى السلطان فجائز ، لقول رسول الله - ﷺ - فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : (تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حد فقد وجب) (2) .

والمعنى : ((تجاوزوا عن الحدود ، ولا ترفعوها إليّ ، فإنني متى رفعت إليّ وجبت عليّ إقامتها - أي إقامة هذه الحدود على مستحقيها -)) (3) .

أما من تاب من كبيرة حد الحراة قبل علم السلطان به فقد سقطت عنه ؛ لحصول المقصود من العقوبة بالتوبة، وحق الله مبني على المسامحة ؛ لقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (4) .

وصفوة القول : إن الحدود الشرعية لا تقبل عفواً ؛ ولا إسقاطاً ، ولا صلحاً إذا بلغت السلطة ، ومن عطل الحد وهو قادر على إقامته ، أو شفع فيه بعد أن بلغ الحاكم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً (5) .

(1) متفق عليه أخرجه (خ) ، ك(أحاديث الأنبياء) ، ب (54) ، 1081/2 ، ح(3475) . وأخرجه (م) ، ك(الحدود) ، 330/11 ، ح(8) .

(2) أخرجه (د) ، ك(الحدود) ، ب/5 (العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان) ، 1871/4 ، ح(4376) وقال صحيح . وأخرجه (س) في سننه ، ك(قطع السارق) ب/8 (ما يكون حرزاً وما لا يكون) ، 329/4 ، ح(7372) ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 1411هـ - 1991م .

(3) عون المعبود : 2726/12 ، بتصريف يسير .

(4) المائدة / 34 .

(5) انظر مجموع الفتاوى : 294/15 ، 298/28 - 300 .

ومن رحمة الله - عزَّ وجلَّ - بعباده أن من أقيم عليه الحد فهو كفارته ،
فلا يعذبه الله - تعالى - يوم القيامة على نفس الذنب .

روى عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال :
(بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ثم قال : "فمن
وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ،
ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه
وإن شاء عاقبه) (1).

وكما أسلفت فإنني اكتفيت هنا بالحديث عن الحدود التي لها دليل شرعي من
القرآن الكريم فقط ، وبذلك تضمن هذا المطلب ثلاثة فروع.

الفرع الأول : القتل

وتناولت فيه الجريمة التي إن ارتكبها الإنسان يصبح مهدرَ الدم ، وتزول
عصمته ، ويجب عليه القتل حداً (2) ، وهي :

حد الحرابة (3)

تُعَدُّ جريمة الحرابة من أكبر الكبائر وأعظمها ؛ لذا سَمَّى المولى
- عزَّ وجلَّ - المتورطين فيها محاربين لله ورسوله ، وساعين في الأرض بالفساد
- والعياذ بالله - .

يقول السعدي - رحمه الله - : ((المحاربون لله ورسوله هم الذين بارزوه
بالعداوة ، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة الطريق)) (4) .

(1) أخرجه (خ) ، ك(الإيمان) ، ب(11) ، 30/1 ، ح(18).

(2) وهذا يعني أنه يقتل بالعصيان لا بالردة ، فيموت مسلماً مرتكباً كبيرة ، ويقابله من يقتل كفراً كالزنديق ،
والتارك لدينه .

(3) الحرابة لغة : مشتقة من الحرب ، وهو السلب ، ويقال : حاربه محاربة وحرابياً : أي قاتله ، ويقال
حاربه حرّياً : أي سلبه جميع ما يملك .

انظر معاجم مقاييس اللغة : 48/2 ، والمعجم الوجيز ص142 ، والمعجم الوسيط د.إبراهيم أنيس : 163/1
والحرابة اصطلاحاً : هي البروز لأخذ مال أو لقتل ، أو إرعاب اعتماداً على الشوكة مع البعد عن الغوث
نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، لشمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة ومن معه ، مكتبه مصطفى

البابلي الحلبي / مصر - الطبعة الأخيرة - ، 1386هـ - 1967م ، 3/8 .

(4) تفسير السعدي : 440/1 .

ويُعرفها محمود فؤاد جاد الله بقوله: ((هي قطع الطريق ، وإخافة السبيل بقصد الإرهاب والبطش، سواء أخذ المال مغالبة أو لم يأخذ ، وسواء قُتلت النفس الآمنة أو لم يُقتل أحد ، وسواء استُعمل سلاح أو لم يستعمل)) (1).

كما يوضح أيضاً - رحمه الله - مدلول كلمة الحراية قائلاً : ((وكلمة الحراية مأخوذة من الحرب ؛ لأن هذه الطائفة الخارجة عن النظام تعتبر محاربة للجماعة من جانب ، ومحاربة للتعاليم الإسلامية التي جاءت لتحقيق أمن الجماعة وسلامتها بالحفاظ على حقوقها من جانب آخر ، فخرج هذه الجماعة على هذا النحو يعتبر محاربة ، ومن ذلك أخذت كلمة الحراية .

وكما يُسمى هذا الخروج على الجماعة وعلى دينها حراية ، فإنه يُسمى أيضاً قطع طريق ؛ لأن الناس ينقطعون بخروج هذه الجماعة عن الطريق، فلا يمرون فيه ، أو يتعرضون لما لا قدرة لهم على مواجهته)) (2).

وبالنظر إلى تعريف الحراية ومدلولها يتضح أنها نوع من أنواع السرقة ، ولكنها ليست السرقة بعينها ؛ لأنه توجد فروق ظاهرة وواضحة بينهما :

فالسرقه غالباً ما تكون في الخفاء فيتحين السارق فرصة غياب من يريد سرقته أو غفلته، ثم يحاول الاستيلاء على الشيء المسروق دون دراية المسروق منه ، أما الحراية فهي دائماً ما تكون وجهاً لوجه .

كما أن السارق ليس له هدف سوى حيازة الشيء المسروق فقط ، وإن تعرض لأمر مفاجئ طارئ ربما يحصل قتال ، أما المحارب فهو دائماً مستعد للقتال والقتل . وكذا السارق فإنه لا يتسلل إلى الأماكن المسروق منها إلا بهدف حيازة الشيء المسروق، أما المحارب فإنه أحياناً يهجم ويقاوم دون هدف سوى نشر الخوف والرعب والفرع بين الناس، دون نية في السرقة نهائياً .

من أجل ذلك قال بعض العلماء: إن تسميتها بالسرقة مجاز . يقول كمال الدين السيواسي : ((وتسمية الحراية سرقة مجاز لا حقيقة ؛ لأن السرقة هي أخذ المال خفية ، وفي قطع الطريق يؤخذ المال مجاهرة ،..... ثم يوضح

(1) أحكام الحدود في الشريعة الإسلامية لمحمود فؤاد جاد الله ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1984م ،

ص 95.

(2) نفس المرجع ونفس الصفحة .

وجه تسميتها سرقة فيقول: ولكن في قطع الطريق ضرب من الخفية هو اختفاء القاطع عن الإمام ولذا لا يطلق السرقة على قطع الطريق إلا بقيود ، فيقال السرقة الكبرى ، ولو قيل السرقة فقط لم يفهم منها قطع الطريق ، ولزوم التقييد من علامات المجاز)) (1).

من كل ما سبق يتضح أن الحرابة -أو قطع الطريق- هي أشد خطراً وضرراً على المجتمع من السرقة ، فهي تشمل السرقة وزيادة من إثارة الخوف والرعب ، وأحياناً القتل وإزهاق الروح التي حرم الله إلا بالحق .
من أجل ذلك شدّد - سبحانه وتعالى - العقوبة على المحاربين ، فأوقع عليهم عقوبة لم يوقعها بمرتكب جريمة أخرى .

وذلك في قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2).

فهذه الآية الكريمة توضح حكم قاطع الطريق ، وهو عبارة عن عقوبات

أربع، هي :

أولاً : القتل

ثانياً : الصلب

ثالثاً : قطع الأيدي والأرجل من خلف

رابعاً : النفي من الأرض .

ولكن اختلف العلماء في تحديد عقوبة المحارب ، والأصل في هذا الخلاف اختلافهم في تفسير حرف (أو) الوارد في الآية الكريمة السابقة ، فمن رأى أن الحرف (أو) جاء للبيان والتفصيل ، قال: إن العقوبات جاءت مترتبة على قدر الجريمة ، وجعل لكل جريمة بعينها عقوبة بعينها ، ومن رأى أن الحرف (أو) للتخيير ، ترك للإمام أن

(1) شرح فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي ، دار الفكر ، بيروت/لبنان ، ط2

1397هـ-1977م ، 422/5.

(2) المائة / 33 .

يوقع أية عقوبة على أية جريمة بحسب ما يراه ملائماً (1).

((وخلاصة قول المفسرين : أن أولى التأويلين بالصواب تأويل من أوجب على المحارب من العقوبة على قدر استحقاقه ، وجعل الحكم على المحاربين مختلفاً باختلاف أفعالهم ، أي أن لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب ، فمن أخاف الطريق فقط فعقوبته النفي ، ومن أخذ المال ولم يقتل فعقوبته القطع من خلاف ، ومن قتل دون أخذ المال فعقوبته القتل ، ومن جمع الكل قتل وصلب ، وحجة ذلك أن الحرابة لا تُخرج من الإيمان، ودم المسلم حرام إلا بإحدى ثلاث : ارتداد بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس ، فالمحارب إذا لم يقتل فلا سبيل إلى قتله، وهذا هو الراجح والموافق لعدل الأحكام الربانية)) (2).

أما إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه (3)، فإن الحد يسقط عنه من قتل ، وصلب وقطع ، ونفي ، ولكن لا يسقط عنه ما يتعلق بحقوق العباد ؛ بل يبقى عنها مسئولاً ، فإن كان قد أخذ المال فقط فعليه رده إن كان قائماً ، أو ضمانه إن كان قد تلف ، وإن كان قد قتل أحداً أو جرحه فعليه القصاص، إن كان ذلك مما يجب فيه القصاص ، وإلا فعليه الدية .

وعلة قبول التوبة قبل القدرة ؛ أن التوبة حينئذ تكون غالباً توبة إخلاص ، وإنابة ، ورجوع إلى الله - عز وجل - ، أما التوبة بعد القدرة فهي للخوف من إقامة الحد ؛ ولأن في قبول التوبة قبل القدرة ترغيباً للمحارب في التوبة ، والرجوع عن المحاربة ، والإفساد في الأرض ، فناسب ذلك إسقاط الحد عنه ، أما بعد القدرة فلا حاجة لترغيبه ؛ لأنه قد عجز عن الإفساد والمحاربة ، فيكون بذلك قد أوجب الحد - تبارك وتعالى - على كل محارب ، ثم استثنى منهم التائبين قبل القدرة ، أما من عداهم فيبقى في حكم العموم (4).

(1) انظر جامع البيان للطبري: 88/6، وما بعدها ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 149/6، وتفسير

القرآن العظيم لابن كثير : 52/2 ، 53 .

(2) المحرر الوجيز لابن عطية : 89/5 ، وانظر جامع البيان للطبري : 293/6-296.

(3) أي قبل أن يقع في قبضة السلطان ، أو صاحب السلطة .

(4) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 53/2 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 100/6، وأحكام

الحدود ص109.

ويجب على ولاية الأمور أن تكون تلك الرحمة الربانية منهجاً ودستوراً لهم في الحياة ، فيقبلوا توبة من تولوا أمورهم إذا تابوا ورجعوا، وندموا على ما صدر منهم مهما كان ، إذا كانت تلك التوبة من تلقاء أنفسهم ، وقبل كشف أمرهم ، ويعفوا عنهم ، ويقوموا بإرشادهم إلى كيفية التكفير عن ذلك الخطأ ، سواء كان ذلك الذنب يتعلق بحقوق الغير ، أو لا يتعلق ، كما يجب أن يحرصوا على عدم إيقاع العقاب بهم ، أو تأنيبهم بشدة ؛ لأن ذلك سيكون له ردة فعل معاكسة ، حيث يجعلهم يتمادون في فعل الأخطاء ، دون أدنى تفكير في العودة لولى أمرهم؛ كي يعترفوا له بما اقترفت أيديهم ، ويندموا عليه ، ويعلموا توبتهم أمام الله أولاً ، ثم أمامهم ثانياً ؛ خشية وقوع العقاب بهم .

الفرع الثاني : القطع

ولا يوجد في الإسلام جريمة عقوبتها القطع وحده حداً سوى جريمة السرقة .

حد السرقة (1)

إن للمال سلطاناً قوياً على نفوس الناس ؛ لذا فإنهم يبذلون جهوداً جبارة في جمعه ؛ لأنه عصب الحياة وزينتها ، بل هو من أسباب استمرار الحياة ، فبواسطته يتوفر المأكل والمشرب ، والمسكن ، وغير ذلك من متطلبات الحياة . قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (2).

لذا فإن كثيراً من الناس ممن لا يستطيعون كسب رزقهم بكدهم، وتعبيهم ، وعرق جبينهم بسبب عجزهم، أو ممن لا يكفون أنفسهم عناء الكسب الحلال بسبب كسلهم، لا يرون طريقاً للكسب سوى الاعتداء والاستيلاء على أموال الآخرين، وهذا يدل على فساد النفس وخبثها .

يقول الخطيب : (من أجل ذلك اقتضت حكمة الله - تعالى- أن يقيم الناس على شريعة ذات سلطان وازع ، يأمنون به على ما يملكون من عدوان أهل البغي

(1) السرقة لغة : سَرَقَ - محرّك - الشيء ، يسرقه سَرَقًا ، وسَرِقًا ، والاسم : السَّرْقَة - بالفتح - ، واسترقه : جاء مستترًا إلى حرز فأخذ مالا لغيره .

انظر لسان العرب : 245/6 ، والقاموس المحيط : 253/3.

السرقة شرعاً : هي أخذ المال على وجه الخفية والاستتار .

انظر أحكام القرآن لابن العربي ، 103/2 ، والمغني : 416/12 .

(2) الكهف / 46 .

والعدوان ، وفي ظل هذا الأمن يعمل العاملون، ويجنون ثمار ما يعملون (((1).
لذا شدّد الإسلام في عقوبة المعتدي على أموال الناس بالسرقه ؛ كي تكون رادعاً له ولغيره عن ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فأوجب قطع يد السارق ، وهذا الحد ثابت بالقرآن والسنة ، وإجماع علماء الأمة .

قال تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2).

فإنه سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يأمر بقطع يد السارق، سواء كان ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً دون تمييز .

وأول ما يقطع من السارق يده اليمنى من مفصل الكف - وهو ما يسمى بالكوع - ، ثم تعلق اليد المقطوعة في عنق صاحبها ؛ زيادة في الزجر والتنكيل وأخذ العبرة (3).

وبالرغم من أن ظاهر هذا الحكم القسوة والعنف على رأى من يصفون الإسلام بهذه الأوصاف الشنيعة، إلا أن المتدبر للقرآن، والناظر للأحكام بعين الاعتبار، يجده قراراً عادلاً، بحيث لو طبّق هذا الحكم، لاندثرت هذه الظاهرة السيئة تماماً، فلو سرق السارق مرة وقطعت يده بالفعل، فإنه يستحيل أن يكرر ذلك الفعل الشنيع للسرقه إذا كان لديه قلب ينبض ، وعقل سليم.

كما أن تطبيق مثل هذا الحكم سيكون رادعاً لغير السارق ، ممن رأى قطع اليد ، أو من رأى تعليق يد السارق في عنقه ، ومن المعلوم أن هذه الصورة لا تكون إلا لسارق ، فلو لم يخف السارق من الله ، ولم يستح منه ، فإنه سيسعى جاهداً لترك هذا الفعل حياءً من البشر، وبذلك يصبح الناس يعيشون في مجتمع نظيف خالياً من الاعتداء على حقوق الآخرين وأموالهم ، فيتحقق بذلك الأمن ، والأمان للمجتمع كله .

(1) الحدود في الإسلام (حكمها وأثرها في الأفراد والجماعات والأمم) ، لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، - بدون تاريخ - ص62.

(2) المائدة / 38 .

(3) انظر المحرر الوجيز لابن عطية : 5/98 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 6/109-160 ، وأحكام القرآن لابن العربي : 2/119 ، وتفسير السعدي : 1/444 ، والتشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة ، دار الكتاب العربي ، بيروت/لبنان، - بدون تاريخ - ، 2/621-622 .

أما لو ترك السارق يصول ويجول ، أو حُبس عدة أيام جزاءً على فعله ، فإنه - حتماً - سيخرج من السجن، وربما قام بالسرقة في نفس اليوم ؛ لأن العقاب لم يكن رادعاً .

كما نستطيع أن نردّ على من يصف الإسلام بالقسوة، وهوان الأعضاء عليه بأن الإسلام شدّد العقوبة على المعتدى عليها، فجعل دية الجناية على اليد بالقطع لا تقاس بقدر الجزء المقطوع منها، بل جعل قيمة القطع خطأ خمسمائة دينار من الذهب الخالص؛ وذلك حماية لها، ولكنها لما خانت هانت، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله :

يَدٌ يَخْمَسُ مِئْتَيْنِ عَسْجِدٍ وَدَيْتٍ مَا بِهَا قَطَعْتَ فِي رِبْعِ دِينَارٍ ؟

فأجاب القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاهما ، وأرخصها صيانة المال ، فافهم حكمة الباري (1)

ومعنى ذلك : أن دية الاعتداء والجناية على الأيدي لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات والاعتداءات ، من أجل ذلك جعلها خمسمائة دينار ولو كان نصاب السرقة ، والاعتداء على أموال الآخرين خمسمائة دينار ، لكثرت الجنايات على الأموال . ومن أجل ذلك أيضاً جعل نصاب القطع ربع دينار ، فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان ذلك صيانة من الطرفين (2).

أما أدلة القطع من السنة النبوية المطهرة ، فما روى عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : (إن رسول الله - ﷺ - قطع سارقاً من مجنّ (3) قيمته ثلاثة دراهم (4) .

وقال أيضاً - ﷺ - : (تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً) (5).

(1) الجزء من جنس العمل : 228/2 .

(2) انظر فتح الباري : 119/12 .

(3) المجن : الترس ، وهو آلة يستتر بها ، وبقي ضربات العدو ، والجمع ترسة ، وتراس ، وتُرْس .

انظر لسان العرب : 32/13 .

(4) متفق عليه . أخرجه (خ) ، ك (الحدود) ، ب/13 (قول الله تعالى : "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما "

وفي كم تقطع) 2120/4 ، ح (6795) ، وأخرجه (م) ، ك (الحدود) ، 329/11 ، ح (6).

(5) متفق عليه . أخرجه (خ) ، ك (الحدود) ب/13 (قوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما وفي

كم تقطع) ، 2120/4 ، ح (6789) ، وأخرجه (م) ، ك (الحدود) ، 326/11 ، ح (1).

وقال أيضاً : (لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل (1)
فتقطع يده) (2).

أما الإجماع : فقد أجمع المسلمون على وجوب قطع يد السارق (3).

(وهذه العقوبة - القطع - لا يجوز العفو فيها، لا من المجني عليه ، ولا من السلطان ، ولا يجوز أن تستبدل بعقوبة أخرى أخف منها ، كما أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكن التوبة مقبولة - بإذن الله - والقطع كفارة له) (4).

ولا يعني إقامة الحد على السارق أنه ملك العين المسروقة ، بل لو كانت ما زالت موجودة عنده وجب عليه ردها إلى صاحبها ، لما ورد عن النبي - ﷺ - (أنه) ردّ رداء صفوان إليه حين قطع يد السارق) (5).

وكذلك قوله - ﷺ - : (على اليد ما أخذت حتى تؤديه) (6).

(أما إن تلفت العين فعليه مع القطع القيمة إن كان موسراً) (7) على أصح

الأقوال .

(1) كحبال السفينة . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 15/6 .

يقول ابن قدامة - رحمه الله - (والحبل يحتمل أن يساوي ذلك - أي ربع الدينار - وكذلك البيضة ، يحتمل أن يراد بها بيضة السلاح وهي تساوي ذلك) . المغني : 418/12 .
إن تأويل البيضة بالسلاح ، أو الحبل بالسفينة تأويل متكلف ، والأرجح أن الحديث جاء على صيغة المبالغة أو المجاز ؛ إذ الذي يسرق البيضة أو الحبل ابتداء لا تقطع يده ، لكن الذي يتعود على سرقة القليل يجترئ على سرقة الكثير ، وعندئذ تقطع يده ، فتكون سرقة البيضة أو الحبل أولاً هي التي تسببت في قطعه آخراً ؛ إذ لولاها لما تجرأ على السرقة أصلاً - والله أعلم - .

(2) أخرجه (م) ، ك(الحدود) ، 3529/11 ، ح(7) .

(3) المغني : 415/12 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 170/6 ، وانظر تفسير السعدي : 444/1 .

(5) أخرجه (س) ، ك(قطع السارق) ، ب/8 (ما يكون حرزاً وما لا يكون) 329/4 ، ح(7367) قال : هذا خالفه أشعث بن سوار ، وأشعث ضعيف .

(6) أخرجه (د) ، ك(البيوع) ، ب/90 (في تضمين العور) ، 1540/3 ، ح(3561) ، وأخرجه (ج) ، ك(البيوع) ، ب/39 (ما جاء في أن العارية مؤداة) ، 366/3 ، ح(1266) ، وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(7) أحكام القرآن لابن العربي : 113/2 .

الفرع الثالث : الجلد

وينطبق حد الجلد على جريمتين هما: الزنا والقذف (1).

حد الزنا

شرع الله - سبحانه وتعالى- الزواج حتى يستمر الجنس البشري ، ويضمن له البقاء ، ثم نظم العلاقة بين الرجل والمرأة على أسس من الطهر والنقاء ؛ لتتسأ بينهما علاقة سليمة ، ويقوما ببناء أسرة نقية متحابية ، قائمة على أسس من المودة والرحمة .
قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (2).

ولكن وُجد من شذَّ عن هذه العلاقة الطاهرة ، الشريفة ، النقية ، فعصى الله ، وارتكب المحرمات ، واتجه إلى قضاء غرائزه البشرية بطريق غير مشروع ، فظهرت الفاحشة بين بعض الناس ، فاختلطت الأنساب ، وقلَّ العفاف ، والحياء ، كل ذلك بسبب ارتكاب تلك الجريمة البشعة ، التي تعتبر من أخطر الجرائم ؛ لما ينتج عنها من آثار مدمرة للشخص وللمجتمع .

من أجل ذلك حارب الإسلام هذه الجريمة ، ورصد لها عقوبة رادعة، وهي الرجم للمحصن (3) حتى الموت ، والجلد لغير المحصن ، وإنما كان ذلك الخلاف في العقوبة لأسباب يذكرها عبد الكريم الخطيب فيقول : ((فالمحصن - وهو المتزوج - قد جعل الإسلام عقوبته الرجم ، سواء في هذا الرجل والمرأة ؛ لأن الزواج من شأنه أن يكسر حدة الشهوة المتسلطة على الإنسان ، فأقدام المحصن على الزنا ليس مثل إقدام غير المحصن الذي تتسلط عليه شهوة قاهرة إن قدر على مغالبتها فالمحصن أولى منه بالتغلب عليها ومن هنا كانت عقوبة غير المحصن مائة جلدة ، على حين كان حد المحصن الرجم .

(1) لن أتعرض لحد القذف ، وذلك لأن الراجح أنه حق للأدمي ، بدليل أنه لا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، كما يصح له الرجوع عنه إذا وصل الإمام ، وفي هذه الحالة يعزره الإمام ولا يقيم عليه الحد وبحثي مقتصر على الحدود التي لا تزول بالتوبة بعد أن تصل الإمام ، وأن قياس القذف على الزنى قياس مع وجود الفارق ؛ - لأن القذف جنابة على عرض إنسان معين، والردع عن الأعراض حق للأدمي . انظر أضواء البيان للشنقيطي 6/93.

(2) الروم / 21 .

(3) المحصن : هو من سبق له الوطء في نكاح صحيح ، ولو مرة واحدة . انظر لسان العرب : 209/3.

ومن جهة أخرى فإن المحصن عادة يكون قد بلغ مبلغ الرجال ، وسكن إلى أسرة تضم زوجه وأبناءه ، الأمر الذي يدعوه إلى أن يجنب نفسه الخزي والفضيحة بين أهله وأبنائه)) (1).

ولكني سأقتصر في هذا المقام على الحديث عن عقوبة الزاني غير المحصن - البكر - ؛ نظراً لأن حده ورد في القرآن الكريم ، أما حد المحصن فقد ورد في السنة النبوية المطهرة ، قال - ﷺ - : (خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والشيب بالثيب جلد مائة والرجم) (2).

وأما الحكمة والعلة من ذكر حد غير المحصن في القرآن الكريم، وعدم بيان حد المحصن، بل الإحالة في بيانه على السنة النبوية المطهرة ؛ لأن القرآن الكريم افترض أن هذه الفاحشة تقع بين غير المحصنين ؛ لأن القرآن الكريم افترض أ، هذه الفاحشة تقع بين المحصنين أكثر من المحصنين ، فهم الكثرة الواقعة تحت حكم الزنى أما المحصنون فهم قلة، بحيث يكاد الإسلام لا يفترض لهم وجوداً ، فلا يتجه لهم حكم عام ، ومن هنا تولت السنة المطهرة بيان حكم المحصنين ، وتولى القرآن الكريم بيان حكم غير المحصنين (3).

قال تعالى في بيان حد الزاني البكر ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشِهَذَا عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4).

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((هذا حد البكر الحر البالغ من الرجال والنساء إذا زنى وجب جلده مائة جلدة ، كما هو نص الآية الكريمة، ولا خلاف فيه)) (5).

وكما مرّ بنا فإنه ثبت في السنة النبوية المطهرة تغريب البكر عاماً بعد جلده، حين قال رسول الله - ﷺ - : (والبكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة) .

(1) الحدود في الإسلام ص 21 ، 22.

(2) أخرجه (م) ، ك(الحدود) ، 332/11 ، ح(12) .

(3) انظر الحدود في الإسلام ، ص 22.

(4) النور / 2 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي : 41/6 .

ولكن اختلف المفسرون في إثبات التغريب أو عدم إثباته ، والجمهور على إثباته (1).

كما يجب ألا تحول الشفقة والرحمة دون إقامة الحدود، كما يجب عدم التخفيف في الضرب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (2).

ومن منطلق رحمة الله - سبحانه وتعالى - بعباده ، وحرصه على عدم انتشار هذه الفاحشة، أن شدّد العقوبة ، بحيث أمر - إضافة إلى إقامة الحد - بأن تكون على مرأى ومسمع من طائفة من الناس ؛ كي يكون ذلك رادعاً لمرتكب هذه الفاحشة نفسه ، فلا تجرؤ نفسه على إعادة تلك الفاحشة ، وبالتالي إقامة الحد عليه مرة أخرى وسط احتقار الناس وكرههم له ، وكذا تكون رادعاً لمن يشهد ذلك المنظر البشع ، ولمن يصل إليه الخبر ، فلا تحدثه نفسه بارتكاب ذلك الفعل الشنيع، وإلا سيكون مصيره مثل مصيره .

قال تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (3).

وكما ثبت حد الزنى بالقرآن الكريم ، فقد ثبت أيضاً في السنة النبوية المطهرة في الحديث السابق الذكر، وهو قوله - ﷺ - : (..البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة) (4).

وأما الإجماع : فيحكيه الإمام النووي - رحمه الله - من خلال شرحه للحديث السابق قائلًا : (أجمع العلماء على وجوب حد الزاني البكر مائة جلدة ، والمراد بالبكر من الرجال والنساء من لم يجامع في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل ثم إن قوله - ﷺ - : (البكر بالبكر ، والثيب بالثيب) ليس على سبيل الاشتراط ، بل حد البكر الجلد والتغريب ، سواء زنى ببكر أم بثيب ، وحد الثيب الرجم، سواء زنى بثيب أم ببكر) (5).

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 165/12 ، 166 .

(2) انظر نفس المرجع ، والآية في النور / 2.

(3) النور / 2 .

(4) سبق تخريجه ص 229 .

(5) صحيح مسلم بشرح النووي : 192/11 بتصرف يسير .

المبحث الثاني

عقوبات دنيوية تزول بالتوبة

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : عقوبة إهلاك

المطلب الثاني : عقوبات دون الإهلاك .

المبحث الثاني

عقوبات دنيوية تزول بالتوبة

تناولت فيه - بعون الله - الحديث عن عقوبات الجرائم التي يرتكبها الإنسان في حق نفسه، أو في حق أخيه الإنسان ، ولكنها دون الجرائم التي تكلمت عنها في المبحث الأول ؛ حيث إن ضرر هذه أخف من تلك ، لذا كان التائب منها مقبول التوبة - بإذن الله تعالى- بلا خلاف ، إذا توافرت فيها شروط القبول، والتي هي : الإقلاع عن الذنوب ، الندم على فعلها ، العزم على عدم العودة ، أن يرد المظالم لأهلها - إن وجدت - ، وبذلك يذيق نفسه حلاوة الطاعة، كما أذاقها مرارة المعصية .
وتلك العقوبات تنقسم إلى قسمين ، كل قسم يمثل مطلباً ، وهي عقوبات إهلاك وعقوبات دون الإهلاك .

المطلب الأول : عقوبة إهلاك

سأتناول فيه الحديث عن قارون، حيث أهلكه الله بذنوبه ، ولو تاب ورجع لتاب الله عليه ، فهو رمز للذنوب التي تهلك صاحبها ، وتدمره في الدنيا بالكلية ، فقد طغى وتجبر في الأرض، وأنكر فضل الله عليه ، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر .
يقول تعالى ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاثُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (1).

وقد تناول جميع المفسرين قصة قارون بالعرض والتفصيل لأخذ العظة والعبرة منها ؛ لردع كل من تسول له نفسه سلوك مسلك قارون ، من أجل ذلك سأقوم بعرضها بإيجاز معتمدة على كتب التفسير بصورة عامة .

اسمه قارون بن يصهر بن قاحت بن لاوى جد موسى ، فهو ابن عمه ، وقال ابن عباس : كان أيضاً ابن خالته ، وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة (2) وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري (3) ، فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقيل إنه زاد في ثيابه شبراً طويلاً ترفعاً على قومه .

وهو رجل من بني إسرائيل ، آتاه الله مالاً كثيراً ، حتى إن مفاتيح خزائنه كان يتقل حملها على العصابة من الرجال الشداد ، وقد قيل إنها كانت من الجلود ، وإنها كانت تحمل على سنتين بغلاً - فانه أعلم - ، وقد نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر ، والإفساد في الأرض ، وأن يستعمل ماله في مرضاة الله مع الانتفاع ببعضه في مصالح الدنيا بقدر الكفاية ، وألا ينفقه فيما يغضب الله تعالى ؛ حتى لا يتعرض لزوال النعمة ، وقالوا له يجب أن تكون همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ؛ فإنه خير وأبقى ، وأحسن إلى خلق الله كما أحسن خالقهم وبارؤهم إليك ، ولا تسيء إليهم ، ولا تفسد في الأرض ، فيعاقبك الله ويسلبك ما وهبك ، فأبى الامتثال لنصح الناصحين ، وقال مترفعاً : إن الله أعطاني هذا المال لعلمه أنني أستحقه ، وأني أهل له ، ولولا أنني حبيب إليه ، وحظيُّ عنده لما أعطاني ما أعطاني ، وظنُّ أنه جمعه بما لديه من ذكاء وخبرة في شئون التجارة ، ولكنه غفل عن بطش الله بالمتجبرين المتكبرين من أمثاله في الأمم الغابرة الذين كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً للمال ، فما المانع من إهلاك قرون أخرى إذا فعلت ما يوجب الهلاك ، ثم يدخلون النار بغير حساب ، وقد استبد به الكبر والخيلاء أن كان يخرج في موكب

(1) القصص / 76-83 .

(2) ويقال : كان يُسمى المنور لحسن صورته . البداية والنهاية لابن كثير ، دار الكتب العلمية ،

بيروت/لبنان - بدون تاريخ - 288/1 .

(3) هو هارون السامري الذي صاغ العجل لبني إسرائيل ، وطلب منهم عبادته ، نفس المرجع 288/1 .

مهيب ، وزينة فاخرة باهرة ؛ تعالياً على الناس ، وإذلالاً للنفوس ، وكسراً للقلوب ، فافتتن بعض الناس بمظاهره ، وهم السذج والجهال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ويميلون إلى زخارفها وزينتها ، وتمنوا أن يؤثروا مثله من المال ، فقال لهم أهل العلم والبصر والحكمة : لا تفتنوا به ولا تطمعوا ، فتواب الله خير للمؤمن الذي يعمل الصالحات ، فكان عاقبة تكبره ، وظلمه ، وطغيانه ، وجحوده نعمة خالقه ، أن خسف الله به وبداره الأرض ، قال تعالى حاكياً عن حاله ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (1) .

((فهذا قارون قد طغى بماله وكنوزه ، واستكبر على خلق الله ، فما كان له جزاء إلا أن هوى في بطن الأرض التي علا عليها ، واستطال فوقها ، جزاءً وفاقاً ، وذهب ضعيفاً عاجزاً ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال ؛ ليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى أن يسألهم عن ذنوبهم ، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد)) (2) .

وبذلك انطوت صفحة الفاسد المتكبر إلى يوم القيامة ، ذهب ولم ينفعه ماله ولا جاهه ، ولا جنوده ، ولا حزبه .

فليحذر كل من يتكل إلى الدنيا ، ويغتر بها لكثرة ما آتاه الله أن يصيبه مثل ما أصاب قارون إذا تكبر وتجبر ، ولم يؤدِّ حق الله عليه .
وما أروع ما وصف الشاعر قارون وحزبه قائلاً :

أطاعوا ذا الخداع وصدقوه	وكم نصح النصيح فكذبوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيداً	إلى أن فضضوه وذهَّبوه (3)
أظلموا بالقبيح فتابعوه	ولو أمروا به لتجنبوه
نهاهم عن طلاب زهد	ونادى الحرص ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماع غثر (4)	إذا عُرف الطريق تنكبوه
حسبتم يا بني حوا شقاء	نجاكم الذي لم تحسبوه

(1) القصص / 81 .

(2) الجزء من جنس العمل ، 317/1 بتصرف يسير .

(3) أي جعلوه ذهباً وفضة . انظر مختار الصحاح ، ص 224 ، 506 .

(4) سفلة الناس . نفس المرجع ، ص 469 .

أدين (1) الشرُّ منكم فاحذروه ومات الخير فيكم فاتذبوه(2)

المطلب الثاني : عقوبات دون الإهلاك

إن للمعاصي والذنوب من الآثار القبيحة ، المذمومة ، المضرة بالإنسان في الدنيا ما لا يعلمه إلا الله - جلَّ وعلا - ، ولكنها دون الأولى في الشدة ، فهي تمثل انتقاماً من الله - تعالى - لمرتكب هذه الجرائم ، ولكنه لا يصل لدرجة الهلاك والفناء ، بل يبقى مرتكبها حياً يذوق وبال ما اقترفت يده ومرارته .

وليكن معلوماً أنه لو تاب الإنسان من هذه الذنوب ، وأتاب إلى خالقه - جلَّ وعلا - لتاب الله عليه ، ولأزال عنه العقوبات المترتبة عليها ، وللقى ربه وكأنه لم يقترفها ؛ لأن هذه العقوبات مترتبة على ذنوب هي دون الشرك بالله - تعالى - ، وقد وعد الحق - جلَّ وعلا - أن يغفر جميع الذنوب التي دون الشرك .

1. قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (3).
2. وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (4).

واقترنت في هذا المقام على ذكر ثلاثة آثار للعقوبات على سبيل المثال لا الحصر؛ بحيث يمثل كل أثر ، أو عقوبة فرعاً .

الفرع الأول : عمى القلب ، ومقارنة الشيطان له

إن الطاعة تُنور القلب ، وتجلوه ، وتصلقه ، وتقويه ، وتثبتته على الحق ، حتى يصير كالمرآة المجلوة ، فيتألق نوراً ، فإذا دنا منه الشيطان ، وقاده إلى طريق المعصية والضلال أعمى بصره ، وطمس نوره ، وسدَّ أمامه طريق الخير .

(1) أي : قرب . لسان العرب : 450/4 .

(2) نقلاً عن كتاب الجزاء من جنس العمل : 318/1 - 319 .

(3) الزمر / 53 .

(4) النساء / 48 ، 116 .

ولا يزال النور يضعف في القلب ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى ،
وسلطة الشيطان تزداد ، حتى يصير كالليل البهيم ، فيسقط في المهالك وهو لا يبصر
- والعياذ بالله - .

فإذا وصل القلب لهذه المرحلة انتكس، فتقلب عنده الحقائق، فيرى الحق
باطلاً، والباطل حقاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، ويفسد وهو يرى أنه
يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى ،
وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه ، وبذلك يصبح
القلب مظلم الأرجاء ، مختلف الأهواء ، قد اتخذ الشيطان له وطناً ومسكناً ، وأصبح
لصاحبه قريباً .

ومن أصبح هذا وصفه فلن يفلح في دنياه ولا في أخراه .

قال تعالى واصفاً حال ذلك الشيطان ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ
لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ .
وَكَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (1)

يخبر تعالى في هذه الآيات الكريمة عن عقوبته البليغة لمن صرف عقله عن
التدبر في الدعوة القرآنية ، وأعرض عن ذكر الله - عز وجل - ، وأغمض جفونه
عن النظر فيما ذكر به الرحمن عباده ، بأنه سوف يُسخر له شيطاناً مريداً يقارنه ،
ويصاحبه ، وبعده ويمنّيه ، ويؤزّه إلى المعاصي أزاً ، فلا تزال تصرفه عن النظر في
الحق وأدلة الرشد ، وهذا هو عقاب من عمي بصره عن إدراك الحق البين ، وأعرض
عن ذكر الله في الدنيا ، فإن الله تعالى - يعاقب على المعصية بالتزديد في المعاصي ،
ويجازى على الحسنة بالتزديد من الحسنات (2) .

وما أروع ما وصف به الشاعر القلب وقريته - الشيطان - قائلاً :

قريتك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان

(1) الزخرف / 37-39 .

(2) انظر تفسير السعدي : 630/2 ، والمحرم الوجيز لابن عطية : 55/5 ، والتحرير والتوير لابن عاشور :

فإن كنت في دار الشفاء فإنني وأنت جميعاً في شقا وهوان⁽¹⁾

وبذلك يكون الشيطان قد سيطر على القلب سيطرة تامة ، وتمكّن منه ، ولا يُضعف عمل الشيطان إلا العودةُ إلى الله -جلّ وعلا- بالعبادة ، والذكر ، وقراءة القرآن ، والندم ، وإخلاص التوبة ، فبذلك يتغلب القلب على الشيطان ، فيفيق صاحبه من سباته العميق الطويل ، ليلحق بركب المهتدين الطائعين .

الفرع الثاني : تغيير الحال للأسوأ

وعد الله - سبحانه وتعالى- عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، بأن يحييهم حياة طيبة ، ويجازيهم على أعمالهم أحسن الجزاء في الدنيا ، ثم يجازيهم الحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين ، وهم أحياء في الدارين ، وبذلك يفوز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة .

1. قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁽²⁾.

2. وقال - جلّ ذكره - : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾⁽³⁾ ، الآية .

أما إذا ضعفت عزيمة الإنسان ، وارتكب المعاصي والآثام ، فإن الله يغير حاله ، فتزول عنه النعم ، وتحل به النقم .

1. قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾⁽⁴⁾.

2. وقال سبحانه: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾⁽⁵⁾.

3. وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِنِ وَّالٍ ﴾⁽⁶⁾.

(1) نقلاً عن الجواب الكافي ، ص125.

(2) النحل / 97 .

(3) هود / 3 .

(4) الشورى / 30 .

(5) الأنفال / 53 .

(6) الرعد / 11 .

فإنه - سبحانه وتعالى - لا يغير نعمة أنعمها على أحد من عباده حتى يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غيّر غيراً عليه، فيغير العاقبة بالعقوبة ، والعز بالذل ، والغنى بالفقر جزاءً وفاقاً .

يقول الإمام الشوكاني مبيناً معنى الآية الكريمة : ((والمعنى : أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة ، أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها)) (1).

كما أن الذنوب والمعاصي تجعل الإنسان يعيش في ضيق وشدة وعسر ، بعد أن كان في رغد ورخاء .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (2).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((بتوعد سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة المعرضين عن ذكره ، وعن كتبه ، فيقول : من خالف أمري ، وأعرض عما أنزلته على رسولي وتناساه ، وأخذ من غيره هداة ، فلاطمأنينة له في الدنيا ولا انشراح لصدره ، بل يبقى ضيقاً لضلاله ، وإن تتعمّ ظاهره، وليس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبه يتردد)) (3).

ويذكر الرازي عدة معانٍ للضنك فيقول : ((الأول : أنها في الدنيا وبه قال جمع من المفسرين ؛ لأن المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشاً طيباً، والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا ، طالباً للزيادة أبداً ، معيشته ضنك ، وحالته مظلمة)) (4).
يقول سعيد حوى : ((فالضلال والشقاء ملازمان للإعراض عن دين الله ، والهداية والسعادة ملازمان لاتباع دين الله)) (5).

(1) فتح القدير للشوكاني : 69/3 ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 302/9 .

(2) طه / 124 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 173/3 بتصريف يسير .

(4) مفاتيح الغيب للرازي : 129/22 .

(5) الأساس في التفسير، لسعيد حوى ، دار السلام/القاهرة ، ط(2) 1409هـ-1998م ، 3410/7 .

أي أن الله - سبحانه وتعالى- قد غيّر حال المعرض عن ذكر الله من الهداية والسعادة إلى الضلال والشقاء .

وقد أحسن القائل :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن الذنوب تُزيل النعم
وحفظها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم⁽¹⁾

الفرع الثالث : محق البركة

إن طول عمر الإنسان ليس بكثرة الشهور والأعوام ، وسعة رزقه ليست بكثرتة ، واختلاف أنواعه ، ولكن سعتهما بالبركة فيهما ، فمن أطاع الله واجتنب معاصيه بورك له فيهما ، كما أن المعاصي والذنوب تمحق بركتها ، وبركة الدين والدنيا ، فلا يوجد أقل بركة من عمر العاصي ودينه ودنياه ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلائق .

1. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁽²⁾.

يقول أبو السعود : ((المقصود في هذه الآية الكريمة أهل القرى المهلكة ، لو أنهم آمنوا بما أوحى إلى أنبيائهم ، معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ، وابتعدوا عن الكفر والمعاصي ، واتقوا ما أنذروا به على السنة الأنبياء ، ولم يُصِرُوا على ما فعلوا من القبائح ، ولم يحملوا ابتلاء الله - تعالى- على عادات الدهر ، ووحّدوا الله وتركوا الشرك ؛ لو سعنا عليهم الخير ، ويسرناهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض ، ولكنهم لم يؤمنوا ، ولم يتقوا ، وكذبوا الرسل ، فعاقبناهم بكفرهم وعصيانهم))⁽³⁾.

(1) نقلاً عن الجواب الكافي ، ص 103 .

(2) الأعراف / 96 .

(3) تفسير أبي السعود : 253/3 بتصرف ، وانظر محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار إحياء

الكتب العربية/القاهرة - بدون تاريخ - 2825/7.

2. وقال - تعالى - أيضاً حاكياً عن حال العصيين: ﴿وَأَلُو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا (1) لِنَفْتِنَهُمْ (2) فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (3)﴾ (4).

أي ومن يعرض عن ذكر الله - عز وجل - ويعرض عن استماع القرآن وتطبيقه ، ولم يتبعه وينفذ له ، بل يلهو عنه ويغفل ، سوف يسلكه الله عذاباً بليغاً شديداً شاقاً لا راحة فيه .

ثم يوضح تعالى أن أبواب رحمته مفتوحة على مصراعيها تتسع لجميع الداخلين فيها فيقول : لو أن القاسطين الجائرين رجعوا إلى طريقة الحق والاستقامة ، واستمروا عليها ؛ لوسع الله عليهم في الرزق ، وبسط لهم في الدنيا ؛ ليختبرهم ، ويفتنهم ، ليعلم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية ، وهذا مثال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (5).

من خلال الآية الكريمة السابقة الذكر ، وأقوال المفسرين فيها يتأكد لنا أن هذه العقوبات تزول بالتوبة ، حيث بيّن الرحمن الرحيم أن المعتدين الظالمين ، الجائرين على أنفسهم وعلى غيرهم لو تابوا ورجعوا إلى طريق الحق والصواب ، والاستقامة ، لتاب الله عليهم ، وكفر عنهم سيئاتهم ، وقبلهم عنده ، وأغدق عليهم العطاء .

(1) كثيراً يتسع به العيش .

(2) لاختبرهم فيما أعطيناهم .

(3) أي شاقاً يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . كلمات القرآن ، ص 413 .

(4) الجن / 16 ، 17 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 4/431 بتصرف . وانظر جامع البيان للقرطبي : 29/141 ، وتفسير

السعدي : 2/939 .

المبحث الثالث عقوبات أخروية

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : عذاب القبر

المطلب الثاني : عذاب الحشر

المطلب الثالث : عذاب في جهنم دون الخلود

المطلب الرابع : عذاب الخلود في جهنم .

فيسألانه عن ربه، ودينه ونبيه ، وبذلك يكون القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، وذلك يتوقف على رحمة الله -تعالى- أولاً ، ثم عمل الإنسان في الدنيا ، وحسب حسن إجابته أو سئوها ثانياً، وقد ورد عذاب القبر في الكتاب والسنة ، ومن ذلك :

1. قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (1).
2. وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (2).
3. وقال أيضاً : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ (3) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (4).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ، والآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشيا في البرزخ ... صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا)) (5).

أي أن هذا العرض على النار ليس المقصود في الدار الآخرة يوم القيامة ، بل هو في القبر ، وذلك من عذابه - والعياذ بالله - .

يقول البوطي : ((ووجه دلالة الآية أنه لما عطف فيها قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ على ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ، علمنا يقيناً أن النار التي يعرضون عليها غدواً وعشيا غير التي يعرضون عليها يوم القيامة ، ولا شك أنه واقع ما بين الموت ، والنشور)) (6).

(1) الأنعام / 93 .

(2) الأنفال / 50 ، 51 .

(3) أي صباحاً ومساءً ، أو دائماً في البرزخ . كلمات القرآن : ص320.

(4) غافر / 46 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 81/4 ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 305/15 ، وتفسير السعدي : 567/2 .

(6) انظر كبرى اليقينيات الكونية ، د.محمد سعيد رمضان البوطي ، مطبعة مسعودي /القدس ، ط(6)

1399هـ - 1979م ، ص253-255.

ومعلوم أن الفترة ما بين الموت والنشور هي فترة بقاء الإنسان في القبر، وكما ثبت عذاب القبر بالقرآن الكريم ، كذلك ثبت بالسنة النبوية المطهرة، منها :

1. حديث أنس بن مالك - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال : (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر) (1).

2. وعنه أيضاً - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل - محمد ﷺ - ؟ ، فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي - ﷺ - فيراها جميعاً ، وأما الكافر - أو المنافق - فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين) (2).

ثم بعد السؤال يعرض عليه مقعده - إما من الجنة أو من النار - بالغدأة والعشى إلى قيام الساعة .

3. وقال أيضاً - ﷺ - : (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدأة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) (3).

(فهذه بعض النصوص الشريفة الواردة في الكتاب والسنة ، والتي تثبت نعيم القبر وعذابه ، وهي في مجموعها تتجاوز حد التواتر المطلوب لقطعية الدلالة على المضمون (4) ، ولذلك تمّ إجماع المسلمين على أن الميت يتعرض قبل النشور للعذاب ،

(1) أخرجه (م) ، ك(الجنة) ، 328/17 ، ح(68).

(2) أخرجه (خ) ، ك(الجنائز) ، ب/67(الميت يسمع خفق النعال) ، 397/1 ، ح(1338) ، وأخرجه (م) ، ك(الجنة) ، 329/17 ، ح(70) بنحوه .

(3) متفق عليه أخرجه (خ) ك(الجنائز) ، ب/89 (الميت يعرض عليه بالغدأة والعشى) ، 409/1 ، ح(1379) ، وأخرجه (م) ك(الجنة) ، 326/17 ، ح(65).

(4) اشتراط المؤلف التواتر في الأحاديث للحصول على الدلالة القطعية في موضوع العقائد لأن أحاديث الأحاد لا تقيد إلا الظن ، والعقائد لا يكفي فيها الظن ؛ بل لا بد فيها من القطع . هو اشتراط صحيح غير أن عذاب القبر ما دام ثابتاً بالقرآن فقد حصلت القطعية في الدلالة ، فيكفي عندئذ في الأحاديث أن تكون ظنية الثبوت ، لأن دورها زيادة تأكيد ما ثبت بالقرآن ، وليس تأسيس عقيدة عذاب القبر . وهكذا الشأن في معظم فروع العقيدة الواردة في أحاديث الأحاد ، والتي لها أصول في القرآن ، فيقبل فيها الظن ، لأنها زيادة تأكيد .

أو للنعيم حسب حاله ، كما تمَّ إجماعهم على قبض ملك الموت للروح ، وعلى سؤال الملكين بعد الموت)) (1) .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن كل إنسان يُسأل بعد موته ، قُبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع ، أو أحرق حتى صار رماداً ، ونسف في الهواء ، أو غرق في البحر، لسئل عن أعماله، وجوزي بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً (2) .

ولكن ذهب طائفة قليلة (3) إلى أن نعيم القبر أو عذابه إنما يكون للروح فقط ، ودليلهم عقلي؛ وهو أنه لا يُشاهدُ في القبر أثر لإبعاد الميت أو سؤاله ، أو أثر للضيق والسعة ، كما أن المصلوب الذي لم يقبر كيف يسأل .

وردَّ عليهم الجمهور قائلين : إن نعيم القبر أو عذابه ثابت بالدليلين النقلی الشرعي الديني ، والعقلي القياسي .

أما الدليل النقلی : فإن ظاهر النصوص القرآنية الواردة تقتضي ذلك ، ولا حاجة إلى التأويل .

كما ثبت في الصحيح : ((أن رسول الله -ﷺ- وقف على القلب الذي ألقيت فيه جثث المشركين يوم بدر ، وأخذ يكلمهم قائلاً : (إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً)) (4) .

ولولا علمه أن الأجساد بنفسها هي التي تسمع كلامه ، لما اتجه في خطابه إليها ، ولما قال لعمر بن الخطاب لما تعجب من مخاطبته لتلك الأجساد قائلاً : يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فردَّ عليه -ﷺ- قائلاً : ((والذي نفس محمد بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئاً)) (5) .

(1) كبرى اليقينيّات الكونية ص254.

(2) العقائد الإسلامية لسيد سابق ، دار الكتاب العربي بيروت/لبنان - بدون تاريخ - ص237.

(3) ومنهم ابن حزم ، وابن هبيرة .

انظر تبسيط العقائد الإسلامية لحسن أيوب ، دار البحوث العلمية/الكويت ، ط(4) 1399هـ - 1979م ص209.

(4) أخرجه (خ) ، ك(الجنائز) ، ب/86(ما جاء في عذاب القبر) ، 407/1 ، ح (1370). وأخرجه (م) ، ك (الجنة)،

330/17 ، ح(76)، بنحوه .

(5) سبق تخرجه في الحديث السابق ؛ لأنه تنمة له .

وأما الرد على الدليل العقلي فهو أن ذلك غير ممتنع في القدرة ، بل له نظير في العادة ، وهو النائم ، فإنه يجد لذة وأماً لا يدركه جليسه ؛ بل اليقظان قد يدرك أماً ولدزة لا يسمعه ، أو يفكر فيه ، ولا يدرك ذلك جليسه ، وإنما أتى الغلط في قياس الغائب على الشاهد ، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله .

والظاهر أن الله -تعالى- صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك ، وستره عنهم ؛ إيقاءً عليهم ؛ لئلا يتدافعوا ، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلا من شاء الله (1) .

وبذلك يكون قد ثبت بالدليل القاطع الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار عذاب القبر لكل من يستحقه ، وأن ذلك العذاب واقع على الروح والبدن معاً ، مع بيان ضعف أدلة القائلين بأن العذاب على الروح فقط دون البدن .

ويستمر الإنسان في النعيم أو العذاب حتى حدوث علامات الساعة الكبرى وقيام الساعة، وبعد ذلك يبعث الله -تعالى- الأموات من قبورهم .

1. قال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (2) .

2. وقال - جل ذكره - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (3) .

وباستقراء سور القرآن الكريم التي تتحدث عن أحداث يوم القيامة (4) تتجسد أحداث يوم القيامة للإنسان ، فيراها رأى العين ، ويتصور ما سيحدث حينذاك من تغيير للكون ، حيث تتشقق السماء ، وتتناثر النجوم ، وتتصادم الكواكب ، وتتفتت الأرض ، وتغدو صعيداً جرزاً (5) ، وتصبح الجبال كثيباً مهيباً (6) ، ويخرب كل شيء

(1) انظر العقائد الإسلامية ص 239 . وعقيدة المؤمن ص 397 ، 398 .

(2) التغابن / 7 .

(3) الزمر / 68 .

(4) مثل : التكوبر ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة .

(5) أي : تراباً قاحلاً أجرد .

- التحرير والتنوير لابن عاشور : 258/15 .

(6) أي بمنزلة الرمل المنهال المنتثر .

ويدمر كل ما عرفه الناس في هذا الوجود ، وهذا كله أثر النفخة الأولى ، ثم تكون النفخة الثانية ، فتعود على أثرها الحياة للأموات وهذا يوم البعث ، ويعود الإنسان روحاً وجسداً كما في الدنيا ، ثم يُخْرِجُ اللهُ - تعالى - الناس من الأجداث (1) أحياءً ، فيقول الكافرون والمنافقون ﴿يَا وَيَلَّنَا مَنِ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ (2) ، ويقول المؤمنون : ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (3) .

المطلب الثاني : عذاب الحشر

إن الاعتقاد باليوم الآخر يعتبر حجر الأساس في العقيدة الإسلامية ، وإليه مرد كل شيء في الحياة الدنيا ؛ لذا يجب الإيمان بكل ما ورد في الكتاب العزيز ، والسنة النبوية المشرفة ، عما سيحدث في ذلك اليوم من الأهوال العظيمة المفزعة العصبية ، المصاحبة لقيام الساعة ، والتي ترتجف لها القلوب ، وتشخص لها الأبصار، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ويكون الناس يموج بعضهم فوق بعض من شدة الازدحام والأهوال في ذلك اليوم العصب ، الذي تنزلزل له القلوب .

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا . السَّمَاءُ مَنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (4) .

ومن تلك الأهوال التي تحصل في اليوم الآخر الحشر .

ولكن الناس في غفلة عنه، بين مكذب له بالكلية، وبين غافل عنه مغتر بالدنيا وما فيها. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ (5) الْمُجْرِمُونَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَأذِ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (6) .

(1) أي القبور وواحدما جدث . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 127/17 .

(2) يس / 52 .

(3) يس / 52 .

(4) المزمّل / 17 ، 18 .

(5) أي : تنقطع حجبتهم ، أو يبأسون . كلمات القرآن ، ص 272 .

(6) الروم / 12-14 .

والحشر يُعرفه ابن عاشور قائلاً : ((هو جمع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد)) (1).

فالحشر هو عبارة عن جمع الخلائق بعد أن يبعثهم الله - تعالى - بين يديه في ساحة واحدة ؛ للفصل بينهم ، والحكم عليهم ، ومجازاتهم على أفعالهم .
قال تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمُ أَحَدًا ﴾ (2).

يقول السعدي - رحمه الله - واصفاً المحشر : ((ويحشر الله جميع الخلائق فلا يغادر منهم أحداً ؛ بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات (3)، وفغور البحار (4)، ويجمعهم بعدما تفرقوا ، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقاً جديداً ، فيعرضون عليه صفاً؛ ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ، ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم)) (5).

((ولا يستطيع العلم أن يصف لنا كيفية حشر الأجساد ، أو أن يحللها ويعللها بالطريقة العلمية التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة ، لأن العلم يبحث فيما هو مشاهد وواقع تحت التجربة ، والحشر من الأمور الغيبية غير المشاهدة)) (6).

* الأدلة على الحشر

والحشر ثابت بالقرآن الكريم في آيات كثيرة ، وبالسنة النبوية المطهرة .

* الأدلة من القرآن الكريم

3. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (7).

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 217/15.

(2) انظر عقيدة المؤمن ص 341 . ويوم الفزع الأكبر للقرطبي ، (ت) محمد إبراهيم سليم ، مكتبة القرآن/القاهرة ، ط 1405هـ - 1984م ، ص 326 ، والآية في الكهف/47.

(3) هي الأرض القفراء التي لا ماء فيها - أي هي الصحراء الواسعة - ، والمفرد فلاة . لسان العرب : 330/10.

(4) نهاية سعتها . - انظر نفس المرجع : 294/10 ، والقاموس المحيط : 114/2.

(5) تفسير السعدي : 1014/1.

(6) عقيدة المؤمن ص 341 بتصرف يسير .

(7) الأنبياء /104.

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((أي نحشرهم حفاة عراة غرلاً (1) كما بُدئوا في البطون)) (2).

2. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ (3) وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾ (4).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((أما وطاء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع)) (5).

* الأدلة من السنة النبوية

وأما من السنة النبوية فقد بين النبي - ﷺ - الصفة التي سيحشر عليها الناس في عدة أحاديث ، أكتفي بذكر ثلاثة منها :

1. قال - ﷺ - : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء (6) ، كقرصة النقي (7) ، ليس فيها معلّم لأحد (8) (9) .

2. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً، قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ، قال : يا عائشة الأمر أشد من أن يهتمهم ذلك) (10).

3. وفي رواية : (الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) (11).

(1) غرلاً : بضم الغين ، وإسكان الراء : أي غير مختونين ، جمع أغرل صحيح مسلم بشرح النووي : 189/17 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 366/11 .

(3) أي لا عوج لهم عنه ولا انحراف ، ولكنهم سراعاً إليه يحشرون . جامع البيان للطبري : 265/16 .

(4) طه / 108 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 170/3 .

(6) أي ليست ناصعة البياض ، بل تميل إلى الحمرة قليلاً . انظر فتح الباري : 440/11 .

(7) النقي : - بفتح النون وكسر القاف - أي الدقيق الأبيض السالم من الغش والنخالة . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(8) المَعْلَم : - بفتح الميم واللام - : أي ليس فيها علامة سكنى ، ولا بناء ، ولا أثر ، ولا شيء من العلامات التي يهتدي بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة ، وفيه تعريض بأرض الدنيا التي ذهبت ، وانقطعت العلامة منها . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(9) أخرجه (خ) ، ك(الرقاق) ، ب/44 (يقبض الله الأرض يوم القيامة) ، 2043/4 ، ح(6521) .

(10) أخرجه (خ) ، ك(الرقاق) ، ب/45 (كيف الحشر) ، 2044/4 ، ح(6527) .

(11) أخرجه (م) ، ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، 320/17 ، ح(56) .

من خلال هاتين الروايتين الكريمتين ، يتضح لنا أن للمحشر أهوال ، وهي أشد من أن تقاس بالأمور الدنيوية المشاهدة ، فلو افترضنا أن إنساناً خرج حافياً ، عارياً في الدنيا ، لالتفتت إليه بعض أنظار الناس ، مهما كان في قلوبهم وصدورهم من مشاعر فرح ، أو حزن ، أو ضيق حال ، ولكن في ذلك اليوم العصيب الذي تعجز الأقلام عن وصفه ، وتعجز العقول عن تخيله كما هو ، لا يلتفت إنسان لإنسان ، فالكل حاف عارٍ لا يستره شيء ، ومع ذلك لا ينظر أحد لأحد ، فإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على شدة الموقف وصعوبته ، وشدته - عافانا الله منه - .

أما عن أحوال الناس في أرض المحشر ، فإن الشمس تُدنى في ذلك اليوم ، حتى تكون قريبة جداً منهم ، فتشتد الحرارة في الموقف ، ويعرق الناس حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً .

وقد وصف لنا ذلك الموقف المولى - عز وجل - ، ورسوله - ﷺ - :

فمن القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ ⁽¹⁾ يَسْأَلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ . إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ ⁽²⁾ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ⁽³⁾ .

وأما من السنة النبوية : فقد روي عن المقداد بن الأسود - رضي الله عنه - أنه قال : (سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل - قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد ، فوالله ما أدري ما يعنى بالميل ؟ أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين ، قال - ﷺ - فيكون الناس على قدر أعمالهم من العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْهِ ⁽⁴⁾ ، ومنهم من يلجمه العرق إجماماً ⁽⁵⁾) .

قال : وأشار رسول الله - ﷺ - بيده الشريفة إلى فيه .

(1) الحدب : ما ارتفع عن الأرض . مختار الصحاح ، ص 125 .

(2) أي حطبتها ووقودها . كلمات القرآن ، ص 227 .

(3) الأنبياء / 96-98 .

(4) مثني (حقو) - بالفتح - ، وهو الإزار ، والحقو أيضاً : الخصر وشد الإزار . مختار الصحاح ص 148 .

(5) أخرجه (م) ، ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، 323 / 17 ، ح(62) .

فلنا أن نتخيل شدة الموقف وهوله ، فنحن في هذه الحياة الدنيا ، والشمس بعيدة عنا جداً ، لا نستطيع تحمل شدة حرارتها في أيام الصيف ، فضلاً عن دول الخليج العربي ، فإنهم لا يستطيعون العيش تحت حرها أبداً ، إلا بحجاب يقيهم حرها من مكيفات وغيره ، ونسينا أو تناسينا أن نار جهنم أشد حرأ - أجارنا الله منها- .

يقول الإمام النووي في شرحه للحديث السابق : ((ويحتمل أن المراد عرق غيره ويحتمل عرق نفسه خاصة ، وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ، ودنو الشمس من رؤوسهم)) (1) .

وفي المحشر يُسأل الناس عن أعمالهم مهما صغرت في أعينهم ، ومن ثم يُحاسَبون عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقد أكدَّ الله سبحانه وتعالى هذه المعاني في كتابه العزيز، وكذا رسوله الكريم - ﷺ - :

فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (3) .

فهذه الآية الكريمة توضح أن أحقر الأشياء وأقلها سوف يُحاسب عليها أصحابها، وتعرض عليهم على رؤوس الأشهاد ، لذا يجب على كل إنسان أن يتقَى الله ، ويرجع إلى أفعاله، وأقواله فيراجعها ، ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسب ، ويحاول إصلاح ما فسد قبل فوات الأوان ، فإن توبة الإنسان مقبولة ما لم يغرغر .

وقال رسول الله - ﷺ - : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه فيم فعل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟) (4) .

وبما أن السُّنة موضحة ومفسرة للقرآن ، فإن هذا الحديث الشريف يوضح المعنى الوارد في الآية الكريمة قبله ، فالآية وضحت أن أقل الأشياء سوف يحاسب

(1) صحيح مسلم بشرح النووي : 191/17 .

(2) الذرة : النملة الصغيرة في ابتداء حياتها ، أو هي ذرة الغبار ؛ أي الهباءة التي تسبح في جو السماء ، ولا مانع من تفسيرها بالذرة التي لا ترى بالعين المجردة التي يجري تفجيرها اليوم فتخرج منها طاقة وإشعاعات فتاكة .
التحريز والتتوير لابن عاشور : 494/30 . وانظر مختار الصحاح ص 221 .

(3) الزلزلة / 7 ، 8 .

(4) أخرجه (ت) ، ك (صفة القيامة والرفائق والورع) ، ب/1 (ما جاء في شأن الحساب والقصاص) ، 336/4 ح (2417)

وقال : حديث حسن صحيح .

الإنسان عليها ، والحديث أكد ذلك وأضاف أموراً ربما لا يخطر ببال الإنسان الجاهل أنه سيحاسب عليها كعمره ، وماله، وعلمه ، وحتى جسمه ، وهي أدق الأمور وأخصها فيا ليت الغافلون ينتبهون ، ويجعلون هذه الأدلة الشرعية منهاجاً ودستوراً لهم في الحياة ، وميزاناً يزنون به جميع أمورهم .

* صفة المحشر للكافر

وأما عن صفة محشر الكافر ، فقد ورد في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، أنه يحشر أعمى لا يرى ، وأبكم لا يتكلم ، وأصم لا يسمع ، ثم يكون مأواه الأخير إلى جهنم وبئس المصير - والعياذ بالله - .

قال تعالى واصفاً حال الكافر على أرض المحشر: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا . ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَّا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا (1) إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿ (2) .

ويقول المعلم الأول - صلوات الله وسلامه عليهم - موضحاً ومؤكداً لمعنى الآية الكريمة : (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم، قيل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم !؟ قال : (إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقنون بوجوههم كل حذب وشوك) (3) .

وبذلك ينتهي المحشر بعد أن يكون كل إنسان عرف ما له وما عليه ، ويبدأ الجزاء على تلك الأعمال ، إن خيراً يجازى عليه ، وإن شراً يحاسب عليه .
قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (4) .

(1) أي بالية نخرة . تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 67/3 .

(2) الإسراء / 97 ، 98 .

(3) أخرجه (ت) ، (ك) (تفسير القرآن) ، ب (م¹² - ت تابع 18) ، 150/5 ، ح (3142) ، وقال حديث حسن .

(4) الزلزلة / 7 ، 8 .

1. العرض والحساب : ويكون بعد محاكمة عادلة من الحكم العدل - سبحانه وتعالى - يطلع فيها كل إنسان على ما قدمت يداه ، ويُعرّف بها فيعرفها ، ويعترف على نفسه ، ويعرض على ربه ، فيتولى - سبحانه وتعالى - حساب جميع الخلائق بنفسه ، وبدون واسطة.

عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة) (1).

وقد وصف الشاعر العرض قائلاً :

مستوحشاً قلق الأحشاء حيراناً	مَثَلٌ وَقَوْفَكَ يَوْمَ الْعَرْضِ عَرِياناً
على العصاة ورب العرش غضباناً	والنار تلهب من غيظ ومن حنق
فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا ؟	اقرأ كتابك يا عبي على مهل
إقرار من عرف الأشياء عرفاناً	لما قرأت ولم تنكر قراءته
وامضوا بعبدٍ عصي للنار عطشاناً	نادى الجليل : خذوه يا ملائكتي
والمؤمنون بدار الخلد سكاناً (3)	المشركون غداً في النار يلهبوا (2)

2. الصحف : وهي كتب فيها أفعال العباد ، وأقوالهم ، يؤمر بها فتطير من تحت العرش وتتجه كل صحيفة باتجاه صاحبها دون خلل ، فإن كان الإنسان من الصالحين أخذ كتابه بيمينه ، وإن كان من الطالحين أخذ كتابه بشماله - والعياذ بالله - .

قال تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (4).

(1) أخرجه (خ) ، بك (التوحيد) ، ب/36 (كلام الرب - عز وجل - يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) ، 2343/4 ، ح (7512).

(2) قوله (يلتهبوا) فعل مضارع من الأفعال الخمسة فكان حقه أن يكون مرفوعاً بثبوت النون ؛ لعدم سبقه بناصب ولا جازم ، وقد يقال في تسوية ذلك ؛ إنه يحق للشاعر ما لا يحق لغيره .

والصحيح أن الفعل المضارع يجوز جزمه أحياناً من غير سبب ظاهر مثل قوله تعالى في هود/105 : ﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه ... ﴾ . وقوله في الكهف/64 : ﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ... ﴾ .

والأصل (يأتي) ، و(نبغي) . وله أمثله في السنة لا أطيل التعليق بذكرها .

(3) نقلاً عن كتاب الفرع الأكبر ص 187 .

(4) الإسراء / 13 .

ثم بين - تعالى - حال الناس في ذلك الموقف ، وأنهم سينقسمون قسمين ، فقال - جلّ وعلا- : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ⁽¹⁾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ⁽²⁾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ⁽³⁾ .

3. الميزان : توزن فيه أعمال العباد خيرا وشرا ، وهذا الميزان له كفتان ، والله - سبحانه وتعالى - يزن الأعمال بالكيفية التي يشاؤها ، ومما يؤكد وجود الميزان قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ⁽⁴⁾ .

وأيضاً ورد ثبوت الميزان في السنة النبوية المشرفة ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) ⁽⁵⁾ .

4. الحوض : وهو ما تفضل به تعالى على أمته ، وهو مورد عظيم يرده المؤمنون ، ويشربون منه ، ومن شرب منه لا يظمأ بعده أبداً ، وشرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وأنبيته أكثر عدداً من النجوم . قال تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ⁽⁶⁾ .

يقول القرطبي : ((والصحيح أن للنبي - ﷺ - حوضين ، أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والثاني في الجنة ، وكلاهما يُسمى كوثرًا)) ⁽⁷⁾ .

(1) الثبور : الويل . الدر المنثور للسيوطي : 548/6 .

(2) أي لن يبعث . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(3) الانشقاق / 7 - 15 .

(4) الأنبياء / 47 .

(5) أخرجه (خ) ، ك (التوحيد) ، ب/58 (قول الله تعالى (ونضع الموازين القسط) وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن) ، 2364/4 ، ح (7563) ، وهو آخر حديث في صحيحه ، وأخرجه (م) ، ك (الذکر) ، 191/17 ، ح (31) بنحوه .

(6) الكوثر / 1 .

(7) السندكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي مكتبة أبو بكر أيوب ، نيجيريا / كانو ، ط 1421 هـ - 2001م ص 270 .

وكما ورد ذكر الحوض في السنة النبوية الشريفة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه⁽¹⁾ كنجوم السماء ، فمن شرب منها فلا يظماً أبداً)⁽²⁾.

5. **الصراط** : ويأتي بعد الحساب والميزان ، حيث ينصرف الناس من الموقف ؛ ليَمروا جميعاً برُّهم وفاجرهم فوقه ، وهو منصوب على متن جهنم ، يجوزه الأبرار ، وينزل عنه الفجار ، وهو عبارة عن الجسر الذي بين الجنة والنار ، يمرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم ، فمن استقام على صراط الله الذي هو دين الحق في الدنيا ، استقام على هذا الصراط في الآخرة ، فمنهم من يمر كالمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس ، ومنهم من يمر كرقاب الإبل ، ومنهم من يعدو ، ومنهم من يمشى ، ومنهم من يزحف ومنهم من يُخطف ويلقى في جهنم ، والجسر عليه كلاليب يخطف الناس بأعمالهم ، فمن مرَّ عن الصراط دخل الجنة ، وإذا عبروا وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص بعضهم من بعض ، فإذا هُذبوا ونُقوا أنزل لهم في دخول الجنة⁽³⁾.

وقد وصف الشاعر هذه الأهوال قائلاً :

إذا برَّرَ العباد لذي الجلال	أبنت نفسي أن تتوبَ فما احتيالي
بأوزار كأمثال الجبال	وقاموا من قبورهم سكارى
فمنهم من يكبُّ على الشمال	وقد نصب الصراط لكي يجوزوا
تلقَّاه العرائس بالغوالي	ومنهم من يسير لدار عدن
غفرت لك الذنوب فلا تبال	يقول له يسير المهيمن يا وليي

وقال آخر :

تصول على العصاة وتستطيل	إذا مُدَّ الصراط على جحيم
وطال الويل واتصل العويل ⁽⁴⁾	فقوم في الجحيم لهم ثبور

(1) أي : أباريقه وأنيته . فتح الباري : 553/11 .

(2) أخرجه (خ) ، (ك) (الرقاق) ، ب/53 (في الحوض) ، 2057/4 ، ح (6579) .

(3) انظر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ، مكتبة أبي بكر الصديق/كانو ، ط⁽¹⁾ 1421 هـ -

2001م ، ص 225-305 . ويوم الفزع الأكبر ص 320-328 .

(4) نقلاً عن كتاب التذكرة ، ص 297 ، 298 .

المطلب الثالث : عذاب في جهنم دون الخلود

إن من رحمة الله بعباده أنه لا يحاسبهم على الأعمال غير الإرادية، كعمل الناسي، والمخطئ، والمكره، والمجنون، إنما يحاسبهم على الأعمال الإدارية الاختيارية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (1).

وعلى تلك الأعمال يكون الجزاء من ثواب وعقاب يوم القيامة، وذلك بعد الصراط، حيث ينقسم الناس إلى قسمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ (2)﴾ (3).

والجنة والنار مخلوقتان من مخلوقات الله، وهما خالدتان لا تفنيان، وأهلها أيضاً مخلدون لا يدركهم الموت.

ولا يعني ذلك أن أهل النار على درجة واحدة من العذاب، بل إنهم على درجات متفاوتة؛ وذلك تبعاً لتفاوت أعمالهم، وما كسبوا من خير أو شر في هذه الحياة الدنيا، وذلك مقتضى العدل الإلهي القاضي بأن يجزي كل نفس بما عملت.

وقد صرح الرسول -ﷺ- بهذه المعاني حين قال: (إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخص قدميه جمره يغلي منها دماغه) (4).

فهذا الحديث النبوي الشريف وغيره كثير مما يحمل نفس المعنى يدل دلالة واضحة على أن درجات العذاب متفاوتة، منها الشديد، ومنها الأهون، على حسب

(1) النساء / 40 .

(2) أي نعيم مقيم غير منقطع . تفسير السعدي : 820/1 .

(3) هود / 103-108 .

(4) أخرجه (خ)، ك(الرقاق)، ب/51 (صفة الجنة والنار)، 2052/4، ح(6561).

الأعمال ، وما اقترفت الأيدي .

وكما أن درجة العذاب متفاوتة بين أهل النار ، فإن مدة بقائهم فيها متفاوتة ، ومنهم من يحاسب على قدر عمله السيئ ثم يخرج ، ويدخل الجنة برحمة الله - تعالى - ومنهم من يبقى خالداً مخلداً فيها - والعياذ بالله - .

ولكن أهل التوحيد لا يخلدون في النار ، بل يعذبون على قدر معاصيهم ، ثم يخرجون برحمة الله - عزَّ وجل - إلى الجنة .

وهذا المعنى ذكره وأكده عدد من العلماء في كتبهم ، أسوق هنا جملة من هذه

الأقوال :

1. يقول سيد سابق - رحمه الله - ((أهل التوحيد لا يخلدون في النار ، ولو ارتكبوا الكبائر ، فإن ارتكب المؤمن بعض الكبائر ، ولم تُكفَّر بحد ، أو توبة نصوح ، أو مصيبة أو مرض ، أو شيء من المكفرات ، فهو محاسب على عمله ، والله يوازن بين أعماله الصالحة ، وبين جميع معاصيه التي لم يتب منها ، فإن رجحت حسناته ، أو تساوت مع سيئاته فهو في الجنة .

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (1).

أما من رجحت سيئاته فإنه يدخل النار ، فيعذب فيها بقدر ما ارتكب من إثم ، ثم يخرج منها بعد أن يتطهر ، وبعد أن يوفيه الله جزاءه بمقتضى عدله وحكمته ((2).

2. ويقول الطحاوي : (وأهل الكبائر من أمة محمد - ﷺ - في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين ، وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر - عزَّ وجل - في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (3). وإن شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته ، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته (4).

(1) الأنبياء / 47 .

(2) العقائد الإسلامية ص 295 بتصريف يسير .

(3) النساء / 48 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية ص 369 ، 370 .

وقد دلَّ على خروج الموحدين من نار جهنم ، وعدم خلودهم فيها الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة .

فمن الكتاب :

1. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ (1).

يقول الطبري: (قال بعض أهل العلم هذا استثناء استثناء الله من أهل التوحيد أنه يخرجهم من النار إذا شاء بعد أن أدخلهم النار) (2).

2. وقال - جلَّ ذكره- ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (3).

يقول الميداني : ((واستدل أهل العلم بهذه الآية على خروج عصاة المؤمنين من النار ، فقالوا: والإيمان خير ، فلا بد أن يُلاقى الأجر عليه ، ويجب أن يكون ذلك بعد تطهيره بالعذاب ؛ لأنه إذا أثيب على إيمانه قبل دخول النار فلا يكون ذلك إلا بدخول الجنة ، لكنه إذا دخل الجنة امتنع أن يخرج منها؛ لقوله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ (4) ، فلزم من ذلك أن يسبق العقاب على العاصي دخول الجنة)) (5).

فيفهم إذن من جملة أقوال العلماء أن أهل التوحيد لا يخلدون في النار وإن ارتكبوا الكبائر ، ولم يتوبوا منها ، ولم يُقَمَّ عليهم الحد ، ولم يُصابوا بأي شيء من مكفرات الذنوب ؛ بل إنهم يدخلون النار ، فيعذبون فيها على قدر ما ارتكبوا من آثام ، أو على قدر ما كتب الله لهم من العذاب ، فربما لا يعذبون إلا القليل بالنسبة لما ارتكبوا من معاصٍ وآثام ، ثم يخرجون منها إلى الجنة - بإذن الله - ؛ ليتمتعوا بكل ما فيها ؛ لأنهم وإن ارتكبوا محرمات فلا يمنع ذلك من فعلهم لمأمورات ، وبعدهم أيضاً عن بعض المحرمات الأخرى .

(1) هود / 106 ، 107 .

(2) جامع البيان للطبري : 153/12.

(3) الزلزلة / 7 .

(4) المسائدة / 37 ، واستدل المؤلف - الميداني - بهذه الآية الكريمة على أن أهل الجنة لا يخرجون منها ، والصحيح أنها تعني عدم خروج أهل النار منها ، ويؤيد ذلك بقية الآية (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) وإن كان معنى ما قال صحيحاً .

(5) العقيدة الإسلامية ص 660.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة التي تحمل تلك المعاني فهي كثيرة، وجميعها
بمعانٍ متقاربة، منها :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يخرج
من النار من قال لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من
قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرة⁽¹⁾ من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله
إلا الله وفي قلبه وزن ذرة⁽²⁾ من خير)⁽³⁾ .

أما الإجماع : فحكاه القرطبي قائلاً : ((وقد أجمع أهل السنة على أنه لا يبقى
في النار مؤمن ، ولا يخلد إلا كافر جاحد))⁽⁴⁾ .

ثمّ وبعد انقضاء مدة العذاب يشفع الرسول - ﷺ - للعاصي في الخروج من
النار ، وذلك ثابت في الأحاديث الصحيحة أن النبي - ﷺ - يشفع لأهل الكبائر بعد
دخولهم النار ، فيقبل الله شفاعته فيهم ، ويخرجهم منها ، وتكون الشفاعة إظهاراً لكرامة
الشافع عند الله - تعالى - ، وإظهاراً لفضله - ﷺ - ومن ذلك :

1. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (لكل نبي
دعوة مستجابة يدعو بها ، فأريد - إن شاء الله - أن أختبئ دعوتي شفاعاة لأمتي يوم
القيامة)⁽⁵⁾ .

2. وزاد الإمام مسلم : (فهي نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتي لا يشرك بالله
شيئاً)⁽⁶⁾ .

3. وكذا روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (شفاعتي
لأهل الكبائر من أمتي)⁽⁷⁾ .

(1) حبة قمح - قمحة . فتح الباري : 131/1 .

(2) الذرة : هي أقل الأشياء الموزونة ، وقد سبق تعريفها ص 251 .

نفس المرجع : 132/1 .

(3) أخرجه (خ) ، ك (الإيمان) ، ب/44 (زيادة الإيمان ونقصانه) ، 38/1 ، ح (44) . وأخرجه (م) ، ك (الإيمان) 428/3 ،
ح (125) بنحوه .

(4) التذكرة ص 394 .

(5) أخرجه (خ) ، ك (التوحيد) ، ب/31 (في المشيئة والإرادة) ، 2333/4 ، ح (7474) .

(6) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 440/3 ، ح (338) .

(7) أخرجه (د) ، ك (السنة) ، ب/23 (في الشفاعة) ، 2024/4 ، ح (4739) وقال : حديث صحيح ، وصححه الألباني في

صححه ، 691/1 ، ح (3714) .

فعلى جميع المؤمنين أن يطلبوا دائماً هذا المقام المحمود للرسول - ﷺ - عقب كل أذان، فربما تحل بهم شفاعته - ﷺ - بسبب دعائهم له.

قال تعالى : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (1).

يقول الطبري - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((وعسى من الله واجبة وقال أكثر أهل العلم إن ذلك هو المقام الذي هو يقومه - ﷺ - يوم القيامة للشفاعة للناس ؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم)) (2).

فليثق الله كل من في قلبه ذرة من إيمان، ويرتكب المعاصي والآثام، فليرجع إلى الله مولاه تائباً ، نادماً على ما فرط في جنب الله ، وليعمل صالحاً عسى الله أن يغفر له ذنوبه ، ويبدل سيئاته حسنات .

قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرَافِعًا﴾ (3) **مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (4).**

وليعمل جاهداً على أن لا يدخل النار مطلقاً ، فالتوبة النصوح تجب ما قبلها ويجب ألا يتكل على أحاديث الشفاعة ، والآيات المبشرة بالمغفرة ، فإن لحظة في العذاب كالدهر ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ، وإن النار الموجودة في الدنيا على شدتها ، وحرارتها وقسوتها ما هي إلا عبارة عن جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم - والعياذ بالله - .

المطلب الرابع : عذاب الخلود في جهنم

من المعلوم أن النار هي دار العذاب والعقاب ، أعدها الله - سبحانه وتعالى - للكافرين ، والمنافقين والعصاة والمستكبرين عن طاعته وعبادته . وقد ثبت بالكتاب والسنة أن لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم ، والعذاب فيها مختلف الأنواع والأشكال ، وهي موجودة الآن ، باقية لا تنفى ، والكفار وحدهم فيها مخلدون لا يموتون ، ولا يخفف عنهم العذاب.

(1) الإسراء / 79 .

(2) جامع البيان للطبري : 179/15 ، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 56/3 .

(3) ساعات منه قربه من النهار . كلمات القرآن ص 155.

(4) هود / 114 .

قال الطحاوى واصفاً النار : ((إن الله تعالى يخرج منها من شاء ، كما ورد في السنة ، ويبقى فيها الكفار بقاءً لا انقضاء له)) (1).

وقد ثبت خلود الكفار في النار بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة :

1. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (2).

2. وقال - عز وجل - : ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (3).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، بالإضافة إلى الآيات التي تحمل معنى الخلود ، ومنها :

1. قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (4).

2. وقوله عز ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (5) (6).

3. وقوله أيضاً: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ (7) فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (8)﴾ (9).

فهذه الآيات القرآنية الكريمة ، سواء كانت باللفظ أم بالمعنى ، تدل دلالة لا شك فيها أن الكفار يدخلون النار ، ولا يخرجون منها ، فلا تتألمهم رحمة الله - عز وجل - ، كما لا تتألمهم شفاعة أحد ، لا الأنبياء بصورة عامة ، ولا الملائكة ، ولا العباد المقربون ، ولا حتى شفاعة الرسول - ﷺ - وما ذلك إلا جزاءً وفاقاً لما ارتكبت أيديهم ، ولإعراضهم عن دين الحق والهداية ، بل وكرههم للإسلام والمسلمين ، وتمنى زوالهم وحلول الدمار بهم ، فيبقون في النار ليدوقوا وبالها بلا انقطاع ، فلا يوجد حدٌ فاصل

(1) شرح العقيدة الطحاوية ص 427.

(2) البينة / 6 .

(3) البقرة / 217 .

(4) النساء / 56 .

(5) أي لا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً . تفسير السعدي : 663/2 .

(6) الجاثية / 35 .

(7) قيل الجملة على حقيقته ، وقيل الحبال الغلاظ .

انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 219/2 ، وكلمات القرآن ص 108.

(8) ثقب الإبرة . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(9) الأعراف / 40.

يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ
يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١﴾ .

فمن قال إنهم يخرجون منها ، وأن النار تبقى خالية بجملتها ، خاوية على
عروشها ، وأنها تفتنى وتزول ، فهو خارج عن مقتضى المعقول ، ومخالف لما جاء به
الرسول - ﷺ - ، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول ((2)).

وإما الإجماع : فقد حكاه أيضاً القرطبي قائلاً : ((وأجمع أهل السنة على أن أهل
النار مخلدون فيها ، غير خارجين منها ، كإبليس ، وفرعون ، وهامان ، وقارون ، وكل
من كفر ، وتكبر ، وطغى ، فإن له جهنم لا يموت فيها ، ولا يحيا ، وقد وعدهم الله عذاباً أليماً
وأجمع أهل السنة أيضاً على أنه لا يبقى فيها مؤمن ، ولا يخلد إلا كافر جاحد)) (3).

وبهذا تتضح جميع المعاني السابقة وضوح الشمس في رابعة النهار أنه لا يخلد
في النار إلا الكفار ومن شابههم من منافقين ، ومشركين ، ومنكبرين ، أما المؤمنون
فلا يخلدون فيها أبداً ، بل يخرجون منها ، ولو بكلمة التوحيد - لا إله إلا الله - .

ويبين سيد سابق سرَّ خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ((بأن
كلاً من الفريقين كان مصراً على ما هو عليه ، فأهل الجنة كانوا مريدين الإيمان
والطاعة مهما طال لهم الحياة ، وامتد بهم العمر ، وأهل النار كانوا مصرين على
الكفر والعصيان ، ولو عاشوا ملايين السنين ، فكان الجزاء للفريقين على الإرادة والنية
وبمقتضى هذه الإرادة وهذا التصميم كان الخلود ، إذ إن الإيمان والكفر ، وما يستتبعانه
من الأعمال قد تمكن في النفوس تمكناً لا يزول)) (4).

وكي يقطع القرآن الكريم كل طريق عودة على الخالدين في النار فقد صور
حالهم وهم خالدون في النار ، لا يخفف عنهم العذاب ، ولا ينصرون ، بل هم في حزن
وبكاء ، وعويل ، ومقاساة للشدائد ، والأهوال ، والعذاب الشديد ، وفي خضم ذلك يتمنون
العودة للحياة الدنيا مرة أخرى كي يعملوا صالحاً غير الذي عملوا ، ويطيعوا الله
- جلَّ وعلا - كل ذلك بعد صدق الإيمان ، ولكنه أخبرهم بأنهم كاذبون في دعواهم ،

(1) الحج / 19-22 .

(2) التذكرة ، ص 398 .

(3) نفس المرجع ، ص 394 .

(4) العقائد الإسلامية ، ص 307 .

- ولو عادوا للدنيا ، فلن يعملوا غير الذي عملوا في آيات كثيرة ؛ أذكر ثلاثاً منها :
1. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (1).
 2. وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ (2) فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (3).
 3. وقال - عزَّ ذكره - : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (4).

فهذه الآيات القرآنية الكريمة توضح ندم الكافرين والخالدين في النار يوم القيامة مع بكائهم وعويلهم ، ولكن دون فائدة ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ، علم أنهم كاذبون في ندمهم ، وأن دموعهم ليست دموع ندم وتوبة ، بل هي دموع مقاساة العذاب ، وعلم جيداً - جلَّ وعلا - أنهم لو عادوا للدنيا لما فعلوا غير ما فعلوا .

فإذا كان هذا حالهم في الآخرة ، وهم يعرفون ذلك بالتأكيد ، إما عن طريق كتبهم الأصلية - غير المحرفة - أو عن طريق دستور الحياة - القرآن الكريم - فهم يعرفون ما به تماماً مثل المسلمين ، وربما أكثر ؛ لأنهم يدرسونه للتشكيك والطمع فيه دراسة المتمعن ، المتفحص ، ورغم ذلك يصرون على الكفر ، والعناد ، والمعصية ، وكان الأجدر بهم أن يتركوا الكبر والعناد ، ويرجعوا إلى خالقهم الواحد الديان ، تائبين ، نادمين داخلين في دين رسوله الكريم - ﷺ - الذي لن يُقْبَلَ دين سواه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

- 1- قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (5).
- اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك ، وأجرنا من النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار .

(1) الأنعام / 27 ، 28 .

(2) يصيحون ويستغيثون من شدة ما نابهم من شدة وجهه . انظر التحرير والتنوير لابن عاشور : 318/22 .

(3) فاطر / 37 .

(4) الفرقان / 27 - 29 .

(5) آل عمران / 85 .

الفصل الثاني

عقوبات على المجتمع

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : عقوبات إهلاك .

ويشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول : الطوفان

المطلب الثاني : الريح

المطلب الثالث : الصاعقة

المطلب الرابع : الحجارة

المطلب الخامس : الرجفة

المطلب السادس : الصيحة

المطلب السابع : المسخ .

المبحث الثاني : عقوبات دون الإهلاك .

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : تسليط الظالمين

المطلب الثاني : ضيق في الرزق ، وظهور الفساد في الأرض

الفصل الثاني

عقوبات على المجتمع

إن الذنوب ، والآثام ، والمعاصي لا تقع آثارها على مرتكبيها فحسب ، بل قد يقع وبالها، ويتسرب شرها لغير المباشرين لها ،فقد تصيب الصالحين وأكابر أهل الله ، وقد يسري هذا الوبال إلى الحيوان ، الذي لا تكليف عليه بحال .

1. قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (1).

2. وقال أيضاً ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (2).

وقد ورد في الأثر أن زينب بنت جحش - رضي الله عنها- سألت رسول الله

- ﷺ - (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثرت الخبث (3)) (4).

وليس أدل على ذلك من غزوة أحد ، فإن الذين خالفوا أمر رسول الله - ﷺ - هم

الرماة فقط، ولكن الرعب ، والقتل ، والانكشاف ، كان لجميع المسلمين المشاركين في

هذه الغزوة ، حتى رسول الله - ﷺ - لم يسلم من شر تلك المعصية ، فقد أصيبت

رباعيته (5) ، وشج (6) وجهه الشريف ، حتى سال الدم على وجهه الكريم ، وهو أكرم

خلق الله على مولاة .

ولكن من حكمة الله تعالى، وعدله، أنهم يعذبون، أو يموتون في الدنيا بنفس الطريقة، ثم

يبعثون يوم القيامة على نياتهم، ويحاسبون على أعمالهم ،كل حسب عمله ونيته.

إذن فقد يقع العذاب والعقاب على المجتمع كله إذا كثرت الخبث ، والبعد عن الله ،

وارتكاب معاصيه ونواهييه .

من أجل ذلك كان هذا الفصل ينقسم إلى مبحثين :

المبحث الأول : عقوبات إهلاك . المبحث الثاني : عقوبات دون الإهلاك .

(1) الأنفال / 25 .

(2) النحل / 61 .

(3) أي : الفساد /فتح الباري :134/13.

(4) متفق عليه . أخرجه (خ) ،ك(الفتن) ،ب/28(بأجوج ومأجوج) ،4/2228 ،ح(7135). وأخرجه (م) ،

ك(الفتن وأشرط الساعة) 18/339 ، ح(1).

(5) السنن ما بين الناب والثنية . لسان العرب :5/119.

(6) أي جرح . انظر نفس المرجع :7/32 .

المبحث الأول

عقوبات إهلاك

يشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول : الطوفان

المطلب الثاني : الريح

المطلب الثالث : الصاعقة

المطلب الرابع : الحجارة

المطلب الخامس : الرجفة

المطلب السادس : الصيحة

المطلب السابع : المسخ .

المبحث الأول

عقوبات إهلاك

من المسلم به أن الله - تعالى - أهلك أمماً وأقواماً قبلنا ، كانوا أشد منا بأساً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأهناً عيشاً ، فلم يعجزوه - تعالى - بل استأصلهم ، وأبأدهم بالكلية ، ولم يُبقِ منهم أحداً ، وأصبحت قصتهم موضع عبرة وعظة لمن يعتبر ، وأصبحت قصورهم المشيدة خاوية على عروشها ، وأورث مكانهم لغيرهم ، فما بكت عليهم السماء ، والأرض ، وما كانوا منظرين .

وفي هذا المعنى نقرأ العديد من الآيات ، ومنها :

1. يقول - عز وجل - ﴿الْمَ يَرَوُا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (1).

2. وقال أيضاً ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ (2).

وعذاب الله وعقابه للأمم لا يختص بنوع واحد ؛ بل اقتضت حكمة الله - عز وجل - تنويعه ، وتغييره ، فقد يكون صاعقة ، أو غرقاً ، أو ريحاً ، أو خسفاً ، أو قحطاً ، أو أمراضاً ، أو مسخاً في الصور كما حصل لبني إسرائيل ، أو حجارة ، أو رجفة ، أو غير ذلك .

وعندئذ يستيقظ العصاة ، ويهتفون باسم الله متضرعين ، منذللين ، ولكن هيهات !!

فلا ينفعهم إيمانهم ، ولا تقبل منهم توبتهم ، ومن أدلة ذلك :

1. قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (3).

(1) الأنعام / 6 .

(2) الأحقاف / 26 .

(3) غافر / 84 ، 85 .

2. وقال أيضاً عن فرعون ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (1)، فأجابه الله تعالى منكرًا عليه، ووراداً على مقولته ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (2).

ففي تلك اللحظة - لحظة وقوع العذاب - يعترف العصاة بذنوبهم، ويقرُّون على أنفسهم بسوء أعمالهم، فيقولون كما قال تعالى عنهم ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (3).

وفي ذلك عبرة لمن يعتبر، وزجر لمن ينزجر، وما نزول مثل هذه الأنواع من العذاب على هذه الأمة ببعيد أو بمستحيل، فقد أسرفوا في أمرهم، واقترفوا من المعاصي، والآثام، والفجور، والظلم، مما لا يعلمه إلا الله، وابتعدوا عن نهج الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -، مما يجعلهم بحق يستحقون وقوع أقصى أنواع العذاب عليهم بجدارة إن لم تتلهم رحمة الله - عزَّ وجلَّ -، وأسأل الله السلامة .
وأستعرض في هذا المبحث عذاب الأمم الغابرة علَّها تكون عبرة وعظة لهذه الأمة، بحيث يمثل كل نوع عذاب أو هلاك مطلباً، فاحتوى على سبعة مطالب، على النحو التالي :

المطلب الأول : الطوفان

نوح هو ابن آدم أبي البشر - عليهما السلام -، وبينهما عشرة قرون - على أصح الأقوال -، وهو أول رسول بعثه الله - تعالى - إلى أهل الأرض بعد آدم - عليه السلام -، فقد أخبر النبي - ﷺ - كما جاء في حديث الشفاعة - (أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ) (4). الحديث
وقد كان الناس في هذه القرون العشرة على شريعة من الحق، ثمَّ حدث بعد ذلك الشرك، فبعث الله إليهم نوحاً - عليه السلام -؛ ليدعوهم إلى التوحيد، ويترك عبادة الأصنام .

(1) يونس / 90 .

(2) يونس / 91 .

(3) الأنبياء / 97 .

(4) أخرجه (خ) ، ك (أحداديث الأبياء) ، ب/33 (قول الله عزَّ وجلَّ : "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) ، 1025/2 ، ح (3340).

قال تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا (1) بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (2).

وقصة نوح - عليه السلام - مستقاة من القرآن الكريم في عدد من سورته العظيمة (3) ، وكذلك من السنة النبوية المطهرة .

قال تعالى حاكياً قصته - عليه السلام - مع قومه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (4)﴾ .

- كما أسلفت - أن البشر مكثوا على الهدى بعد آدم قروناً طويلة ، ثم اختلفوا ، ووسوس لهم الشيطان فاستمعوا له ، حين مات منهم أناس صالحون ، فحزنوا عليهم ، فأمرهم الشيطان أن يصوروا لهم تماثيلاً ؛ ليذكروهم ، فيخفف عنهم الحزن والعذاب ، فاستجابوا ، وصنعوا التماثيل ، وكانت لنفس الهدف الذي وسوسه لهم الشيطان ، ثم لما هلك الذين صوروا التماثيل ، جاء من بعدهم ، فوسوس لهم الشيطان : أن هؤلاء التماثيل كان آباؤكم وأجدادكم يدعونها ، ويستشفعون بها ؛ فَيَسْقُونَ الْغَيْثَ ، وتزول عنهم الأمراض ولم يزل بهم حتى صدقوه ، وانهمكوا في عبادتهم على الرغم من نصح الناصحين (5) .

(1) أي : حسداً بينهم ؛ لتكالبهم على الدنيا . كلمات القرآن ص 33 .

(2) البقرة / 213 .

(3) وقد وردت قصة نوح في سورة يونس/71-73 ، هود/25-49 ، الأنبياء/76-77 ، الشعراء/105-122 ،

العنكبوت/14-15 ، الصافات/75-82 ، القمر/9-17 وسورة نوح بتمامها .

(4) الأعراف / 59-64 ، والعمين : عمى القلوب عن الحق والإيمان ، فلا يهتدون له .

تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 2/229 .

(5) انظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، (ت) أشرف عبد المقصود ، مكتبة أضواء السلف/الرياض

ط (1) 1422هـ - 2002م ، ص 45 ، 46 .

قال تعالى حاكياً عنهم ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (1).

روى البخاري مُعَقِّفًا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتَسَخَّ العلم عُبِدت) (2).

فكان ذلك سبباً في إرسال الله - سبحانه وتعالى - نوحاً - عليه السلام - ليدعوهم إلى أفراد الله وحده بالعبادة ، وألا يعبدوا معه صنماً ، ولا تمثالاً ، ولا طاغوتاً ، وأن يعترفوا بوحدانِيته ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالى من جاء بعده من الرسل ، قال تعالى ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (3) .
وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (4).

قال السعدي - رحمه الله - : (أخبر تعالى أنه بعث في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت) (5).

صور معاندة قوم نوح - عليه السلام - لدعوته :

دعا نوح - عليه السلام - قومه كما حكى القرآن الكريم بكل أنواع الدعوة ، في الليل والنهار ، وفي السر والجهر ، بالترغيب تارة ، والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح ، ولم يؤت ثماره ؛ بل عاندوا دعوته بشتى الطرق والوسائل ، والتي منها :

أولاً : عدم الانصياع للحق

بالرغم من دعوته لهم باستمرار ، وبشتى الطرق إلا أنهم لم ينصاعوا للحق ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان ، وعبادة الأوثان ، وناصره العداوة في كل وقت وأوان .

(1) نوح / 23 .

(2) أخرجه (خ) ، ك (التفسير) ، ب/1 (وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق) ، 3/1572 ، ح (4920).

(3) الأعراف / 59 .

(4) النحل / 36 .

(5) تفسير السعدي : 2/931 .

قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا (1) ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (2) .

كما أنه رغبهم في خيرَي الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (3) .

أي رغبهم إن أطاعوه ، وأفردوا الله وحده بالعبادة والتوحيد ، وابتعدوا عن الشرك ، أن يغفر الله ذنوبهم ؛ وبذلك تحصل لهم النجاة ، ويدفع عنهم الهلاك إلى وقت محدود ، مقدر بقضاء الله وقدره .

وهذا مما يجب أن يستفيد منه الدعاة ، فيأخذوا منه آداب الدعوة إلى الله ، بأن يدعوا دون ملل ولا سأم ، ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاً ، بكل وقت وبكل حالة يظنون فيها نجاحاً لدعوتهم ، كما يجب عليهم النزول عند حالة المدعو ، فيختاروا لكل ما يناسبه من أسلوب ، بالترغيب بالثواب العاجل ، والسلامة من العقاب ، والتمتع بالأموال والأولاد ، وإدراج الأرزاق تارة ، ويرهيبهم ويحذرهم تارة أخرى من ضد ما رغبهم به إن هم لم ينصاعوا للحق ، وأن يغيروا في أسلوب الخطاب ، باللين والكلام الرقيق ؛ بغية جذب القلوب تارة ، والشدة والقسوة حين لا يجدي إلا هذا الأسلوب ، وأن يدعوا بالجهر ، والعلن ، على حسب ما يقتضيه المقام ، فأحياناً الدعوة والنقد لشخص معين جهاً يؤتي ثماراً عكسية ، لذا يجب على الداعي أن يكون فطناً ، متمرساً ، يعرف أن لكل مقام مقال ، ولكل مقال مقاماً .

ثانياً : عدم اتباع نوح - ﷺ - والتعجب من كونه بشراً

ولم يقف الأمر عند الإيمان فقط ، فهذا أمر يخصهم وحدهم ؛ بل إنهم انتقصوه ، ونالوا منه ، وبالغوا في ذلك ؛ لدرجة أن قال السادة الكبراء منهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (4) .

(1) أي تغطوا بها غطاءً يغشاهم ، بعداً عن الحق ، ويغضاً له . تفسير السعدي : 932/2 .

(2) نوح / 5 - 9 .

(3) نوح / 2-4 .

(4) الأعراف / 60 .

ثم إنهم طلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين - الفقراء - استكباراً منهم ووعدوه إن هو فعل ذلك أن يجلسوا معه ويسمعوه ، فأبى ذلك ، فقال لهم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (1) .
 فقد تمسك - ﷺ - بأتباعه بالرغم من فقرهم ، وورثاته حالهم ، ولم ينخدع بالمظاهر الكاذبة ، والأقوال المعسولة ، لعلمه أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدق العمل ، وليس أقوالاً تنال فقط .

رابعاً : الذين لم يؤمنوا من قوم نوح يوصون من بعدهم بعدم الإيمان واستمرت الأيام ، وتطاولت الأزمان ، والمجادلة بين نوح - عليه السلام - وقومه مستمرة ، قال تعالى ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (2) .
 وخلال هذه المدة الطويلة التي تعتبر أطول مدة لبث فيها رسول مع قومه ، لم يؤمن به إلا القليل منهم ، ويرغم ذلك لم يكتفوا بعدم إيمانهم هم ، بل كانوا يوصون من يأتي بعدهم بعدم الإيمان ، وعدم اتباع نوح - عليه السلام - ، وعدم ترك الشرك بالله والتمسك بالأوثان ، وعدم ترك عبادتها أبداً .

قال تعالى على لسان نوح - عليه السلام - واصفاً حال قومه ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا . وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوءَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (3) .
 قال ابن كثير : ((وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ، ومحاربتة ، ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده ، وعقل عنه كلامه ، وصّاه فيما بينه وبينه ، ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقى ، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ، ولهذا وصفهم تعالى على لسان نوح - عليه السلام - بقوله ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾ (4))) (5) .

(1) هود / 29 .

(2) العنكبوت / 14 .

(3) نوح / 21-23 .

(4) نوح / 27 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ، مكتبة أبو بكر أيوب / نيجيريا ، ط 1421هـ - 2001م ، ص 55 ، 56 .

خامساً : طلب حلول العذاب الذي وعدوا به

واستمر جدالهم ، واستمر عنادهم ، بالرغم من استمرار دعوة نوح - عليه السلام - لهم بكافة الوسائل ، وكانت النتيجة عدم الإيمان ، وعدم ترك الشرك بالله ، ولبيت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل إنه تعداه لدرجة أن وصل إلى تكذيبهم له - ﷺ - ، وعدم تصديق ما توعدّهم به من عذاب؛ إن هم لم ينصاعوا للحق ، ورأوا أن الزمان قد امتدّ بهم ، ولم ينزل شيء مما وعدوا به بالرغم من عدم إيمانهم .

قال تعالى على لسانهم ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (1).

دعاء نوح - عليه السلام - عليهم ، واستجابة الله لدعوته :

حزن نوح - عليه السلام - حزناً شديداً لوصول قومه لهذه المرحلة من العناد والمكابرة ، ولكن بالرغم من ذلك بقي عنده أمل في إيمان البعض منهم ، فأوحى الله إليه : أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ؛ تسلياً له عما صدر منهم في حقه ، فقال له ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (2).

يقول ابن كثير : ((أي : لا يسوءنك ما جرى؛ فإن النصر قريب ، والنبأ عجيب فلا تحزن، ولا يهمنك أمرهم)) (3).

فتأكد نوح عندئذ أنه لن يؤمن معه أي شخص منهم غير من آمن - وهم قليل - وبذلك يتيسر من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنه لا خير فيهم ، فهم الذين خالفوه ، وآذوه ، وكذبوه بكل الطرق من فعال ومقال ، فحينئذ دعا عليهم دعوة غضب بأكثر من صيغة ، وإنما يدل ذلك على ما في قلبه من أسى ، وغضب وثورة ، جرأء عنادهم وتكذيبهم .

1. قال تعالى على لسانه ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ . فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (4).

(1) هود / 32 ، 33 .

(2) هود / 36 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 454/2 .

(4) الشعراء / 118 .

2. وقال أيضاً ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ (1).

3. وقال أيضاً ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (2).

فهذا رسول الله - ﷺ - لم يطلب أجراً ، ولا أي طلب دنيوي ، كل ما أمرهم به ، وطلبه منهم أن يعبدوا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئاً ، فامتنعوا ، وعاندوه ، وآذوه هو وأتباعه ، بالأقوال ، والأفعال سنين طوالاً ، حتى غضب - عليه السلام - وهو الحليم ، والصابر عليهم كل تلك السنين ، فتضرع إلى الله ، ودعا عليهم بأن يهلكهم ويبيدهم ؛ لأنه رأى أنه لا خير فيهم أبداً ، حتى المحتضر منهم لم تتسه سكرات الموت أن يوصي أبنائه ومن خلفه بعدم الإيمان ، فاستجاب الله له ، ولبي له دعوته ، ونصره عليهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؛ لأنهم جمعوا خطايا كثيرة من كفر وجحود ، ودعوة الرسول عليهم .

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (3).

معجزة نوح - عليه السلام - :

عندما وصل الحال لهذه الدرجة ، وعندما أراد الله - سبحانه وتعالى - نصره رسوله وأتباعه أمره بصناعة الفلك - وهي سفينة عظيمة لم يكن لها نظير قبلها - ، وأخيره تعالى أن هذا أمره ولن يرد أبداً ، كما أمره بالألا يراجعهم فيهم أبداً ؛ لأنه قد تدركه رقة على قومه حين يرى العذاب نازلاً بهم ؛ لأن الخبر ليس كالمعاينة .

قال تعالى عن ذلك ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (4) وَوَحِينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِفُونَ﴾ (5).

وبدأ العمل فوراً ، ومرّ عليه قومه فاستهزأوا منه ، قال تعالى ﴿وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ (6) ، فيتوعدهم بالعذاب ، ويخبرهم بأنه

(1) القمر / 10 .

(2) نوح / 26 .

(3) الصافات / 75 .

(4) أي : بعين الله ، وحفظه ، وحراسته . جامع البيان للطبري : 45/12 .

(5) هود / 37 .

(6) هود / 38 .

هو وأتباعه من سوف يسخرون منهم ، قال تعالى ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ
مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (1).

ثم أمره - تعالى - بأنه إذا جاء أمره ، وحل بأسه ، أن يحمل في السفينة من كل
زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها ؛ لبقاء نسلها ،
وأن يحمل معه أهله - أي أهل بيته - ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ممن كان كافراً
فهؤلاء قد وجب عليهم حلول البأس ، ونزول العذاب .

قال تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ (2) ﴿فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ
اِثْنَيْنِ وَأَمَّا لَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
مُغْرَقُونَ﴾ (3).

واختلف المفسرون في معنى التنور ، فمنهم من أبقاه على حقيقته ، فجعل
الفوران خروج الماء من أحد التناوير ، وأنه علامة جعلها الله لنوح - عليه السلام - إذا
فار الماء من تنوره علم أن ذلك مبدأ الطوفان ، فركب الفلك وأركب من معه .

ومنهم : من حمل التنور على المجاز ، ففسره بسطح الأرض ، أي فار الماء من
جميع الأرض ، حتى صار بسطح الأرض كفوّه التنور (4) .
ولكن المراد بالتنور عند السلف : وجه الأرض .

والمعنى : أي ((نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التناوير التي هي
محال النار)) (5) .

ثم أمره - تعالى - أن يحمده على ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه ،
واستجاب دعوته ، وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه ، قال تعالى
﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (6) .

(1) هود / 38 .

(2) الفوران : غليان القدر ، ويطلق على نبع الماء بشدة ، تشبيهاً بفوران القدر إذا غلى ، والتنور : اسم لموقد النار للخبز .
التحرير والتوير لابن عاشور : 70/12 ، 71 .

(3) المؤمنون / 27 .

(4) انظر المحرر الوجيز لابن عطية : 291/7 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ص 58 ، وانظر قصص الأنبياء للسعدي ص 50 .

(6) المؤمنون / 28 ، 29 .

فأمر السماء أن تقلع ، وأن تمسك عن المطر ، وأمر الأرض أن تبتلع ماءها ، وانتهى أمر الكفار والمشركين بالموت غرقاً ، ونجى نوحاً - عليه السلام - ومن معه .

قال تعالى واصفاً حال المشركين بعد الطوفان ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (1).

وقال تعالى ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (2).

وبذلك تكون قد تحققت استجابة الله - تعالى - لدعوة نوح - عليه السلام - فلم يبق منهم أحداً ، بل استأصلهم بالكلية وهم ينظرون .

وهذا جزاء كل من يعصى الله ، ويتكبر عليه ، ويعتو في الأرض فساداً .

وما كان هذا العقاب إلا بسبب كفرهم الغليظ ، وعنادهم البالغ في الدنيا ، وهكذا سيكون طبعهم في الآخرة أيضاً الجحود والنكران .

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(يجيء نوح عليه السلام وأمته ، فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول نعم أي رب ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول محمد - ﷺ - وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله - جل ذكره - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (3).

ثم يَتِمُّ المولى - عزَّ وجل - قصة نوح - عليه السلام - بتضرعه لمولاه ، وهو يناشده في ولده ، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ، متضرعاً ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ (4).

فقال له ربه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (5).

أي : قد سبق عليه القول ؛ لأنه كافر ، وعمله غير صالح .

(1) الأعراف / 64 .

(2) الشعراء / 119-122 .

(3) أخرجه (خ) ، ك (أحاديث الأنبياء) ، ب/3 (قول الله - عزَّ وجل - ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ ، 1025/2 ، ح (3339) ، والآية في البقرة / 143 .

(4) هود / 45 .

(5) هود / 46 .

وهذا عتاب من الله - سبحانه وتعالى - لرسوله - ﷺ - ، وتعليمه إياه أن
الرابطة بين الخلق يجب أن تكون على اعتبار الإيمان ، وليس النسب والقرابة .
قال تعالى له : ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ﴾ (1).

وسرعان ما عاد نوح - عليه السلام - إلى رشده وعقله ، وعلم خطأه ، ولم
يجادل بالباطل أكثر ؛ بل طلب العفو والمغفرة والرحمة من خالقه .
قال تعالى على لسانه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (2).

وهذا يجب أن يكون حال كل مسلم أن ينقاد ويستسلم للحق بمجرد أن يعلم أنه
على خطأ ، وأنه مخالف للصواب ، وينصاع فوراً للحق ، وألا يجادل ، أو يكابر ، أو يعاند
لمجرد أن يثبت أنه كان على صواب ، بالرغم من أنه في قرارة نفسه متأكد أنه على
خطأ .

ثم جاء الأمر الإلهي بالهبوط من السفينة .
قال تعالى ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ
مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (3).

قال ابن كثير - رحمه الله - : ((خبر تعالى عما قيل لنوح - عليه السلام -
حين أرسى السفينة على الجودي من السلام عليه ، وعلى من معه من المؤمنين ، وعلى
كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ، وكذلك يخبر عن العذاب لكل كافر وكافرة
إلى يوم القيامة)) (4).

ويقول أيضاً : ((هذا أمر لنوح - عليه السلام - لما نضب الماء عن وجه
الأرض وأمكن السعي فيها ، والاستقرار عليها ، أن يهبط من السفينة التي كانت قد
استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي ... اهبط سالماً مباركاً عليك ، وعلى

(1) هود / 46 .

(2) هود / 47 .

(3) هود / 48 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 459/2 .

أمم ممن سيولد بعد من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نساءً ولا عقباً سوى نوح - عليه السلام - قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (1).

فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم، ينسبون إلى أولاده الثلاثة: سام - حام - يافث (2).

وبذلك انطوت هذه الصفحة، وكان ذلك أول تدمير لقرية كاملة، انقرض منها جميع الكافرين، والمشركين، والعاصين، ولم يبق غير المسلمين.

وكان من المفروض، أن يكون ذلك أول تدمير وآخره، لو كانت هناك آذان تسمع، وعيون ترى، وعقول تعقل، ولكن لما صمت الآذان، وعميت العيون، وأقفلت العقول، فإن الأسباب التي أدت للدمار أول مرة، تكررت مرات أخرى، فتكرر الانتقام مرات أخرى بصور مختلفة - والله المستعان - (3).

المطلب الثاني : الريح

بعد إهلاك قم نوح، كان جميع البشر من أولاده الثلاثة - كما سبق آنفاً - .

وقد نسب كل من العرب وبني إسرائيل إلى ولده (سام)، وكان هود عليه السلام من أحفاده.

وكان قومه يسمون عاداً الأولى، ويسمون إرم، قال تعالى ﴿الْمَ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (4).

وكانوا عربياً يتكلمون اللغة العربية، وكانوا يسكنون في منطقة تسمى الأحقاف (5)، قال تعالى ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ (6).

(1) الصافات / 77 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 63 .

(3) القصة مستفادة بالإضافة إلى كتب التفسير القديمة والحديثة، من البداية والنهاية : 93/1-112 .

(4) الفجر / 6 ، 7 .

(5) هي جبال من الرمل في اليمن، بين عَمَانَ وحضرموت، يقال لها : الشهر . انظر التحرير والتنوير لابن

عاشور : 45/26 .

(6) الأحقاف / 21 .

وكانوا يتقنون في بناء المساكن والبيوت ،فقد كانوا ينحتونها في الجبال ،ولكن كان أحسنها وأحبها إلى نفوسهم الخيام ،وهي ليست خيام عادية ،بل ضخمة فخمة ، قال تعالى ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (1) .
يقول ابن كثير - رحمه الله - : (كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد) (2) .

وكانت أجسامهم ضخمة ،طوال ،بيض ،قال تعالى على لسان هود وهو يخاطب قومه ﴿وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (3) .

بعد الطوفان بدأ العرب ينتشرون مرة أخرى من المنطقة التي عاش فيها نوح - عليه السلام - ،وهي شمال الشام ،وفلسطين ،وشمال الجزيرة ،ثم انتقلوا إلى جنوب الجزيرة ،وكانوا كلهم على التوحيد ،إلى أن انحرفت عاد ،ووسوس لهم الشيطان ،فبدأوا يعبدون الأصنام مرة أخرى ،فهم أول من عبد الأصنام بعد قوم نوح .

وقد وصف الله - تعالى - التطور العمراني والحضارة التي كانوا يتميزون بها على لسان هود - عليه السلام - فقال تعالى ﴿أَتَيْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ﴾ (4) آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (5) .

أي : فكنتم تبثون علامات على كل طريق عال ،وعلى كل مدخل بين الجبال ، وتصنعون المصانع والمباني الشاهقة ؛ بغية الخلود ،والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد (6) ، فكانوا هم المسيطرين على كل البشر ؛ حيث أمدهم الله - تعالى - بكل وسائل النعيم من أموال وجنات وأولاد ، ووسائل القوة ،.... وغيرها .

ولكنهم لم يحمدوا الله ،ولم يقوموا بحقه من العبادة والطاعة ،بل استكبروا في الأرض بغير الحق - ودائماً كان الكبر أساس كل بلاء - .

(1) الفجر / 7 ، 8 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 507/4 .

(3) الأعراف / 69 .

(4) الريح : هو كل مكان مشرف من الأرض مرتفع ،أو طريق ،أو وادٍ . جامع البيان للطبري : 115/19 .

(5) الشعراء / 128 ، 129 .

(6) انظر جامع البيان للطبري : 115/19 ، وتفسير السعدي : 226/2 .

أجراً على ما يدعوهم إليه ، بل أجره على الله وحده - كما قال نوح عليه السلام - ؛ خشية أن يكون المال هو المانع، فقال ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (1).

وهذا أيضاً مما يجب أن يستفيد منه الدعاة والوعاظ، فيجب عليهم التنوع في الأسلوب حسب حال المخاطب والمدعو، وعدم الاكتفاء بنوع واحد في الدعوة، حتى ولو كان هو الأصلح في نظرهم، بل يجب أن يخوضوا جميع الطرق، ويجربوا جميع الوسائل؛ عسى الله أن يجعل القبول والهداية في واحدة منها .

ثانياً : اتهامه - عليه السلام - بالجنون

ولم يكتفوا بما رموه به من السفاهة والكذب ، بل قالوا له : إنه لا دليل على ما يقول ، وإنهم يرون أن بعض الآلهة غضب عليه ، فأصابه في عقله ، فاعتراه جنون بسبب ذلك .

قال تعالى ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (2).

فتحدهم قائلاً لهم جهاراً ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (3).
أي قال لهم متحدياً : إن آلهتكم لا تنفع ولا تضر ، إنما هي حجارة ، جماد ، وإن كنتم كاذبين في أنها تنفع وتضر .

فهاأنذا أمامكم قد كفرت بها ، ولا أبالي ، فاجعلوها وأنتم معها تضرني ، أو تكيد لي ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً ، فإنني قد توكلت على الله ، وهو حافظي ، ومؤيدي .
فهذا الموقف يدل على قوته ، وصلابته ، ورسوخ قدمه - ﷺ - ، فقد سفه أحلامهم وسب آلهتهم وهم أهل القوة والبطش ، والجبروت دون خوف منهم ، ولا من قوتهم ، ولا من آلهتهم ، لذا فإنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إليه بسوء .

(1) هود / 51 .

(2) هود / 54 .

(3) هود / 54-56 .

وهذا أيضاً يجب أن يستفيد منه الدعاة ، وهو طالما أنهم على الحق ، وهم مؤمنون بهذا الحق ، فلا ينبغي أن يثيهم ثانٍ ، وألا يخافوا من تهديد أعدائهم ، فصاحب الحق قوي ولو كان ضعيفاً .

ثالثاً : نفي النبوة عنه - ﷺ -

ولم يكتفوا بما وصفوه به سابقاً ، بل لجأوا إلى حيلة أخرى ، وعناد وجحود آخر فقالوا له : نحن نستبعد أن يبعث الله رسولاً بشرياً ، إنما نريد رسولاً من الملائكة ؛ كي نؤمن به .

قال تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ (1).

أي أنكروا أن يكون رسولاً لكونه يأكل ويشرب مثلهم ، ويمشي في الأسواق فهم يريدون رسولاً من الملائكة لا يفعل كل هذه الأمور .

رابعاً : إنكارهم للبعث

وما ذلك إلا ليطعنوا في صميم ما جاء به من الحق ، وحتى يسببوا إحباطاً لأتباعه ، بأنه لا جزاء لكم على ما تعانون معه .

قال تعالى ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ (2).

أي : أيعدكم بعد أن تموتوا وتتمزقوا ، وتصبحوا تراباً وعظاماً ، أن الله سوف يبعثكم أحياء مرة أخرى ، وهذا - في زعمهم - بعيد جداً ، لأنهم قاسوا قدرة الله على قدرتهم ، ونسوا أو تناسوا خلقه لهم أول مرة ، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على إعادتهم بعد البلى ، وهو أهون عليه ، وكلاهما عليه هين (3).

وهذا كله كذب ، وكفر ، وجهل ، وضلال ، وأقوال باطلة بلا برهان .

(1) المؤمنون / 33-35 .

(2) المؤمنون / 35 .

(3) انظر تفسير السعدي : 122/2 .

خامساً : إعلانهم عدم الإيمان صراحة ، وطلب ما وعدهم به من عذاب

وتمادوا أكثر وأكثر في غيهم وضلالهم ، وعنادهم ، فأعلنوا صراحة عدم إيمانهم وعدم تركهم ما كان يعبد آباؤهم من أصنام ، فقالوا له ﴿ أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (1).

أي : أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونخالف آباءنا وأجدادنا ، فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب ، والنكال ، فإننا لا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، ولا نصدقك .

يقول القرطبي : ((ثم طلبوا العذاب الذي خوفهم به ، وحذرهم منه)) (2).

فردّ - عليه السلام - عليهم حين طلبوا العذاب قائلاً : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (3).

أي : قال لهم : استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، وتوجه إليهم سائلاً : أنتراضون عبادة الله وحده بعبادة أصنام نحنموها ، وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ، أنتم وآباؤكم ، ما نزل الله بها من سلطان ، وأبينم قبول الحق ، وتماديتم في الباطل ؛ فانظروا الآن عذاب الله الواقع بكم ، وبأسه الذي لا يرد ، ونكاله الذي لا يصد .

وبذلك يكونون قد نالوا منه ، لدرجة أنهم أخرجوه عن حلمه ، وولينه ، وورفته المعهودة عنه ، فرفع يديه متضرعاً ، ودعا الله وحده ، وطلب نصرته ، ومعاونته ، قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ . قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (4).

وفعلاً استجاب الله - سبحانه وتعالى - لدعاء نبيه - عليه السلام - فانقم منهم .

انتقام الله - عز وجل - من قوم هود - عليه السلام - :

عاقبهم الله - تعالى - على استهزائهم بنبيهم - عليه الصلاة والسلام - ،

وإنكارهم وجحودهم لخالقهم ، واستكبارهم على عباد الله المؤمنين بنوعين من العذاب :

(1) الأعراف / 70 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 229/7 .

(3) الأعراف / 71 .

(4) المؤمنون / 39 ، 40 .

أولاً : العذاب بالصيحة

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (1).

يقول ابن كثير - رحمه الله - موقفاً بين نوعي العذاب : ((لا يمنع من اجتماع الصيحة ، والريح العاتية عليهم)) (2).

ويقول أيضاً ((فالظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد)) (3).

إذن لا تعارض بين هذه الأنواع من العذاب ، فإنهم لما خالفوا أمر الله - تعالى - وارتكبوا محارمه ومعاصيه ، غضب الله عليهم ، وأحلَّ بهم لعنته .

قال تعالى ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عْتِيدٍ . وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (4).

وقد عاقبهم بالصيحة أولاً ، ثم بالريح العقيم التي اجتثتهم ، وقطعت رؤوسهم عن آخرهم ، وأهلكتهم بالكلية .

ونجى الله هوداً - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين ، بالرغم من وجودهم هناك ساعة الريح ، التي دمرت كل مكان إلا المكان الذي به هود وأتباعه .

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (5).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((اعتزل هود - عليه السلام - في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليهم الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة)) (6).

(1) المؤمنون / 41 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص 74 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 252/3 ، 253 .

(4) هود / 59 ، 60 .

(5) هود / 58 .

(6) قصص الأنبياء لابن كثير / ص 74 ، وقصة هود : مستفادة من البداية والنهاية : 113/1-123 باختصار .

وبذلك أهلكهم الله ، ولم يبق منهم أحداً ، وما أعجزه ذلك ، ولم يُنظروا لتوبة ، ولم يمهلوا لتدارك تقصيرهم ، فما حزننا عليهم السماء ، ولا الأرض ، عندما أخذهم العذاب ؛ وما ذلك إلا لهوان شأنهم على الله - عز وجل - .

ثانياً : العذاب بالريح

عذبهم الله - سبحانه وتعالى - بريح ليست كمثلها ريح في التاريخ ، حيث انقطع عنهم المطر ، فبدأ الشجر يذبل ، والثمار تجف ، والحشائش تذبل ، والقحط والدمار يحلُّ بهم من كل جانب ، فبدأوا يتلهفون إلى المطر ، ويطمعون فيه ، وفي يوم من الأيام - وبعد هذه السنين الطوال - عندما جاء موعد العذاب ، أرسل الله السحاب في السماء فاستبشروا وفرحوا وظنوا أنه قد جاء المطر ، والخير ، والحياة ، ولكن الحقيقة غير ما ظنوا .

ويعصور لنا القرآن الكريم هذا المشهد في عدة آيات أكتفي بذكر أربعة منها :

1. قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (1).

يقول أبو السعود : ((جاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا بحيث لا يرى إلا مساكنهم، فلو حضر أي أحد إلى بلادهم لا يرى إلا مساكنهم)) (2).

2. وقال - عز وجل - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ (3) (4).

3. وقال - تعالى - ﴿فَنَزَلْنَا فِيهَا صرْعًا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (5).

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((أرسل عليهم ريحاً باردة شديدة في يوم كان نحسه ودماره مستمراً؛ لأنه اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي.... وأن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط إلى

(1) الأحقاف / 24 ، 25 .

(2) تفسير أبي السعود : 86/8 بتصرف يسير .

(3) أي : أصول بلا رؤوس ، كلمات القرآن : ص 366 .

(4) القمر / 19 ، 20 .

(5) الحاقة / 7 .

الأرض ،فتلثغ رأسه ،فببقي جثة بلا رأس)) (1).
 4. وقال أيضاً ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ (2) . مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (3)﴾ (4).
 أي : أرسل الله تعالى عليهم ريحاً خالية من المنافع التي تُرجى من وراء الريح من إثارة السحاب ،وسوقه،ومن إقح الأشجار ،... فهي ريح لا نفع فيها ،بل هي ضارة (5).

المطلب الثالث : الصاعقة

مرت الأيام بعدما أهلك الله - تعالى - عاداً الأولى ،قوم هود - عليه السلام - وجاءت بعدهم ثمود - أو عاد الثانية - ، قوم صالح - عليه السلام - .
 وكانوا يقطنون في اليمن ،ثم انتقلوا إلى شمال الجزيرة ،وسكنوا في منطقة تُسمى الحجر (6) ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ (7) المرسلين﴾ (8).
 ورثت ثمود عن عاد صناعة نحت المساكن ، وبذلك كانوا خلفاءهم في الحضارة ، والعمران ، والقوة ، والبأس .
 يقول البيومي : ((فكانوا يبنون في الأرض قصوراً ،وينحتون في الجبال بيوتاً وكهولاً يسكنون فيها ؛ لأن الأبنية والسقوف كانت تقنى قبل فناء أعمارهم)) (9).
 ويفهم من ذلك أنهم امتازوا بطول العمر .

-
- (1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 264/4 .
 (2) أي : المهلكة لهم ،القاطعة لنسلهم ، كلمات القرآن ص 357 .
 (3) أي : كالشيء البالي المفتت الهالك ، نفس المرجع ونفس الصفحة .
 (4) الذاريات / 41 ، 42 .
 (5) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور : 11/27 .
 (6) الحجر : هو المعروف بوادي القرى ،وهو بين المدينة والشام ،وهو المعروف اليوم باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك . التحرير والتنوير لابن عاشور : 72/14 ، 73 .
 (7) وهم : ثمود ،وكانوا ينزلون الحجر ،وهو المكان المحجور ،أي ممنوع من الناس ،بسبب اختصاص به ،أو شق من الحجارة ؛ لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتاً محكماً . نفس المرجع ونفس الصفحة .
 (8) الحجر / 80 .
 (9) قصص القرآن (دروس وعبر للدعوة والدعاة) لمحمد البيومي ،مكتبة الإيمان/المنصورة ، ط(1) 1420هـ - 1999 م ، ص 109 .

قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (1).

أي أن الله - تعالى - أنعم عليهم كما أنعم على عاد الأولى ، وجدد لهم التجربة وأعطاهم الفرصة؛ لعلهم يتعظون بما حصل لعاد ، لكنهم كفروا رغم كل هذا ، وبطروا النعم ، وعبدوا غير الله ، فأرسل الله إليهم أخاهم (2) صالحاً من قبيلتهم ، يعرفون حسبه ونسبه ، وصدقه وأمانته ، وكان ذا عقل ، وعلم ، وفصاحة ، وكانوا يأخذون رأيه في كثير من الأمور ، وكانوا يتأملون أن يكون له شأن بينهم ، فلما دعاهم إلى الله ، وطالبهم بالإيمان ، وعبادة الله وحده ، وترك ما سواه ، رفضوا دعوته ، ونفروا منه ، واستكبروا عليه .

قال تعالى على لسانهم ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا
أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (3).

وقصة صالح - عليه السلام - مع قومه ذكرت في عدد من سور القرآن الكريم (4) قال تعالى ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ
رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ . قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ
عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا
تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي
أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي
دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَأَخَذَ الَّذِينَ

(1) الأعراف / 74 .

(2) أي : صاحبهم ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 228/7 .

(3) هود / 62 .

(4) وردت في سور : الأعراف / 73-79 ، الحجر / 80-84 ، الإسراء / 59 ، الشعراء / 141-159 ،

القمر 3-32 ، الشمس / 11-15 .

ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّ تَمُودَ
كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لَتَمُودَ ﴿١﴾ .

يخبرنا تعالى في كتابه العزيز أن صالحاً - عليه السلام - بدأ يدعو قومه
بعبادة الله وحده، دون يأس أو ملل، كما هو حال جميع الرسل .

قال تعالى على لسانه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (2) .
وأخبرهم بأنه لا يريد منهم أجراً على ما يدعوهم إليه ، وإنما يرجو الثواب من
عند الله تعالى .

قال تعالى على لسانه ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (3) ، ولكنهم لم يسمعوا له ، ولم يستجيبوا ، بل صموا آذانهم ، وأقفوا
عقولهم ، ورفضوا دعوته وعارضوها بشتى الطرق والوسائل .
مظاهر رفض الدعوة :

عارضت تمود دعوة صالح - عليه السلام - كغيرها من الأمم السابقة ، بل
زادت عليهم ، وتمادت أكثر منهم ، فكان من أهم مظاهر رفضهم ما يلي :

أولاً : وصفه - ﷺ - بالكذب

تعجبت تمود من أن يكون صالح - عليه السلام - هو المختار من
بينهم ، بالرغم من أنه كان عندهم مرجواً ، وكانوا يتوقعون له
شأناً عظيماً بينهم ، ولكنه عندما جاءهم بالحق والهدى لم يصدقوه ، بل
وصفوه بالكذب .

قال تعالى على لسانهم ﴿أَوَلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ (4) .
أي : استغربوا ، واستنكروا أن يكون قد خصه الله - تعالى - بينهم بالوحي
والنبوّة ، وفيهم - على رأيهم - من هو أحق منه بها ، ثم جزموا بأنه كذاب ، معجب
بنفسه ، يرى لنفسه ما ليس لها (5) .

(1) هود / 61-68 .

(2) هود / 61 .

(3) الشعراء / 145 .

(4) القمر / 25 . والأشهر : أي المتكبر . كلمات القرآن ، ص 367 .

(5) انظر فتح القدير للشوكاني : 126/5 .

والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبهم؛ ليؤمنن به، وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح - عليه السلام - إلى صلاته، ودعا الله - عزَّ وجل -، فتحرَّكت تلك الصخرة، ثم انصدعت (1) عن ناقة يتحرك جنينها كما سألوا، فأمن البعض القليل، ولم يؤمن الكثير.

فإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على الكبر، والعناد، فهم قد رأوا أمام أعينهم ما طلبوا، وما طلبوه رغبة في اطمئنان قلوبهم لما يقول، ولكن طلبوه على وجه التحدي والتعجيز، وحينما رأوا ذلك رأى العين، آمنوا في قرارة أنفسهم لتأكدهم أنه رسول حق - بالرغم من تأكدهم من قبل ذلك -، ولكن منهم من استطاع أن يعلن ذلك للملأ، ومنهم من بقى أيضاً في موقف الضعف والعناد، والجبروت فجدها بعد أن استيقنتها نفسه، ولو كانوا فعلاً لهم قلوب تعقل، لما استطاع أحد أن يصددهم عن اتباع الحق، وترك الباطل، ولكنه الكفر بكل عصر وأوان.

ثم قال لهم صالح - عليه السلام - هذه ناقة الله (2)، وهي دليل على صدق ما جنَّتم به.

قال تعالى على لسانه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ﴾ (3).

وانفق معهم على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت تشرب ماء البئر يومها ذلك، وكانوا يرفعون حاجتهم من الماء يومهم لخدمهم، وكانوا يشربون في يومها من لبنها كفايتهم.

قال تعالى ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِهَا شَرِبَ وَأَنْكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (4).

فلما طال عليهم هذا الحال، اجتمع أشقياءهم، وانفق رأيهم على أن يعقروها ليستريحوا منها، ويتوفر لهم ماؤها، وزين لهم الشيطان أعمالهم.

(1) أي: انشقت/نفس المرجع ص358.

(2) إضافة تشريف وتعظيم وتخصيص، على جهة إضافة الخلق إلى الخالق، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 230/7.

(3) الأعراف / 73.

(4) الشعراء / 155.

قال تعالى ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ (1).

وهذا قمة الجهل ،والعناد ،فالعهد بينهم وبين الأقسام السابقة المباداة قريب ، وقد علموا أنهم لما استعجلوا العذاب استحقوه ،ونالوه ،ورغم ذلك كرّروا التجربة ، وحق عليهم ما استحقوا.

وقد اختلف في عاقر الناقة على أقوال كثيرة ذكرها علماء التفسير ، أصحها ما جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي زمعة أنه قال : (خطب رسول الله ﷺ - فذكر الناقة وذكر الذي عقرها ، فقال : "إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم (2) منيع في رهطه (3)) وذكر الحديث .

ومفاد القصة : أن القوم لما ضجروا من الناقة ،اتفقوا على قتلها ،ليستريحوا منها ، واستعد لذلك تسعة أشخاص ،وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (4).

ولا يعني ذلك أنهم هم المفسدون فقط في المدينة ،بل جميع أهل الكفر مفسدون وإنما خص هؤلاء التسعة بالذكر ؛لأنهم هم الذين سعوا لعقر الناقة ،وتعاونوا عليه ،وهم الذين تحالفوا على قتل صالح - عليه السلام - (5).

وهؤلاء التسعة قد زينوا وحسنوا لباقي القبيلة عقر الناقة ،فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم ،وكان أشقاها من قام بعقرها بالفعل حين أمره بذلك فأتهم لهم ،وهو "قدار ابن سالف" وهو المذكور في عدد من آيات القرآن الكريم ، والتي منها :

1. قوله تعالى ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى (6) فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (7)﴾ .

(1) الأعراف / 77 .

(2) أي : خبيث ، شرير ، مفسد . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 232/7 ، وصحيح مسلم بشرح النووي : 185/17 .

(3) أخرجه (م) ،ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، 317/17 ، ح(2855).

(4) النمل / 48 .

(5) انظر جامع البيان للطبري : 209/19 .

(6) أي : طاوعهم على عقرها . التحرير والتنوير لابن عاشور : 200/27 .

(7) القمر / 29 ، 30 .

2. وقال -جل ذكره- ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم (1) ربهم بنذبتهم فسواها . ولا يخاف عقباها﴾ (2).

تحدث هذه الآيات الكريمة عن عاقر الناقة ، وقد تبين أن الذين اتفقوا وخططوا لقتلها تسعة أشخاص ، ولكن الذي نفذ بالفعل هو أحدهم ، وهو أشقى أهل الأرض على الإطلاق ؛ لأنه صمّ أذنيه عن تحذير صالح - عليه السلام - لهم ، حين قال : احذروا عقر الناقة التي جعلها الله لكم آية عظيمة ، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها بأن تعقروها .

وقد قصت لنا السنة النبوية المطهرة قصة هذا الرجل فيما رواه عمار بن ياسر - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال له ولعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ((ألا أحدثكما بأشقى الناس ، رجلين ؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي (3) الحديث .

ولم يجزم المفسرون بسبب تسميته بأحيمر ثمود .

قال ابن عاشور : ((يريد أحمر ثمود ؛ لأن ثمود إخوة عاد ، ولم أقف على سبب وصفه بأحمر ، وأحسب أنه لبياض وجهه)) (4) .

وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة ، وقصصاً شتى في الكيفية والهيئة التي عقرت عليها الناقة ، ولكن يصف السعدي جميع هذه القصص بأنها من الإسرائيليات ، التي يجب أن تنتزه عنها كتب التفسير .

يقول السعدي - رحمه الله - : ((هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله ، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه ، بل لو كانت صحيحة ، لذكرها الله تعالى ؛ لأن فيها من العبر والعجائب والآيات ما لا يهمله تعالى ، ويدع ذكره ، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله ، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات)) (5) .

(1) أي : أطبق عليهم العذاب . تفسير أبي السعود : 165/9 .

(2) الشمس / 12-15 .

(3) أخرجه (حم) ، 360/4 ، ح (18283) ، وصححه الألباني في صحيحه ، 505/1 ، ح (2589) .

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور : 201/27 .

(5) تفسير السعدي / 595/1 .

ورغم قرب الموعد إلا أنهم استمروا على جحودهم ، وتكذيبهم للرسول - ﷺ -
ففكروا بالخلاص منه ، وقرروا أن يلحقوه بالناقة .

قال تعالى واصفاً حالهم ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ
مَا شَهِدْنَا مَهْلِكِ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (1).

أي أن هؤلاء التسعة نفر اتفقوا على وجه الخفية حتى من قومهم ، وأقسموا فيما
بينهم لبعضهم البعض أن يقتلوا صالحاً - عليه السلام - وأهله ليلاً ، ثم يحلفوا
لأوليائهم إذا طالبوهم بدمائهم أنهم لم يقتلوهم ، فينكروا ذلك ، وينفوه ، وبذلك يتخلصون
منه ، ولا يمسُّهم سوء .

ولكن سبحان من وسع سمعه كل شيء ، وتبارك الله وهو خير الماكرين ، فجعل
- تبارك وتعالى - كيدهم في نحورهم .

قال تعالى ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا
فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (2).

قال الطبري - رحمه الله - : ((غدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في
الأرض بصالح بمسيرهم إليه ليقتلوه ، وصالح لا يشعر بذلك ، فاجتمعوا ، وقالوا
لبعضهم : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ذلك)) (3).
فانتقم الله - تعالى - منهم ، وأهلكهم عن آخرهم ، وقيل في كيفية إبادتهم أيضاً
روايات إسرائيلية كثيرة ننأى عنها ، وكل ما يهمنا معرفته أنهم مكروا مكرًا بصالح
وأهله ، ومكر الله تعالى مكرًا ، لنصرته - ﷺ - وتيسير أمره ، وإهلاك أعدائه ، وكان
مكر الله هو الغالب ، فأبادهم جميعاً ، والجزاء من جنس العمل .

أما باقي القوم فحينما أشرق الشمس ، وجاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ،
فلما صاح الملك من السماء ، رجفت بهم الأرض من أسفلهم من شدة الصيحة ، ففاضت
الأرواح وزهقت النفوس ، وسكتت الحركات ، وخشعت الأصوات وحقَّت الحقائق

(1) النمل / 49 .

(2) النمل / 50-52 .

(3) جامع البيان للطبري : 211/19 .

فأصبحوا في دارهم جاثمين ، جنثاً لا أرواح فيها ، ولا حراك بها (1) ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (2) .
وبذلك انطوت هذه الصفحة السوداء من فوق الأرض ، وأهلك قوم صالح - عليه السلام - كما أهلك الأقوام الطاغية الكافرة ، الجاحدة قبلهم ، ولم يعجزوا الله - عزَّ وجل - حينما ساروا على نفس نهج من كان قبلهم ، بل زادوا عليهم ، فقوم صالح - عليه السلام - هم أول قبيلة يسألون رسولهم أن يأتيهم بمعجزة ، أو أمر خارق يدل على صدقه ؛ كي يؤمنوا به ويتبعوه ، وتطمئن قلوبهم ، وجاءهم ما طلبوا ، فلما رأوه رأى العين ، كفروا به ، وكذبوه أيضاً ، وتجاوزوا ذلك بأن قضوا على معجزة الله في أرضه ، وحاولوا قتل نبيهم - ﷺ - فاستحقوا بذلك العذاب كما استحقه من كان قبلهم ، بل وأكثر منهم لأنهم طغوا أكثر ، وجحدوا أكثر .

نوع العقاب الذي حلَّ بتمود :

- ورد نوع الهلاك والعقاب الذي حلَّ بتمود في القرآن الكريم بعدة أسماء .
1. قال تعالى ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (3) .
 2. وقال تعالى ﴿وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (4) .
 3. وقال - عزَّ وجل - ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (5) .
 4. وقال - عزَّ من قائل - ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (6) .
 5. وقال ﴿وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (7) .

(1) انظر أضواء البيان للشنقيطي : 243/2 ، وتفسير السعدي : 595/1 .

(2) النمل / 51 .

(3) الأعراف / 73 .

(4) هود / 64 .

(5) الأعراف / 78 .

(6) هود / 67 .

(7) الشعراء / 157 .

6. وقال أيضاً ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (1).

يقول عبد الوهاب النجار موقفاً : ((وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة ، وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة ، وتارة بالطاغية ، وتارة بالصيحة ، وكلُّ صحيح ؛ لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم ، وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلال ، وقد تكون في مكان ، ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر)) (2).

ولا تعارض بين هذه التسميات ، وإضافة إلى ما قاله النجار أقول : وهذا العذاب الذي حلَّ بهم كان عذاباً أليماً شديداً عليهم ، كما كان قريباً حيث جاءهم بعد ثلاثة أيام فقط من جريمتهم وعقرهم للناقة ، وكان يوم العذاب يوماً عظيماً ، لشدة هوله .

أما صالح - عليه السلام - ، والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب ، ثم تولى عنهم حزينا ، وقال مخاطباً إياهم ، وموبخاً ، ومعاتباً لهم : إنني أبلغتكم رسالات ربي وأوامره ، وحاولت إصلاحكم وإنقاذكم من العذاب بكافة الطرق والوسائل وحرصت على هدايتكم ، واتباعكم الحق ، وترك الكفر والباطل ، ولكنكم لم تستمعوا لي ، ولم تتبعوني ، بل اتبعتم طرق الشيطان ، فاستحققتم ما حاق بكم .

قال تعالى على لسانه وهو يخاطبهم ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (3).

المطلب الرابع : الحجارة

حكى لنا القرآن الكريم قصة إبراهيم - عليه السلام - حينما كسر أصنام قومه فغضبوا لذلك غضباً شديداً ، وقرروا أن يلقيه في النار ؛ كي يقضوا على دعوته ، وتم لهم ذلك ، ولكن قوة الله تعالى غلبتهم ، فكانت النار معجزة له - ﷺ - ، فلم تمسه بسوء ، بل كانت برداً وسلاماً عليه ، كما كانت سبباً في دخول كثير ممن شاهد الحادثة في دينه وكان أهم أتباعه لوط ، وهو ابن أخيه - عليهما السلام - .

(1) فصلت / 17 .

(2) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ، دار إحياء التراث العربي / بيروت ط(3) - بدون تاريخ - ص 66 والقصة مستفادة من البداية والنهاية : 152/1-159 .

(3) الأعراف / 79 .

قال تعالى ﴿فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ (1).

وقد توفى أبوه وهو صغير ، فترى في بيت جده مع عمه إبراهيم - عليه السلام - ، وهاجر معه.

قال تعالى على لسانه ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (2).

ولما رجعوا من مصر أمره عمه إبراهيم - عليه السلام - أن يذهب إلى المؤنفة - سدوم - (3) ؛ ليدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك ما دونه ، ولكن لم يؤمن له أي أحد قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (4).

يعني بيت لوط - عليه السلام - (5).

أي حينما أراد الله - تعالى - إهلاكهم أخرج المؤمنين منها ، فلم يكن فيها غير بيت واحد مؤمن بالله ، هو بيت لوط - عليه السلام - فقط ، باستثناء زوجته ، فقد كانت على دين قومها .

أما باقي القوم فكانوا كافرين ، فجرة ، ومن أشد الناس فسقاً ، حيث إنهم ابتدعوا فاحشة ، لم يسبقهم إليها ، ولم يفعل مثلها ، أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور شهوة من دون النساء ، وهو ما يسمى باللواط .

وقد وردت قصة لوط مع قومه في عدد من سور القرآن الكريم (6).

قال تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

(1) العنكبوت / 26 .

(2) العنكبوت / 26 .

(3) سدوم : هي بلدة من أعمال حلب ، وهي مدينة من مدائن قوم لوط ، كان قاضيها يقال له سدوم .

انظر معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، (ت) فريد عبد العزيز الجندي

دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، ط(1) 1410هـ - 1990م ، 226/5 .

(4) الذاريات / 35 ، 36 .

(5) جامع البيان للطبري : 4/27 ، وتفسير السعدي : 742/2 .

(6) مثل سورة هود/69-83 ، الحجر / 51-77 ، الشعراء/160-175 ، النمل/54-58 ، العنكبوت/28-35 ،

الصفافات/133-138 ، الذاريات/31-36 ، القمر / 33-40 .

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ .
فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (1) . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿2﴾ .

بدأ لوط - عليه السلام - بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم
عن ارتكاب الفواحش جميعها ، فضلاً عن الفاحشة التي ابتدعوها ، ولم يسألهم أجراً ،
ولا حتى ثناء ، إنما طلب أجره من خالقه - جلَّ وعلا - ، قال تعالى على لسانه ﴿وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (3) .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، ولم يؤمنوا به ، ولا حتى رجل واحد منهم ، بل استمروا
على حالهم ، وساروا على نهج الأمم السابقة ، من مقاومة الدعوة ، ومحاربة الرسول .
صور مقاومتهم للدعوة :

أولاً : هموا بإخراج الرسول - ﷺ - وأهله

بالإضافة إلى عنادهم وعدم إيمانهم ، لم تستطع أعينهم أن ترى إنساناً يوحد الله
- تعالى - ، ولا آذانهم أن تسمع ذكر الله - عزَّ وجلَّ - ؛ لذا قرَّروا إخراج لوط - عليه
السلام - ومن آمن معه من أهل بيته - وهم قلة - من بين أظهرهم ، وما كانت
جريمتهم إلا أنهم أناس لا يرتكبون الفواحش والآثام .

قال تعالى ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ (4) .

وهذا يدل على أن كل دعوة حق لا بد وأن تبدأ غريبة ، منبوذة ، فهؤلاء
المجرمون أرادوا إخراج المؤمنين - على قلتهم - لأنهم أناس لا يحبون الفاحشة ،
ولا يرتكبونها ، ويوحدون الله - عزَّ وجلَّ - ، فهؤلاء جريمتهم أنهم أناس يسيرون
على طريق الحق والصواب ، والبعد عن الفواحش ، وكان الأصل أن يكون العكس
تماماً فيكون الإخراج لمن حارب دين الله جهاراً نهاراً ، وارتكب الآثام والفواحش ،
والمنكرات ، والله نسأل أن تكون العزة له ولدينه ، ولرسوله ، ولسائر المؤمنين .

(1) أي : من الباقيين في الهلاك . أضواء البيان للشنقيطي : 27/3 .

(2) الأعراف / 80-84 .

(3) الشعراء / 164 .

(4) النمل / 56 .

ثانياً : استعجال حلول العذاب

وهذا يتضمن تكذيبهم له - ﷺ - ، فبالإضافة إلى كونهم لم يؤمنوا ، ولم يستمعوا للنصائح ، بل عاندوا ، وهموا بإخراج المؤمنين ، أضافوا لذلك أنهم كذبوا ما توعدّهم به لوط - عليه السلام - من عذاب إن هم استمروا على كفرهم وعنادهم ، فطلبوا أن يأتيهم بما وعدهم من عذاب إن كان صادقاً .

قال تعالى على لسانهم: ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (1).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((أرسل الله لوطاً إلى قومه ، وكانوا مع شركهم ، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور ، وقطع السبيل ، وأفشوا المنكرات في مجالسهم ، فنهاهم لوط عن هذه الأمور ، وبيّن لهم قبائحها في نفسها ، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة فلم يرعوا ، ولم يذكروا ، وما كان جوابهم إلا أن طلبوا حلول العذاب بهم)) (2).

دعاء لوط - عليه السلام - على قومه :

عندما وصل بهم الحال لهذا الحد ، أيس منهم لوط - عليه السلام - ، وعلم أنه لا خير فيهم أبداً ، وغضب منهم غضباً شديداً ، فدعا رب العالمين ، وإله المرسلين ، أن ينصره على القوم المفسدين .

1. قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (3).

2. وقال أيضاً ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (4).

استجابة الله - تعالى - لدعوة نبيه - ﷺ - ومراحلها :

عندها استجاب الله - تعالى - لدعوة رسوله الكريم - عليه السلام - ، فبدأ

الانتقام على مراحل :

1. أرسل - تعالى - ملائكته العظام لإبراهيم - عليه السلام - ؛ ليبشروه أولاً بإسحق ، وليخبروه ثانياً بما جاءوا من أجله ، وهو تدمير قوم لوط - عليه السلام - وإهلاكهم .

(1) العنكبوت / 29 .

(2) تفسير السعدي : 311/2 .

(3) العنكبوت / 30 .

(4) الشعراء / 169 .

قال تعالى على لسان إبراهيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوِّمَةً (1) عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (2)﴾ (3) .

2. وبدأ إبراهيم - عليه السلام - يجادلهم ، سائلاً إياهم عن مصير لوط - عليه السلام - .

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ (4) .
3. وحينما استمر جدال إبراهيم - عليه السلام - جاءه الأمر بالإعراض عن الجدل ؛ لأن إهلاك قرية لوط أمر الله تعالى ، غير مردود .

قال تعالى ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (5) .

ثم طمأنته الملائكة بأن لوطاً وأهله لن يمسه سوء أبداً .

قال تعالى ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (6) .

وبذلك استحققت هذه القرية العقاب ، ووحان وقته ، الذي لا يؤجل ، جزاءً بما كسبت أيديها .

4. ثم فصلت الملائكة - عليهم السلام - من عند إبراهيم - عليه السلام - ، حتى أتوا أرض سدوم عند غروب الشمس في صورة شبان حسان ؛ اختباراً أخيراً من الله لقوم لوط ؛ ولإقامة الحجة عليهم ، وسماع شهادة نبيهم عليهم .

5. وصلت الملائكة إلى لوط - عليه السلام - ، وطلبوا منه أن يضيفهم فساء بهم ووقع في حيرة ، وخشي إن لم يضيفهم هو أن يضيفهم غيره ، وخشي عليهم من قومه ؛

(1) أي مُعَلِّمَهُ ، جامع البيان للطبري : 3/27 .

(2) يعني : للمتعددين حدود الله ، الكافرين به من قوم لوط ، نفس المرجع ونفس الصفحة .

(3) الذاريات / 31-34 .

(4) العنكبوت / 31 ، 32 .

(5) هود / 76 .

(6) العنكبوت / 32 .

لأنه يظنهم بشراً .

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (1) .

يقول الشنقيطي واصفاً الحال : ((ذكر الله - جلَّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن لوطاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما جاءت رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساءً عظيمة ضاق صدره بها ، وسبب استيائه ، وضيقة بهم ذرعاً ، وقوله هذا يوم عصيب ؛ أنه ظن أنهم ضيوف من بني آدم ، كما ظنهم إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - ، وظن أن قومه سينتهكون حرمة ضيوفه ، فيفعلون بهم فاحشة اللواط)) (2) .

6. ثم ذهب بهم إلى بيته دون أن يُعلم بهم أحداً ، فخرجت امرأته ، وأخبرت قومها ، فجاءوا يهرعون إليه مستبشرين .

7. قال تعالى ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (3) .

حاول لوط - عليه السلام - صدهم عن ضيوفه ، وطلب منهم الزواج الشرعي العفيف الطاهر ، فهو خير لهم من ارتكاب الفاحشة والمنكر .

قال تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (4) .

وقال أيضاً في موضع آخر ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (5) .

معنى قول لوط - عليه السلام - ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾

اختلف العلماء في المراد بقول لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لقومه

﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ على أقوال :

أحدها : أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط ، ولم يُرد إمضاء ما قال .

أي أنه أراد فقط أن يشغلهم عن ضيفه بقوله هذا ، دون نية منه بتنفيذ ما قال ،

وهذا نظير عرض سليمان للمراتين حين اختصمتا في الولد ، فقال اتتوني بالسكين أشقه

(1) هود / 77 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 24/3 بتصرف .

(3) هود / 78 .

(4) هود / 78 .

(5) الحجر / 71 .

بينكما ، ومن المؤكد أنه لم يرد شقّ الطفل، وورد ذلك في صحيح البخاري : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها ، إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى ، إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود ، فأخبرناه ، فقال : آتوني بالسكين أشقّه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها فقضى به للصغرى) (1) .

الثاني : أن المراد بناته لصلبه، والمعنى دعوا فاحشة اللواط، وأزوجكم بناتي، وعلى هذا فتزويج الكافر من المسلمة كان جائزاً في شرعه .

وهذا ليس مستغرباً ، فقد كانت آسية بنت مزاحم زوجة لفرعون ، وهي من النساء الأربع اللاتي كمل إيمانهنّ ، وفي المقابل فإن زوجة لوط نفسه ، وكذا امرأة نوح كانتا كافرتين بل إن النبي - ﷺ - قد زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان كافراً ، وقد أُسرَ يوم بدر والسبب في ذلك أن تحريم زواج الكافر بالمسلمة والمسلم بالكافرة لم يكن نازلاً ، كما لم يكن في شريعة الأولين، ولا عجب في هذا ، فقد قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (2) .

الثالث : أن المراد بالبنات :جميع نساء قومه ؛ لأن نبي القوم أبّ ديني لهم .

مناقشة الآراء :

الرأي الثاني : أي المراد بناته لصلبه - لا يمكن أن يكون مراداً بأي حال من الأحوال ؛ لأنه كما حكى لنا القرآن الكريم أن رجال قوم لوط - عليه السلام - جاءوا يهرعون إليه ، وهذا يدل على الكثرة ،ومن المعلوم أن لوطاً - عليه السلام - ليس له بنات بعدد الرجال ،فهل يعقل أن يكون المراد أن يزوج بناته لعدد كبير من الرجال ، هذا لا يعقل .

ولو كان مراده أن تتزوج كل واحدة رجلاً منهم ،فبأبي الرجال ماذا يفعلون ، لا بد وأن يظل الباب مفتوحاً أمامهم لارتكاب ما جاءوا من أجله - والعياذ بالله - .

(1) أخرجه (خ) ،ك(أحاديث الأنبياء) ،ب/40(قول الله تعالى(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب).....)،

1065/2،ح(3427).

(2) المائدة / 48 .

أما الرأي الثالث : وهو أن المراد بالبنات : جميع نساء قومه ، فهو أيضاً بعيد من وجهين :

(أ) إن النبي أب ديني للمؤمنات ، وليس أباً للكافرات ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (1) . وهذا ما اختاره الإمام الطبري - رحمه الله - (2) .

وقد صرح تعالى في الذاريات : أن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد هم أهل بيت لوط - عليه السلام - .

قال تعالى ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (3) .

(ب) ومما يدل على بُعد هذا الرأي أيضاً : أنه - عليه السلام - أشار قائلاً : هؤلاء بناتي ، مما يدل على وجودهن أمامه ، وكما يروي المفسرون أن الرجال هم الذين هرعوا إليه ، لا النساء ، فالنساء إذن ظلت في البيوت بعيداً عنهم ، ولا يجوز أن يقول هؤلاء لشيء غائب (4) .

وعليه فإن أقرب رأي للصواب هو الرأي الأول ، وهو أنه ما قال لهم ذلك إلا مراوغة لهم ؛ حفاظاً على ضيوفه ، لعلمه أن بناته ممتنع منألهن ، ولا حق لهم فيهن ، ولهذا قالوا له فيما حكاه القرآن : ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (5) ، أي الفاحشة (6) .

8. عندما شهد عليهم بأنه لا يوجد فيهم رجل واحد فيه خير ، وعنده عقل ، بل جميعهم سفهاء ، فجرة ، كفرة ، كما قال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْقِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (7) . لم يؤثر فيهم هذا الكلام ، ولم يصرفهم عما جاءوا من أجله ، بل استمروا في المحاولة والجِدِّ فيها .

(1) الأحزاب / 6 .

(2) انظر جامع البيان للطبري : 110/12 .

(3) الذاريات / 36 .

(4) انظر أضواء البيان للشنقيطي : 26/3 ، 27 ، وقصص الأنبياء للسعدي ص 132 ، 133 .

(5) هود / 79 .

(6) انظر تفسير السعدي : 811/1 .

(7) هود / 78 .

9. عندئذٍ شعر لوط - عليه السلام - بضعفه ، وقلة عشيرته ، وتمنى أن تكون له قوة وعشيرة ينصرونه عليهم ؛ ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب .

قال تعالى على لسانه : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (1).

أي : لأحلت بكم العذاب ، وهذا بحسب الأسباب المحسوسة ، أن يأوي الإنسان إلى من هو أقوى منه ، ومعلوم أن أقوى الأركان هو الله (2).

10. فلما رأت الملائكة - عليهم السلام - ضيقه ، وكربه ، وهمه ، أخبرته بأنهم رسل الله - تعالى - ؛ وأنهم جاءوا لينتقموا منهم على أفعالهم ، وينصروه عليهم كما تمنى .

قال تعالى على لسان الملائكة ﴿قَالُوا يَا لَئِذَا لَوْ طُ إِذَا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (3).

أي : لن يصلوا لك بسوء ، ولن يضروك أبداً ، بل أنت من ستري عذابهم .

بداية حلول العقاب الرباني بالفعل :

1. إذا اشتد الكرب جاء الفرج ، فحينما ضاق صدر لوط - عليه السلام - واشتد كربه وهمه ، فرج الله تعالى عنه ، فطمأنته الملائكة - عليهم السلام - أنهم لن يصلوا إليه بسوء ، إضافة إلى ذلك أنهم سوف يدمرونهم بالكلية بناءً على أمر الله - جل وعلا - ، وبدأ العقاب يحل بالفعل .

خرج جبريل - عليه السلام - أو أحد الملائكة الذين يقفون بالباب ليمنعهم من الدخول على لوط ، فضرب وجوههم بطرف جناحه ، فطمس أعينهم ، فكان هذا عذاباً معجلاً لمن حضر منهم إلى لوط ليرأودوه عن ضيوفه .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَأَوْدُوهُ عَنِ ضَيْفِهِ فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي وتذراً﴾ (4).

2. ثم أمرته الملائكة أن يسري هو وأهله من آخر الليل ، وقت السحر .

(1) هود / 80 .

(2) انظر تفسير السعدي : 811/1 .

(3) هود / 81 .

(4) القمر / 37 .

قال تعالى ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (1) ، وأمروه أن يمشي من ورائهم ، وهم أمامه .

قال تعالى: ﴿فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (2) .

ويبين القرطبي - رحمه الله - السر في ذلك قائلاً : ((أي كن من ورائهم؛ لئلا يتخلف منهم أحد، فيناله العذاب)) (3) .

3. كما أمروه عند سماع صوت العذاب الذي يحل بالعصاة الفاسقين ، أن لا يلتفت منهم أحد ، وليكن همهم النجاة ، ووعدوه بأن ينجو هو وأهله إلا امرأته ، فإنه مصيبتها من العذاب ما أصابهم ، لأنها شاركتهم في الإثم ، ودلتهم على أضياف لوط - عليه السلام - .

قال تعالى: ﴿فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ (4) .

أما البغاة ، العصاة ، العتاة فسوف يهلكهم الله أجمعين ، ويقطع دابرهم .

قال تعالى ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ (5) .

يقول السعدي : ((فكان لوطاً استعجل ذلك" فقيل له ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾)) (6) ، (7) .

فعداب قوم لوط - عليه السلام - كان في الصبح ، ويشهد لذلك بالإضافة للآية السابقة عدد من الآيات :

(أ) قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (8) .

(1) القمر / 34 .

(2) الحجر / 65 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 43/10 .

(4) هود / 81 .

(5) هود / 81 .

(6) هود / 81 .

(7) تفسير السعدي / 811/1 .

(8) الحجر / 66 .

(ب) وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ (1).

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((أي أن صيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشراق، وهو وقت طلوع الشمس)) (2).

4. استجاب لوط - عليه السلام - للأوامر، فخرج هو وأهله، ولم يتبعهم من قومه رجل واحد، وحينما أشرقت الشمس جاءهم من أمر الله ما لا يُرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصد.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (3) مَنْضُودٍ (4) * مُسَوِّمَةً (5) عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (6).

يقول المفسرون: اقتلعهن جبريل - عليه السلام - بطرف جناحه من قرارهن - وكن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم، ثم أمطرت عليهم الحجارة (7).

وقد وردت قصة إهلاكهم بالحجارة في غير موضع من القرآن الكريم بالإضافة لما سبق.

1. قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (8).

2. وقال - عز وجل - ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ (9).

يعني أنه قلبها، فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاهها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة، مسومة، مرقومة، على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من

(1) الحجر / 73 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 29/3 .

(3) أي : حجارة من النار الشديدة الحرارة .

(4) أي : متتابعة ، تتبّع مَنْ شَدَّ عن القرية .

(5) أي : معلّمة ، عليها علامة العذاب والغضب . تفسير السعدي : 811/1 .

(6) هود / 82 ، 83 .

(7) انظر القصة في جامع البيان للطبري : 128-105/12 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 87-76/9 ، وتفسير

القرآن العظيم لابن كثير : 466-463/2 ، وتفسير السعدي : 810/1 ، 811 .

(8) الذاريات / 33 ، 34 .

(9) النجم / 53 - 55 .

الحاضرين منهم في بلدكم ، والغائبين عنها من المسافرين ، والنازحين والشاذين منها⁽¹⁾ .
 أي أنه لم يسلم منهم أحد ، حتى المسافرين ، والمهاجرين ، والنازحين عن الديار
 لم يشفع لهم ذلك ، ولم يعصمهم من العذاب ؛ لأنهم كفروا بالله ، وكذبوا رسوله ، وآذوا
 أتباعه من أهل بيته ، إضافة لارتكابهم تلك الفاحشة ، وبذلك يكونون قد استحقوا العذاب
 بجدارة ، فالأقوام السابقة لهم عذبت ، ودمرت لكفرها بالله ، وتكذيبها الرسول فقط ، أما
 هؤلاء فارتكبوا ما ارتكب سابقوهم ، وزادوا ، فاستحقوا ما حاق بهم .

أما بالنسبة لزوج لوط - عليه السلام - فقد أصابها ما أصاب قومها ؛ لأنها
 كانت على دينهم ، وكانت عيناً لهم تخبرهم بمن عنده من الضيفان .

1. قال تعالى عنها: ﴿إِلَّا امْرَأَتُكَ إِنَّمَا مَصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾⁽²⁾ .
2. وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
 عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ
 مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾⁽³⁾ .

أجمع المفسرون على أن الخيانة هي الخيانة في الدين ، أي لم يتبعا زوجيهما
 في الإيمان ، لا خيانة النسب والفرش - حاشا وكلا - فإنه ما بغت امرأة نبي قط ،
 وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغياً .

ويؤكد ذلك تحريم التزوج من نساء النبي - ﷺ - بعده ؛ لأن ذلك يؤذيه ، قال
 تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ
 كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾⁽⁴⁾ .

فإذا كان سؤالهن من غير حجاب يؤذيه - ﷺ - ، وإذا كان نكاح زوجاته من
 بعده يؤذيه ، وهو عند الله عظيم ، فكيف إذا كان الأمر غير السؤال ، وغير الزواج
 الشرعي ، وحصل في حياته ، وأمام سمعه وبصره ؛ فإن ذلك لا يمكن أن يكون أبداً ،
 فإن مكانة الأنبياء عند الله أعظم من ذلك⁽⁵⁾ .

(1) انظر تفسير السعدي : 772/2 .

(2) هود / 81 .

(3) التحريم / 10 .

(4) الأحزاب / 53 .

(5) انظر جامع البيان للطبري : 216/28 ، 217 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 192/18 ، وأضواء البيان

للشنقيطي : 236/9 ، وتفسير السعدي : 896/2 .

ولهذا يكون قوم لوط عذبوا بأكثر من نوع من العذاب :

1. طمس الأعين :

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ (1).

2. الصيحة :

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ﴾ (2).

ولا يوجد تعارض في ذلك ، فإن الذين جاءوا يهرعون إلى لوط - عليه السلام - يريدون فعل الفاحشة مع ضيوفه ، هم الذين طمس الله أعينهم خاصة ، وأما باقي القوم ، فإنهم عذبوا بالصيحة أولاً ، ثم بالحجارة .

يقول ابن كثير - رحمه الله - موضحاً : ((جاءهم صوت قاصف عند شروق الشمس ، مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها ، وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم)) (3).

وهكذا دمرت سدوم ، وتركت أثراً للعالمين ؛ ليحذروا عذاب الله ، وقد ورد ذلك في عدد من الآيات :

1. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (4) . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (5) . إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (6) .

2. وقال - جل ذكره - : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا

تَعْقِلُونَ﴾ (7) .

3. وقال أيضاً: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (8) .

(1) القمر / 37 .

(2) الحجر / 73 ، 74 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 571/2 .

(4) أي : المتأملين ، المتفكرين .

(5) أي : طريق ثابت معلّم مسلوک . انظر تفسير السعدي : 914/1 .

(6) الحجر / 75-77 .

(7) الصافات / 137 ، 138 .

(8) الذاريات / 37 .

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال : أقبل علينا رسول الله - ﷺ - فقال : (يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا) (1) الحديث .

المطلب الخامس : الرجفة

ظل الوضع بعد أن أهلك الله قوم لوط - عليه السلام - هادئاً مستقراً ، إلى أن جاء قومٌ عرب، فسكنوا مدينة مدين (2) ، وسموا باسمها ، أهل مدين ، وكانوا في رغد من العيش؛ حيث إن الله - سبحانه وتعالى - قد منَّ عليهم من فضله، فكانوا أهل تجارة وأموال ، ولكن بدلاً من أن يشكروا الله فضله ، فقد عبدوا معه غيره ، حيث عبدوا الأيكة (3) من دونه - جلَّ وعلا - .

ويحكي لنا الله - سبحانه وتعالى - قصة أصحاب الأيكة في أكثر من موضع في كتابه العزيز (4) ، قال تعالى ﴿كَذَّبُ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتُوفُّوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبَلَةَ الْأُولِينَ (5) . قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ (6) إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . فَكَذَّبُوهُ

(1) أخرجه (جه) ، ك (الفتن) ب/22 (العقوبات) ، 370/2 ، ح(3246) ، وصححه الألباني في صحيحه ، 1321/2 ح(7978) .

(2) مدينة مدين :مدينة على بحر القلزم ، محادية لتبوك ، بين المدينة والشام ، قريباً من بحيرة قوم لوط - عليه السلام - ، وبه البئر التي استقى منها موسى - عليه السلام - لبنات شعيب . انظر معجم البلدان : 92/5 .

(3) يعني: الشجر الملتف . فتح القدير للشوكاني : 114/4 .

(4) وردت القصة في الأعراف/85-93 ، هود/84-95 ، الحجر/78-79 .

(5) يعني : الأمم المتقدمة . نفس المرجع ص115 .

(6) أي : جانباً من السماء وقطعة منها . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 146/13 .

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ (1) إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (2) .

تمادى أهل مدين في كفرهم وشركهم ، فأرسل الله - سبحانه وتعالى - إليهم شعيباً - عليه السلام - .

أصول دعوة شعيب - عليه السلام - :

إن حاصل ما أمر به شعيب - عليه السلام - قومه ينحصر في أربعة أصول :

أولاً : الأمر بالتوحيد

بدأ شعيب - عليه السلام - يدعو قومه إلى توحيد الله - عزَّ وجلَّ - ، وبنهاهم عن الشرك به ، مبيناً وموضحاً لهم سوء عاقبة ما هم عليه من شرك ، وتكذيب ، وجحود .

قال تعالى على لسانه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (3) .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((أي يا قوم هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بينة من ربكم ، وقد أقام الله الحجج والبيينات على صدق ما جئتكم به)) (4) .

ثانياً : المحافظة على المعاملات المالية

لم يقف قوم شعيب - عليه السلام - عند شركهم بالله - عزَّ وجلَّ - ، بل وبالرغم من أن الله - سبحانه وتعالى - قد وسَّع عليهم في رزقهم ، وأعطاهم من فضله الكثير ، إلا أنهم لم يشكروه ، بل كانوا يظلمون الناس بأخذ أموالهم دون أدنى حق ، وكانوا يَغشُونهم في المعاملات فيبيخسونهم أشياءهم ، ولا يستوفون لهم الكيل ، فأمرهم شعيب - عليه السلام - بشكر الله - عزَّ وجلَّ - ، وبالعَدل في المعاملات ، وترك ما في أيدي الناس .

(1) الظلة : السحاب . فتح القدير للشوكاني : 115/4 .

(2) الشعراء / 176-191 .

(3) الأعراف / 85 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 237/2 بتصريف يسير .

قال تعالى على لسانه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (1).

ويوضح القرطبي - رحمه الله - معنى هذه الآية الكريمة قائلاً: ((البخس : النقص ، وهو يكون في السلعة بالتعيب والتزهد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتتيال في التزبد في الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة على السنة الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم -)) (2).

وهذا الأصل يجب أن يكون أصل التعامل بين المسلمين في تجارتهم ، وجميع معاملاتهم المادية ، وبذلك تروج الأموال وتزداد ؛ لأنه إذا طبّق هذا الأصل تشيع الأمانة بين الناس ، وتزداد الثقة تبعاً لذلك ، فيكون لذلك الأثر الإيجابي في زيادة المنتوجات ، وتحسين الدخل ، وإذا حصل ذلك تولد منه الحب والود ، والإخاء بين الناس ، مما يكون له الأثر الطيب في تحسين وضع جميع الأمة ، لا الأفراد فقط .

فما أوجدنا لتطبيق مثل هذا الأصل في مجتمعنا هنا خاصة ، في ظل أوضاعنا السياسية والاقتصادية الصعبة - والله المستعان - .

ثالثاً : حفظ نظام الأمة ومصالحها

كما نهى - ﷺ - قومه عن كل ما يؤدي إلى إفساد ما هو صالح على وجه الأرض ، وأمرهم بالصلاح ، والإعمار فيها .

قال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (3).

يقول ابن عاشور - رحمه الله - : ((فذكرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزهاً عن أن يخالطه فساد ، فإنهم إن أفسدوا في الأرض أفسدوا مخلوقات كثيرة ، وأفسدوا أنفسهم في ضمن ذلك الإفساد، والبعدية في قوله ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعدية حقيقية ؛ لأن الأرض خلقت من أول أمرها على صلاح ، قال الله - تعالى - ﴿وَجَعَلَ

(1) الأعراف / 85 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 239/7 .

(3) الأعراف / 85 .

فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارِكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» (1) ، أي : على نظام صالح بما تحتوي عليه ، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض ، وخلق له ما في الأرض ، وعزَّز ذلك النظام بقوانين وضعها الله على أسنة المرسلين ، والصالحين ، والحكماء من عباده ، الذين أيدَّهم بالوحي والخطاب الإلهي ، أو بالإلهام والتوفيق ، والحكمة ، فعملوا الناس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النافع ، وإزالة ما في بعض النافع من الضر ، وتجنب ضُرِّ الضار ، فذلك النظام الأصلي ، والقانون المعزَّز له ، كلاهما إصلاح في الأرض ؛ لأن الأول إيجاد الشيء صالحاً ، والثاني جعل الضار صالحاً بالتهذيب أو بالإزالة (((2) .

رابعاً : حرية الفرد في اختيار عقيدته

كما نهاهم - عليه الصلاة والسلام - عن القعود بالطرقات ، والصدِّ عن سبيل الله من أراد الدخول فيه ، حيث إنهم كانوا يجلسون بالطرقات ، ويرون الداخل على شعيب - عليه السلام - فيتوعدونهم بالعذاب الشديد ، إن هم آمنوا به ، واستجابوا له .
قال تعالى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ (3) .

يقول ابن عاشور : ((نهى عن التعرُّض للناس دون الإيمان ، فإنه بعد أن أمرهم بالإيمان بالله ، وما يتطلبه من الأعمال الصالحة ، وفي ذلك صلاح أنفسهم ، أي أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه ؛ ذلك أنهم كانوا يصدون وفود الناس عن الدخول إلى المدينة التي كان بها شعيب - عليه السلام - لئلا يؤمنوا به ، فالمراد بالصراط الطريق الموصلة إلى شعيب - عليه السلام -)) (4) .

ثمَّ يستطرد السعدي - رحمه الله - موضحاً ، ومبيناً الأصل والواجب ، المفروض أنهم كانوا فعلوه قاتلاً : ((وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ،

(1) فصلت / 10 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 174/8 ، 175 .

(3) الأعراف / 86 .

(4) نفس المرجع السابق : 246/8 .

ورحمهم بها أعظم رحمة ، وتتصدون لنصرته ، والدعوة إليها ، والذب عنها ، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها ، الصادين الناس عنها ، فإن هذا كفر بنعمة الله ، ومحادة لله وجعل أقوم الطرق وأعدلها ماثلة ، وتشنعون على من سلكها)) (1) .

وهذا ما حصل بين المسلمين اليوم ، ولكن بصورة مغايرة قليلاً ، فنرى بعض المغرضين يجلسون في الطرقات ، محاولين تلويث سمعة أهل الدين ، وأهل العلم ، والوعاظ والخطباء بشتى الوسائل ، دون خوف ولا حياء ، وما ذلك إلا لهدم الدين ؛ لأن العامة إن فقدت الثقة بمن يروونه أهلاً ومحلاً للدين والعلم الشرعي ، فإن تفتهم بالدين كله تتزعزع تبعاً لذلك .

هذه هي أصول دعوة شعيب - عليه السلام - التي دعا لها قومه ليلاً ونهاراً ، وفي كل الأحوال ، ولكن دون مجيب ، وصدق القائل :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

لذا حاول - عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام - أن يغير في أسلوب دعوته لعل إحداهما يفلح في إصلاحهم ، وفلاحهم .

أساليب دعوة شعيب - عليه السلام - :

انتهج - عليه السلام - كما أسلفت عدة أساليب ، محاولاً أن يصل من خلالها إلى قلوبهم ، فاستخدم أسلوب الترغيب تارة ، وأسلوب الترهيب تارة ، ودمج الأسلوبين سوياً تارة أخرى .

أولاً : أسلوب الترغيب (2)

بدأ - عليه السلام - دعوته بالترغيب ؛ لتيقنه أن الترغيب له آثار إيجابية أكثر ، وتمثل هذا الأسلوب في عدد من المواقف :

1. حينما أمرهم بالعدل في المعاملات ، وزجرهم عن البخس فيها ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، وبيّن لهم أن ذلك هو الأفضل ، إذ به الخير والصلاح ، والفلاح .

قال تعالى على لسانه ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تفسدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (3) .

(1) تفسير السعدي : 597/1 .

(2) سيأتي تعريفه في بداية الباب الثالث - بإذن الله - .

(3) الأعراف / 85 .

ويوضح ابن عاشور - رحمه الله - وجه الخيرية في ذلك قائلاً : ((وإنما كان ما ذكر خيراً ؛ لأنه يوجب هناء العيش ، واستقرار الأمن ، ووصفاء الوُدِّ بين الأمة ، وزوال الأحقاد المفضية إلى الخصومات والمقاتلات ، فإذا تمَّ ذلك كثرت الأمة ، وعزت وهابها أعداؤها ، وكثر مالها بسبب رغبة الناس في التجارة والزراعة ؛ لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله .

وفيه خير الآخرة ؛ لأن ذلك إن فعلوه امتثالاً لأمر الله تعالى ، بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله ، فنجوا من العذاب ، وسكنوا دار الثواب)) (1).

إذن فالخيرية في الآية الكريمة تشمل خيري الدنيا والآخرة . ولكنهم قابلوا ذلك الخوف عليهم ، والحب والحنان لهم ، والعطف والشفقة ، بالكره والبغض ، وردوا عليه بالاستهزاء والتقص والتهم .

قال تعالى ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (2) .

يقول الطبري - رحمه الله - : ((فإنهم أعداء الله قالوا ذلك استهزاءً به ، وإنما سفهوه وجهلوه بهذا الكلام)) (3).

2. حينما استمر تحقيرهم له ، واستهزأؤهم به وتكذيبهم إياه - عليه السلام - ، بقولهم له فيما حكاه القرآن عنهم ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ (4).

ظناً منهم أن القوة ميزان الصدق في القول ، وحينما هددوه بالرجم لولا خوفهم من قومه ، وممن خلفه ، قائلين فيما حكاه عنهم القرآن الكريم ﴿ وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزِينَ ﴾ (5) .

لم يغضبه - عليه السلام - ذلك كله ، بل تلطف معهم في العبارة ، وحاول ترغيبهم بأمر آخر ، وهو أنه سوف يلتزم ويفعل كل ما يأمرهم به ، وينتهي ويبتعد ، ويترك كل ما ينهاهم عنه دون ترفع عليهم .

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 245/8 .

(2) هود / 87 .

(3) جامع البيان للطبري : 135/12 .

(4) هود / 91 .

(5) هود / 91 .

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (1).

يقول عبد الوهاب النجار : ((ويسميه المفسرون خطيب الأنبياء ؛ لحسن مراجعة
قومه ، وبراعته في إقامة الحجة عليهم ، ودحض حججهم)) (2).

وهذا يجب أن يكون دستور الحياة ، وسنن ومنهاج الدعوة لدى الدعاة ، والوعاظ

من ناحيتين :

(أ) أن الداعي إلى الله - تعالى - ، يجب أن يتحلى بالصبر ، والحلم ، وحسن الخلق ،
فيقابل إساءة المسيئين بالصفح ، والتسامح ، وحسن التصرف والرد . كما يجب ألا تمنعه
هذه الإساءة من الاستمرار في الوعظ ، والتبیین . وليعلم جيداً أنه كلما أودي في
سبيل الله ، كلما كان أجره عند الله أعظم ، وفرصة مشابهته بالصالحين أكبر .

(ب) كما يجب على الدعاة أن يلتزموا بما يأمرون الناس به من أقوال وأفعال ، فإن
من أكبر دواعي نجاح الدعوة أن يكون الداعي قدوة للمدعوين ، إن أمرهم بشيء كان
أول الملتمزين به ، وإن نهاهم عن شيء يكون أول المنتهين عنه . قال الشاعر :

فإنك إذما تأت ما أنت أمر به تُلَف من إياه تأمر آتيا (3)

أما إن خالفت أفعاله أقواله فإنه ينال مقت الله - عز وجل - .

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ
اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (4).

كما يكون سبباً في نفور الناس منه ، حتى ولو كان كلامه كله صحيح ، وبذلك
يحكم على دعوته بالفشل ، وبالتالي يهدم مصداقيته ، وبشتت أتباعه .

وقد ذمَّ الله - تعالى - هؤلاء الذين تخالف أقوالهم أفعالهم ، ووصفهم بعدم العقل .

قال تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا

تَعْقَلُونَ﴾ (5).

(1) هود / 88 .

(2) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 145 .

(3) نقلاً عن أضواء البيان للشنقيطي : 35/3 .

(4) الصف / 2 ، 3 .

(5) البقرة / 44 .

كما ورد في الصحيحين عن أسامة بن زيد أن رسول الله -ﷺ- قال : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه (1) ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية) (2) .

وقد أحسن الشاعر حين قال :

لا تنة عن خلقٍ وتأتى بمثله عازٌ عليك إذا فعلت عظيم

وقد أجاد من قال :

وغير تقى يأمرُ الناسَ بالتقى طبيبٌ يداوي الناسَ وهو مريضٌ (3)

ثانياً : مزج أسلوب الترهيب والترغيب معاً

حينما لم يجد معهم أسلوب الترهيب ، حاول أن يشد معهم قليلاً ، فانقل إلى أسلوب آخر ، وهو مزج الترهيب بالترغيب ، عسى أن يكون به الخير ، ومن ورائه الإجابة ، وذلك في عدة مواقف ، أذكر منها :

1. حاول - عليه السلام - استقطاب قلوبهم ، فذكرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة ، وحذرهم نقمة الله - تعالى - بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه .

قال تعالى على لسانه ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (4) .

أي ذكرهم بأن الله - سبحانه وتعالى - نأهم بما أنعم عليهم من الزوجات ، والنسل ، والصحة ، وأنه ما ابتلاهم بوباء أو مرض من الأمراض المقللة لهم ، ولا سلط عليهم عدواً يهلكهم بأنواع الشدائد ، ولا فرقتهم في الأرض ، بل أنعم عليهم باجتماعهم ، وإدراك الرزق ، وكثرة النسل .

(1) أي : تخرج أمعاؤه من بطنه . انظر صحيح مسلم بشرح النووي : 111/18 .

(2) أخرجه (خ) ، ك (بدء الخلق) ، ب/10 (صفة النار وأنها مخلوقة) ، 2/1007 ، ح (3267) ، و (م) ، ك (الزهد) ، 417/18 ، ح (51) واللفظ له .

(3) نقلاً عن أضواء البيان للشنقيطي : 35/3 .

(4) الأعراف / 86 .

ثم ذكرهم بالمقابل بحال العاصين ، الكافرين ، الجاحدين ، فإنهم لا يكونون إلا متفرقين ، متشتتين ، ولا يورثون ذكراً حسناً ، وسيكون لهم في هذه الدنيا لعنة . ثم يوم القيامة يلتصق بهم الخزي والفضيحة (1) .

وكأنه يقول هذا حال المؤمن ، المطيع ، وهذا حال العاصي ، الجاحد ، فلکم الخيار إن عملتم عمل هؤلاء نلتم رضا الله وجنانه ، وحسن ثوابه ، وإن عملتم عمل هؤلاء حق عليكم ما حاق بهم من عذاب وتدمير .

2. أيضاً حينما حاول أن ينهاهم عن بخس الكيل والميزان ، خاطبهم بدمج الأسلوبين معاً ، قال تعالى على لسانه ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (2) .

حاول أولاً أن يرغبهم بذكر فضل الله عليهم ، من نعم كثيرة ، وصحة ، وكثرة أموال وبنين ، فالمفروض أن يشكروا الله على ما أعطاهم ، حتى يزيدهم مما هم فيه من خير ونعمة ، أما إن كفروا بنعمة الله عليهم ، فإنه سيزيلها عنهم ، ويحل بهم عذاب يحيط بهم ، ولا يبقى منهم أحداً (3) .

هذه نماذج فقط من استخدام هذا الأسلوب ، ولكنها أيضاً لم تُجد ، ولم تنفع ، ولم تؤت الثمار المرجوة من ورائها .

ثالثاً : أسلوب الترهيب :

حينما لم ينفع معهم أسلوب الترغيب ، ولا الترغيب والترهيب معاً ، انتقل إلى أسلوب آخر هو أسلوب الزجر ، والوعيد ، والتهديد ، ألا وهو أسلوب الترهيب متمثلاً في عدد من المواقف ، أذكر منها :

1. حينما لم ينفذوا له ، ولم يؤمنوا به ، ولم يسمعوا كلامه ، بل عادوه ، وأبغضوه ، وأصرروا على ما هم عليه من شرك بالله ، وبخس الناس أموالهم ، والصد عن سبيل الله - تعالى - ، هددهم وتوعدهم إن هم استمروا على ما هم عليه ، أن يصيبهم مثل ما أصاب الأقبام قبلهم من دمار ، وهلاك ، وفناء .

(1) انظر تفسير السعدي : 597/1 .

(2) هود / 84 .

(3) انظر جامع البيان للطبري : 129/12 ، وتفسير السعدي : 812/1 .

قال تعالى على لسانه : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (1).

أي أنه توجه إلى قومه مهتداً ، مرهباً قائلاً : يجب ألا تحملنكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه ، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر وعبادة الأوثان والفساد ، وبخس الناس في المكيال والميزان ، وترك الإنابة والتوبة ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط من النعمة ، والعذاب (2).

ثم ذكرهم بأقرب الأقوام منهم ، وهم قوم لوط - عليه السلام - الذين أهلكهم - جلّ وعلا - بالحجارة ، فيقول : وقوم لوط ما زالوا حديثي عهد بكم ، فإن العهد الذي بينكم وبينهم قريب ، فاعتبروا يا أولي الأبواب .

وكان الأجدر بهم أن يعتبروا بمن سبقهم ، فقد زاد عدد الأمم المباداة قبلهم ، وتتنوعت أساليب عذابهم وهلاكهم ، وعلموا أنهم لن يعجزوا الله ، وأن دعوة الرسول مجابة عند الله تعالى ، فلو كانت لهم قلوب واعية وعقول سليمة ، لما احتاجوا حتى لتذكير الرسول لهم ؛ لأن المدة قريبة ، والآثار باقية .

ولكنه - ﷺ - حينما رأى أنهم لا يعقلون خوفهم ، وذكرهم بمن سبقهم ، وما حلّ بهم ، عسى أن يعودوا لرشدهم ، فيؤمنوا بربهم ، ويتركوا ما سواه ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

2. أضاف قوم شعيب - عليه السلام - إلى الكفر ، وعدم الانصياع للحق ، والعناد الشنيع قلة الأدب في الخطاب مع من جاء لإنقاذهم - عليه السلام - فحينما دعاهم إلى الهدى ، والصلاح ، والتقوى ، بدلاً من أن يستجيبوا له ، ويتبعوه ، قالوا له فيما حكاه القرآن الكريم عنهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَا رَهْطًا لَّرَجْمَتِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزِيرٌ﴾ (3).

عندئذ بدأ التهديد الصريح ، والشديد ، والوعيد الأكيد ، بأنهم إن استمروا على حالهم وطريقتهم ، ومنهجهم ، فسوف تكون عاقبتهم وخيمة ، وسيحل بهم الهلاك

(1) هود / 89 .

(2) انظر جامع البيان للطبري : 136/12 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 468/2 ، والجامع لأحكام

القرآن للقرطبي : 93/9 .

(3) هود / 91 .

والبوار في الدنيا والآخرة .

قال تعالى على لسانه ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (1).

أي أنه لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم ، وتوعدهم ، وقال لهم :اعملوا غاية ما في استطاعتكم من الكفر ، وأخبرهم بأنه سيعمل ما يُقَدِّره ربه عليه من خير ، ثم بالغ في التهديد والوعيد ، فقال لهم : سوف ترون عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله ، والإضرار بعباده وسوف تعلمون من سيحل عليه العذاب المخزي الذي يتولد عنه الذل ، والفضيحة ، والعار - والعياذ بالله - (2) .

دعاء شعيب - عليه السلام - على قومه ، واستجابة دعوته :

بالرغم من تنوع أسلوبيه - عليه السلام - في الدعوة ، إلا أنه لم يجن إلا استمرار الكفر ، وزيادة العناد والتحدي ، والجرأة ، فطلبوا منه أن يرتد هو ومن معه من المؤمنين إلى ملتهم ، فانتصب - عليه السلام - محاجاً عن معه قائلاً : إنهم لا يمكن أن يعودوا إلى الكفر اختياراً ، ولو قُدِّر لهم وعادوا ، سيكون ذلك اضطراراً وإكراهاً ؛ لأن الإيمان إن خالطت بشاشته القلوب لا يمكن أن يرتد صاحبه أبداً .

قال تعالى في ذلك ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ (3) .

عندئذ بلغ الصبر منتهاه ، وما عاد - عليه السلام - يحتمل أقوالهم ، وتفاهاتهم ، فاستفتح عليهم ، واستنصر بالله ، وعاد وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقونه من العذاب .

(1) هود / 93 .

(2) انظر فتح القدير للشوكاني : 521/2 .

(3) الأعراف / 88 ، 89 .

البيوت ، فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلمت من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أرسلها الله عليهم ناراً .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم)) (1) .

والملاحظ تنوع العذاب الذي حلّ بقوم شعيب وقد أشار ابن كثير - رحمه الله - إلى هذه الأنواع فقال : ((ذكر تعالى أنه أهلكهم مرة بالرجفة ، ومرة بالصيحة ، ومرة بعذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة ، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف ، لما قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ (2) ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها وههنا (3) لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم مع نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأحمدتهم ، وفي الشعراء لما طلبوا كسفاً من السماء ، أرسل الله عليهم عذاب يوم الظلة)) (4) .

((كما أرجفوا بنبي الله ، وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودون في ملتهم ، قابل تعالى الإرجاف بالإرجاف ، والإخافة بالخيفة ، فعذبهم بالرجفة ولما استهزأوا بنبي الله ، وتهكموا به وبمن معه ، عذبهم الله بالصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي الكلام القبيح فأسكنتهم ، مع رجفة أسكنتهم .

وأما عذاب يوم الظلة ، فكان ذلك إجابة لما طلبوا (5) ، وتقريباً لما رغبوا)) (6) .
وبذلك دُمرت مدين بكاملها ، كما دُمرت من كان قبلها من الكفار والمشركين ، وبذلك انطوت هذه الصفحة السوداء من التاريخ ، ولكن لا يزال في الكتاب صفحات .
أما شعيب والذين آمنوا معه ، فقد نجاهم الله تعالى برحمته .

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (جامع البيان): 134/19 .

(2) الأعراف / 88 .

(3) يعني العذاب الوارد في سورة هود ، وهو العذاب بالصيحة .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 469/2 بتصريف يسير .

(5) حين قالوا له "أسقط علينا كسفاً من السماء: الشعراء / 187 .

(6) قصص الأنبياء لابن كثير ص 160 بتصريف .

قال تعالى - وهو أصدق القائلين - : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ (1) .

مخاطبة شعيب - عليه السلام - لهالكي أمته :

يذكر لنا القرآن الكريم أن شعيباً - عليه السلام - أعرض عنهم بعد هلاكهم ، ونعاهم إلى أنفسهم موبخاً ، ومؤنباً ، ومقرعاً ، قائلاً لهم : لقد أدبت ما كان يجب على إبلاغه لكم ، ونصحت لكم النصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم أشد النصح ، واستعملت معكم كافة الوسائل التي قدرت عليها ، فلم ينفعم ذلك ، لأن الله لا يهدي الضال ، فبعد ذلك لا يمكن أن أأسف عليكم ، ولا أحزن ؛ لأنكم لم تسمعوا النصيحة ، ولم تخافوا الفضيحة .

قال تعالى ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (2) .

المطلب السادس : الصيحة

أهلك الله - سبحانه وتعالى - بالصيحة أصحاب القرية (3) ، وقصة أصحاب القرية وردت في القرآن الكريم .

قال تعالى ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِنْ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ

(1) هود / 94 .

(2) الأعراف / 93 .

(3) قال القرطبي : (هذه القرية هي أنطاكية في جميع أقوال المفسرين) . انظر جامع البيان للطبري :

186/22 ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 585/3 ، وتفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 18/15 .

ولكن السعدي - رحمه الله - يرى أن تعيين هذه القرية خلاف الأولى ، فيقول : (وتعيين تلك

القرية لو كان فيه فائدة لعينها الله ، وهذا ما أشبهه من التكليف) وهو الأولى - والله أعلم - . تفسير

السعدي : 455/2 .

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ . وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١﴾ .

ذكر - تعالى - قصة أصحاب القرية كمثل ، وطلب من رسولنا الكريم محمد - عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم - أن يقصها على قومه الذين كذبوه ، وعاندوه ؛ كي يعتبروا بها ، وتكون لهم عبرة وموعظة .

وأصحاب القرية هم القوم الوحيدون الذين منّ الله عليهم بأن أرسل إليهم رسولين كريمين ؛ كي يأمرهم بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين كله له وبينه وهم عن الشرك والمعاصي ، فكذبوهما ، ولم يسمعوا لهما .

قال تعالى : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴿٢﴾ .

فقواهما - سبحانه وتعالى - وشدّ أزرهما بآخر ، فصاروا ثلاثة رسل . وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على شدة كفر أهل هذه القرية ، وعنادهم وجحودهم كما يدلّ على مدى عناية الله - عزّ وجل - بهم ، وإرادة إقامة الحجة عليهم بتوالي الرسل إليهم .

بدأ الرسل بالعمل فوراً ، فدعواهم إلى توحيد الله - عزّ وجل - وأخبروهم أنهم رسل ربهم إليهم ؛ كي يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ولكنهم كابروا ، وعاندوا ، وقاوموا دعوتهم - شأنهم شأن كافة الأمم الكافرة قبلهم ، بكافة الوسائل وبكل الصور .

(1) يس / 13-31 .

(2) يس / 13 ، 14 .

أي : لو كنا كاذبين لأظهر الله كذبنا ، وأخزانا ، ولبادرنا بالعقوبة .
ثم بيّنوا لهم أنهم ما أرسلوا إليهم إلا لمصلحتهم ، من أجل البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها ، وإيضاحها ، وليس لهم أي هدف دنيوي آخر .

قال تعالى على لسانهم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (1) .
يقول ابن عاشور - رحمه الله - : ((ذَلِكَ وَعَظٌّ وَعَظُّوا بِهِ الْقَوْمَ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا مَنفَعَةَ تَنْجِرَ لَهُمْ مِنْ إِيْمَانِ الْقَوْمِ ، وَإِعْلَانِ لَهُمْ بِالتَّبَرُّؤِ مِنْ عَهْدَةِ الْقَوْمِ عَلَى الشَّرِكِ)) (2) .

وهذا نظير أقوال الرسل السابقين لهم بأنهم لا يريدون من أقوامهم أجراً من مال ولا من غيره ، ولا حتى الشكر ، إنما أجرهم يطلبونه من الله - عزّ وجل - وحده .
ثالثاً : التشاؤم من الرسل - عليهم الصلاة والسلام -

حينما أعلن الرسل الكرام - عليهم السلام - أنهم لا يريدون أجراً ، ولا يوجد لهم هدف ، ولا حاجة سوى تبليغ الدعوة التي أرسلوا بها ، وحينما بيّنوا لهم أن أمهم الوحيد ، أن يروههم قد انصاعوا للحق الذي جاءهم به ؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، علم الكفرة الفجرة ، أنهم لم يستطيعوا أن يطعنوا فيهم من خلال هذه الشبهة ؛ لأن صدق الرسل واضح ، وبدلاً من الانصياع للحق الذي جاءوا به بعد إخافتهم ، ذهبوا لبيحثوا عن شبهة أخرى يخفون بها فشلهم ، وإخفاقهم في ترويح الشبهة السابقة ، فأعلنوا على الملأ ، وزعموا أنهم تطيروا بهم ، ولحقهم منهم شؤم .

قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (3) .
أي : قالوا لهم : إنهم تشاءموا بهم ، ولم يروا على قدومهم عليهم ، واتصالهم بهم إلا الشر .

وهذا تماماً مثل ما قال من قبلهم .

(1) يس / 17 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 362/22 .

(3) يس / 18 .

فردّ عليهم الرسل - عليهم السلام - قائلين : فيما حكاه القرآن على لسانهم ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (1) .

أي أنهم أجابوهم بقولهم : شوؤمكم وحظكم من الخير والشر معكم ، ولازم في أعناقكم ، وليس هو من شوؤمنا ((ولا طيرة فيما زعمتم ، ولكنكم قوم كافرون غشيت عقولكم الأوهام ، فظننتم ما فيه نفعكم ضرراً لكم ، وأنظمت الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر ، وفساد الاعتقاد ، ومن إسرافكم واعتقادكم بالشوؤم والبخت)) (2) .

رابعاً : مطالبة إنهاء الدعوة

لما يئسوا من إنجاح جميع الأمور والشبه السابقة ، انتقلوا إلى وسيلة أخرى من وسائل محاربة الدعوة ، وهي مطالبة الرسل بالانتهاء كلياً عن الدعوة ، والابتعاد عنها ، وتوعدوهم إذا لم تنتهوا ، ويكفوا عما يدعون إليه ليقتلنهم رجماً بالحجارة ، وليذيقنهم أشد العذاب .

قال تعالى على لسانهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (3) .

ولكن من أين لصاحب الدعوة السليمة ، وصاحب النهج المستقيم ، بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أن يتركه تحت أي ضغط ، أو أي تهديد مهما كان ؟! وبذلك لم يجنوا أيّ ثمار الأمر الذي قادهم إلى التعنت والجبروت .

خامساً : محاربة الداخلين في الدعوة

حينما لم ينجحوا في محاربة الرسل - عليه السلام - أو النيل منهم ، أو تشويه سمعتهم ، ولما لم يستطيعوا صدّهم عن الاستمرار في طريق الدعوة يئسوا ، وعلموا في قرارة أنفسهم أن الدعوة لا بد وأن تنتشر ؛ لذا حاولوا القضاء على الدعوة ، من خلال القضاء على الداخلين فيها ، والمنتسبين إليها ، وفعلاً حاولوا تنفيذ ذلك .

إيمان رجل من أهل القرية ، ومحاربة قومه له ، وقتلهم إياه

في ظل هذه الأوضاع الصعبة قدر الله - سبحانه وتعالى - أن يُسلم رجل من طرف المدينة ، - أي بعيداً عن المتكبرين ، الجاحدين ، الكافرين ، الذين يقطنون وسط

(1) يس / 19 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 364/22 .

(3) يس / 18 .

المدينة وقلبها غالباً - ، ويقع الإيمان في قلبه ، ويجد حلاوته ، فيأتي مسرعاً؛ حرصاً على نصيح قومه حين علم بما ردوا به على الرسل الكرام - عليهم السلام - ، وأمرهم باتباعهم ، وشهد للرسل بالرسالة.

قال تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (1).

ثم ذكر لهم تأييداً لما شهد به من صدق الرسل الكرام ، فقال : اتبعوا مَنْ نَصَحَكُمْ نَصْحًا يَعُودُ عَلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ ، ولا يريد منكم أجراً على نصحه لكم ، ويدعو إلى الرشد والهدى ، والسداد.

قال تعالى على لسانه ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (2).

ولكن قومه لم يقبلوا نصحه ، بل لاموه على اتباعه الرسل ، فردَّ عليهم قائلاً فيما حكاه القرآن على لسانه ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (3).

أي : ما المانع من عبادة من هو مستحق وأهل للعبادة ، وكيف تطلبون مني أن أعبد من لا يملك نفعاً ولا ضراً لنفسه ، فضلاً عن غيره .

قال تعالى على لسانه ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (4).

يقول السعدي - رحمه الله - : (فجمع بحديثه معهم بين نصيحهم ، والشهادة للرسل بالرسالة ، والاهتداء ، والإخبار بتعنين عبادة الله وحده ، وذكر الأدلة عليها ، وبيّن لهم أن عبادة غيره باطلة ، وذكر البراهين على بطلانها ، والإخبار بضلال من عبدها) (5).

ثمّ إنه أعلن إيمانه جهراً على الملأ ، دون خوف لما سوف يصيبه من وراء هذا الإعلان .

قال تعالى على لسانه ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ (6).

(1) يس / 20 .

(2) يس / 21 .

(3) يس / 22 .

(4) يس / 23 ، 24 .

(5) تفسير السعدي : 458/2 بتصريف يسير .

(6) يس / 25 .

يقول ابن كثير : ((الخطاب للرسول ، أي استمعوا مقالتي ، واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل الخطاب للقوم ، ومعناه : اسمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهرة)) (1) .
 ولا مانع من إرادة المعنيين ، فهو خاطب الرسل الكرام - عليهم السلام - ؛ كي يشهدوا له عند ربه بالإسلام ، وفي نفس الوقت أراد أن يُسمع الكفرة ويعلمهم بإيمانه ؛ كي يعرفوا أنه آمن بالله العلي العظيم ، علّمهم يقتدون به ، ويسيروا على دربه .
 ولكن الكفر هو الكفر ، والعناد هو العناد ، على طول الأيام والأزمان ، فما إن سمعوا منه أنه دخل في الإسلام حتى قتلوه فوراً .

وهذا هو حال ومآل كثير من المنتسبين للحق في كل عصر وأوان .
 وعندئذٍ أدخله الله الجنة ، جزاءً على ما قدمه في سبيل إعلاء كلمة الله ، ومحاولة نشر الدعوة الصحيحة ، مضحياً في سبيله بأعلى ما يملك الإنسان ، دون خوف ، أو تردد ، فلم يكن له جزاء عند الملك العدل إلا الجنة ، جزاءً وفاقاً .
 فلما دخل الجنة ، ورأى ما فيها من نعيم ، تمنى لو علّم قومه بما في الجنة من نعيم ؛ لعلهم يؤمنون بما آمن هو به ، فيحصل لهم مثل ما حصل له ؛ وما ذلك إلا لشدة حبه لهم ، وطلبه مصلحتهم ، فهو لم يحقد عليهم لأنهم قتلوه ، وأنهوا حياته ، بل بالعكس تمنى أن يكونوا معه ، وبذلك يكون قد نصح لقومه حياً وميتاً .

قال تعالى ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (2) .

ومن هنا يجب على جميع الدعاة إلى الله - عزّ وجل - أن يتعلموا درساً ، ويجعلوه دستور حياتهم ، ونهج دعوتهم ، يجب أن يترفعوا عن الأحقاد ، والضغائن ، يجب ألا يغضبوا لأنفسهم أبداً ، بل الغضب لا بد وأن يكون لله وحده ، كما يجب ألا يدفعهم كرههم لإنسان للتخاذل عن نصحه ، ودعوته ، فإن هذا الأسلوب - وهو الإحسان لمن أساء إليك - كقيل بأن يرقق القلوب - إن كان هناك قلوب تنبض - ، ويجعل العدو من أعز الأصدقاء .

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 215/3 .

(2) يس / 26 ، 27 .

وفي معنى ذلك قال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (1).

حلول العذاب بهم :

كان قتلهم لذلك الرجل المؤمن سبباً في دمارهم وهلاكهم جميعاً ، فكما أنهم أهدروا دماً ، وأزهقوا روحاً بلا سبب مشروع إلا أن يقول ربي الله ، كذلك أزهق الله أرواحهم جميعاً ، ولكن بسبب ، فما أن قتل ذلك المؤمن حتى عَجَلَّ الله بحلول النقمة على قومه ، فأمر جبريل - عليه السلام - ، فصاح بهم صيحة ، فماتوا عن آخرهم حيث تقطعت قلوبهم في أجوافهم ، وهلكوا من تلك الصيحة ، فأصبحوا خامدين ، لا صوت ولا حركة ، ولا حياة ، بعد ذلك العتو والاستكبار ، ومقابلة أشرف الخلق بأبداً الألفاظ وأقبحها ، وتجبرهم ، وتكبرهم على الرسل وأتباعهم .

قال تعالى ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (2).

وقد كانوا على قوتهم ، وكفرهم ، وعنادهم ضعفاء أمام قوة الله - عزَّ وجل - فما احتاجوا غير صيحة واحدة ، أصبحوا بعدها جميعاً جنثاً بلا حراك .

قال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((أي ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم ، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم ؛ لعدم الحاجة إلى ذلك ، وعظمة اقتدار الله - تعالى - ، وشدة ضعف بني آدم ، وأن أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم)) (4).

وبعد هذا الموت ، والدمار الجماعي يتحسر المولى - عزَّ وجل - عليهم قائلاً

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (5).

أي ما أعظم شقاءهم ، وأطول عنادهم ، وأشد جهلهم ، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة ، التي هي سبب لكل شقاء ، وعذاب ، ونكال !!

(1) فصلت / 34 .

(2) يس / 29 .

(3) يس / 28 .

(4) تفسير السعدي : 458/2 .

(5) يس / 30 .

وبهذا يكون قد قُضِيَ على أصحاب هذه القرية ، وذهبوا كما ذهب من قبلهم ، فما بكت عليهم السماء ؛ لأنهم ارتكبوا أمراً لم يرتكبه أي قوم قبلهم ، وهو أن جميع الأقوام السابقة لهم كذبت رسولاً واحداً ، وهؤلاء كذبوا ثلاثة رسل ، كان الحرىُّ بهم أن يؤمنوا بهم ، ويصدقوهم ، ويتبعوهم ، معتبرين بما حلَّ بالأمم السابقة المباداة قبلهم ، ولكنهم لما نسوا الله أنساهم أنفسهم .

قال تعالى معقّباً على عدم إدراكهم ، وعدم اعتبارهم ممن سبقهم : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (1) ، (2) .

المطلب السابع : المسخ

انتقم الله - عزّ وجل - كما مرّ - من الأمم السابقة الكافرة الجاحدة ، المعاندة المكذبة لرسوله الكرام - عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام - ، بالإهلاك ، والإبادة بالكلية ، حتى لم يبقَ منهم أحد ، بالرغم من اختلاف طرق الإهلاك والتدمير . ثم دارت الأيام والأزمان ، وجاء كفر بني إسرائيل - عليهم لعنة الله - ، فلم يعتبروا بما حصل لمن قبلهم ، بل ساروا على دربهم ، واهتدوا بهديهم ، فدارت عليهم الدائرة ، وسُقُوا من نفس الكأس الذي سَقُوا منه ؛ لأن سنة الله - سبحانه وتعالى - واحدة ، وهي تدمير جميع الكفرة والفجرة وإبادتهم .

قال تعالى ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (3) . ولكن كان إهلاك قوم من بني إسرائيل بنوع آخر من أنواع العذاب والتدمير ، فإن الله - سبحانه وتعالى - لم يهلكهم ويُمَتِّهم ويُبَذِّمهم ، ويُخَلِّصُ البشرية من شرورهم بل انتقم منهم بشيءٍ أصعب بكثير من الإهلاك والإبادة ، والموت دفعة واحدة . وبصور لنا القرآن الكريم الجريمة التي اقترفها بنو إسرائيل ، وطريقة إهلاكهم وإبادتهم ، وتخليص البشرية منهم في عدد من سوره العظيمة ، منها :

(1) يس / 31 .

(2) انظر تفاصيل القصة في جامع البيان للطبري : 186/22-194 ، 443/23 ، وتفسير القرآن العظيم

لابن كثير : 584/3-588 ، وتفسير السعدي : 455/2-459 ، و جامع الأحكام القرآن للقرطبي :

26-18/15 ، والبداية والنهاية : 214/1-216 باختصار .

(3) فاطر / 43 .

1. قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1) .

2. وقال - عز وجل - : ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (2) .

3. وقال - عز من قائل - : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ (3) .

4. وقال أيضاً: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (4) (5) .

يحكي لنا المفسرون هذه القصة قائلين : كان أهل هذه القرية (6) يهوداً متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان ، حيث كان يحرم عليهم الاصطياد في هذا اليوم ، فكانت الحيتان تكثر وتظهر في البحر يوم السبت ؛ لأنها ألفت منهم السكنية في مثل هذا اليوم ، فكانت تأتي من ههنا ، وههنا ظاهرة ، آمنة ، مسترسلة ، فلا يهيجونها ولا يذعرونها .

(1) البقرة / 65 ، 66 .

(2) النساء / 47 .

(3) المائدة / 60 .

(4) أي : ذليلين خاسئين . تفسير السعدي : 626/1 .

(5) الأعراف / 163-166 .

(6) الصواب أن يقال : هي قرية حاضرة البحر ، دون تحديد ، لأن المدن الحاضرة البحر كثيرة ، ولو كان من تحديدها فائدة ، وزيادة منفعة لحددها الله - سبحانه وتعالى - ، انظر جامع البيان للطبري : 123/9 ، وتفسير السعدي : 624/1 .

قال تعالى ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ (1) ﴿(2)﴾ .

أما في غير يوم السبت - أي في الأيام المباح لهم فيها الصيد - لا تأتيتهم ، بل تذهب داخل البحر .

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ (3) .

وقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - السبب في ذلك قائلاً: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (4) .

أي : لنختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت ، وما ذلك الاختيار ، والامتحان ، إلا بسبب فسقهم ، وعصيانهم ، وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله ، ولما عرّضهم للبلاء والشر (5) .

حيلة بني إسرائيل لصيد الحيتان :

حينما استمرت الحيتان على هذه الحال ، ضجر بنو إسرائيل ، ولم يحتملوا ذلك الوضع ، فذهبوا إلى حيلة يحتالون بها على اصطيادها في يوم السبت ، ظناً منهم لجهلهم ، وتعلقهم بالدنيا وزينتها أن عملهم هذا جائز ، ولا غبار عليه ، فنصبوا الحبال والشباك ، وحفروا لها الحفر ، وأعدوا لها المصائد ، فإذا جرى الماء نحو الحفر والمصائد ، وقع السمك فيها ، وإذا دخلها لا يستطيع أن يخرج منها ، وكانوا يفعلون ذلك يوم الجمعة ، فإذا جاء يوم السبت ، وجاءت الحيتان مسترسلة ، علقّت بهذه المصائد ، ووقعت في تلك الحفر والشباك ، فإذا جاء يوم السبت لا يأخذوها ، وتركوها في الحفر والشباك ، حتى إذا جاء يوم الأحد أخذوها ، وكثر فيهم هذا الفعل ، وانتشر .

مواقف بني إسرائيل من هذه الحيلة :

انقسم أهل القرية حيال هذه الحيلة إلى ثلاث طوائف :

(1) شرعاً : أي ظاهرة على وجه الماء ، قريبة من الساحل . تفسير أبي السعود : 284/3 .

(2) الأعراف / 163 .

(3) الأعراف / 163 .

(4) الأعراف / 163 .

(5) انظر فتح القدير للشوكاني : 257/2 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 263/2 .

الطائفة الأولى : وهي معظمهم ، وهم الذين اعتدوا في السبت ، وقاموا بالصيد ، وتنفيذ الحيلة بالفعل ، وتجروا ، وجاهروا ، وأعلنوا بذلك ، دون خوف أو حياء .

الطائفة الثانية : وهي جماعة من صُلَّاحهم الذين ركبوا في عظمتهم متن كل صعب وذلول ، حتى يئسوا من احتمال القبول ، فاعتزلوا .

الطائفة الثالثة : وهي الجماعة التي نهت عن ذلك الفعل الشنيع ، وجاهرت بالنهاي ، واستمروا لا يقلعون عن التذكير ، رجاءً للنفع والتأثير ، مُبالغةً في الاعتذار ، وطمعاً في فائدة الإنذار .

وحيثما استمر وعظهم وتذكيرهم بدون فائدة ، قالت لهم الطائفة الثانية ، فيما حكاه القرآن الكريم على لسانهم ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (1) .

أي قالوا لهم : لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ، ولم يُصغِ للناصحين ، بل استمر على اعتدائه وطغيانه ، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله ، إما بهلاك وإيادة بالكلية ، فيطهر الأرض منهم ، أو يعذبهم عذاباً شديداً دون الاستئصال ، فيخزيهم في الدنيا ، ويعذبهم العذاب الشديد في الآخرة .

فردَّ عليهم الواعظون فيما حكاه القرآن على ألسنتهم ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّاي رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (2) .

أي أنهم بيَّنوا ووضَّحوا لهم سبب استمرارهم في الدعوة ، والنصح بأن ذلك لسببين :

(أ) أنهم يعظونهم ، وينصحونهم ، وينهونهم ؛ ليعذروا فيهم ، خوفاً من عذاب الله إن هم لم يقوموا بأعباء تلك الدعوة ، وتقديم النصيحة ، فيحل بهم ما سيحل بالمعتدين من العذاب والعقاب .

(ب) وأنهم يعظونهم لعلَّ الوعظ والإرشاد ، والنصيحة ، تنجح فيهم ، فيتركوا ما هم فيه من المعصية ، وبذلك يقبض الله عذابه ، ويعفو عنهم .

لذا فقد استمروا في الدعوة ، والنصح دون سأم ، ولا ملل .

(1) الأعراف / 164 .

(2) الأعراف / 164 .

إذن الهدف وراء تكرار الدعوة والنصيحة هو خوفهم على أنفسهم من عقاب الله وعذابه إذا هم قصرُوا في واجبه، وكذا خوفهم على قومهم إن استمروا في المعصية أن ينزل بهم العذاب، والدمار، والهلاك .

وهكذا يجب أن تكون حالة الداعية المسلم، دائماً عنده أمل متجدد فلا ييأس، ولا يقنط من الله في هداية المدعو، مهما كانت درجة عناده وفسقه، أو حتى كفره، لأن الله - تعالى - هو الهادي وحده .

قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (1) .

و يجب أن يحرص على مصلحة المدعو، كحرصه على مصلحته تماماً .
كما يجب على الدعاة لله أن يجعلوا حديث رسول الله - ﷺ - منهاجاً لهم، ونصب أعينهم، فقد روى أن رسول الله - ﷺ - قال : (فإن الرجل منكم ليعمل حتى يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة) (2) .

وتستمر القصة، ويزداد الكفر والعناد، حيث إنهم لم يسمعوا الموعظة، ولم يستسلموا للنصيحة، ولم ينتهوا عن فعلتهم الشنيعة، الفظيعة، بل استمروا على غيهم واعتدائهم، عندئذ جاء انتقام رب العالمين، وإله المنزلين، على المخادعين .

أحوال طوائف بني إسرائيل عند حلول العقاب والعذاب :

اختلفت أحوال بني إسرائيل عند بداية حلول العذاب، تبعاً لأحوالهم، وتغاير مواقفهم، من الحيلة التي احتالوا بها على شرع الله - تعالى - .

1. فالطائفة التي أمرت بالمعروف، ونهت عن ارتكاب تلك المعصية الخبيثة، واستمرت على الدعوة والنصح دون كسل أو ملل، أو يأس، فقد أنجاهم الله - جلَّ وعلا - .

قال تعالى ﴿أُنَجِّيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ (3) .

(1) يوسف / 87 .

(2) أخرجه (خ)، ك(بدء الخلق)، ب/6(ذكر الملائكة)، 993/2، ح(3208)، وأخرجه(م)، ك(القدر)، 151/16، ح(11) بنحوه .

(3) الأعراف / 165 .

2. وأما الفرقة الثانية : التي أمرت ثم يُست من صلاحهم ، واستجابتهم للحق ، فاعتزلت ، وتوقفت عن الدعوة ، فالقول الراجح أنهم كانوا من الناجين .

ويبين السعدي - رحمه الله - الدليل على نجاتهم فيقول : ((إن الله تعالى خصَّ الهلاك بالظالمين ، وهو لم يذكر أنهم ظالمون ، فدلَّ على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبِّ ؛ ولأن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، فاكتفوا بإنكار أولئك ؛ ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم ﴿ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾)) (1) .

أي أنهم بكلامهم هذا أظهرُوا غضبهم الشديد ، وبيَّنوا أنهم كارهون لفعلهم أشد الكراهة ، وأكدوا حلول العقاب والعذاب بهم ؛ بسبب ما ارتكبوه من معاصٍ ، فبذلك يكونون ، قد أثبتوا أنهم ليسوا على ملتهم ، ومذهبهم ، فمن باب العدل الإلهي ألا يعاملهم كالعاصين المجرمين .

ورغم ذلك إلا أن الله - سبحانه وتعالى - لم يذكرهم ضمن الناجين ، ويوضح سبب ذلك ويعلله ابن كثير قائلاً : ((لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم هذه الفاحشة ، إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث ، التي أعلاها : الإنكار باليد ، وبعدها الإنكار القولي باللسان ، وثالثها : الإنكار بالجنان (2) ، فلما لم يُذكروا نجوا مع الناجين ، إذ لم يفعلوا الفاحشة ، بل أنكروها)) (3) .

3. وأما الفرقة الثالثة : وهم الذين اعتدوا في السبِّ ، فقد غضب الله عليهم ، ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره ، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي في الظاهر انصياع لأوامر الله - تعالى - وهي في الباطن مخالفة محضة .

من أجل ذلك انتقم الله - عزَّ وجل - منهم ، وأنزل بهم عذاباً لم يُذِقْهُ لأحد قبلهم حيث عذبهم ، وقلبهم بإذنه ، وقدرته قرده ، وأبعدهم من رحمته .

(1) تفسير السعدي : 625/1 .

(2) يشير إلى حديث رسول الله ﷺ : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) . أخرجه (م) ، ك(الإيمان) ، 217/2 ، ح(78) .

(3) البداية والنهاية : 112/2 .

1. قال - تعالى - : ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (1)
2. وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (2)
3. وقال - عز وجل - : ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ (3)

مسخ الذين اعتدوا في السبت :

ويذكر لنا المفسرون - رحمهم الله جميعاً - تفاصيل قصة بني إسرائيل ، وقلوبهم قرودة وخنازير قائلين : قيل إن الناهين والأميرين بالمعروف حينما لم يسمع منهم الطاغون ، ولم يلتزموا بأوامر الله ، قالوا لهم : لا نساكنكم ، فقسموا القرية بينهم بجدار فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقال الناهون : إن لهم لشأناً ، فعلموا على الجدار ، فنظروا ، فإذا هم قرودة ، ففتحوا ، ودخلوا عليهم ، فعرفت القرودة أسبابها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أسبابهم من القرودة ، فجعلت القرودة تأتي نسيبها من الأنس ، فتشم ثيابه وتبكي ، فيقول لها : ألم نهكم ؟ فنقول برأسها : نعم . وقيل : إن الشباب صاروا قرودة ، والشيوخ خنازير (4) .

وهكذا أوقع الله - سبحانه وتعالى - بهم عقاباً استحقوه ، لم يعاقب به أحداً قبلهم فهم تميزوا بنوع عذاب خاص ومنفرد ، كما أنهم تميزوا بالاحتتيال على الله ، وأوامر الصالحين .

فليحذر الذين يخالفون أوامر الله ، ويحتالون على الدين ، أن يصيبهم مثل ما أصاب بني إسرائيل ، وما ذلك على الله بعزيز .
وأما القول بأن الله قد مسخ قلوبهم ، ولم يمسخ أجسادهم فهو مردود على أصحابه (5) .

(1) الأعراف / 165 .

(2) الأعراف / 166 .

(3) المائدة / 60 .

(4) انظر القصة في : جامع البيان للطبري : 136/9 ، والدر المنثور للسيوطي : 250/3-253 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 262/2-265 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 290/7-294 ، وتفسير السعدي : 624/1-626 ، وفتح القدير للشوكاني : 256/2-259 ، وتفسير أبي السعود : 284/3-287 ، والبداية والنهاية : 111/2-113 ولكن هذه القصة أيضاً تعتبر من الإسرائيليات التي لا يجب تصديقها ولا تكذيبها ، وكل ما يهمنا من الأمر أنهم قلبوا قرودة وخنازير بغض النظر عن الكيفية والتفاصيل .

(5) انظر تفاصيل ذلك في جامع البيان للطبري : 472/1 ، 473 .

ومن باب تنمة الفائدة نذكر بأن هؤلاء الممسوخين لم يُعقَّبُوا (1) ، بل عاشوا مدة بسيطة جداً ، ثم ماتوا .

وبهذا يصبح واضحاً أن هؤلاء لم ينجبوا ، ولم يتناسلوا ، ولم يتكاثروا ؛ لذا لا يجوز لنا على الرغم من شدة كرهنا لهم ، وحققنا عليهم ، واشمئزنا منهم ، وبالرغم من شدة النار التي تُوَجَّح في صدورنا منهم ، وبالرغم من كل أفعالهم التي يفعلونها في أبناء شعبنا خاصة ، وأبناء الأمة العربية والإسلامية عامة ، إلا أنه لا يجوز أن نقول عنهم : أنهم أبناء ، أو أحفاد القردة والخنازير ، بالرغم من أن ذلك الوصف يروق لنا ، ولكن الحق أحق أن يتبع .

عن عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رجل : يا رسول الله القردة والخنازير مما مُسِّخ ، فقال النبي - ﷺ - : (إن الله عزَّ وجل لم يهلك قوماً ، - أو يعذب قوماً - فيجعل لهم نسلًا ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك) (2) .
وفي رواية (إن الله لم يجعل لمسخ نسلًا ، ولا عقبًا ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك) (3) .

كما يتناول التليدي هذا الموضوع قائلاً : ((يظن كثير من الناس . أن هذه القردة والخنازير الحالية هي من بقايا ما مُسِّخ من بني إسرائيل ، والواقع خلاف ذلك ؛ لأن الممسوخ لا يعيش ، ولا يكون له نسل ..، وبهذا قال الجمهور ، وهو المعتمد)) (4) .
وبذلك أصبح واضحاً أنه لا يجوز أن نصف بني إسرائيل بأنهم أبناء أو أحفاد القردة والخنازير ، ولكن يجوز لنا أن نصفهم بأنهم إخوان القردة والخنازير ، كما قال لهم عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - عندما أرسله رسول الله - ﷺ - إلى خيبر ليجمع ثمارها كي يأخذ المسلمون نصفه ، وهم نصفه ، فأرادوا أن يُرْشُوهُ ليخفف عنهم في الخرص (5) ، فقال لهم ، - رضي الله عنه - : ((يا أعداء الله تطعموني السحت (6) ،

(1) أي : لم ينجبوا ، ولم يتكاثروا . انظر مختار الصحاح ص 444 .

(2) أخرجه (م) ، ك (القدر) ، 162/16 ، ح (33) .

(3) أخرجه (م) ، ك (القدر) ، 161/16 ، ح (32) .

(4) أسباب هلاك الأمم ، وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين ، للشيخ عبد الله التليدي ، دار البشائر الإسلامية بيروت/لبنان ، ط (2) 1418 هـ - 1998 م ، ص 110 .

(5) أي : في تقدير الثمار ، فيأخذوا أكثر من النصف . انظر لسان العرب : 62/4 .

(6) أي : الحرام ، مختار الصحاح ص 288 .

والله لقد جئتم من عند أحب الناس إليّ ، وأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القروذ
والخنازير ،.....)) (1) .

هذه هي أسباب وصور إهلاك الأمم السابقة وإفنائها ، ولكن تلك العقوبات ليست
خاصة بها؛ بل هذه الأمة ، أمة محمد ﷺ - ليست بعيدة عن الهلاك والإبادة كالأمم
السابقة إذا فعلت أفعالها .

بل قد ورد على لسان خير البشرية ﷺ - أن الله سيهلك أصفافاً من هذه
الأمة ؛ لارتكابهم مخالفات ، ومعاصي ، يستحقون عليها أنواعاً من الهلاك ، كالمسوخ
والخسف ، والقذف ، وغيرها في عدة أحاديث ، أكتفي بذكر اثنين منها :

1. ورد في الصحيح أن رسول الله قال : (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر (2)
والحرير ، والخمر ، والمعازف (3) ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم (4) يروح عليهم
بسارحة لهم (5) يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غداً ، فيبيئهم
الله (6) ، ويضع العلم (7) ، ويمسح آخريين قرده وخنازير إلى يوم القيامة) (8) .

يقول ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - : ((وفي هذا الحديث وعيد شديد على
من يتحليل في تحليل ما يحرم بتغيير اسمه ، وأن الحكم يدور مع العلة ، والعلة في
تحريم الخمر الإسكار ، فمتى وجد الإسكار وجد التحريم ، ولو لم يستمر الاسم)) (9) .

2. وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : (ليشربن
أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، ويعزف على رؤوسهم بالمعازف
والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم القردة والخنازير) (10) .

(1) انظر البداية النهاية : 200/4 ، 201 .

(2) الحاء المهملة المكسورة ، والراء الخفيفة ، يعني الفرج .

(3) يعني : آلات الملاهي ، ويطلق على الغناء .

(4) بفتحتين ، يعني : الجبل العالي ، وقيل رأس الجبل .

(5) يعني : المشاة التي تسرح بالغداة ، وترجع بالعشي .

(6) يهلكهم ليلاً .

(7) أي : يورقه عليهم . فتح الباري : 68،69/10 .

(8) أخرجه (خ) ، ك (الأشربة) ، ب/6 (ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه) ، 1794/4 ، ح (5590) .

(9) فتح الباري : 69/10 .

(10) أخرجه (ج) ، ك (الفتن) ، ب/22 (العقوبات) ، 371/2 ، ح (4020) ، وصححه الألباني في صحيحه ، 959/2 ،
ح (5454) .

فليحذر الذين يخالفون أوامر الله عزّ وجل وأوامر رسوله - ﷺ - ، ويرتكبون محارم الله ، ويتركون أوامره، ويتعدون حدوده، أن يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ، وما ذلك على الله بعزير ؛ لأن هذه الأحاديث وغيرها تفيد إمكانية وجود المسخ والخسف ، والقذف - وهي أنواع من العذاب والهلاك - في هذه الأمة إذا وجدت أسبابها، والتي منها: شرب الخمر ، وانتشار الفاحشة ، والاستماع إلى الأغاني ، والمغنيات ، ولبس الحرير للرجال ،....إلى غير ذلك من المحرمات .

إمكانية حلول العقوبات التي حلت ببني إسرائيل في هذا الزمان :

وكل هذا قد يتحقق على أرض الواقع في هذا الزمان - والله المستعان - ، كما أن بعض هذه العقوبات قد بدأ في الوقوع بالفعل .

أولاً : المسخ : - من خلال ما مرّ بنا - يعني : تحويل الخلق ، والصورة ، وتغييرها من حالة إلى حالة ، وهذا بدأ حدوثه في هذا الزمان ، ولكن بصورة مغايرة قليلاً ، فبدأ مسخ الباطن .

(أ) إن الله - سبحانه وتعالى - مسخ قلوب العصاة والمسرفين ، والمبتدعة ، والمنحرفين ، فجعلها كقلوب الحيوانات ، فظاهرهم ظاهر آدمي ، وباطنهم باطن حيوان لا يشعر أحدهم ، ولا يفقه ما يدور حوله .

(ب) كما أن مسخ الهيئة وتغييرها تبعاً للموضحة ، ومشابهة الغرب قد يكون مسخاً ، والمسخ بمفهومه الحقيقي آت - إن شاء الله - لمن يستحقه ؛ ونسأل الله العافية - .

ثانياً : الخسف : وهو يعني : ذهاب المكان ومن عليه في باطن الأرض ، كما حصل لقارون ، وهذا قد وقع في هذا الزمان .

(أ) يقول التليدي : (وهذا الخسف قد حصل في عصرنا مرات متعددة في جميع الأقطار ، وكل أنحاء المعمورة ؛ بل لا تمرُّ بضعة أشهر بدون أن يقع في بعض البلاد ولعلّ ما نزل بمدينة أكادير بمغربنا الأقصى العربي سنة 1380 من أعظم الخسوفات التي شاهدهتها الإنسانية في عصرنا الحاضر ، وما ذلك إلا لما كان ، ولا يزال في تلك المدينة من الفجور ، وأنواع الفسوق، واللعب ، واللغو ، ولقد حدّثنا عنها أنها فاقت ، أو كادت تفوق كل مدن الغرب في تلك الميادين المجنونة ، ولذلك أنزل الله تعالى بها

الخلاصة

بعد هذا العرض الممتع لقصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم هذا العرض الممتع ، المفعم بالحزن والأسى على ما لاقاه وعاناه أنبياء الله الكرام - عليهم الصلاة والسلام - نلاحظ وجود تشابه كبير بينهم في طريقة الدعوة ، وفي صداها على المدعويين .

1- فجميعهم كانت دعوتهم إخلاص العبادة لله وحده ، وترك ما سواه ، وتأصيل العقيدة السليمة في النفوس والصدور ، فنوح عليه السلام دعا قومه قائلاً : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) . وهوذ - عليه السلام - قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (2) . وصالح - عليه السلام - قال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (3) . ولوط - عليه السلام - قال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْطِيعُونَ ﴾ (4) . وشعيب - عليه السلام - قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (5) .

2- جميعهم عانى وقاسى من استهزاء أقوامهم بهم ، وتنقصهم إياهم وأتباعهم . فالكفر هو الكفر ، والعناد هو العناد على مرّ الأزمان ، وكأن الأقسام كانت توصي بعضها البعض بما تقوله أو تفعله بأنبيائهم الكرام - عليهم الصلاة والسلام - . كما أنهم تعجبوا من أن يبعث الله - سبحانه وتعالى - نبياً أو رسولاً بشرياً ، وإنما أرادوا أن يكون ذلك الرسول ملكاً من الملائكة ؛ وما ذلك إلا تعنتاً وجحوداً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً لما استجابوا له ، ولما انصاعوا لأوامره ؛ بحجة أنه مخلوق مغاير لهم في أصل الخلقة ، وإن دل ذلك على شئ إنما يدل على حقدهم الدفين ، وكرههم العميق لكل من يخالف ضلالهم .

(1) الأعراف / 59 .

(2) الأعراف / 65 .

(3) هود / 61 .

(4) الشعراء / 162-163 .

(5) الأعراف / 85 .

فقوم نوح - عليه السلام - قالوا له : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ (1) .

وقوم هود - عليه السلام - قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأُتِرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَنْ أُطْعِمَ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ (2) .

وقوم صالح - عليه السلام - قالوا له : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (3) .

وأصحاب القرية كذبوا رسلهم الكرام وقالوا لهم : ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (4) .

وكذا كفار قريش والمشركين تنقصوا رسول الله محمد - ﷺ - وتمنوا لو أن القرآن الكريم نزل على رجل عظيم قال تعالى على لسانهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (5) .

3- أيضاً قاسى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من رمى أقوامهم لهم بالكذب ، وعدم تصديقهم فيما يقولونه ، أو يدعون إليه .

فقوم هود - عليه السلام - قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَادِبِينَ ﴾ (6) . وقوم صالح - عليه السلام - قالوا عنه : ﴿ أَلْفِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (7) .

وأصحاب القرية كذبوا رسلهم الكرام قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا

(1) هود / 27 .

(2) المؤمنون / 33 ، 34 .

(3) الشعراء / 154 .

(4) يس / 15 .

(5) الزخرف / 31 .

(6) الأعراف / 66 .

(7) القمر / 25 .

وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١﴾ .

ولكن بالرغم من شدة معاداة كفار قريش والمشركين للرسول محمد - ﷺ - إلا أنهم لم يرموه بالكذب بل كانوا على يقين من صدقه ، فقد كانوا يسمونه الصادق الأمين قال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَكَانَ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (2) .

4- ولم يقف الحد عند ذلك ، بل لما رأوا عدم نجاح دعواهم السابقة ، حاولوا إختلاق تهمة جديدة ، فرموا الأنبياء السابقين بالسحر والجنون - حاشاهم - .

فقوم نوح - عليه السلام - رموه بالجنون . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (3) .

وقوم هود - عليهم السلام - قالوا : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (4) . وصالح - عليه السلام - وصفوه بالسحر قال تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (5) . وكذا قوم محمد - ﷺ - رموه بالسحر والجنون قال تعالى : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ (6) .

5- طلب حلول العذاب :

اتفقت معظم الأقوام على الجهل والعناد ، والجحود ، وتكذيب الآيات المسموعة بل والمرئية منها ، فبالرغم من علمهم بما حلّ بمن سبقهم بسبب تكذيبهم لرسولهم وأنبيائهم ، إلا أنهم جميعاً خاضوا نفس التجربة فاشتروا شرطاً للتأكد من صدق الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - ، وهو حلول العذاب بهم ، والانتقام الرباني الذي وعدوهم إياه .

فقوم نوح قالوا له : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (7) .

(1) يس / 14 ، 15 .

(2) الأنعام / 33 .

(3) القمر / 9 .

(4) هود / 54 .

(5) الشعراء / 153 .

(6) المدثر / 24 .

(7) هود / 32 .

وكذا قوم هود - عليه السلام - طلبوا العذاب وقالوا : ﴿ أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (1) .

وقوم صالح - عليه السلام - عقروا الناقة وطلبوا حلول العذاب إن كان صادقاً قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (2) .

وكذا قوم لوط - عليه السلام - كذبوه وطلبوا حلول العذاب قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (3) .

6- من أجل كل ما سبق من معاناة ، واستهزاء ، وتنقص ، واحتقار ، ووصف الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بأوصاف هم أكثر الناس بعداً عنها ، بلغ الصبر منتهاه فاتجه كثير منهم إلى الله - عز وجل - متضرعين مستفتحين على أقوامهم الكافرة .

فنوح - عليه السلام - دعا ربه قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ لِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَانجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) .

وقال أيضاً : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تُذَرَّهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (5) .

ودعا أيضاً ربه قائلاً : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ (6) .

وهود - عليه السلام - تضرع إلى مولاه ، ورفع كفيه إلى السماء قائلاً : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (7) .

وشعيب - عليه السلام - استفتح على قومه ، واستنصر بالله قائلاً : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (8) .

(1) الأعراف / 70 .

(2) الأعراف / 77 .

(3) العنكبوت / 29 .

(4) الشعراء / 117 ، 118 .

(5) نوح / 26 ، 27 .

(6) القمر / 10 .

(7) المؤمنون / 39 .

(8) الأعراف / 89 .

ولكن بالمقارنة بينهم وبين نبينا محمد - صلوات ربي عليهم أجمعين - نجد أنه بالرغم من شدة ما لاقاه من قومه إلا أنه لم يدع عليهم ، فحينما ذهب إلى الطائف كي يدعوهم إلى الإسلام ويطلب منهم النصرة والمعونة ، ما وجد منهم إلا كل جفوة وغلظة وكفر وعناد ، فلم يدع عليهم بل دعا لهم قائلاً : " اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم " .

وكذلك حينما اشتد أذى أجلاف مكة عليه - ﷺ - وعلى أتباعه جاءه جبريل - عليه السلام - يخبره إن أراد أن يطبق عليهم الأخشبين ، فلم يوافق - ﷺ - ، راجياً أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده ويعزّ به الإسلام وذلك دليل على شدة عطفه وحبه وحنانه - ﷺ - على قومه ، فهو لم يغضب لنفسه قط ، فكل ما لاقاه في شخصه وأهله لم يخرج عن طوره ، ولم يؤد إلى دعائه على قومه بل دائماً كان يرجو الله أن يهديهم ويخرج من أصلابهم من يوحده ، وفعلاً حصل ما تمنى .

المبحث الثاني عقوبات دون الإهلاك

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : تسليط الظالمين

المطلب الثاني : ضيق في الرزق ، وظهور الفساد في الأرض.

المبحث الثاني

عقوبات دون الإهلاك

إن الذنوب على اختلافها عبارة عن أمراض تُحدث خللاً في الدين ، وفساداً في الأخلاق، وبالتالي تؤدي إلى فساد المجتمع ، والذنوب كلها شؤم ، وعواقبها وخيمة ، فما يصيب الناس شيء من بلاء وشقاء ، وما يحل بهم كُفْلٌ من نقم وعذاب ، إلا جراء ما اقترفت أيديهم .

قال تعالى : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ (1) .

ولكن عواقب الذنوب وآثارها ليست على نفس الدرجة ، بل منها ما هو أهون من بعض ، وقد مرَّ كيف أن الله - تعالى - قد أهلك أقواماً بالكلية ، وجعلهم عبرة وعظة على مرّ التاريخ ؛ بسبب طغيانهم ، وارتكابهم الفواحش وتعديهم حدود الله . ولكن هناك عقوبات أقل ، لذنوب أخف ، فلا يُهلك أصحابها ، ولا يُبادون بالكلية ، ولكن يصيبهم وبال ما ارتكبوا .

وهذا هو مضمون هذا المبحث ، والذي يشتمل على مطلبين .

المطلب الأول : تسليط الظالمين

يعتبر الظلم من المعاصي التي يستحق صاحبها العقاب من الله - عزّ وجل - ، ومن ضمن العقوبات التي يستحقها الظالم تسليط الظالمين عليه . فالظلم ظلمات على أصحابه ، في الدنيا والآخرة ، كما أنه يظلم القلب ، ويجعله في حيرة دائمة، ويبعده عن الهداية والبصيرة . وقد ورد بيان سوء عاقبة الظلم في عدد من الآيات الكريمة، أكتفي بذكر ثلاثٍ منها :

1. قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (2) .
2. وقال - عزّ وجل - : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (3) .

(1) النساء / 147 .

(2) الكهف / 59 .

(3) هود / 102 .

3. وقال - عز وجل - : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا (1) مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ (2).

فهذه الآيات الكريمة بمجموعها تبين أن الظالم لا بد أن يُجازى على ظلمه إما بالهلاك كلية ، أو بالعذاب الشديد .

ولكن للظلم بصورة خاصة ، أو لارتكاب المعاصي والآثام بصورة عامة ، جزاء آخر ، ألا وهو تسليط الظالمين على هؤلاء المعتدين ، وقد ورد ذلك في كتاب الله - عز وجل - .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - عند شرحه للآية الكريمة : ((أي : إن من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله ، يُؤزُّه إلى الشر ، ويحثه عليه ، ويزهده في الخير ، ويفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة ، الشنيع أثرها ، البليغ خطرُها . والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى روحه جنى ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (4).

ومن ذلك أن العباد إذا كثرت ظلمهم وفسادهم ، ومنعهم الحقوق الواجبة ، وُلِّي عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله ، وحقوق عباده ، على وجه غير ماجورين فيه ، ولا محتسبين . كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح الله رعاتهم ، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف ، لا ولاة ظلم واعتساف)) (5).

أي أن الظالم إذا ظلم العباد ، واستولى على ما يملكون ظلماً وجوراً وعدواناً لا بد أن ينتقم الله - تعالى - منه بأحد أمرين :

(أ) إما بأن يسلط عليه من هو أقوى ، وأظلم منه، يسومه سوء العذاب ، ثم يظلمه ويأخذ منه ، ما استولى عليه بطريق الظلم والجور ، تحت شعار الحياة للأقوى .

(1) أي : أهلكنا ، كلمات القرآن ص 222.

(2) الأنبياء / 11 .

(3) الأنعام / 129 .

(4) فصالت / 46 .

(5) تفسير السعدي : 544/1 .

وبذلك يكون قد ظلم ، واستحق العقوبة عند الله ، ثم ما استولى عليه لم يبق له ، فهو بذلك يكون قد ظلم نفسه بأن حقَّ عليها العقاب دون عائد، إضافة إلى ظلمه لغيره بأخذ أموالهم دون وجه حق .

(ب) أو أن يسلط الله عليه ، ويبعث له ظالماً آخر ، فيتفقا ، ويتصاحبا، ويصبح كل منهما قريباً للآخر ، يحثه على فعل الشر وظلم الخلق ، ويبعده عن الخير بكافة الوسائل ، ويزين له القبيح ، وبذلك ينغمس في الشر ، والبعد عن الله ، ويصبح الظلم صفة لازمة له وهو لا يدري .

ويوضح الطبري - رحمه الله - معنى (نولي) الوارد في الآية الكريمة سابقة الذكر ؛ فيقول : ((أي إنما يولي الله بين الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن ، أين كان ، وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، وليس الإيمان بالتمني ولكن بالتحلي)) (1).

وصدق الشاعر حين قال :

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيئلي بظالم (2)

فالآية إذن تحمل تهديداً لكل ظالم إن لم يمتنع عن ظلمه ، بأن الله سيسلط عليه ظالماً آخر ، سواء ظلم نفسه ، أو ظلم غيره إن كان والياً بأن يظلم الرعية ، أو كان تاجراً فيظلم الناس في تجارتهم ، وكذا السارق فإنه يظلم الناس بأخذ أموالهم (3).

1. ويؤكد الرازي على كل ما سبق بقوله : ((إن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم ، وقد قيل ما ظالم إلا سيئلي بظالم)) (4).

وكانه يقصد أن الله - سبحانه وتعالى - قد سلط على هذه الرعية والياً ظالماً بسبب ظلمهم لأنفسهم، أو لغيرهم ، بحيث أصبح الظلم صفة لازمة لهم، فاستحقوا عليها أن يُسلط عليهم والٍ ظالم ، وإذا ضَجروا من ظلم الوالي ، وأرادوا التخلص منه فما عليهم إلا أن يصلحوا أنفسهم أولاً بترك الظلم ، ونشر العدل بينهم بدلاً منه ، فحينئذٍ يخلصهم الله - جلَّ وعلا - من ظلم ذلك الوالي أو الأمير وجوره .

(1) جامع البيان للطبري : 46/8 .

(2) نقلاً عن الجراء من جنس العمل : 249/2 .

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 86/7 ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : 74/8 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي : 194/13 .

فالظالم إذن هو المسئول الأول عما يحصل له من انتقام ، وتسليط غيره عليه ؛ لأن من سنة الله تعالى في خلقه أن يعاملهم حسب أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقد بيّن الله تعالى ذلك المعنى في عدد من الآيات .

2. قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (1).

3. وقال أيضاً: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (2).

4. وقال - عز من قائل - : ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتِنُونَ ﴾ (3).

وقد أكد - جلّ وعلا - عدم اتصافه بالظلم أبداً ، بل العباد هم الظالمون لأنفسهم ، فما أصابهم من تسليط الظالمين عليهم هو جزاء ما اقترفت أيديهم .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (4).

وأما السنة النبوية فقد أكدت على أن الظلم ظلمات ، وأن عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة ، في عدد من الأحاديث ، أكتفي بذكر ثلاثة منها :

1. عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : (الظلم ظلمات يوم القيامة) (5).

2. وعن أبي معبد مولى ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - بعث معاذاً إلى اليمن فقال : (اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) (6).

3. كما ورد عنه - ﷺ - أنه قال : (من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين) (7).

(1) الزلزلة / 7 ، 8 .

(2) الشورى / 30 .

(3) الروم / 36 .

(4) الأنفال / 51 .

(5) أخرجه (خ) ، ك(المظالم) ، ب/8 (الظلم ظلمات يوم القيامة) ، 734/2 ، ح(2447).

(6) أخرجه (خ) ، ك(المظالم) ، ب/9 (الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم) ، 734/2 ، ح(2448).

(7) أخرجه (خ) ، ك(بدء الخلق) ، ب/2 (ما جاء في سبع أرضين) ، 987/2 ، ح(3196).

فهذه الأحاديث النبوية الشريفة - وغيرها كثير مما يحمل نفس المعنى - تحذر أشد التحذير من الظلم ؛ لأن عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة .

وأختم هذا المطلب بذكر قول الشاعر في بيان عواقب الظلم الوخيمة :

فإياك والظلمَ مهما استطعت	فظلمُ العبادِ شديدُ الوخم
وسافرْ بقلبك بين الوري	لتبصرَ آثارَ مَنْ قد ظلم
فتلك مساكنهم من بعدهم	شهودٌ عليهم ولا تُنتهم
وما كان شيءٌ عليهم أضر	من الظلمِ وهو الذي قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن	قصور ، وأخرى عليهم أطم (1)
صُلُوا بالجحيم وفات النعيم	وكان الذي نالهم كالحلم (2)

المطلب الثاني : ضيق الرزق ، وظهور الفساد في الأرض

خلق الله - سبحانه وتعالى - خلقه ، وتكفل برزقهم ، والإنعام عليهم ، وضمن لهم العافية، والنعمة ، والرخاء ، والهناء ، وأمرهم مقابل ذلك بالعبادة ، فهي الهدف الأول الذي من أجله خلقوا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (3).

ولكن منهم من كفر ، وفجر ، وارتكب الفواحش والآثام ، واستحل المعاصي والمحرمات ، وتجاوز الحدَّ في الإجمام ، فبدل الله ما هم فيه من نِعَم إلى آلام ، وأمراض ، ونوازل ، وحوادث ، وفتن ، وضروب من العذاب .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (4).

وقال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِ وَّالٍ ﴾ (5).

(1) أي : القصر ، وكل حصن مبني بالحجارة ، وكل بيت مربع مسطح . لسان العرب : 160/1 .

(2) نقلاً عن الجواب الكافي ص 103 ، 104 .

(3) الذاريات / 56 .

(4) الأنفال / 53 .

(5) الرعد / 11 .

فكل ما حصل ، وسيحصل من بلاء وحوادث ، وكوارث ؛ بسبب ذنوب بني آدم ومعاصيهم ، ولت آثار ذنوب الإنسان قاصرة عليه فقط ، بل إنها تتعداه إلى الحيوان ، والطيور ، حتى الجمادات لم تسلم من هذه الذنوب والمعاصي ، فأثارها سادت الأرض بما عليها من مياه ، وهواء ، وزرع وثمار ، ومساكن ، وغير ذلك .

قال تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (1) بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (2).

يقول الطبري : (ظهرت المعاصي في برّ الأرض ، وبحرها ؛ بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه) (3).

صور الفساد الذي ظهر في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس :

وذكر المفسرون عدة معانٍ ، وصور للفساد الذي ظهر في البرّ والبحر بما اقترفت أيدي الناس من ذنوب ، ومعاصٍ ، منها :

1. القحط ، وقلة النباتات ، وذهاب البركة .

2. قلة المطر .

3. قلة الصيد .

4. كساد الأسعار ، وقلة المعاش .

5. قطع السبل ، وانتشار الظلم (4).

فالآية الكريمة تدل على انتشار الفساد في البرّ والبحر ، وحلول الآفات في الأرض ، وانتشار الأمراض والوباء ، وكل ذلك بسبب ما قدمت أيدي الظلمة ، العتاة من الأعمال الفاسدة .

(1) المقصود به البحار والأنهار ؛ لأن الله سمى الماء العذب بحراً ، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا

عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فاطر / 12

(2) الروم / 41 .

(3) جامع البيان للطبري : 58/21 .

(4) انظر أقوال العلماء في جامع البيان للطبري : 59/21 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 450/3 ،

والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 43/14 ، والمحزر الوجيز لابن عطية : 463/11-465 ، وتفسير

النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ،

ط (1) 1412هـ - 1992م ، 317/4 ، 318 .

بالنظر في المجتمعات المعاصرة نجد أن هذه الأمور قد ظهرت بالفعل على أرض الواقع :

فالمطر قلت نسبته في كثير من البلدان ، لدرجة أن يمر فصل الشتاء وكأنه صيف ، مما يضطرهم دائماً لصلاة الاستسقاء باستمرار ، وبالتالي ترتب على قلة الأمطار أمور كثيرة كقلة النبات ، وانتشار القحط ، وغلاء الأسعار ، ونزع البركة من الأشياء كلها ، فيقل دخل السكان ، وينخفض بالتالي الاقتصاد بصورة عامة ، وتنتشر البطالة ، مما يؤدي إلى انتشار السرقة ، والظلم ، وقطع الطرق ، وغيرها من آثار التدمير .

وإذا أرادت الشعوب أن يتغير هذا الحال ، ويعم الخير والرخاء ، فلا بد من محاسبة الأنفس قبل أن تُحاسب ، لا بد من مراجعة جميع الأعمال والتصرفات ، ومحاولة إصلاح الأنفس بقدر الإمكان ، بعد ذلك يتوقعون تغيير الأحوال ، أما أن يبقى حال الناس على ما هو عليه ، و ينتظروا تغيير حال الكون ، ويتمنوا زوال الفساد فهذا لا يمكن أن يحدث .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (1) .

وقد ضرب لنا - جل وعلا - مثلاً حياً يتلى إلى يوم القيامة ، يوضح أن الكفر والمعاصي ، والذنوب ، والآثام تغير الحال ، وتقلبه رأساً على عقب من نعيم ، وخير ورخاء ، ورغد عيش ، إلى جحيم ، وشر ، وقلة مال .

قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (2) .

هذه الآية الكريمة عبارة عن مثل ضربه الله - عز وجل - عن أهل مكة ، التي كانت آمنة مطمئنة ، لا يُهاج أهلها ، ولا يُغار عليهم ، ولا يصيبهم خوف ، ولا جزع ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء ، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه ، فلا يزعجه ولا يثيره ، مع شدة الحمية فيهم ، فحصل بذلك في مكة من الأمن التام

(1) الرعد / 11 .

(2) النحل / 112 .

ما لم يحصل قي سواها ، وكذلك كان رزقها واسعاً جداً ، لدرجة أن أهلها كانوا لا يحتاجون إلى الانتقال عنها للإنتاج ، كما كان يفعل سائر العرب، بالرغم من أنها كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسر الله لها الرزق ، يأتيها من كل مكان ، من سائر بقاع الأرض .

ومن تمام النعمة عليهم أن أرسل الله - تعالى - إليهم رسولاً هو محمد - ﷺ - يعرفون أمانته وصدقه ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطلب منهم ألا يشركوا به شيئاً ، فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ (1).

فحينما قابلوا الدعوة والنصيحة بالجدود ، والكفران ، والظلم ، والإفساد ، والإجرام ، انتقم الله منهم ، وأذاقهم ضد ما كانوا فيه ، حيث ابتلاهم بالجوع ، لدرجة أن أكلوا الجيف ، وسلط الله عليهم الخوف في قلوبهم ، والجزع في نفوسهم .

قال تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (2).

وبذلك انتقم الله - تعالى - من هذه القرية ، وغير أحوالها ، بما اقترفت أيديهم بسبب كفرهم ، وعدم شكرهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (3) ، (4) .

وهكذا يفعل الله - سبحانه وتعالى - بكل من حذا حذو أهل هذه القرية المفسدين المتمردين ، فقد اقتضت سنة الله - عز وجل - أن يعاقب كل من حاد عن شرعه ، وأوامره ، وارتكب نواهيه .

(1) النحل / 113 .

(2) النحل / 112 .

(3) النحل / 33 .

(4) انظر القصة في جامع البيان للطبري : 242/14-245 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير :

607/2 ، 608 ، وتفسير السعدي : 950/1 ، 951 .

الباب الثالث

منهج القرآن الكريم في الترغيب بالصالحات والتفهير من المحبطات

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : الترغيب بالصالحات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص

الفصل الثاني : الترهيب من المحبطات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص

الفصل الأول

الترغيب بالصالحات

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص .

الفصل الأول

الترغيب بالصالحات

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (1).

إن الله تبارك وتعالى خلق الخلائق لعبادته وحده دون شريك ؛ حتى ينالوا رضى الله في الدنيا ، ثم دخول الجنة بكرمه ورحمته .
من أجل ذلك لم يوجز في بيان الصالحات ، بل حرص على توضيحها لهم ، وترغيبهم فيها ؛ ليستحقوا الجزاء عليها، بالتزامها والوقوف عند حدودها.
لذا كان هذا الفصل لبيان كيفية ترغيب القرآن الكريم بالصالحات علماً بأنه يحتوي على مبحثين .

المبحث الأول

ضرب الأمثال

واشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : معنى المثل لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : معاني المثل في القرآن الكريم

المطلب الثالث : أهمية المثل في القرآن الكريم

المطلب الرابع : موضوعات أمثال القرآن الكريم .

المبحث الأول

ضرب الأمثال

يدور هذا المبحث حول أربعة مطالب ، تبدأ بتعريف المثل ، وأثنى بذكر معانيه في القرآن الكريم ، ثم أتحدث عن أهميته ، وأختتم بموضوعاته في القرآن الكريم .

المطلب الأول : معنى المثل لغة واصطلاحاً

(أ) الأمثال لغة :

جمع مثل ، وهو ما يضرب به من الأمثال ، أي ما جعل مثلاً : أي مقداراً لغيره يُحذى عليه (1) .

قال ابن فارس : الميم والثاء واللام ، أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء ، وهذا مثل هذا : أي نظيره ، والمثل والمثال في معنى واحد ، ومثيل : كشبيهه (2) .

(ب) الأمثال اصطلاحاً :

للمثل تعريفات كثيرة متقاربة ، أذكر منها :

1. تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر ، واعتبار أحدهما بالآخر (3) .
2. قال المبرد : المثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يُشبه به حال الثاني بالأول (4) .
3. وقيل : المثل هو عبارة موجزة متداولة ، تتضمن فكرة حكيمة في مجال الحياة البشرية وتقلباتها ، وتصاغ عادة بأسلوب مجازي يستميل الخيال ، ويسهل حفظه (5) .

(1) انظر الصحاح : 1816/5 ، وتاج العروس : 110/8 .

(2) معجم مقاييس اللغة : 296/5 .

(3) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، دار المعرفة، بيروت/لبنان، (ت) سعيد محمد نمر الخطيب

ط (2) 1403 هـ - 1983م ، ص 173 ، 174 .

(4) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني ، دار القلم/بيروت ،

- بدون تاريخ - 506/1 .

(5) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لمجدي وهبة، وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ط (2)

1404 هـ - 1984م ، ص 332 .

المطلب الثاني : معاني المثل في القرآن الكريم

ورد لفظ المثل في القرآن الكريم بعدة معانٍ ، منها :

1. بمعنى السنن :

قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (1).

يعني سنن الذين مضوا (2).

2. بمعنى العبرة :

قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلآخِرِينَ﴾ (3).

يعني عبرة وعظة يتعظ بهم من بعدهم من الأمم (4).

3. بمعنى الصفة :

قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ (5).

يعني صفتهم (6).

4. بمعنى العذاب :

قال تعالى : ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (7).

يعني : وصفنا لكم العذاب (8).

(1) البقرة / 214 .

(2) انظر جامع البيان للطبري : 56/2 .

(3) الزخرف / 56 .

(4) نفس المرجع : 109/25 .

(5) الفتح / 29 .

(6) نفس المرجع : 145/26 .

(7) إبراهيم / 45 .

(8) قاموس القرآن ، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للحسين بن محمد الدامغاني

(ت) عبد العزيز سيد الأهل ، دار العلم للملايين/بيروت ، ط(3) 1400هـ - 1980م ، ص428 ، 429 .

المطلب الثالث : أهمية المثل في القرآن الكريم

اهتم المولى - عز وجل - كثيراً بضرب الأمثال في القرآن الكريم ؛ لأنها لونها من ألوان الهداية الإلهية ، تُغري النفوس بفعل الخير ، وتحضها على البر ، وتدفعها إلى الفضيلة ، كما أنها أوقع في النفس ، وأبلغ في الوعظ ، وأقوي في الزجر ، وقد أكثر الله - تعالى - منها في القرآن الكريم للتذكرة والعبرة ، كما ضربها النبي - ﷺ - في حديثه ، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة ، ويستعين بها المربون ، ويتخذونها من وسائل التوضيح والتشويق ، ووسائل التربية في الترغيب ، أو التنفير من المدح أو الذم .

قال الزمخشري : ((ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل والنظائر ، شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تُرى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبيكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبوي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله)) (1).

وقال إبراهيم النظم : ((يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة)) (2).
وقال ابن المقفع : ((إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وأنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث)) (3).

فالأمثال في القرآن الكريم إنما هي لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ولأخذ العبرة والعظة منها ، والعاقلة من يستفيد من ضرب الأمثال ، وقد بين - سبحانه وتعالى - أنه لا يدرك المغزى والغاية من هذه الأمثال إلا العلماء دون غيرهم ، فقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (4) ، وقال سبحانه : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (5).

(1) الكشاف للزمخشري : 195/1 .

(2) مجمع الأمثال للنيسابوري : 6/1 .

(3) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(4) العنكبوت / 43 .

(5) إبراهيم / 25 .

لذا يجب على المسلم أن يستمع إلى أمثال القرآن الكريم ، وأن ينفاد لما تأمر به وتنهى عنه ، وأما الإعراض عنها فهو إعراض عن الحق ، وعن رسالات المولى - عز وجل - ، مما يستوجب عقوبته في الآخرة ، وقد يذوق من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر .

قال الزركشي : ((وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه في أمور كثيرة : التذكير والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، وتقريب وترتيب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبتة للعقل كنسبة المحسوس إلى الحسن وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح ، والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره ، وعلى تحقيق أمر ، أو إبطال أمر ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (1) .

فامتن علينا بذلك لما تضمنت الأمثال من هذه الفوائد)) (2) .

المطلب الرابع : موضوعات أمثال القرآن الكريم

تناولت الأمثال في القرآن الكريم موضوعات كثيرة ومهمة ، ومن ضمن هذه الموضوعات الترغيب بالصالحات .

وباستقراء أمثال القرآن الكريم التي ترغب بالصالحات ، نجد أنها تحث الإنسان على فعل الخيرات ، كما نجد أنها تتحدث إلى النفس البشرية ، بعد أن تعرفت على طبيعتها ، وما جبلت عليه من حب الخير ، فنراها تتحدث عن تلك الصالحات ، وتحث عليها ، من خلال تصوير ما يترتب عليها من خير كثير ، وفوائد جمة عظيمة بصورة رائعة محببة للنفس .

كما أنه وباستقراء تلك الأمثال نجد أنها تناولت بالحث ، والتحريض والترغيب كثيراً من الصفات التي حرص القرآن العظيم على ترغيب المسلمين بها ، وتصويرها لهم بصورة رائعة مغرية ، تحبب للناس فعلها .

(1) إبراهيم / 45 .

(2) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، (ت) محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط مكتبة دار التراث/القاهرة - بدون تاريخ - 486/1 ، 487 .

وسأتناول - إن شاء الله - بعض هذه الصفات موضحة كيفية ترغيب القرآن الكريم بها ، متمثلة في الفروع الثلاثة الآتية :

الفرع الأول : الترغيب بالإيمان واتباع الرسول -ﷺ-

رغّب القرآن الكريم بالإيمان ، واتباع جماعة المسلمين ، وصوّر ذلك بصورة جميلة ، مغرية ، بحيث تؤثر في النفس الإنسانية ، فتجذب ، وتميل وتتصاع إليها وتدخل في تلك الجماعة ، إذا سمعتها بقلبها ، ووعتها بأذن واعية ، حيث صور جماعة المسلمين تحت جناح رسول الله -ﷺ- في نفعهم للخلق ، واحتياج الناس إليهم ، وقوة إيمانهم وحسن أعمالهم ، بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه ، بحيث إن تلك القوة تغيظ أعداءهم .

أ- فقال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (1) فَأَزْرَهُ (2) فَاسْتَغْطَظَ (3) فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ (4) يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (5)﴾ .

قال القرطبي - رحمه الله - : ((هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي -ﷺ- ، يعني أنهم يكونون قليلاً ، ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي -ﷺ- حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً ، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى يغلظ نباته وأفراخه ،... فالزرع محمد -ﷺ- ، والشطء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقووا)) (6) .

رأينا كيف رغّب المولى - عزّ وجل - عباده المؤمنين بالدخول في الإسلام ، واتباع جماعة المسلمين ، من خلال تصوير الدخول بصورة حسنة قوية ، محببة إلى النفس ؛ لتغريها بالدخول في الإسلام ؛ حيث إن قوة الزرع الذي يُخرَجُ براعمه

(1) أي : فراخه المنقرعة في جوانبه .

(2) أي : فقوى ذلك الشطء الزرع .

(3) أي : فصار غليظاً .

(4) أي : فاستقام على أصوله وجدوعه . كلمات القرآن ص 350 .

(5) الفتح / 29 .

(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 281/16 ، 282 .

وبغذيتها ، فما تلبث أن تكون قوية تعجب الزراع ، وتغيظ الكفار .
وكذا نراه يتبع طريقاً آخر غير مباشر في الدعوة للإسلام من خلال وصفه
للجنة وما فيها من نعيم ، أعده للمسلمين ، فيكون ذلك دافعاً قوياً في دخول الناس في
الإسلام ؛ لنيل ما في الجنة من نعيم - بإذن الله تعالى - .

قال تعالى واصفاً ذلك النعيم : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثَرُ دَائِمًا وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (1).
وقال أيضاً : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ
آسِنٍ (2) وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ
عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (3).

يقول السعدي - رحمه الله - : ((فهذه الجنة التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا
سخطه ، واتبعوا رضوانه ، من نعمتها وصفتها الجميلة أن فيها أنهاراً من ماء غير
متغير لا يوخم (4) ، ولا بريح منتنة ولا بحرارة ، ولا بكدورة ، بل هو أعذب المياه
وأصفاها ، وأطيبها ريحاً ، وألذها شرباً .

كما أن فيها أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه بحموضة ولا غيرها ، وأنهاراً من
خمر يُلْتذ بها لذة عظيمة ، لا كخمر الدنيا التي يكره مذاقها ، وتصدع الرأس ، وتغتال
العقول ، وأنهاراً من عسل مصفى من شمعه ، أو سائر أوساخه .
كما أن لهم فيها من كل الثمرات : من نخيل وعنب ، وتفاح ، وورمان ،
وأترج (5) ، وتين ، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا)) (6).

الفرع الثاني : الترغيب بالإتفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته
حثَّ الله - تعالى - في القرآن الكريم عباده المؤمنين كثيراً على الإتفاق في
سبيله ، ابتغاءً لمرضاته ، وبيَّن لهم أن ذلك هو سبيل الوصول إليه ، كما بيَّن - تعالى -

(1) الرعد / 35 .

(2) أي : غير متغير ولا منتن . انظر التحرير والتوير لابن عاشور : 96/26 .

(3) محمد / 15 .

(4) أي شيء ثقيل وقع فيه . انظر لسان العرب : 245/15 ، ومختار الصحاح ص 714 .

(5) فاكهة تشبه البرتقال ، انظر لسان العرب : 25/2 ، 26 .

(6) تفسير السعدي : 684/2 ، 685 .

أنه يجازي المنفق بالخير الكثير، فالحسنة عنده ليست بمثلها، بل مضاعفة أضعافاً كثيرة، لمن يستحق المضاعفة.

وفي بيان ذلك قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (1).

وقال أيضاً: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (2).

شبهه - سبحانه وتعالى - نفقة المنفق في سبيله، سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن يذر بذراً، فأنتنت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبل على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص عند النفقة، كما شبهه - سبحانه - الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب - لله لا لغيره - باذر ماله في أرض زكية مغلّة، بحسب بزره وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل (3)، والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور، ولم تحرق الزرع نار، ولا لحقته جائحة (4)، جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربرة، وهي المكان المرتفع، والذي تكون الحبة فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونمّاها، فأنتت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، وإن لم يصبها وابل (5) فطل (6)

(1) البقرة / 261 .

(2) البقرة / 265 .

(3) الدغل : محرقة : دخل من الأمر مفسد، والشجر الكثير الملتف، واشتباك النبات وكثرته . القاموس المحيط : 387/3 .

(4) جائحة : الجوح الإهلاك والاستئصال ، كالإجاحة والاجتياح ، ومنه الجائحة للشدة، لمجانحة للمال . نفس المرجع : 227/1 .

(5) الوابل : المطر الشديد القاسي العاتي . نفس المرجع : 64/4 .

(6) الطل : المطر الضعيف . نفس المرجع : 7/4 .

صغير القدر ، يكفيها لكرم منبتها ، تزكو على المطر ، وتنمو عليه ، مع أن في ذكر نوعى الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل ، فمن الناس من يكون إنفاقه وإبلاً ، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً ، والله لا يضيع مثقال ذرة (1) .

الفرع الثالث : الترغيب بالكلمة الطيبة

إن من مظاهر اهتمام الخالق - جلَّ وعلا - بالترغيب بالصالحات أنه حتى الكلمة الطيبة اهتم بها؛ لما لها من أثر طيب في الحياة الدنيا .

آثار الكلمة الطيبة :

1. فإن لها وقعٌ شديدٌ في النفس ، وبها يتقارب الناس ، وتمحو آثار البغض من النفوس .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (2) .

2. كما أنها تجعل أشد الناس عداوة لك أكثرهم محبة لك ، وقرباً منك ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (3) .

3. وهي أساس الدعوة إلى الله - جلَّ وعلا - ؛ قال تعالى مخاطباً نبيه - ﷺ - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (4) .

وقال أيضاً واصفاً لها ، مرغباً فيها ، بياناً لفضلها وفائدتها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (5) .

فقد شبهه - سبحانه وتعالى - الكلمة الطيبة - وهي على رأي جمهور المفسرين شهادة أن لا إله إلا الله - بالشجرة الطيبة، وهي المؤمن ؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضٍ لله - عزَّ وجلَّ - هو ثمرة هذه الكلمة ، تماماً كالشجرة الطيبة أصلها ثابت في قلب المؤمن

(1) انظر الأمثال لابن القيم ص 253-255.

(2) آل عمران / 159 .

(3) فصلت / 34 .

(4) النحل / 125 .

(5) إبراهيم / 24 ، 25 .

- وهو التوحيد - ، وفرعها في السماء ، يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.
وهذه الكلمة الطيبة ، تثمر كَلِمًا كَثِيرًا طَيِّبًا ، يقارنه عمل صالح ، فيرفع العمل
الصالح الكلم الطيب ، كما قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ
يَرْفَعُهُ﴾ (1).

فقد أخبر تعالى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، وأخبر أن الكلمة الطيبة
تثمر لقاتلها كل وقت عملاً صالحاً لكل وقت (2).

(1) فاطر / 10 .

(2) انظر : (الدر المنثور للسيوطي : 142/4-145 ، وتفسير الخازن المسمى لباب التأويل في
معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي
مصر ط 2 1375 هـ-1955 م ، 299/5 ، ومعالم التنزيل للبغوي : 40/4).

المبحث الثاني

سرد القصص

واشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : معنى القصص القرآني

المطلب الثاني : مزايا أسلوب السرد القرآني

المطلب الثالث : أنواع القصص القرآني

المطلب الرابع : فوائد القصص القرآني

المطلب الخامس : موضوعات القصص القرآني .

المبحث الثاني

سرد القصص

أتناول في هذا المبحث مفهوم القصص عامة وقصص القرآن خاصة ، ثم أذكر مزايا هذا الأسلوب ، وأنواع القصص القرآني وفوائده في المطالب الخمسة التالية :

المطلب الأول : معنى القصص القرآني

قصص القرآن :

هو إخبار القرآن وسياقه عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوات السابقة ، والحوادث الواقعة (1).

وقيل : هي تتبع أخبار الأمم الماضية وآثارها ، وإيراد مواقفهم وأعمالهم ، وبخاصة مع رسول الله - ﷺ - إليهم ، مع إظهار آثار الدعوات فيهم ، بأسلوب حسن جميل مع التركيز على مواطن العبرة والعظة (2).

المطلب الثاني : مزايا أسلوب السرد القصصي

كما أن الأمثال أحد أساليب القرآن الكريم في معالجة كثير من القضايا المهمة ، وكذلك القصص القرآني هو أحد هذه الأساليب ، فكثير من القضايا المتنوعة والمهمة عالجهما القرآن الكريم عن طريق سرد القصص ، وهو أسلوب تصغي إليه الأذان ، وتميل إليه النفوس ، وترتاح إليه الأفئدة ، وتتأثر بما فيه من عبر وعظات ، وبذلك يؤدي الغرض الذي سيق من أجله ، وهو الإقناع والتأثر ؛ وذلك لأن النفس البشرية تميل بطبعها دائماً للقصص ، وترسخ الحكمة والعظة المستفادة منها أكثر من أي أسلوب آخر .

وقصص القرآن الكريم هي أحسن القصص على الإطلاق، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (3) ؛ لأنها جزء من القرآن الكريم المعجز ؛ ولأنها

(1) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ، مؤسسة الرسالة ، ط 12 1403 هـ - 1983 م ، ص 306 .

(2) القصة في القرآن الكريم د. مريم عبد القادر السباعي ، مكتبة مكة ، جدة/الرياض ط (1) 1407 هـ -

1987 م ، ص 30.

(3) يوسف / 3 .

تتضمن من العبر والحكم والعظات ما لا يوجد في غيرها ، فهي ليست قصصاً عابرة ، بل هي قصص واقعية مفيدة ، تتوفر فيها الفائدة والمتعة والتشويق ، والمصادقية . وعلى الرغم من أن القرآن الكريم سرد لنا كثيراً من القصص ؛ إلا أنه لا يعتبر كتاب تاريخ ، هدفه وهمه سرد القصص ، بل يسرد موطن الشاهد ، والعظة ، والعبرة فقط، بالإضافة إلى أنه لا يروي أكثر الأمور ، حتى الأنبياء والسابقون لم يقص علينا أخبارهم جميعاً ، بل اختار منهم ما تتحقق الفائدة بمعرفة قصته ، قال تعالى : ﴿ وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (1).

كما أنه لا يعرض جميع أحداث القصة بالتفصيل ، بل يعرض الخطوط العريضة الأساسية من القصة ، ويركز على موطن الشاهد والعظة الذي سبقت القصة من أجله .

يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - : (لا يراد بالقصص سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس ، كما قال تعالى في سورة هود بعدما ذكر موجزاً عن سيرة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2).

ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا يراد منها الاستقصاء ، وليس المراد بنفي كون قصص القرآن تاريخاً أن التاريخ شيء باطل ضار يُنزّه القرآن عنه ، كلا ، إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ (3) .

المطلب الثالث : أنواع القصص القرآني

القصص في القرآن الكريم أنواع ، وكان الغرض من تنوعها أو مجيئها بكل أنواع القصة هو تحقيق الأغراض الدينية بجميع أنواعها .

(1) النساء / 164 .

(2) هود / 120 .

(3) قصة التفسير لأحمد الشرياصي ، دار الجيل/بيروت ط(2) 1978م ، ص40.

2. تثبت قلب رسول الله -ﷺ- ، وقلوب الأمة المحمدية على دين الله ، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله ، قال تعالى : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

3. تصديق الأنبياء السابقين ، وإحياء ذكراهم ، وتخليد آثارهم .

4. بيان صدق محمد -ﷺ- ، في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

5. مقارعة أهل الكتاب بالحجة ، فيما كتموه من البيئات والهدى ، وتحديهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل ؛ كقوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (2).

6. القصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره في النفس قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (3).

المطلب الخامس : موضوعات القصص القرآني

عالج القصص القرآني كثيراً من القضايا والموضوعات الهامة ، ومن أهمها

ما يلي :

الفرع الأول : إثبات قضايا العقيدة

وهو الهدف الرئيسي في القصص القرآني كله ومثال ذلك في قصة خلق آدم

- عليه السلام - .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَايِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَايِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ

(1) هود / 120 .

(2) آل عمران / 93 .

(3) أساليب البيان : ص 108 ، والآية في يوسف / 111 .

يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

الفرع الثاني : تثبيت قلب الرسول محمد - ﷺ - ، وقلوب أمته

وذلك عن طريق بيان حسن خاتمة الأنبياء والمؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين
المكذبين على مرّ الأزمان والأجيال .

قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ
فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2).

الفرع الثالث : إظهار إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه واختراقه لحاجز الزمن الماضي
فالقرآن الكريم تظهر بلاغته ، وبيانه في جميع سورته وآياته ، ففي سورة
يوسف - مثلاً - يسوق القصة ، ثم يأتي من خلالها بالعظات البالغة ، ويسوق البراهين
الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة .

قال تعالى في فصول تلك الرواية الرائعة : ﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن
نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (3).

فقد قوبلت في هذه الآية الكريمة دواعي الغواية الثلاثة ، بدواعي العفاف الثلاثة
مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ،
ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان (4).

فهذه المحنة التي تعرض لها يوسف - عليه السلام - ، هي أشد وأعظم على
النفس من محنته ، مع إخوانه ، ولكنه صبرَ عليها ، اختياراً وامتنالاً لأمر الله ، وقابل
دواعي الغواية بدواعي العفاف والطهارة .

(1) البقرة / 30-34 .

(2) هود / 120 .

(3) يوسف / 23 .

(4) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرفاني ، دار الكتب العلمية ،

بيروت/لبنان ط1 ، 1416هـ-1996م ، 2/337.

فحينما راودته عن نفسه ، وعرضت عليه نفسها ، وهي في قمة الجمال والأنوثة ، امتنع تقوى لله - عزَّ وجل - ، بالرغم من كونه غلامها ، والمسكن واحد ، وإمكانية وقوع المكروه دون شعور من أحد .
 وحينما غلقت الأبواب إغلاقاً محكماً ، فأصبح أسيرها ، إضافة لكونه غلامها ، إلا أنه صبر عن معصية الله ، وقال لها أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل الشنيع ، القبيح لأنه مما يسخط الله ، ويبعد عنه ، فهو خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي ، أي أنه امتنع مراعاة لحق سيده .

فحاولت بعد ذلك إغراءه بكل الوسائل ، فعرضت نفسها عليه عرضاً صريحاً ، فقالت له: هأنذا، ولكنه خاف ربه ، وفرَّ باتجاه الباب هارباً .

كما أن القرآن العظيم قد مزق حاجر الزمن الماضي ، وأخبرنا بما حدث للأمم السابقة ، وروى لنا قصص الرسل السابقين ، وحكى لنا على لسان نبيه الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب أسرار الماضي التي لا يعرفها أحد في قومه ، أو في العالمين المعاصرين له ولم يشاهدها الرسول - ﷺ - ، متحدياً بذلك المكذابين .

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (1).

فقوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ وتكرارها في كثير من الآيات دليل على أنه - ﷺ - لم يكن هنالك ، ولكن الذي أخبره ، ومزق له حجاب الزمن الماضي، هو الله تعالى (2).

الفرع الرابع : تحذير بني آدم من غواية الشيطان

قال تعالى في سورة الأعراف بعد ذكر قصة آدم وإبليس: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا

(1) آل عمران / 44 .

(2) والنماذج على ذلك كثيرة ، أذكر منها أربعة نماذج على سبيل المثال ، لا الحصر :

أ- قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾. هود/49

ب- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

القصص/44 .

ج- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. القصص/45 .

د- وقال عزَّ وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. القصص/46 .

سَوَاءَ اتَّهَمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

الفرع الخامس : بيان أساليب الأنبياء في الدعوة إلى الله ، أو محاجتهم لأقوامهم

لإثبات قضايا العقيدة

وتتمثل هذه الأساليب فيما يلي :

1. أسلوب التدرج : ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢﴾

فقد تمثل التدرج بدعوة إبراهيم - عليه السلام - لأبيه أولاً ؛ لأنه أقرب قومه إليه ، ثم دعا قومه ، وكذلك تدرج معهم في إثبات ما يدعو إليه ، وهو الإيمان بالله ، ونبذ كل ما يعبدون من دونه ، فجعل يسايرهم في الظن بالمعبودات ، ثم ينقض صحة ربوبيتها ؛ ليصل في النهاية إلى الإيمان بالله وحده ، والكفر بكل ما سواه ؛ لأنه لا شيء سوى الله يستحق العبادة .

(1) الأعراف / 27 .

(2) الأنعام / 74-83 .

ومن فوائد دعوة إبراهيم - عليه السلام - لأبيه أن يقيم الحجة على قومه ؛ حتى لا يقولوا لماذا يدع أقاربه في ضلالهم ويدعوننا ؟ أليس من اللائق أن لا يفرق بين قريب وبعيد إذا كان ما يقوله حقاً؟! .

فلكي تنقطع أعدارهم دعا أباه إلى عبادة الله وحده كما دعا قومه .
ولعل هذا هو السر في تكليف نبينا محمد - ﷺ - بإنذار عشيرته الأقربين قبل إنذاره لقومه ، وقد صدع بالأمر ، وأخذ يجمعهم ويخوفهم من الله ، ويريهم أنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئاً إذا هم خالفوه (1) .

2. أسلوب الترغيب والترهيب :

استخدم الرسل الكرام - عليهم أفضل الصلاة والسلام - أسلوب الترغيب في الدعوة إلى الله تعالى وكان هذا الأسلوب هو السمة المميزة لهم جميعاً ، سواء كان الترغيب في طاعة الله ، أو في الخلق الحسن ، وأتناول حديث الأنبياء مع أقوامهم في البنود الآتية :

أولاً : نوح عليهم السلام

فقد رَغِبَ نوح - عليه السلام - قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم به من مغفرة الله تعالى لذنوبهم ، ومن إطالة أعمارهم ؛ ليزدادوا من فعل الخير ، وبذلك تتحقق لهم المغفرة في الآخرة ، قال تعالى مخبراً عن نوح - عليه السلام - : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

فقد أمرهم نوح - عليه السلام - بثلاثة أشياء : أن يعبدوا الله ، ويتقوه ، ويطيعوه فيما يأمرهم به ، أو ينهاهم عنه ، ورغبتهم في هذه الأشياء الثلاثة ، بأنهم إن فعلوها غفر الله لهم من ذنوبهم ، وأطال أعمارهم ، وفي ذلك خير مؤكد ، ومنفعة لهم في الآخرة ، ثم وعدهم نوح - عليه السلام - إن استجابوا لدعوته ، وعبدوا الله وحده وتابوا إليه واستغفروه ؛ فإن الله تعالى سيسبغ عليهم نعمه في الدنيا ، ويبسر لهم

(1) انظر دراسات في طريق الدعوة الإسلامية ، ص 169 .

(2) نوح / 1-4 .

ما يحبونه من منافعها ، وهذا تشجيع من نوح لهم على الدخول في الدين قال تعالى :
﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (1).

أي إذا تبتتم إلى الله ، واستغفرتموه ، وأطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من
بركات السماء ، وأمدكم بأموال متنوعة وبنين ، وجعل لكم جنات وبساتين فيها أنواع
الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها (2).

ثانياً : هود - عليه السلام -

كما سلك هود - عليه السلام - مع قومه مسلك الترغيب بما يحبون من نزول
المطر الذي ينبت لهم الزرع، ومن أنواع القوة التي يحبونها إن هم استجابوا لدعوته ،
فقال تعالى على لسانه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (3).

فقد أمرهم هود - عليه السلام - بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ،
والتوبة عما يستقبلونه، وإن من يتصف بهذه الصفات ، فإن الله تعالى ييسر لهم
رزقهم ويرسل عليهم المطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ، ومثل هذا المطر كان
ضرورياً لهم ؛ لأن أرضهم رملية (4) ، وتحتاج إلى مطر كثير لسقي زروعهم
وبساتينهم ، ومع إرسال السماء بالمطر المتتابع ، فإن الله تعالى يزيدهم قوة إلى قوتهم
وشدة إلى شدتهم (5).

ثالثاً : موسى - عليه السلام -

كما سلك موسى - عليه السلام - نفس الطريق ، حيث دعا قومه إلى الاستعانة
بالله ، وإلى الصبر ، ووعدهم بأنهم إن فعلوا ذلك ، واستجابوا له فإن الله - تعالى -
سوف يورثهم الأرض، بحيث يصبحون هم المتصرفين بها .

(1) نوح / 10-12 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 4/425 ، ومفاتيح الغيب للرازي : 30/138 .

(3) هود / 52 .

(4) ربما لأن الأحقاف هي الكئبان الرملية ، انظر مختار الصحاح ص146 .

(5) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 9/53 ، 54 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 2/460 .

قال تعالى حاكياً عنه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1).

قال لهم موسى - عليه السلام - حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم ، فجزعوا منه وتضجروا ، فأراد موسى - عليه السلام - أن يسكنهم ويسليهم ، ويعدهم النصر على أعدائهم - فرعون وقومه - ، وتوريتهم أرضهم وديارهم ، وأن العاقبة دائماً وأبداً للمتقين في الدنيا والآخرة ، فهم أصحاب العاقبة المحمودة ؛ لإيمانهم بالله ، واستعانتهم به ، وصبرهم على ما يصيبهم في سبيل الله (2).

رابعاً : يونس - عليه السلام - ، وقومه

(أ) قوم يونس - عليه السلام - :

قال علماء التفسير : بعث الله يونس - عليه السلام - إلى أهل نينوى من أرض الموصل ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، فكذبوه ، وأبوا عليه ، وظلوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال عليه أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث ، فلما تحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم ، فلبسوا المسوح (3) ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا إلى الله - عز وجل - وصرخوا ، وتضرعوا إليه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم - بحوله وقوته ، وورأفته ، ورحمته - عنهم العذاب ، الذي كان قد اتصل بهم سببه ، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم (4).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ

لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (5).

أي : فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكتها لكفرها ، وعدم إيمانها برسولها آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته - كما فعل فرعون - ،

(1) الأعراف / 128 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 244/2 ، والكشاف للزمخشري : 105/2 .

(3) جمع منسج : وهو الكساء من الشعر . لسان العرب : 101/13 .

(4) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 442/2 ، 443 .

(5) يونس / 98 .

﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لما آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله عنهم العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا (1).

فقد آمنوا قبل وقوع العذاب بهم فعلاً ، أو قبل معاينته ، إذ بمجرد أن خرج نبيهم - عليه السلام - غاضباً علموا بقرب وقوع العذاب بهم ، فأمنوا بالله ، وتابوا إليه ، وأخلصوا النية لله ، فقبل الله - تعالى - ذلك منهم ، وغفر لهم ، ورفع عنهم العذاب الذي كان محققاً نزوله بهم لو لم يؤمنوا .

وبذلك تكون هذه القرية قد نجت من عذاب محقق بسبب الإيمان بالله ، والتوبة على ما فات ، والندم على العصيان ، والمداومة على الاستغفار .

وهذا مثلٌ حي يضرب لكل عاصٍ أو كافر ترغيباً لهم في الإيمان .

(ب) يونس عليه السلام :

وننقل من قوم يونس - عليه السلام - إلى يونس نفسه ، فإنه لما خرج مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر ، فلجّت بهم واضطربت ، وماجت ، وكادوا يغرقون ، فتشاوروا فيما بينهم أن يقترعوا ، ومن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس - عليه السلام - فلم يسمحوا به ، وأعادوها ثانية وثالثة فوقعت عليه أيضاً فألقوه ؛ لما يريد الله به من الأمر العظيم .

وبعث الله عزّ وجلّ حوتاً عظيماً من البحر فالنقمة ، وأمره ألا يأكل له لحماً ، ولا يهشم له عظماً ، فليس له برزق ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ (2) إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (3) . فَسَاهَمَ (4) فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (5) . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (6) .

(1) انظر الكشاف للزمخشري : 254/2 ، ومحاسن التأويل للقاسمي : 3398/9 .

(2) أي : هرب .

(3) أي : المملوء .

(4) أي : قارع من في السفينة .

(5) أي : المغلوبين بالقرعة . انظر جامع البيان للطبري : 117/23 ، 118 .

(6) الصافات / 139-142 .

فسمع دواب البحر تسبح الله فسبح مثلهم، واستمر على ذلك، فكان ذلك التسبيح سبباً في نجاته من هذه المحنة ، حيث استجاب الله تعالى لدعائه وتسبيحه ، ونجّاه من الغم ، وعفا عنه ، وكل ذلك بسبب العودة والإنابة إلى الله - عزّ وجل - ، وعدم الاستمرار على المخالفة - ولو كان بدون قصد - .

1. قال تعالى: ﴿وَذَا السُّنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

2. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (2). وعلى هذا فينبغي للناس بصورة عامة ، الإكثار من العمل الصالح وقت الرخاء ، والفراغ والصحة ، ومحاولة التقرب إلى الله تعالى بكافة الوسائل من دعاء وصلاة وصيام ، والتقرب إليه تعالى بالنوافل ؛ لأن هذه الأعمال رصيد نافع لهم ، يفيدهم في وقت الشدائد والكروب ، وتكون سبباً في كشف ما يحلّ بهم .

وكما رغب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أقوامهم بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، وهو الغاية الأولى التي أرسلوا من أجلها ، كذلك رغبوهم بالأخلاق الفاضلة ؛ لأن الأخلاق هي شطر الإيمان ، ولا يكمل إيمان عبد إلا إذا كانت أخلاقه حسنة ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (3).

كما دعا رسوله الكريم - ﷺ - إلى اللين في الدعوة إلى الله ، ومخاطبتهم بالحسنى ؛ لأنها قد تكون بعد إرادة الله سبباً في هدايتهم ، وهو لون من الترغيب الذي يستميل القلوب .

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (4).

وكما أن الأخلاق اللفظية مطلوبة ، فكذلك الأخلاق والسلوكيات الفعلية هي سمة للإنسان المسلم ، وختم على جبينه تميزه عن غيره .

(1) الأنبياء / 87 ، 88 .

(2) الصافات / 143 ، 144 .

(3) آل عمران / 159 .

(4) النحل / 125 .

خامساً : شعيب - عليه السلام -

إن شعيباً - عليه السلام - لم تقف دعوته لقومه عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، وإنما دعاهم إلى الإقلاع عن المفاصد والمنكرات التي فشت فيهم ، وانغمسوا فيها.

قال تعالى مخبراً عما نهاهم عنه : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (1).

فشعيب - عليه السلام - أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ، وهذا يتضمن نهيبهم عن التطفيف فيها ، ونهاهم عن بخص الناس أشياءهم ؛ أي أكل أي حق لا يجوز لهم. كما أنه نهاهم - عليه السلام - عن الإفساد في الأرض بالكفر والظلم بعد ما أصلح لها أمرها الأنبياء وأتباعهم الصالحون .

وقد رغبتهم في ترك هذه الأشياء بأن ذلك خير وأفضل لهم ، وأنه علامة لإيمانهم ، قال تعالى على لسانه - عليه السلام - : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (2).

أي أن ما أمركم به ، وأنهاكم عنه هو خير لكم في دينكم ودنياكم ؛ لأن ما أمركم به وأنهاكم عنه هو مما أمرني الله به ، والله ربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم ، ولا ينهاكم إلا عما ضار بكم ، وإنما تتحقق هذه الخيرية لكم بما أمرتكم به ونهيتكم عنه بشرط الإيمان والتوحيد ، وإلا فلا ينفع عمل بدون إيمان (3).

(1) الأعراف / 85 ، 86 .

(2) الأعراف / 85 .

(3) انظر المحرر الوجيز لابن عطية : 5/574، ومحاسن التأويل للقاسمي : 2811/7، وتفسير المنار لمحمد

رشيد رضا : 527/8.

الفصل الثاني

الترهيب من المحبطات

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص .

الفصل الثاني

الترهيب من المحبطات

وسأتناول فيه الحديث عن أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم ، في علاج كثير من القضايا سواء العقائدية ، أم الأخلاقية ، ألا وهو الترهيب .

المبحث الأول

ضرب الأمثال

كما أن الأمثال تناولت الترغيب بالصالحات ، كذلك تناولت الترهيب من المحبطات ، عن طريق تمثيلها بشيء تكرهه النفس ، وتنفر منه .
باستقراء الأمثال المرهبة في القرآن الكريم ، نجد أنها رهبت من كثير من الصفات والأخلاق التي لا ينبغي أن يتصف بها الإنسان ، سأذكر بعضاً منها - إن شاء الله - بحيث تمثل كل صفة مطلباً من المطالب التالية .

المطلب الأول : الترهيب من الكفر

الكفر من أخطر القضايا التي عالجها القرآن الكريم ، ورهب منها عباده ، حين صورّه بأبشع الصور والأمثال ؛ لتكون زاجراً ، وسبباً في الإقلاع عنها مباشرة ، فكانت - بعد إرادة الله - سبباً في هداية كثير من الناس ، كما أن كثيراً منهم كأن في آذانهم وقرأ .

وصدق الشاعر حين قال :

قد أسمعَ لو ناديتَ حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد صورّ الله - تعالى - الكفار في جهلهم ، وعدم استماعهم للحق ، واتباعهم له بالبهائم التي لا تعقل شيئاً ، ولا تهتدي .

قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٍّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (1).

(1) البقرة / 171 .

يقول ابن الجوزي : ((البهائم لا تعقل شيئاً ، وهي المثل في الجهل وعدم المعرفة ؛ ولذلك ضربها الله - تعالى - مثلاً للكفار حيث شبههم بها ، وشبه داعيهم إلى الإيمان بمن ينطق بها .

وهذا المثل يرسم صورة مزريّة مهينة للكفار ؛ ذلك أنهم كانوا لا يسمعون من دعاء الداعي إلى الإيمان ، وهو محمد - ﷺ - ، إلا جرس النغمة ، ودوى الصوت ، من غير إلقاء أذهان ، ولا استبصار ، ولا تعقل . وكذلك البهائم لا تسمع من دعاء راعيها والناقص بها إلا الصوت والزجر ، ولا تفقه شيئاً مما يقول ، ولا تعقل عنه شيئاً .

إنهم كما وصفهم الله - سبحانه وتعالى - : ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هم لهم أذان وألسنة ، وعيون ، ولكن ما فائدة كل ذلك إذا لم ينتفعوا به ، وإذا لم يهتدوا ؛ لقد عطّلوا وظائف آذانهم وألسنتهم وعيونهم ، وهي مناقذ المعرفة والهداية ، فأصبحوا كالبهائم لا تعلم شيئاً ، ولا تعقل شيئاً ، وذلك هو مصير كل من يغلق نوافذ العلم والمعرفة والهداية)) (1).

وكما شبههم سبحانه وتعالى بالبهائم بشكل عام ، كذلك صورهم في إعراضهم ، وعدم استجابتهم ونفورهم عن القرآن بنوع خاص من البهائم ، وهي حُمُرُ الوحش حال فرارها ممن يريد صيدها ورميها كأسد ونحوه .

قال تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (2).

قال ابن القيم - رحمه الله - ((شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ، ففرت منهم ، وهذا من بديع التمثيل ، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله - سبحانه - رسوله - ﷺ - كالحمر ، فهي لا تعقل شيئاً ، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور ، وهذا غاية الذم لهؤلاء ، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها)) (3).

(1) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ، ط المكتب الإسلامي/دمشق - بدون تاريخ - : 287/3.

(2) المدثر / 49 ، 50 .

(3) الأمثال لابن القيم ص 212 .

فهم إذن أسوأ حالاً من الحر ، وأقل إدراكاً ووعياً ، وفهماً للحقائق ، فهي قد فرّت مما فيه مضرتها وهلاكها ، وهم فرّوا مما فيه نجاتهم وحياتهم .
ولقد ضرب - سبحانه وتعالى - مثلاً حياً يُتلى إلى قيام الساعة ، مرهباً فيه من الكفر وعاقبته، ومبيناً أنه يقلب الحال ، ويجر على صاحبه الدمار والوبال في الدنيا قبل الآخرة .

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا (1) مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (2) . أَوْ يُصْبِحُ مَاوَهَا غُورًا (3) فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (4) .

وكما أن الكفر يدمر حياة الأفراد ، ويغيّر أحوالها ، فهو كذلك يقضي على القبائل والقري بأكملها ، يغيّر حالها ، ويقلب اطمئنانها وهدوتها إلى جوع وخوف واضطراب .

قال تعالى: ﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (5) .

(1) أي : عذاباً بمطر عظيم ، أو غيره .

(2) أي : اقتلعت أشجارها ، وتلفت ثمارها ، وغرق زرعها ، وزال نفعها .

(3) أي غائراً في الأرض . تفسير السعدي : 1011/1 .

(4) الكهف / 32-42 .

(5) النحل / 112 .

ولا يقف الحال عند تغيير الحال ، بل يتعداه إلى الدمار والهلاك ، والفناء بالكلية .

قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا الْبِلَاحُ الْمُبِينُ . قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ . وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (1).

مصير عمل الكافرين :

بيِّن - سبحانه وتعالى - أن عمل الكافر مردود غير مقبول ، فلو عمل الكافر عملاً صالحاً بشئى أنواعه ، فلن يقبل منه شيء - بأمر الله تعالى - مهما بلغت كثرته . قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (2).

وقد شبه - سبحانه وتعالى - ما ينفقه الكافر من أموال في أوجه الخير بالريح القوية الشديدة التي تصيب الزرع فتهلكه .

قال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (3).

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها ، كمثل زرع أصابه ریح باردة ، أو نار فأحرقته وأهلكته ،

(1) يس / 13-31 .

(2) الفرقان / 23 .

(3) آل عمران / 117 .

فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه، قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك، ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية، ومنع حق الله تعالى، وقيل: ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة، أو في غير موضعها، فأدبهم الله تعالى؛ لوضعهم الشيء في غير موضعه)) (1).

قال ابن القيم - رحمه الله - : ((هذا مثل ضربه الله - تعالى - لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبهه - سبحانه - ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسب الثناء، وحسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله، واتباع رسله - عليهم الصلاة والسلام - بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابه ريح شديدة البرد جداً، يحرق بردها ما يمرّ عليه من الزرع (2)، والثمار فأهلك هذا الزرع وأبيسته)) (3).

وكذا شبه أعمالهم بالرماد الذي هبّت عليه ريح شديدة قدرته، ولم يبق منه شيئاً .

قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (4).

يقول ابن القيم - رحمه الله - : ((شبهه - سبحانه وتعالى - أعمالهم في ذهابها وبطلانها لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله - عزّ وجل - وعلى غير أمره برمادٍ طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدّة حاجته إليه، فلذلك لا يقدر من كسبوا على شيء، لا يقدر يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون لها أثراً من ثواب، ولا فائدة

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 187/4.

(2) قول ابن القيم - رحمه الله - : (...يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع... الخ) قد يبدو متناقضاً في الظاهر؟ لأن الذي يحرق هو الحرّ لا البرد .

والجواب : إن الريح الباردة جداً تؤدي إلى تجميد المياه الموجودة على أوراق الزرع، فإذا جمدت سدّت الخلايا أو المنافذ التي يتنفس منها النبات، وهي التي يكون منها ما يعرف (بالنتح)، عندئذ يختنق النبات لانسداده تلك المنافذ فيموت، ويجف، فيبدو كما لو كان محترقاً .

(3) الأمثال لابن القيم ص 258، 259.

(4) إبراهيم / 18 .

نافعة ؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه)) (1) .
وكذا شبهها - سبحانه وتعالى- بالسراب الذي لا حقيقة له ، وبالظلمات الداھمة المتراكمة، الشديدة ، وما كلُّ ذلك التشبيه إلا لبيان خطورة المسألة ، وربما تُعجب الكافر أعماله الصالحة ، ويظنُّ أنها تنفعه يوم القيامة ، وربما يغترُّ غيره من ضعاف النفوس من المسلمين، ويظنون أن أعماله سوف تنفعه، وتشفع له ، وتنجيه من النار، وربما تحدثهم نفوسهم بمحاكاته .

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوفَاءً حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ (2) يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (3) .

نكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أن أعمال الكفار باطلة ، وأنها لا شيء ومن المعلوم أن عمل الكافر الصالح ينفعه في الدنيا دون الآخرة.
يقول ابن القيم - رحمه الله - : ((ذكر سبحانه للكافرين مثلين ، مثلاً بالسراب ومثلاً بالظلمات المتراكمة ؛ وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان ، أحدهما : من يظن أنه على شيء، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل ، أهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم ، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب يُرى في أعين الناظرين ماءً ، ولا حقيقة له ، وهكذا الأعمال التي لعير الله - عزَّ وجل - ، وعلى غير أمره ، بحسبها العاقل نافعة له ، وليست كذلك ، وهذه هي الأعمال التي قال الله - عزَّ وجل - فيها : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (4) .

(1) الأمثال لابن القيم ص 227 .

(2) أي : عميق كثير الماء . كلمات القرآن ص 244 .

(3) النور / 39 ، 40 .

(4) الفرقان / 23 .

وتأمل جعل الله - سبحانه - السراب بالبقية - وهي الأرض الخالية المقفرة من البناء والشجر والنبات ، فجعل السراب أرضاً قفر لا شيء فيها ، والسراب لا حقيقة له ، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أفقرت من الإيمان والهدى .

وتأمل ما تحت قوله : ﴿ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ ماءً ﴾ ، والظمان الذي اشتد عطشه ، فرأى السراب ، فظنه ماء ، فتبعه ، فلم يجده شيئاً ، بل خانته وهو أحوج ما يكون إليه ، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، ولغير الله ، جعلت كالسراب ، فرفعت لهم أظماً ما كانوا إليه ، وأحوج ما كانوا إليها ، فلم يجدوا شيئاً ، ووجدوا الله سبحانه ، ثم جازاهم بأعمالهم ، ووفاهم حسابهم ، فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى .

وأما النوع الثاني : وهم أصحاب مثل الظلمات المتركمة ، وهم الذين عرفوا الحق والهدى ، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، متركمة عليه ظلمة الطبع ، وظلمة النفوس ، وظلمة الجهل ، حيث لم يعملوا (1) بعلمهم فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغي واليهوى ، فحالهم كحال من كان في بحر لحي لا ساحل له ، وقد غشيه موج ، ومن فوق ذلك الموج موج ، ومن فوقه سحب مظلم ، فهو في ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب ، وهذا نظير ما فيه من الظلمات ، التي لم يخرجها الله منها إلى نور الإيمان)) (2) .

المطلب الثاني : الترهيب من الشرك بالله - تعالى -

وكما حذر - سبحانه وتعالى - ورهب من الكفر ، كذا رهب عباده من الشرك به ؛ لأن ضرر الشرك وخطره لا يقل عن ضرر الكفر ، فالشرك يحبط العمل الصالح تماماً مثل الكفر ، قال تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ (3) .

وقال أيضاً : ﴿ وكو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ (4) .

(1) في الأصل يعلموا ، وهو خطأ طباعي .

(2) الأمثال لابن القيم ص 195 ، 196 ، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير 305/3 .

(3) الزمر / 65 .

(4) الأنعام / 88 .

وقد بيّن - سبحانه وتعالى - ان من أشرك به فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، وافترى على الله إثماً عظيماً ، وبذلك يستحق أن يُحرّم من الجنة ؛ وبكفي المشرك خسارة أن رحمة الله - تعالى - تشمل جميع العباد يوم القيامة إلا هو .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

وقال - جلّ وعلا - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (2) .

وقال - تبارك وتعالى - : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (3) .

من أجل ذلك رهّب - سبحانه وتعالى - من الشرك به ، ومثّل له بأبشع الصور وأرعبها ، حين مثّل حال المشرك بحال الذي يهوى من السماء ، أي من مكان بعيد جداً إلى مكان سحيق ، مع ما يلزم ذلك من خوف وخشية ، وإيقان بالهلاك .

قال تعالى واصفاً ذلك : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (4) .

وفي هذا التشبيه أمران :

أحدهما : شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب في هلاك نفسه هلاكاً لا يُرجى معه نجاة ، فصور حاله بصورة من خرّ من السماء فاخطفته الطير في الهويّ ، فتمزق فرقاً ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة .

والثاني : أن يكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته ، وشرفه بالسماء التي هي مصعده ، ومهبطة ، فمنها يهبط إلى الأرض ، وإليها يصعد ؛ وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين ، من حيث التضيّق الشديد ، والآلام المترامية ، والطير الذي تتخطف أعضائه ، وتمزقه كل ممزق (5) .

(1) النساء / 48 .

(2) النساء / 116 .

(3) المائدة / 72 .

(4) الحج / 31 .

(5) الأمثال لابن القيم ص 245 ، وانظر تفسير أبي السعود : 104/6 .

كما أنه من باب الترهيب من الشرك ، شبه - تعالى - المشركين بما هو غاية في الضعف والوهن ، فقد شبههم بالعنكبوت ، وشبه آلهتهم التي يعبدونها مع الله ببيت العنكبوت في ضعفها .

قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾ (1)

يقول د. أحمد بدوي : ((وكرر في القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة الضوء ، تغمرها فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يمثل وَهْنٌ ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله ، وهذا لن يفيدهم فائدة ما فهم يعبدون ويبدلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدي ، فوجد في العنكبوت ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء ، ويبذل جهده في التنظيم وهو لا يبني سوى أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوي ، فزادته وضوحاً وتأثيراً)) (2)

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ ، فلا يعقل صحتها ولا يدرك حسنها وبلاغتها إلا الراسخون في العلم ؛ لأن الأمثال والتشبيهات هي الطرق المؤدية إلى المعاني المحتجبة في الأستار ، حيث تبرزها ، وتكشف عنها ، وتصورها للأفهام ، كما صور هذا المثل الفرق بين حال المشرك وحال الموحد .

المطلب الثالث : الترهيب من الإعراض عن دين الله - عز وجل -

حذر - سبحانه وتعالى - من التكذيب والإعراض عما نزل من آيات بينات ، وشبه المعرضين بأحقر تشبيه وأخسه ؛ ليكون أشد في الردع ، وأرجى في الإصلاح ، فقد وصف اليهود وهم أصحاب كتاب سماوي كالمسلمين ، غير أنهم ناصبوا الإسلام والمسلمين العداً والدساً ، والخديعة ، وتعاونوا مع المشركين - عبدة الأصنام - ، ولم ينتفعوا بكتابتهم هذا ، لذا وصفهم - سبحانه وتعالى - بأذل الحيوانات ، وأجهلها .

(1) العنكبوت / 41-43 .

(2) من بلاغة القرآن ص 193 .

قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (1).
(فالحمار حيوان بليد مهين ذليل ، يضرب به المثل في الذل ، إذ قال العرب
في أمثالهم : " أذلُّ من حمار مقيد) (2).

كما يضرب به المثل في الجهل والغفلة ، وفي قلة المعرفة ، وغلظ الطبيعة (3).
ولهذا مثل الله - عزَّ وجل - به اليهود ، كلفوا بالتوراة ، وتدبر آياتها ، والعمل
بما فيها ، ودعوة الناس إليها ، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك ، وكان همهم قراءتها وحفظها
ليس غير ، فلم ينتفعوا منها بشيء ، ولم يحملوها حقَّ حملها ؛ لأن حملها يبدأ بالإدراك
والفهم والفقہ ، وينتهي بالعمل بما فيها ، وتطبيق ذلك على أنفسهم ، وعلى من حولهم
من الناس .

ألا يكون هؤلاء اليهود كالحمار الذي يحمل الكتب الكبار من كتب العلم ،
ويمشي بها جاهلاً كل الجهل بما فيها ، غير مميز بينها وبين سائر الأحمال التي ليست
من العلوم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل سوى أنه ثقيل
عليه ، ويكد متنته؟! (4) .

وكما شبههم بالحمار ، فقد شبه بعضهم بما هو أذلُّ وأحقر ، وأنجس ، فقد شبه
حال الذي آتاه الله من آياته ، وأنعم عليه بنعمة العلم ، فلم يشكر تلك النعمة ؛ بل
جدها ، وانسلخ منها ، وأخذ إلى الأرض ، وظل يلهث وراء الدنيا ، بحال الكلب
الذي من أخص صفاته وأخسها اللهاث الدائم المتصل ، سواء حُمِّل عليه أو لم يُحْمَل .

قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَكَوْا شِئْنَا لِرَفَعَانَا بِهَا وَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ

(1) الجمعة / 5 .

(2) الدرّة الفاخرة لحمزة الأصبهاني ، (ت) د. عبد المجيد قطامس ، ط/ القاهرة 1391هـ - 1971م ،

415/2 .

(3) انظر الحيوان للجاحظ ، (ت) عبد السلام هارون ، ط/ القاهرة 1945م ، 255/2 ، 38/4 .

(4) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، ط/ القاهرة ، 1939م ، ص 80 ، 81 .

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴿١﴾ .

وكل ما يعيننا من حقيقة هذا الرجل ، هو وأمثاله ، ومن سار على دربه ، أنه كان رجلاً آتاه الله من آياته ، وأنعم عليه نعمة العلم ، حتى صار العالم الكبير ، والحبر النحرير ، ثم جدد النعمة ولم يشكرها ، أو انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله ، وترك كتاب الله وراء ظهره ، ونبذ الأخلاق ، التي يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس ، فلما انسلخ منها تسلط عليه الشيطان ، وأغراه بالمعاصي ، ودفعه إليها ، وبذلك صار إلى أسفل سافلين ، ولو شاء الله لرفعه ، ولكنه أخذ إلى الشهوات السفلية ، والمقاصد الدنيوية ، وترك طاعة مولاه ، فهذا مثله في شدة حرصه على الدنيا ، وانقطاع قلبه إليها بالكلب الذي لا يزال لاهثاً في كل حال .

يقول السعدي - رحمه الله - : ((وفي هذه الآيات ، الترغيب في العمل بالعلم ، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه ، وعصمة من الشيطان ، والترهيب من عدم العمل به وأنه نزول إلى أسفل سافلين ، وتسليط للشيطان عليه ، وفيه أن اتباع الهوى ، وإخلاق العبد إلى الشهوات يكون سبباً للخذلان)) (2) .

المطلب الرابع : الترهب من النفاق

إن خطر النفاق وضرره لا يقل جُرماً عن خطر الكفر والشرك ، بل هو أشد وأنكى ، فالمنافق هو العدو الحقيقي للمسلمين ؛ لأنه مستور الحال ، مختلط مع المسلمين ، يجلس في مجالسهم ، ويستمع لأحاديثهم ، ويعرف أخبارهم ، ويتمنى في قرارة نفسه مضرتهم وهلاكهم ، بعكس العدو الظاهر - الكفار والمشركين - ، فهو لاء أمرهم مكشوف ، وحالهم معروف ، يستتر منهم المسلمون عند الحديث ، ولا يجالسونهم ، ولا يخالطونهم .

من أجل ذلك حذر - تعالى - عباده المؤمنين منهم ، من مخالطتهم ؛ لأنهم على ملة الكفر ، وقد وصفهم تعالى بأنهم إخوة للكفار ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (3) .

(1) الأعراف / 175-177 .

(2) تفسير السعدي : 630/1 ، 631 .

(3) الحشر / 11 .

كما قرن - عز وجل - بينهما في العقوبة ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (1).

وقال أيضاً : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (2).
وكذا طلب من الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - عدم إطاعتهم ،
بل أوجب مجاهدتهم كالكفار .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (3) .
وقال أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (4) .
ومن أجل القضاء على النفاق ، أو الحد منه ، رسم - تعالى - ، له صورة
مرعبة مخيفة ، ترهيباً وتنفيراً منه ؛ لعل المنافقين يستيقظون من غفلتهم ، ويعودون
إلى رشدهم ، ويخلصون النية لله ، بعد أن يدخلوا في دائرة الإسلام بحق .

قال تعالى واصفاً حال المنافقين : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ
تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا
حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي
آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسْمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5).

ضرب تعالى في هذه الآيات للمنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلاً نارياً ، ومثلاً
مائياً ؛ لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة ، فإن النار مادة النور ،

(1) النساء / 140 .

(2) التوبة / 68 .

(3) التوبة / 73 .

(4) الأحزاب / 1 .

(5) البقرة / 14-20 .

والماء مادة الحياة .

((فقد ضرب الله تعالى في هذه الآية المثل لما يعترى الكفار والمنافقين من الشبه والشكوك في القرآن ، فهؤلاء المنافقون مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي كان في ظلمة عظيمة ، وحاجة إلى النار شديدة ، فاستوقد ناراً من غيره ، فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بتلك النار ، وقرت بها عينه ، فبينما هو كذلك ، إذ ذهب الله بنوره ، فزال عنه النور ، وذهب معه السرور ، وبقي في الظلمة العظيمة ، والنار المحرقة ، فذهب ما فيها من الإشراق ، وبقي ما فيها من الإحراق ، وبقي في ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، والظلمة الحاصلة بعد النور ، فكيف يكون حال هذا الموصوف ؛ فكذاك هؤلاء المنافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم تكن لهم صفة ، واستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا ، فَحَقَّنَتْ بِذَلِكَ دِمَاؤَهُمْ ، وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا ، فبينما هم كذلك إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كلُّ همٍّ وغمٍّ وعذاب ، وحصل لهم ظلمات متراكمة ، ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار (1) ، وبئس القرار .

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي ، فشبههم بأصحاب المطر الذي ينزل من السماء بكثرة ، وهذا المطر فيه ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، بالإضافة إلى الرعد ، وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب ، والبرق ، وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب ، فإذا أضاء إليهم البرق تلك الظلمات مشوا ، وإذا أظلم وقفوا مكانهم .

فهكذا حالة المنافقين ، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فيروعهم وعيده ، وتزعجهم وعوده ، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيِّب الذي يسمع الرعد ، فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت ، فهذا ربما حصلت له السلامة .

(1) قوله : (وظلمة النار) قد يبدو متناقضاً ؛ إذ النار تطرد الظلمة ، فكيف يكون لها ظلمة؟! والجواب : أن نار جهنم قد جاء في الحديث أنه أوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة.

وأما المنافقون فأنى لهم السلامة ، وهو تعالى محيطٌ بهم ، قدرة وعلماً ، فلا يفوتونه ، ولا يعجزونه ؛ بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها أتمَّ الجزاء))⁽¹⁾ .
 أي أن حال المشبه به الموجود في الظلمات المادية ربما تحصل له النجاة ، والسلامة ، ولكنَّ هؤلاء المنافقين لا يمكن أن تحصل لهم النجاة أبداً ، فهم قد خسروا الدنيا والآخرة ، وستعصر قلوبهم ندماً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

يقول الشنقيطي - رحمه الله - : ((ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تفرع الأذان ، وتزعج القلوب ، وذكر بعضاً منها في آياتٍ أخرٍ كقوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾⁽²⁾ ، وكقوله : ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾⁽³⁾ .

وضرب تعالى المثل بالبرق لما في القرآن من نور الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وقد صرح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل والشك والشرك ، كما تكشف بالنور الحسي ظلمات الدجى ، كقوله : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾⁽⁴⁾ .
 وقوله : ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ﴾⁽⁵⁾ .

وقد أوضح - ﷺ - هذا المثل المشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسى - رضي الله عنه - حيث قال - ﷺ - : (إن مثل ما بعثني الله به - عز وجل - من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة نقيةً قبلت الماء ، فأنبتت الكأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب⁽⁶⁾ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان⁽⁷⁾ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه الله بما بعثني به ، فعلم

(1) تفسير السعدي : 40 ، 41 بتصرف .

(2) فصلت / 13 .

(3) سبأ / 46 .

(4) النساء / 174 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي : 41/1 ، 42 ، والآية في الأعراف / 157 .

(6) الأرض التي لا تنبت كلاً .

(7) المستوية التي لا نبات فيها . صحيح مسلم بشرح النووي : 51/8 .

وَعَلَّمَ ، وَمَثَلٌ مِنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هَدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ (1).

المطلب الخامس : الترهيب من الرياء

إن الرياء هو الشرك الأصغر - كما مر - ، ولا يقل ضرراً أو خطراً عن الشرك الأكبر ، فهو يحبط العمل الصالح ويبطله ، ويمنع انعقاد ثوابه .
من أجل هذا حذر الله تعالى ، ورهب منه ، حين مثل المرائي وبطلان عمله كمثل حجر أملس عليه تراب ، أصابه مطر شديد ، فتركه لا شيء ، وكذا المرائي يعمل أعمالاً صالحة ، ثم يأتي الرياء فيدحضها ، ويأكل أجرها ، ولا يبقى منه شيئاً ، فتصبح كأن لم تكن .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (2).

يقول الطبري - رحمه الله - : ((ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم ، فقال : فكذلك أعمالهم بمنزلة الصفوان الذي كان عليه تراب ، فأصابه الوابل من المطر ، فذهب بما عليه من التراب ، فتركه نقياً لا تراب عليه ، ولا شيء ، يراهم المسلمون في الظاهر أن لهم أعمالاً ، كما يرى التراب على هذا الصفوان بما يراؤونهم به ، فإذا كان يوم القيامة ، وصاروا إلى الله ، اضمحل ذلك كله ؛ لأنه لم يكن لله ، كما ذهب الوابل من المطر بما كان على الصفوان من التراب ، فتركه أملس لا شيء عليه ، فذلك قوله : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ ﴾ ، يعني به الذين ينفقون أموالهم رياء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، يقول : لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا في الدنيا ؛ لأنهم لم يعملوا لمعادهم ، وحظهم من أعمالهم ما أرادوه وطلبوه بها... ثم قال - تعالى ذكره - للمؤمنين : لا تكونوا كالمنافقين الذين هذا المثل صفة أعمالهم فتبطلوا أجور صدقاتكم بمَنِّكم على من تصدقتم بها عليه ،

(1) أخرجه (خ) ، ك (العلم) ، ب/20 (فضل من علم وعلم) ، 53/1 ، ح (79) وأخرجه (م) ، ك (الفضائل)

، 420/15 ، ح (15) ، بنحوه .

(2) البقرة / 264 .

وأذاكم لهم ، كما أبطل أجر نفقة المنافق الذي أنفق ماله رثاء الناس ، وهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر عند الله)) (1) .

يقول ابن القيم - رحمه الله - : ((وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي ،.... فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر ، فالعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر ، فقوة ما تحته وصلابته تمنعه من الثبات والنبات عند نزول الواابل ، فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء ، وينبت الكلاء ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر ، فإذا نزل عليه وابل الوحي ، انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه ، فبرز ما تحته حجراً صلباً لا نبات فيه ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه ، أحوج ما كان إليه)) (2) .

المطلب السادس : الترهيب من الغيبة

مرّ أن الغيبة شديدة الخطورة على حسنات العبد المؤمن ، فهي تحبط عمله ، وتجعله هباءً منثوراً (3) .

وقد حذر الله - جلّ شأنه - عباده المؤمنين منها ، ونفّر منها غاية التنفير بأبشع الصور على الإطلاق ، حين صوّر المغتاب الذي يخوض في عرض أخيه المسلم بالذي يأكل لحم إنسان ميت، فهو أكلٌ أولاً لحم إنسان ، وأكل لحم الإنسان لا يجوز ، وثانياً فإن ذلك الإنسان ميت ، وأكل الميتة لا يجوز حتى في الحيوانات التي يجوز أكل الحي منها ، وهو ثالثاً أخوه، والأخوة تقتضي الرحمة .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (4) .

(1) جامع البيان للطبري : 92/3 ، 93 .

(2) الأمثال لابن القيم ص 257 ، 258 .

(3) انظر ص 122 .

(4) الحجرات / 12 .

فقد شبه - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات الكريمة تمزيق عرض الأخ عن طريق الغيبة بتمزيق لحمه ، فكان المغتاب الذي يمزق لحم أخيه في غيبته ، بمثابة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت ، وكذا المغتاب خالف مقتضى الأخوة ، وهي التراحم والتناصر ، وجعل مكانها الدم والعيب والطعن (1) .

يقول القرطبي - رحمه الله - : ((مثل الله الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه .

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - : (إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين ، وقبيح في النفوس) .

وقال قتادة : (كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؛ كذلك يجب أن يمتنع عن غيبته حياً ، فشبه الوقعة في الناس بأكل لحومهم ، فمن تنقص مسلماً أو تلم عرضه ، فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً) (2) .

وبذلك تُعرف خطورة الغيبة ، وبهذا التصوير والتمثيل المرعب ، لا بد وأن يتصاع المسلمون لهذا ، ويتركوا الغيبة فوراً ، لأن أكل لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً .

هذه من أهم الأمور التي رهّب منها القرآن الكريم ، وإن كان هناك كثير من الصفات الأخرى .

ولكن اقتصرنا على بعضها ؛ لأهميتها وخطورتها ، ولمخافة الإطالة .

(1) انظر الأمثال لابن القيم : ص 225 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 319/16 .

المبحث الثاني

سرد القصص

واشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : الترهيب من الكفر والشرك

المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق الذميمة .

المبحث الثاني

سرد القصص

وكما أن القصص القرآني سيق من أجل الترغيب بالصالحات ، فكذا سيق من أجل التنفير من المحبطات .

وهذا أيضاً أسلوب من أساليب جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في الدعوة إلى الله تعالى، فكثيراً ما نجدهم يستخدمون هذا الأسلوب في التنفير والترهيب مما ينهاه عنه ، وعلى رأس هذه القضايا الترهيب من الكفر والشرك ، ثم الترهيب من الأخلاق الذميمة .

المطلب الأول : الترهيب من الكفر والشرك :

وأكتفي هنا بسوق ثلاثة أمثلة لقيام الأنبياء بالترهيب من الكفر أو الشرك ، مع بيان ألوان من العذاب الذي حاق بأقوامهم .

أولاً : نوح - عليه السلام -

هذا نوح - عليه السلام - لم يقتصر على أسلوب الترغيب في تبليغ دعوته إلى قومه ، وحثهم على الاستجابة لها ، وإنما أخذ أيضاً بأسلوب الترهيب ؛ أي التخويف من العذاب في الدنيا والآخرة ، إن هم عصوه ، ولم يستجيبوا لدعوته .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

قال مقاتل : يعني الغرق بالطوفان (2) .

وهذا ترهيب لهم من عصيانه بعذاب الدنيا بالغرق .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (3) .

أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة إذا خالفتم أمري ، ولقيتم الله وأنتم مشركون به (4) .

(1) نوح / 1 .

(2) مفاتيح الغيب للرازي : 134/10 .

(3) الأعراف / 59 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 228/2 .

وهذا ترهيب لهم بعذاب الله يوم القيامة إن خالفوه ، ولم يستجيبوا لدعوته .

وقال تعالى عما قاله نوح لقومه : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (1).

قال ابن عباس - رضي الله عنه - : (ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته : أي

لا تخافون من بأسه ونقمته) (2) .

ثانياً : هود - عليه السلام -

كما سار على نفس الدرب هود - عليه السلام - ، فقد أذّر قومه ، وخوّفهم من

عذاب الله تعالى، إن هم خالفوا أمره ، ولم يستجيبوا له .

قال - تعالى - : ﴿ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (3).

وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (4).

أي اذكر هوداً - عليه السلام - ، فهو أخوهم في النسب لا في الدين ، إذ أذّر

قومه، وقال لهم : إني أخاف عليكم إن كذبتم وبقيتم مصرين أن يصيبكم عذاب الله (5).

ثالثاً : شعيب - عليه السلام -

كما كان الترهيب من أسلوب شعيب - عليه السلام - في الدعوة ؛ فقد أذّر

قومه من العذاب الشديد الشامل إن هم عصوه ، ولم يتبعوا سبيله.

قال تعالى على لسانه : ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

مُحِيطٍ ﴾ (6).

أي إني أراكم بخير وسعة في معيشتكم ورزقكم ، فلستم في حاجة إلى التطفيف

وإني أخاف عليكم أن تسلبوا ما أنتم فيه بعصيانكم شرع الله ، وإني أخاف عليكم عذاب

يوم محيط ، أي في الدار الآخرة .

(1) نوح / 13 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 425/4 .

(3) الأحقاف / 21 .

(4) الشعراء / 135 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 197/16 ، 198 .

(6) هود / 84 .

وقد رهبَّ الله - تعالى - عباده من عدم الإيمان به ، وعدم الاستجابة لرسوله - ﷺ - بذكر عاقبة الأقوام المكذبين السابقين ، وكأنه يقول : إن فعلتم مثل ما فعلوا حلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم ، وهذا غاية في الزجر والوعيد ، فعاقبتهم جميعاً كانت متشابهة ، ولكن اختلف الأسلوب ، وهذه طائفة من ألوان العذاب الذي أخذهم الله به أخذ عزيز مقتدر .

1. قوم نوح - عليه السلام - :

قال تعالى فيهم : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّجِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (1) ، وكان غرقهم بماء منهمر ، وتفجير الأرض عيوناً ، وجرت سفينة نوح عليه السلام في موج كالجبال .

2. وقوم هود - عليه السلام - :

قال تعالى فيهم : ﴿ فَاتَّجِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، وقد كان قطع دابرهم بالريح العقيم التي ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم .

3. وقوم صالح - عليه السلام - :

قال تعالى فيهم : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (3) ، حيث أهلكوا بالصيحة التي جعلتهم كهشيم المحتضر .

4. وقوم شعيب - عليه السلام - :

قال تعالى فيهم : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (4) ، حيث أهلكوا بعذاب يوم الظلة والصاعقة التي نزلت بهم فأخمدت أنفاسهم .

5. فرعون وجنوده :

قال تعالى فيهم : ﴿ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِإِنِّهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (5) .

(1) الأعراف / 64 .

(2) الأعراف / 72 .

(3) الأعراف / 78 .

(4) الأعراف / 91 .

(5) الأعراف / 136 .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : ((يخبر تعالى عن فرعون وقومه ، ومنهم جنوده ، أنهم لما عتَوْا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات واحدة بعد واحدة (1) ، انتقم الله منهم بإغراقه وإغراق جنوده معه في البحر الذي فرقه الله لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم جاء فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما صاروا فيه أطبقه الله عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وإعراضهم وتغافلهم عنها)) (2) .

6. إهلاك أصحاب القرية - قوم الرجل المؤمن - :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (3) ، فكان مصيرهم كعاقبة ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .

7. قوم لوط - عليه السلام - :

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴾ (4) .

يبين تعالى أنه أهلك كل قوم بصورة تختلف عن الأخرى ، بناءً على ما اقتضته الحكمة ، وأوجبه المعاملة بالمثل ، وحتى لا يكون نوع العذاب متوقفاً لدى الشعوب اللاحقة .

قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ (5) .

المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق الذميمة

وكما رَهَّب الله - سبحانه وتعالى - عباده من عدم الإيمان به ، وإخلاص العبادة له ، وكذا رَهَّب - تعالى - من الصفات الذميمة التي لا يحبها الله ، ولا يرضى عنها .

(1) هي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والصفادع ، والدم ، والسنين والقحط ، ونقص الثمرات والأموال ،

واليد البيضاء ، والعصا . انظر جامع البيان للطبري : 46/9 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 248/2 .

(3) يس / 28 ، 29 .

(4) الحجر / 73 ، 74 .

(5) العنكبوت / 40 .

ومن أهم الصفات التي رَهَّبَ تعالى منها صفة الكبر .

قال تعالى على لسان لقمان في وصيته لابنه : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (1) .

أي لا تعرض بوجهك عنهم إذا كلمتهم أو كلموك ؛ احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وبسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إنائه) (2) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (3) ، أي : خيلاء متكبراً .

ثم خوِّف - سبحانه وتعالى - من رفع الصوت، وأخبر أنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس، ثم شبه هذه الأصوات المرتفعة بأحقر صورة ، حين شبهها بأنها تشبه صوت الحمير (4) .

تعقيب وتحذير لهذه الأمة :

وبذلك أصبح واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أن الإعراض عن شريعة الله عاقبته هلاك المعرضين لشرع الله سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، وإن كان موعد حلول العذاب غير معروف ، وكذا نوع الهلاك مجهول .

وقد أشار تعالى إلى سنته هذه بآيات كثيرة ، فقال - عزَّ من قائل - : ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (5) .

(1) لقمان / 18 ، 19 .

(2) أخرجه (حم) ، 437/3 ، ح(14692) ، وقال : صحيح بطرقه وشواهده ، وحسنه الألباني في صحيحه ، 837/2 ، ح(4557) .

(3) الإسراء 37 .

(4) انظر محاسن التأويل للقاسمي : 4802/13 .

(5) غافر / 21 .

أي هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ، أو لم يسيروا وينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبيائهم ، وما حلَّ بهم من العذاب ، مع أنهم كانوا أشدَّ من هؤلاء قوة واثاراً في الأرض ، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد ، أخذهم الله بذنوبهم ، وهي كفرهم برسلمهم ، وإعراضهم عن شريعة ربهم التي أرسل رسله بها ، وما دفع عنهم عذاب الله أحد (1) .

من أجل ذلك يجب ألا يغترَّ المعرضون بقوتهم ، وألا يطمئنوا إلى تأجيل حلول العذاب والهلاك بهم رغم عصيانهم ، وليعلموا جيداً أن ذلك إمهال من الله العزيز الحكيم ؛ لأن الله يمهل ولا يهمل ، وأنه إذا أراد أن يأخذ أحداً فلن يعجزه ، ويجب ألا يغتروا أيضاً بكفائاتهم ومعدّاتهم ، وآلاتهم ، ولا يركنوا إلى أنهم الأقوى في زمانهم فإن من حكمة الله العلي العظيم أن يجعل نهاية الظالم ، المغتر ، المنكبر على يد ضعاف الناس ؛ لأن الطغاة دائماً يقومون على باطل ، فقال تعالى موضعاً ذلك : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ (2) .

وكان داود عليه السلام جندياً في جيش طالوت ، بينما كان جالوت هو قائد القوم الجبارين .

تنبيه : استخدام أسلوب الترغيب والترهيب معاً

ولم نقف طريقة الأنبياء - عليهم السلام - على استعمال أسلوب الترغيب على حدة ، وأسلوب الترغيب على حدة ، بل كثيراً ما دمجا الأسلوبين معاً ؛ تبعاً لحالة المدعو .

فهذا شعيب - عليه السلام - ذكر قومهم بنعم الله عليهم ، وما تقتضيه من الشكر ؛ لتبقى لهم وليزيدها الله عليهم ، وشكرها يكون بعبادة الله وحده ، ويطاعته فيما أمر به ، ونهى عنه ، كما حذرهم إن ظلوا على كفرهم وضلالهم أن يصيبهم ما أصاب الكفرة قبلهم ، فقال تعالى مخبراً عما رغبهم فيه شعيب ، وعما حذرهم منه :

1. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (3)

(1) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 76/4 .

(2) البقرة / 251 .

(3) الأعراف / 86 .

أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ، فكثركم الله تعالى بما بارك في نسلكم ، فاشكروا له ذلك بأن تعبدوه وحده ، وتتبعوا أوامره في الحق والعدل ، ولتقلعوا عن الفساد في الأرض ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين من قبلكم ، وكيف أهلكهم الله تعالى بكفرهم وظلمهم وفسادهم ، فيجب أن يكونوا لكم عبرة (1) .

وكما استخدم - عليه السلام - أسلوب الترغيب والترهيب ، حيث ذكرهم بنعمه عليهم ، ثم خوفهم من عاقبة العصيان والتمرد ، استخدم أسلوب الترغيب والترغيب ؛ أي أنه قدم الترغيب والتخويف ، ثم تثنى بالترغيب .

قال تعالى على لسانه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بَبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (2) .

أي لا تحملنكم عداوتكم وبغضكم لي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، وعلى عدم الإيمان بي والاستجابة لدعوتي ، فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم : قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، أو قوم لوط ، واستغفروا ربكم من سالف الذنوب ، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ، إن ربي رحيم ودود لمن تاب ، وهذا فضل من الله عظيم (3) .

لذا يجب على الداعية المسلم أن تكون له إرادة جازمة للإصلاح ، وأن يسعى لتحقيق هذه الإرادة في الواقع بتغيير المنكرات والمفاسد والانحرافات ، وعليه أن يعلم جيداً أن الإصلاح ليس شيئاً واحداً ، فهو يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فليس كل الأشخاص يلزمهم نوع واحد من أنواع الدعوة ، فبعضهم لا يصلح له إلا الترغيب وبعضهم لا يصلح له إلا الترغيب ، وبعضهم يلزمهم الاثنان معاً ، لذا فعلى الداعي الواعي أن يكون ثاقب البصر والبصيرة ، يختار لكل ما يناسبه من الأساليب ، حتى يجني ثمار دعوته ، ويحقق غايته .

(1) انظر تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 532/8 .

(2) هود / 89 ، 90 .

(3) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 468/2 ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 93/9 ، 94 .

المخلص

هذه الرسالة تتناول موضوعاً من أكثر الموضوعات أهمية وخطورة في حياة الإنسان وهو موضوع عقائدي بالدرجة الأولى ، ولكني قمت جاهدة بإضفاء ثوب التفسير عليه ، ليصبح موضوعاً عقائدياً تفسيريّاً ، ولقد تحدثت فيها عن عدد كبير جداً من الموضوعات ، من خلال تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .
ومن هذه الموضوعات :

- الحديث عن محبطات العمل الصالح ، والتي تنقسم إلى ثلاثة أقسام كلية .
 - محبطات عقائدية تتعلق بالقلب والوجدان والتي تنقسم بدورها إلى محبطات تخرج من الإسلام كالكفر والشرك وغيرها وهي أخطر المحبطات على الإطلاق ، ومحبطات لا تخرج من الإسلام كاليأس والرياء والكبر .
 - محبطات قولية تتعلق باللسان ، وتنقسم أيضاً إلى محبطات تخرج من الإسلام كسب كل ما يتعلق بالعقيدة أو الاستهزاء به ، وادعاء النبوة وغيرها ، ومحبطات لا تخرج من الإسلام كالغيبة والنميمة ، وأذية المسلمين وبيان خطورة هذه الصفات بالرغم من كثرة انتشارها بين الناس .
 - ومحبطات فعلية تتعلق بالجوارح والأركان والتي تنقسم أيضاً إلى محبطات تخرج من الإسلام كالشرك في العبادة والاستهانة بالمصحف وغيرها ، ومحبطات لا تخرج من الإسلام كالزنا واللواط وشرب الخمر والربا - والعياذ بالله - .
- كما احتوى البحث على محبطات فعلية مختلفة في الحكم عليها بين الكفر ودون ذلك تبعاً لاختلاف حال فاعلها كترك الصلاة والحكم بغير ما أنزل الله والسحر وبما أن الذنوب التي يرتكبها المخالفون ل ابد وأن تكون لها آثار سلبية على مرتكبيها ، فقد بين البحث آثار هذه الذنوب على الفرد وعلى المجتمع التي تحصل في الدنيا وفي الآخرة .
- هذه العقوبات الدنيوية التي فيها ما لا يزول حتى بالتوبة كالحودود فإنها لا يجوز الشفاعة فيها متى بلغت السلطان ، أما العفو والشفاعة فيها قبل الوصول إلى السلطان فجاز كالقتل والسرقه والحراية والزنا وغيرها .
- وكذلك تحدث البحث عن العقوبات الدنيوية التي تزول بالتوبة الصادقة والتي تؤدي إلى الإهلاك بالكلية إن أصر الإنسان عليها كما حصل لقارون ، وبعض العقوبات التي دون الإهلاك وبما أن الإنسان محاسب ومجازى عما تقترف يدها فإنني تحدثت عن آثار الذنوب في الآخرة ابتداءً من عذاب القبر وانتهاءً بالخلود في جهنم والعياذ بالله لمن

يستحق - هذا كله على الفرد - .

أما المجتمعات فهي أيضاً لم ولن تسلم من الوقوع في العذاب والهلاك والدمار إما بالكثية كما حصل للكثير من الأمم السابقة حين عصت الله وتعدت حدوده فعاقبهم الله بالإهلاك بأنواع شتى من العذاب كالطوفان والريح والصاعقة وغيرها .
وإما عقوبات دون الإهلاك كتسليط الظالمين على المذنبين وتضييق رزقهم - والعياذ بالله - .

وبما أن القرآن الكريم هو دستور الحياة ونهجها ، وبما أنه يصلح لإصلاح البشر في كل زمان ومكان فقد بين هذا البحث منهج القرآن الكريم في الترغيب بالصالحات من خلال ضرب الأمثال التي ترغب بالأعمال الصالحة كالإيمان بالله واتباع الرسول ، والإنفاق في سبيل الله ، والترغيب بالكلمة الطيبة .

ومن خلال سرد القصص التي توضح أهمية اتباع الحق ، وسردت عدداً من نهج الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم .

وكذا منهج القرآن الكريم في التنفير والترهيب من محبطات الأعمال كالكفر والشرك والإعراض عن دين الله - عز وجل - والنفاق ... وغيرها .

وكذا عن طريق سرد القصص القرآني الذي يوضح آثار ارتكاب بعض الذنوب عن طريق سرد بعض قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم لترهيبهم من المحبطات ، مع ذكر أساليبهم - ﷺ - في الدعوة إلى الله - عز وجل - ومدى تحملهم في سبيل إعلاء كلمة الله ليكون ذلك منهجاً ودستوراً وعبرة وعظة لكل الدعاة إلى يوم الدين .

لنتوصل من خلال ذلك إلى عدد من النتائج المرضية ، لتكون سبباً للتوصل إلى عدد من النتائج القيمة - بإذن الله تعالى - .

الخاتمة

أولاً : أهم النتائج :

بعد هذه الرحلة الطويلة مع هذا البحث الشاق الممتع توصلت إلى النتائج التالية :

- 1- تنقسم المحببات إلى ثلاثة أنواع كلية وهي : محببات قلبية تتعلق بالقلب محببات قولية تتعلق باللسان ، محببات فعلية تتعلق بالجوارح والأركان .
- 2- كما تنقسم المحببات بصورة إجمالية إلى محببات مخرجة من الملة ، ومحببات غير مخرجة متفق عليها ، ومحببات مختلف فيها .
- 3- إن أخطر أنواع المحببات المحببات القلبية التي تخرج من الإسلام .
- 4- الحبوط نوعان : عام وخاص
العام : وهو يعني حبوط الحسنات كلها وذلك بالردة متمثلاً في المحببات التي تخرج من الإسلام .
والخاص : حبوط بعض الحسنات ببعض الذنوب التي تؤدي إليها وذلك متمثل في المحببات التي لا تخرج من الإسلام .
- 5- المحببات كثيرة ، لا يمكن حصرها وجمعها ، لذا اكتفيت بأشهرها ، وبأصحبها دليلاً .
- 6- خطر النفاق الإعتقادي على الآخرين أشد من خطر الكفر والشرك .
- 7- خطر الرياء على الأعمال شديد ، لذا سماه الرسول - ﷺ - بالشرك الخفي ، لأنه لا يتبين ، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى .
- 8- إن الكبر ينقسم بالنسبة للمتكبر عليه إلى ثلاثة أقسام هي : التكبر على الخالق والتكبر على الرسول - ﷺ - وهما كفر يخرج من الملة ، والتكبر على العباد وهذا قد يؤدي إلى الكفر إن أدى إلى رفض ما جاء به الرسل من علم ودين ، أما إن لم يؤدي إلى الكفر ، بل كان مجرد تكبر على العباد فإنه يكون محرماً شرعاً يستحق صاحبه بسببه عذاب الله . كما أن النتيجة الحتمية التي يجنيها المتكبر أن لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة ، وإنما يحصل له نقيض ذلك .

- 9- يجب على العباد دعاء الله عزَّ وجل ، ولكنه لا يجب على الله الاستجابة لأنه لا يجب على الله شئ للعباد .
- 10- إن الحكم والعقاب الذي ينطبق على قاذف النساء ، ينطبق أيضاً على قاذف الرجال بلا خلاف وإنما خصت النساء بالذكر في القرآن الكريم إما للتغليب ، أو لأن القذف في حقهن أشنع .
- 11- الغيبة والنميمة وإن كانتا توأمان إلا أنهما متغايرتان ، فالنميمة أعم من الغيبة ، حيث إنها تحمل معنى الغيبة وزيادة .
- 12- إن سبَّ أي نبي من الأنبياء ، أو الاستهزاء بأي منهم يخرج من الملة تماماً كسبَّ الرسول - ﷺ - .
- 13- إن سبَّ أي كتاب رباني سابق كالنوراة والإنجيل الغير محرقة أو الاستهزاء به له نفس حكم الاستهزاء بالقرآن الكريم وهو الكفر .
- 14- إن العبرة في الأحكام الشرعية بالعلل والنتائج لا بالأسماء والمسميات فالخمر هي الخمر ، والربا هو الربا وإن اختلفت الأسماء فالحكم يدور مع العلة .
- 15- يختلف حكم تارك الصلاة تبعاً لحاله فمن تركها جاحد لوجوبها ، مستهيناً بها ، فهو كافر ، حابط العمل بلا خلاف ومن تركها تهاوناً وكسلاً مع اعتقاد وجوبها فالراجح أنه غير كافر بل هو مسلم عاصٍ فاسق ، وهو في مشيئة الله .
- 16- كما يختلف حكم الحاكم بغير ما أنزل الله تبعاً لحاله ، فإن حكم بغير ما أنزل الله معتقداً حل ذلك ، ضارباً بحكم الله عرض الحائط ، فإنه كافر كفراً أكبر أما إن حكم مع علمه أن ذلك لا يجوز ، ومع تأكده من أفضلية حكم الله - عزَّ وجل - ولكنه انصرف هوئاً ومعصية فهو مسلم فاسق عاصٍ مرتكب كبيرة .
- 17- كذا السحر منه ما يكون كفراً أكبر إن استعان الساحر بالشياطين ومنه ما يكون معصية وكبيرة من الكبائر إن استخدم الأدوية والعقاقير .
- 18- إن أجر العمل المحبط مردود - بإذن الله تعالى - بالتوبة الصادقة .
- 19- إن الحدود الشرعية ممكن أن تسقط قبل وصولها للحاكم ، ولكن بعد وصولها فإنها لا تقبل عفواً ولا إسقاطاً ولا صلحاً .
- 20- إن الحدود الإسلامية وإن كان ظاهرها القوة والشدة إلا أنها تحمل في طياتها الأمن والأمان والاستقرار .

- 21- عدم ذكر حد المحصن في القرآن الكريم والاقتصار في بيانه على السنة المطهرة ؛ لأن القرآن الكريم افترض أن هذه الفاحشة لا تقع بين المحصنين إلا نادراً لدرجة أنه كاد أن لا يفترض لها وجوداً .
- 22- إن عذاب القبر ونعيمه حقيقة ثابتة لن ينجو منها أحد سواء قبر أم لم يقبر .
- 23- أهل التوحيد لا يخلدون في النار ، بل يعذبون على قدر معاصيهم ثم يخرجون برحمة الله - عز وجل - إلى الجنة ؛ ولا يخلد في النار إلا الكفار والمنافقون .
- 24- اقتضت حكمة الله - عز وجل - بتنويع عذابه وإهلاكه للأمم ، فقد يكون غرقاً ، أو صاعقة ، أو ريحاً ، أو خسفاً ، أو قحطاً ، أو أمراضاً ، أو مسخاً ، أو رجفة ... أو غير ذلك .
- 25- يجب دراسة قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بتمعن وروية ، لأخذ العبرة ، العظة ، من حياتهم ولجعلها دستوراً للحياة ومثلاً أعلى وخصوصاً الدعاة .
- 26- بيان فضل سيدنا محمد - ﷺ - حيث إنه لم يدعو على أمته بالإهلاك كباقي الرسل الكرام بل دعا لهم راجياً من الله العلي القدير أن يخرج من أصلابهم من يوحدته - جل وعلا - .
- 27- بيان أن الكفر هو الكفر ، والعناد هو العناد على مر الأيام والأزمان ، فجميع الرسل لا قوا من كفر وتكذيب أقوامهم ما استحقوا بسببه الهلاك والدمار والإبادة .
- 28- جميع الأقسام السابقة استعجلت العذاب ، وطلبتة ولم يستفد أي منهم بما حصل لغيره .
- 29- لم يقصد لوط - عليه السلام - بقوله : (هؤلاء بناتي) تزويجهن للكفار ، إنما قصد المراوغة حفاظاً على ضيوفه .
- 30- إن أقوى أنواع القرابة هي قرابة الدين لا النسب ، فهذا نوح - عليه السلام - أمر بترك ابنه الكافر وكذا لوط - عليه السلام - ترك زوجته الكافرة .
- 31- إن المراد بالخيانة في قوله تعالى : (فخانتاهما) التحريم / 10 ، تعني خيانة عقائدية دينية ، أي لم يتبعوا زوجيهما في الإيمان ، لا خيانة النسب والفراش حاشا وكلا .

32- لا يجوز وصف بني إسرائيل الحاليين بأنهم أبناء أو أحفاد القردة والخنازير ، لأنهم حين مسخوا لم ينسلوا ، ولم يعقبوا ، ولكن يجوز وصفهم بإخوان القردة والخنازير .

33- إن حلول أنواع الدمار والهلاك على هذه الأمة ليس ببعيد إن استمرت في ارتكاب محارم الله وتعدى حدوده ، ولكن لا يستلزم أن يكون بنفس الطريقة القديمة التي حدثت للأمم السابقة .

ثانياً : أهم التوصيات :

بعد التوصل لهذه النتائج ونظراً لخطورة محبطات الأعمال أصبح ضرورياً اقتراح بعض التوصيات والتي منها :

1- التركيز على هذه المحبطات من خلال خطب الجمعة ، ودروس المحاريب ، ومناهج التربية والتعليم .

2- إصدار نشرات موجزة تحذر الناس من المحبطات وتوزيعها بأكبر قدر ممكن من خلال وزارات الأوقاف والجمعيات الخيرية والمدارس ، وشبكات الإنترنت .

3- الحرص على تعليم هذه المحبطات للأبناء والجيل الصاعد من السن المبكر ، بحيث يلمون بها من الصغر ، كي يبتعدوا عنها إضافة لكل ما يقرب منها ؛ كي لا تحبط أعمالهم .

4- استغلال الإعلام الإسلامي بكافة الطرق والوسائل الممكنة والمشروعة للتنبيه على المحبطات ، وتبيين شدة خطورتها ، كي يشاهد الناس أمام أعينهم ، ويسمعوا بأذانهم كيفية تدميرها للإنسان ؛ وكيفية الخلاص منها .

5- اهتمام الآباء والأمهات والمربين ببيان معنى وأنواع المحبطات ، وعدم التهورين من خطورة ارتكابها .

6- اقتناء الأشرطة الإسلامية التي تتحدث عن بعض المحبطات ومحاولة سماعها بإنصات وتمعن .

7- البدء دائماً بالنفس يجعل الإنسان مقبول الدعوة . لذا يجب على الدعاة والمربين ، والمسؤولين خاصة الابتعاد عن المحبطات كي لا تخالف أفعالهم أقوالهم ، وبذلك

تفقد مواضعهم أهميتها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا
عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وفي الختام : اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم ، صائباً وفق كتابك
وسنة نبيك محمد - ﷺ - ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (1) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(1) البقرة ، من الآية 286 .

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

1- سورة البقرة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه	3 - 1	62
2	ألا أنهم هم المفسدون	12	60
3	وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا	20 - 14	402
4	صم بكم عمى فهم لا يرجعون	18	60
5	ويشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات	25	14
6	وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض	34 - 30	381
7	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم	34	145 - 88
8	والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار	39	113
9	أتأمرون الناس بالبر وتتسون أنفسكم	44	322
10	يمحق الله الربا ويربي الصدقات	63	180
11	ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت	66 - 65	338
12	وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة	80	191
13	وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم	85 - 84	76
14	أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون	85	75
15	ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق	89	75
16	من كان عدواً لله وملائكته ورسله	98	- 96 - 64 97
17	واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان	102	201 - 200 206 - 205
18	بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه	112	6
20	ومن يرغب عن ملة إبراهيم	130	74
21	واللهم إله واحد لا إله إلا هو	163	138
22	ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق	171	391
23	ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق	177	62 - 7

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
24	لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر	177	62
25	فمن عفي له من أخيه شيء	178	51
26	وإذا سألتك عبادي عني فإني قريب	186	111
27	ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل	188	178
28	ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة	195	178
29	كان الناس أمة واحدة	213	271
30	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	214	368
31	ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر	217	49 - 211 - 262
32	وقتل داود جالوت	251	414
33	قال أنا أحي وأميت	258	87
34	مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله	261	373
35	الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله	262	129
36	قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ...	263	129
37	يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم	264	ط - 82 - 405 - 85
38	مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله	265	373
39	ولا تيمموا الخبيث منه تتفقون	267	182
40	الذين يأكلون الربا لا يقومون	275	183
41	يمحق الله الربا ويربي الصدقات	276	180
42	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	277	6
43	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ...	278-279	181
44	آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه	285	62

2- سورة آل عمران

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	زين للناس حب الشهوات	14	30
2	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء	28	160

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
3	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني.....	31	4
4	قل أطيعوا الله والرسول	32	152
5	ذلك من أنباء الغيب	44	382
6	فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين	63	155
7	وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب	80 - 78	112
8	ومن يبتغ غير الإسلام ديناً.....	85	265
9	كيف يهدي الله قوماً كفروا	90 - 86	211 - 72
10	كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل	93	380
11	بأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً	100	158
12	بأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	102	ت
13	مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا	117	394
14	والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم	136-135	212 - 34
15	قل إن الأمر كله لله	154	43
16	ولو كنت فظاً غليظ القلب	159	374 - 285 388
17	وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا	167	57
18	لقد سمع الله قول الذين قالوا	181	75
19	وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب	187	76
20	فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل	195	5

3- سورة النساء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	بأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم	1	ت
2	ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده.....	14	193 - 179
3	بأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بالباطل	29	178
4	لا تقربوا الصلاة وأنت سكارى	43	172
5	إن الله لا يظلم مثقال ذرة	40	256

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
6	أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت	47	338
7	إن الله لا يغفر أن يشرك به	48	257
8	إن الله لا يغفر أن يشرك به	116، 48	235 - 189 398
9	إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً	56	262 - 69
10	يأبئها الذين آمنوا أطيعوا الله	59	6
11	وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله	61	- 153 - 58 193
12	فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك	65	192 - 58
13	ذلك الفضل من الله	70	19
14	من يطع الرسول فقد أطاع الله	80	4
15	أفلا يتدبرون القرآن	82	147
16	الله لا إله إلا هو ليجمعنكم	87	68
17	يأبئها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله	94	92 - خ
18	إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم	97	158
19	إنا أنزلنا إليك الكتاب	105	192
20	ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه	110	35
21	من يعمل سوءاً يجز به	123	159
22	ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى	124	14
23	ومن أحسن ديناً ممن أسلم	125	6
24	ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه	136	62
25	إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا	137	72
26	بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً	138	160
27	وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم	140	123
28	إن الله جامع المنافقين والكافرين في نار جهنم	140	402
29	إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار	145	59
30	وما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم	147	355

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
31	إن الذين يكفرون بالله ورسله	150	103 - 75
32	فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم	161-160	180
33	ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل	164	378
34	وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً	174	404
35	فسيدخلهم في رحمة منه وفضل	175	19

4- سورة المائدة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ورضيت لكم الإسلام ديناً	3	21
2	حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير	3	140
3	ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله	5	- 67 - 49 211 - 189
4	وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم	9	16
5	إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله	33	222
6	إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم	34	219
7	وما هم بخارجين منها	37	258
8	والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	38	225
9	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون	44	197 - 195
10	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون	45	197
11	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك الفاسقون	47	197
12	لكل جعلنا منكم فيكم شرعة ومنهاجاً	48	308
13	فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم	49	155
14	أفحكم الجاهلية يبغون	50	195
15	يأيتها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى	51	161
16	ومن يتولهم منكم فإنه منهم	51	157
17	ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا	53	118 - 57
18	إنما وليكم الله ورسوله	55	156
19	قل هل أنبئكم بشر من ذلك	60	338

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
20	وقالت اليهود يد الله مغلولة	64	75
21	إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون	69	16
22	لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح	72	398-75
23	إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة	72	190 - 46
24	لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة	73	92
25	ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا	81 - 80	156
26	بأبها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر	90	172
27	قل لا يستوي الخبيث والطيب	100	180
28	ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله	117	75
29	ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا	139-138	159

5- سورة الأنعام

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن	6	269
2	وقالوا لولا أنزل عليه ملك	8	63
3	ومن أظلم ممن افترى على كذباً أو كذب بآياته	21	105 - 104
4	انظر كيف كذبوا على أنفسهم	24	112
5	ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا	28 - 27	265
6	فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون	33	351 - 48
7	قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله	41 - 40	109
8	إن الحكم إلا لله	57	192
9	وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو	59	207 - 198
10	وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر	83 - 74	383
11	ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون	88	143 - 46 397
12	ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي	93	105

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
13	ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت	93	243
14	وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك	116	142
15	ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه	121	159
16	لهم دار السلام عند ربهم	127	15
17	وكذلك تولى بعض الظالمين بعضا	129	356
18	قل يا قوم اعملوا على مكانتكم	135	9
19	فقالوا هذا الله بزعمهم وهذه لشركائنا	136	43
20	خالصة لذكورنا	139	23
21	قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله	163-162	139

6- سورة الأعراف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	أنا خيراً منه خلقتني من نار	12	88
2	قل فاهبط منها	13	88
3	ربنا ظلمنا أنفسنا	23	36
4	يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان	27	383 - 65
5	قل من حرم زينة الله	32	23
6	فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً	37	110
7	إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها	40	73
8	ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل	40	262 - 113
9	ونزعا ما في صدورهم من غل	43	15
10	لقد جاءت رسل ربنا بالحق	43	19
11	واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد	74	292
12	ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها	56	3
13	لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه	59 - 64	27 - 271 409 - 349
14	قال الملاء من قومه إنا لنراك	60	274
15	قال يا قو ليس بي ضلالة	61 - 62	274

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
39	والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة	147	112 - 99
40	قال الملأ الذين استكبروا	76 - 75	294
41	ورحمتي وسعت كل شيء	156	79
42	واتبعوا النور الذي أنزل معه	157	404
43	واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر	163	339
44	لم تعظون قوماً الله مهلكهم	164	340
45	أنجينا الذين ينهون عن سوء	165	343 - 341
46	فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم	166	343
47	واتل عليهم نبأ الذي آتيناه	177-175	400
48	قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً	188	43
49	إن الذين عند ربك لا يستكبرون	206	144

7- سورة الأنفال

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وما النصر إلا من عند الله	10	43
2	يأيها الذين آمنوا استجبوا لله	24	192
3	وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	25	267
4	وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون	33	35
5	ويجعل الله الخبيث بعضه على بعض	37	180
6	قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم	38	143 - 45
7	ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة	51 - 50	358 - 243
8	ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه	53	359 - 237

8- سورة التوبة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم	5	46
2	وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم	12	195
3	فقاتلوا أئمة المفر إنهم لا أيمان لهم	12	50
4	ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون	23	157

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
5	قل إن كان آباءكم وأبناؤكم وإخوانكم	24	100
6	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله	29	70
7	اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً	31	194
8	إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله	45	54
9	وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم	54	57
10	ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن	61 - 63	101
11	يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة	64 - 66	101
12	ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض	65 - 66	98 - 95 149 - 104
13	وعد الله المنافقين والمنافقات	68 - 69	402 - 58
14	يأبىها النبي جاهد الكفار والمنافقين	73 - 74	402
15	ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله	75-77	153
16	خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً	102	3
17	وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم	105	9
18	أولا يرون أنهم يفتنون	126	60

9- سورة يونس

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ..	17	105
2	ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم	18	42
3	هو الذي يسيركم في البر والبحر	22 - 23	25
4	قل من يرزقكم من السماء والأرض	31	43
5	قد خسر الذين كذبوا بقاء الله	45	68
6	حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت	90	270
7	الآن وقد عصيت قبل	91	270
8	فلولا كانت قرية آمنت	98	386

10- سورة هود

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم	3	237 - 37
2	ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت	7	70
3	إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات	11	16
4	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها	15 - 16	هـ - 39
5	أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار	16	118
6	ما نراك إلا بشراً مثلاً	27	274
7	وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا	27	350
8	وما أنا بطارد الذين آمنوا	29	275
9	قالوا يا نوح قد جادلتنا	32 - 33	276 - 351
10	فلا تبتس بما كانوا يفعلون	36	276
11	واصنع الفلك بأعيننا	37	277
12	واصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ	38	277
13	قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم	38	278
14	وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها	41	279
15	ساوي إلى جبل يعصمني من الماء	43	279
16	وقيل يا أرض ابلعي ماءك	44	280
17	رب إن ابني من أهلي	45	280
18	إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح	46	281
19	فلا تسئلن ما ليس لك به علم	46	281
20	قال رب إنني أعوذ بك أن أسألك	47	281 - 36
21	قيل يا نوح اهبط بسلام	48	281 - 410
22	تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك	49	382
23	يا قوم لا أسألكم عليه أجراً	51	286
24	ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه	52	37 - 35 385
25	يا هود ما جئنا ببينة	53	284

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
26	إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا	54	351 - 286
27	إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء	56 - 54	286
28	ولما جاء أمرنا نجينا هوداً	58	291
29	وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم	60 - 59	290
30	وإلى ثمود أخاهم صالح	68 - 61	394-292
31	يا إبراهيم أعرض عن هذا	76	306
32	ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم	77	307
33	وجاءه قومه يهرعون إليه	78	307
34	قالوا لقد عملت ما لنا في بناتك من حق	79	309
35	قال لو أن لي بكم قوة	80	310
36	قالوا يا لوط إنا رسل ربك	81	310
37	فأسر بأهلك بقطع من الليل	81	311
38	إن موعدهم الصبح	81	311
39	إلا امرأتك مصيبتها ما أصابهم	81	313-311
40	فلما جاء أمرنا عاليها سافلها	83 - 82	312
41	ولا تتقصوا المكيال والميزان	84	324
42	إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم	84	410
43	قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك	87	321
44	وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم	88	328-322
45	قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول	91	325
46	وإنا لنراك فينا ضعيفاً	91	321
47	ولولا رهطك لرجمناك	91	321
48	ويا قوم اعملوا على مكانتكم	93	326
49	ولما جاء أمرنا نجينا شعيب	94	329-327
50	وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى	102	355
51	إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة	108-103	258 - 256
52	وأقم الصلاة طرفي النهار	114	261

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
53	وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل	120	380 - 378 381

11- سورة يوسف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	نحن نقص عليك أحسن القصص	3	377
2	إن الشيطان للإنسان عدو مبين	5	32
3	وراودته التي هو في بيتها	23	381
4	إن كان قميصه قد من قبل	26 - 27	112
5	خلصوا نجياً	80	23
6	ولا تياسوا من روح الله	87	341
7	ورفع أبويه على العرش وخروا	100	145
8	وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين	103	142
9	وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون	106	43
10	لقد كان في قصصهم عبرة	111	380

12- سورة الرعد

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً	5	69
2	إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا	11	359 - 237
3	ويسبح الرعد بحمده والملائكة	13	144
4	مثل الجنة التي وعد المتقون	35	372

13- سورة إبراهيم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم	7	ظ
2	مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد	18	106 - 50 395
3	وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات	23	8
4	ألم تر كيف ضرب الله مثلاً	24 - 25	374

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
5	ويضرب الله الأمثال للناس	25	369
6	وضربنا لكم الأمثال	45	370 - 368

14- سورة الحجر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا	3	31
2	إنا نحن نزلنا الذكر	9	148
3	لم أكن لأسجد لبشر	33	88
4	قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم	39 - 40	25
5	قال ومن يقنط من رحمة ربي إلا الضالون	56	80
6	فأسر بأهلك بقطع من الليل	65	311
7	وقضينا إليه ذلك الأمر	66	311
8	قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين	71	307
9	فأخذتهم الصيحة مشرقين	73 - 74	314 - 312 412
10	إن في ذلك لآيات للمتوسمين	75 - 77	314
11	ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين	80	291

15- سورة النحل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم	26	د
2	وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم	33	362
3	ولقد بعثنا في كل أمة رسول	36	138 - 24
4	وأقسموا بالله جهد أيمانهم	38	70
5	ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم	61	267
6	نسقيكم مما في بطونه	66	22
7	ومن ثمرات النخيل والأعناب	67	171
8	ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً	73	44

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
9	من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن	97	11 - 5 237
10	إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان	106	41
11	وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة	112	361-51 393 -362
12	ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه	113	362 -357
13	ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب	117-116	73
14	ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة	125	374 -285 388

16- سورة الإسراء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ونخرج له يوم القيامة كتاب يلقاه منشوراً	13	253
2	ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها	19	11
3	ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة	32	166 - 164 168
4	ولا تمش في الأرض مرحاً	37	413
5	عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً	79	261
6	قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا	88	150 -146
7	فأبى أكثر الناس إلا كفوراً	89	142
8	ومن يهده الله فهو المهتد	98 - 97	252

17- سورة الكهف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات	2	4
2	وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن	29	ث
3	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع	30	13-10
4	أولئك لهم جنات عدن	31	14
5	واضرب لهم مثلاً رجلين	42 - 32	393
6	ودخل جنته وهو ظالم لنفسه	38 - 35	52

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
7	المال والبنون زينة الحياة الدنيا	46	224
8	وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً	47	248
9	ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها	57	154
10	وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا	59	355
11	وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى	88	12
12	قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً	103-105	ث - 68 210 - 99

18- سورة مريم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة	59 - 60	187
2	إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً	60 - 61	34
3	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم	96	13

19- سورة طه

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فقولا له قولا لينا	44	285
2	يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى	66	204
3	ولا يفلح الساحر حيث أتى	69	202
4	يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له	108	249
5	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن	112	17
6	ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً	124-126	238 - 155

20- سورة الأنبياء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة	11	351
2	وما أرسلنا من قبلك من رسول	25	379 - 24
3	ونضع الموازين القسط ليوم القيامة	47	257 - 254
4	وذا النون إذ ذهب مغاضباً	87 - 88	388
5	فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن	94	15

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
6	حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج	96-98	250 - 270
7	يوم نطوي السماء كطي السجل	104	248
8	ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	105	20

21- سورة الحج

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ألم تر أن الله يسجد له	18	141
2	فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار	19-22	263
3	ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء	31	398
4	الله يصطفى من الملائكة رسلاً	75	104
5	يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم	77	142

22- سورة المؤمنون

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قد أفلح المؤمنون	1-7	166 - 186
2	ثم إنكم بعد ذلك لميتون	15-16	67
3	فإذا جاء أمرنا وفار التنور	27	278
4	فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك	28-29	279
5	وقال الملأ من قومه الذين كفروا	33-35	287
6	ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً	34-37	69-350
7	أبعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً	35	287
8	قال رب انصرني بما كذبون	39-40	288-352
9	فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء	41	290
10	فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا	47	87
11	يأيها الرسل كلوا من الطيبات	51	8
12	أحسبوا أنما نمدهم به من مال وبينين	55-56	31
13	قل من بيده ملكوت كل شئ	88-89	43
14	أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً	115-116	69

23- سورة النور

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما	2	229 - 166 230
2	والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا	4	115
3	إن الذين يرمون المحصنات الغافلات	23	117 - 115
4	وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون	31	33
5	والذين كفروا أعمالهم كسراب	39	396 - 50
6	ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا	47	151
7	وإذا دعوا إلى الله ورسوله	50 - 48	193
8	وعد الله الذين آمنوا منكم	55	21
9	وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً	55	21
10	فليحذر الذين يخالفون عن أمره	63	179

24- سورة الفرقان

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده	1	146
2	وقال الذين لا يرجون لقاءنا	21	87 - 63
3	وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا .	23	394 - 29 396
4	ويوم يعرض الظالم على يديه	29 - 27	265
5	قالوا وما الرحمن	60	87
6	والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر	70 - 68	45 - 17 165 - 143 212
7	إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً	70	د

25- سورة الشعراء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن	116	274

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
2	قال رب إن قومى كذبون	117	352
3	قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرنا جدالنا	118	276
4	فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون	119	280
5	أتبنون بكل ربيع آية	129-128	283
6	إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم	135	410
7	وما أسألكم عليه من أجر	145	293
8	قالوا إنما أنت من المسحرين	153	351 - 294
9	ما أنت إلا بشر مثلنا	154	295
10	فأت بآية إن كنت من الصادقين	154	350 - 295
11	قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب	155	296
12	ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم	156	301
13	ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم	157	301
14	إني لكم رسول أمين فاتقوا الله	163-162	349
15	وما أسألكم عليه من أجر	164	304
16	رب نجني وأهلي مما يعملون	169	305
17	كذب أصحاب الناقة المرسلين	191-176	317 - 327
18	فلا تدعوا مع الله إلهاً آخراً	213	109

26- سورة النمل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم	14	48
2	وزين لهم الشيطان أعمالهم	24	32
3	لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون	46	36
4	قالوا اطيرنا بك وبمن معك	47	295
5	وكان في المدينة تسعة رهط	48	297
6	قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله	49	300
7	ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون	52 - 50	301 - 300
8	أخرجوا آل لوط من قريبتكم	56	304

27- سورة القصص

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي	16	36
2	وما كنت بجانب الغربي	44	382
3	وما كنت ثاوياً في أهل مدين	45	382
4	وما كنت بجانب الطور	46	382
5	إن قارون كان من قوم موسى	76	233
6	فخسفنا به وبداره الأرض	81	87

28- سورة العنكبوت

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم	7	17
2	فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين	14	275
3	فأمن له لوط	26	303
4	إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم	26	303
5	إئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين	29	305 - 352
6	قال رب انصرني على القوم المفسدين	30	305
7	ولما جاءت رسل إبراهيم بالبشرى	31 - 32	306
8	قالوا نحن أعلم بمن فيها	32	306
9	فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً	40	412
10	مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء	41 - 43	399
11	وتلك الأمثال نضربها للناس	43	369
12	وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون	47	74
13	كل نفس ذائقة الموت	57	242
14	وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو	64	30
15	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله	65	25

29- سورة الروم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون	14 - 12	247
2	ومن آياته أنا خلقنا لكم من أنفسكم أزواجاً	21	228
3	وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم	36	358
4	وما أتيتم من ربا ليربوا	39	180
5	ظهر الفساد في البر والبحر	41	360

30- سورة لقمان

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إن الشرك لظلم عظيم	13	212
2	ولا تصعر خدك للناس	18	413
3	ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن	22	6

31- سورة السجدة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فلا تعلم نفس ما أخفي	17	14
2	ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها	22	154

32- سورة الأحزاب

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين	1	402
2	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	6	309 - 100
3	ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم	40	105
4	وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله	53	313
5	إن الذين يؤذون الله ورسوله	57	95
6	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً	70	ت
7	يصلح لكم أعمالكم	71	4
8	والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات	85	125

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
2	وجعلنا ذريته هم الباقين	77	282
3	وإنكم لتمرون عليهم مصبحين	138-137	315
4	وإن يونس لمن المرسلين	142-139	387
5	فلولا أنه كان من المسبحين	144-143	388

37- سورة ص

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً	35	36
2	قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين	83 - 82	25

38- سورة الزمر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين	15 - 11	5
2	الله نزل أحسن الحديث	23	146
3	قل أفرايتم ما تدعون من دون الله	38	198
4	قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم	53	33 - 45 - 79 - 212 235 - 260
5	لئن أشركت ليحبطن عملك	65	144 - 211 - 397
6	ونفخ في الصور فصعق من في السموات	68	246
7	وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة	74	20

39- سورة غافر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فادعوا الله مخلصين له الدين	14	108
2	أولم يسيروا في الأرض فينظروا	21	413
3	من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها	40	ث
4	النار يعرضون عنها غدواً وعشياً	46	243

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
5	وقال ربكم ادعوني أستجب لكم	60	108
6	وهو الله لا إله إلا هو فادعوه	65	24
7	فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا	84 - 85	269

40- سورة فصلت

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فاستقيموا إليه واستغفروه	6	36
2	وجعل فيها رواسي من فوقها	10	319
3	فإن أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة	13	404 - 154
4	فأما عاد فاستكبروا في الأرض	15	284
5	وأما ثمود فهديناهم فاستجابوا العمى	17	302
6	ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن	34	336 - 274
7	ومن آياته الليل والنهار والشمس	37	143
8	فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له	38	144
9	لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	42	100
10	وما ربك بظلام للعبيد	46	356

41- سورة الشورى

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين	21	4
2	وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم	30	358 - 237

42- سورة الزخرف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن	19	64
2	لولا نزل هذا القرآن على رجل	31	350 - 87
3	ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً	36	236
4	فجعلناهم سلفاً ومثلاً	56	368

43- سورة الجاثية

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها	9	98 - 149
2	وإذا قيل إن وعد الله حق	32	70
3	وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا	35 - 34	98 - 149
4	فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون	35	262 - 98

44- سورة الأحقاف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ومن أضل من يدعو من دون الله	6 - 5	109
2	وأصلح لي في ذريتي	15	4
3	واذكر أبا عاد إذ أندر قومه	21	410-282
4	فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم	25- 24	289
5	ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه	26	269

45- سورة محمد

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وأصلح بالهم	2	4
2	والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا	2	17
3	فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب	4	50
4	مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار	15	372
5	واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	19	36

46- سورة الفتح

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	محمد رسول الله والذين معه أشداء	29	371
2	ذلك مثلهم في التوراة	29	368

47- سورة الحجرات

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم	2	102 - 118

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
2	يأبها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ	6	124
3	ولكن الله حبيب إليكم الإيمان	7	41
4	وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا	9	51
5	إنما المؤمنون إخوة	10	132 - 51
6	يأبها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم	11	133
7	ولا يغتب بعضكم بعضاً	12	406 - 120
8	ولما يدخل الإيمان في قلوبكم	14	41
9	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله	15	54

48- سورة الذاريات

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قال فما خطبكم أيها المرسلون	31 - 34	312 - 306
2	فأخرجنا ما كان فيها من المؤمنين	35 - 36	303
3	فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين	36	309
4	وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب	37	315
5	وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم	41 - 42	290
6	وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	56	359 - 66 365

49- سورة النجم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة	27	64
2	والمؤتفة أهوى	53 - 55	312

50- سورة القمر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	كذبت قبلهم قوم نوح	9	351
2	فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر	10	352 - 277
3	إنأ أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً	19 - 20	289
4	أعلقى الذكر عليهم بينة	25	350 - 293

58- سورة التحريم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً	8	34
2	ضرب الله مثلاً للذين كفروا	10	313

59- سورة القلم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ولا تطع كل حلاف مهين	10 - 11	124
2	وأملى لهم إن كيدي متين	45	31

60- سورة الحاقة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فترى القوم فيها صرعى	7	289

61- سورة المعارج

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	والذين هم على صلاتهم يحافظون	34 - 35	186

62- سورة نوح

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه	1 - 4	384 - 409
2	قال رب إنى دعوت قومي ليلاً ونهاراً	5 - 9	273
3	فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفاراً	10 - 12	35 - 36
4	ما لكم لا ترجون لله وقاراً	13	385 - 410
5	قال نوح رب إنهم عصوني	21 - 23	275
6	وقالوا لا تذرن آلهتكم	23	272
7	وقال نوح رب لا تذر على الأرض	26	352
8	ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً	27	275

63- سورة الجن

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن	2 - 1	66
2	وإنه كان رجال من الإنس يعوذون	6	66
3	وآلو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم	17 - 16	240
4	عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً	26	207

64- سورة المزمل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فكيف تتقون إن كفرتم يوماً	18- 17	247

65- سورة المدثر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إن هذا إلا سحر يؤثر	24	351
2	عليها تسعة عشر	30	98 - 63
3	ما سلككم من سقر	43 - 42	187
4	فما لهم عن التذكرة معرضين	50 - 49	392 - 154

66- سورة النازعات

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فقال أنا ربكم الأعلى	24	87

67- سورة عبس

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يوم يفر المرء من أخيه	37 - 34	134

68- سورة الانشقاق

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فأما من أوتي كتابه بيمينه	15- 7	254

69- سورة الطارق

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يوم تبلى السرائر	9	81

70- سورة الفجر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ألم تر كيف فعل ربك بعاد	8 - 6	282
2	إرم ذات العماد	8 - 7	283

71- سورة الشمس

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إذ انبعث أشقاها	15 - 12	298

72- سورة الليل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فأنذرتكم ناراً تلتظى	16 - 14	152

73- سورة البينة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وما أمروا إلا ليعبدوا الله	5	5
2	إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين	6	262

74- سورة الزلزلة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره	8 - 7	251 - 159 258 - 252 358

75- سورة العصر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	والعصر إن الإنسان لفي خسر	3 - 1	8

76- سورة الهمزة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ويل لكل همزة لمزة	1	121

77- سورة الماعون

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فويل للمصلين الذين عن صلاتهم ساهون	5 - 4	187

78- سورة الكوثر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إنا أعطيناك الكوثر.....	1	254

79- سورة المسد

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وامراته حمالة الحطب	5 - 4	125

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

رقم الصفحة	طرف الحديث	الرقم
119	أتدرون ما الغيبة ؟	1
134-117	أتدرون من المفلس ؟	2
173	إذا شربوا الخمر فاجلدوا.....	3
263	إذا صار أهل الجنة إلى الجنة	4
60	أربع من كن قلبه كان منافقاً خالصاً	5
55	أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.....	6
298	ألا أحدثكما بأشقى الناس	7
126	ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة	8
89	ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر	9
47	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قالوا بلى يا رسول الله	10
41	ألا وإن في الجسد مضغة	11
47	أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله.....	12
244	إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة	13
83	إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر	14
10	إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم.....	15
256	إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة	16
82-29	إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد	17
190	إن أول ما يحاسب به المرء الصلاة	18
13	إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل	19
182	إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً	20
344	إن الله - عز وجل - لم يهلك قوماً	21
344	إن الله لم يجعل لمسوخ نسلأ ولا عقبأ	22
270	أن الناس يأتون نوحاً فيقولون	23
178-121	إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام	24

رقم الصفحة	طرف الحديث	الرقم
226	إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قطع سارقاً في مجن	25
79	إن لله مائة رحمة	26
404	إن مثل ما بعثني الله - عزّ وجل - به من الهدى	27
106	إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي	28
245	إننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً	29
219	إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا	30
267	أنهلك وفينا الصالحون	31
64	إني سأئك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي	32
139	أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً	33
32	إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب	34
133	أيا رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما	35
18	اتبع السيئة الحسنه تمحها	36
358	اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها	37
116- 47 204	اجتنبوا السبع الموبقات	38
55	أذهب بنعليّ هاتين فمن لقيت	39
249	الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض	40
67-62	الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته	41
108	الدعاء هو العبادة	42
358	الظلم ظلمات يوم القيامة	43
244	العبد إذا وضع في قبره وتولى وأصحابه	44
188	العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة	45
85	الكبير: (هو بطر الحق وغمط الناس)	46
133	المستبان ما قالوا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم	47
220	بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً	48
74	بعثني رسول الله إلى رجل تزوج امرأة أبيه	49
187	بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة	50

رقم الصفحة	طرف الحديث	الرقم
234	بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء	51
8	بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك	52
250	تدني الشمس يوم القيامة من الخلق	53
132	ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم	54
219	تعافوا الحدود فيما بينكم	55
226	تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً	56
94	تكلتك أمك يا معاذ !	57
84	ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان	58
168	ثلاثة لا يكلمهم الله	59
202	حد الساحر ضربة بالسيف	60
168	حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتكم	61
254	حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن	62
229	خذوا عني ، خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً	63
297	خطب - رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكر الناقة	64
ع	خيركم خيركم لأهله	65
15	نروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم	66
186	رأس الأمر كله الإسلام	67
165	رأيت في الجاهلية قردة أجتمع عليها	68
34	رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم	69
122	رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع	70
227	رد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رداء صفوان إليه	71
133-51	سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	72
194	سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة براءة	73
259	شفاعتي لأهل الكبائر من أمي	74
227	على اليد ما أخذت حتى تؤديه	75
341	فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون	76
168	فخذ من حسناته ما شئت	77

رقم الصفحة	طرف الحديث	الرقم
259 فيها نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتي	78
30 فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى	79
83 قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك	80
127 قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً	81
308 كانت امرأتان معهما ابناهما	82
106 كانت بنو إسرائيل تسوسهم	83
202 كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن اقتلوا كل ساحر	84
67 كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك	85
7 كل سلامي عليه صدقة	86
177 كل مسكر خمر وكل مسكر حرام	87
413 كل معروف صدقة	88
171 كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته	89
254 كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان	90
251 لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل	91
66 لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام	92
203-169 لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله	93
126 لا يدخل الجنة قتات	94
173 لا يدخل الجنة مدمن خمر	95
89 لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	96
126 لا يدخل الجنة نمام	97
174-170 لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن	98
175 لعن الله الخمر وشاربها وساقبها	99
227 لعن الله السارق يسرق البيضة	100
169 لعن الله من عمل عمل قوم لوط	101
180 لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا	102
259 لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها	103

رقم الصفحة	طرف الحديث	الرقم
19 لن ينجي أحداً منكم عمله	104
10 لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء	105
244 لو لا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم	106
18 ليتمنين أقوام من أمتي أنهم أكثروا	107
245 ليشربن أناس من أمتي الخمر	108
177 ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها	109
242 ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفضع منه	110
7 ما من مسلم يغرس غرساً	111
284 ما من نبي إلا أعطي من الآيات	112
253 ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه	113
126 مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبرين	114
207 من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه	115
208 من أتى عرافاً فسأله عن شيء	116
178 من أخذ شبراً من الأرض ظلماً	117
358 من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه	118
119 من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله	119
123 من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة	120
174 من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمتها في الآخرة	121
176 من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً	122
175 من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً	123
ظ من صنع إليكم معروفاً فكافئوه	124
113 من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار	125
ظ من لم يشكر الناس لم يشكر الله	126
167 من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط	127
272 هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح	128
347 وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق	129
190 وخمس صلوات افترضهن الله	130

رقم الصفحة	طرف الحديث	الرقم
263	ويقال لأهل الجنة : يأهل الجنة خلود لا موت	131
323	يؤتى بالرجل يوم القيامة.....	132
184	يأتي على الناس زمان يأكلون الربا	133
35	يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك	134
100	يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء	135
122-41	يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه	136
26	يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك	137
280	يجيء نوح - عليه السلام - وأمته فيقول	138
252	يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف	139
249	يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً	140
249	يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء	141
260	يخرج قوم من النار بشفاعة محمد - صلى الله عليه وسلم -	142
259	يخرج من النار من قال لا إله إلا الله	143
89	يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي	144
31	يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة	145

ثالثاً : فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أ -

- 1- إحكام الأحكام ، لابن دقيق العيد ، دار الكتب العلمية / بيروت ، - بدون تاريخ - .
- 2- أحكام الحدود في الشريعة الإسلامية ، لمحمود فؤاد جادالله ، الهيئة المصرية للكتاب ، ط 1984 م .
- 3- أساليب البيان في القرآن والسنة ، جمع الأستاذ خالد السعيد ، ط الجامعة الإسلامية / غزة ، 1405هـ .
- 4- أسباب النزول لأبي حسن الواحدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1402هـ-1982م .
- 5- أسباب هلاك الأمم ، وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين ، للشيخ عبد الله التليدي دار البشائر الإسلامية ، بيروت / لبنان ، ط 2 ، 1418هـ-1998م .
- 6- أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ط / القاهرة ، 1939م .
- 7- أصول الدين ، لعبد القاهر البغدادي ، دار الكتب العلمية / بيروت ط 1 ، 1346هـ .
- 8- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي مصر ، ط 1381هـ-1961م .
- 9- آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة ، لسعيد بن علي القحطاني ، مكتبة أبي بكر الصديق / القاهرة - بدون تاريخ - .
- 10- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، للحافظ ابن بطة العكبري ، (ت) رضا معطي ، دار الراية / الرياض ، ط 1 ، 1409هـ .
- 11- الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 3 ، 1415هـ-1995م .
- 12- الأخلاق الإسلامية أسسها ، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم / دمشق ، والدار الشامية / بيروت ، ط 5 ، 1420هـ-1990م .
- 13- الأذكار للنووي ، دار ابن حزم ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1412هـ-2000م .
- 14- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ، د. علي عبد الواحد وافي ، دار النهضة مصر ، ط 1996م .

- 29- تحكيم القوانين ، لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ ، مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة ، ط 1380هـ .
- 30- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي ، مكتبة أبي بكر الصديق / كانو ط 1 ، 1421هـ-2001م .
- 31- التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ، لعبد القادر عودة ، دار الكتاب العربي ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
- 32- التعريفات ، للجرجاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1403هـ-1983م .
- 33- تفسير أحكام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبد الله ، المعروف بابن العربي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1402هـ-1992م .
- 34- تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
- 35- تفسير الأساس في التفسير لسعيد حوى ، دار السلام / القاهرة ، ط 2 ، 1409هـ-1998م .
- 36- تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1421هـ-2000م .
- 37- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للقاضي ناصر الدين أبي سعد عبد الله بن عمر ابن محمد الشيرازي البيضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1408هـ-1988م .
- 38- تفسير التحرير والتوير ، للشيخ الطاهر بن عاشور ، دار سحنون / تونس ، ط 1997م .
- 39- تفسير تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد ابن عبد الوهاب ، المكتبة الإسلامي / بيروت ، ط 3 ، 1397م .
- 40- تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط 1 ، 1415هـ-1995م .
- 41- تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للإمام ابن جرير الطبري ، دار الفكر ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1415هـ-1995م .

- 42- تفسير الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الحديث / القاهرة ، ط2 ، 1416هـ-1996م .
- 43- تفسير حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - المسمى بالكشاف - ، لأبي القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي / مصر - بدون طبعة - .
- 44- تفسير الخازن - المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل - لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي ، الشهير بالخازن ، ط2 ، 1375هـ-1955م .
- 45- تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1411هـ-1990م .
- 46- تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ، دار الفكر / بيروت - بدون تاريخ - .
- 47- تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي ابن محمد الشوكاني ، ط عالم المعرفة - بدون تاريخ - .
- 48- تفسير القرآن الجليل - المسمى بمدارك التنزيل ، وحقائق التأويل - للنسفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
- 49- تفسير القرآن الحكيم - الشهير بتفسير المنار - لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1393هـ-1973م .
- 50- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، المكتبة القيّمة / القاهرة ، ط1 ، 1411هـ-1991م .
- 51- التفسير القيم ، لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
- 52- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للإمام محمد الرازي ، دار الفكر ، لبنان / بيروت ، ط 1401هـ-1981م .
- 53- تفسير محاسن التأويل ، لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار إحياء الكتب العربية / القاهرة - بدون تاريخ - .
- 54- تفسير المحرر الوجيز ، لابن عطية أبي محمد عبد الحق الأندلسي ، (ت) عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد / عبد العال إبراهيم ، ط1 ، 1403هـ-1983م .
- 55- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، أ.د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1418هـ-1998م .

56- تفسير النكت والعيون ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1412هـ-1992م .

57- التمهيد لمسا في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لأبي عمر بن عبد البر ، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / المغرب - بدون تاريخ - .

58- التتبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي ، - بدون نشر - .

59- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، دائرة المعارف / الهند ، ط 1326هـ .

60- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، دار الفكر ، ط 1 ، 1415هـ-1995م .

61- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للحافظ جمال الدين المزي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط 1 ، 1413هـ-1992م .

62- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، (ت) أ. عبد الكريم الغزبواي مكتبة بن تيمية ، مطابع سجل العرب / الدار المصرية - بدون تاريخ - .

63- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد الوهاب المكتب الإسلامي / بيروت ، ط 3 ، 1397م .

- ج -

64- جامع العلوم والحكم في شرح 50 حديثاً من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلي ، (ت) أبو معاذ ، دار ابن الجوزي ، ط 1 ، 1415هـ-1995م .

65- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - المسمى بالداء والدواء - لابن قيم الجوزية ، جمعية إحياء التراث العربي / الكويت ، ط 1 ، 1421هـ-2000م .

- ح -

66- الحدود في الإسلام ، حكمها وأثرها في الأفراد والجماعات والأمم ، لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي - بدون تاريخ - .

67- الحيوان ، للجاحظ ، (ت) عبد السلام هارون ، ط / القاهرة ، 1945م .

- د -

68- دراسات في طريق الدعوة ، د. محمد عبد السميع جاد ، دار الطباعة المحمدية ، درب الأتراك / الأزهر ، ط 1 ، 1399هـ-1979م .

69- الدررة الفاخرة ، لحمزة الأصفهاني ، (ت) د. عبد المجيد قطامس ، ط / القاهرة ، 1391هـ-1971م .

70- السدرة فيما يجب اعتقاده ، لابن حزم ، (ت) أحمد الحمد ، وسعيد القرقي ، مكتبة التراث / مكة المكرمة ، ط1 ، 1408هـ .

71- الذنوب وقبح آثارها على الأفراد والشعوب ، لمحمد بن أحمد سيد أحمد ، مكتبة السواري ، مكة المكرمة ، ط3 ، 1413هـ-1993م .

- ر -

72- الرسالة ، للشافعي ، (ت) أحمد محمد شاكر ، مكتبة دار التراث / القاهرة ، ط2 ، 1399هـ-1979م .

73- الرعاية لحقوق الله ، للحارث المحاسبي ، دار الكتب الحديثة / القاهرة ، ومكتبة المثني / بغداد - بدون تاريخ - .

74- روضة الطالبين وعمدة المفتين ، للنووي ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط2 ، 1405هـ-1985م .

75- روضة الناظر ونزهة خاطر في الجزاء من جنس العمل ، د. سيد حسين العفاني ، المطبعة العمرانية للأوفست / الجزيرة ، ط5 ، 1421هـ-2001م .

- ز -

76- زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي ، (ط) المكتب الإسلامي / دمشق - بدون تاريخ - .

77- زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن قيم الجوزية ، (ت) شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط3 ، 1421هـ-2000م .

78- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، للشيخ ابن حجر الهيثمي ، مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة / الرياض ، ط1 ، 1417هـ-1996م .

- س -

79- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، للألباني ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط1405هـ-1985م .

80- السلوك الاجتماعي في الإسلام ، لحسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .

81- سنن ابن ماجه ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1407هـ-1986م .

82- سنن أبي داود ، (ت) السيد محمد السيد ، دار الحديث / القاهرة ، ط1420هـ-1999م .

- 83- سنن الترمذي ، دار الحديث / القاهرة ، ط 1 ، 1419هـ-1999م .
 84- سنن النسائي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1 ، 1411هـ-1991م .
 85- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط 1409هـ .
 86- السيرة النبوية ، لابن هشام ، (ت) مصطفى السقا ، شركة ومكتبة ومطبعة البابلي الحلبي وأولاده ، ط 2 - بدون تاريخ - .

- ش -

- 87- شأن الدعاء ، للخطابي ، دار المأمون / دمشق ، ط 1 ، 1404هـ .
 88- شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز ، (ت) جماعة من العلماء خرّج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط 8 ، 1404هـ-1984م .
 89- شرح فتح القدير ، للإمام كمال الدين محمد عبد الواحد السيواسي ، دار الفكر ، بيروت / لبنان ، ط 1397هـ-1977م .
 90- شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ، المكتب الإسلامي / دمشق ، ط 1 ، 1394هـ .
 91- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ، (ت) علي محمد البجاوي ، مكتبة الإمام - بدون تاريخ - .

- ص -

- 92- الصارم البتار في التصدي للصحرة الأشرار ، لوحيّد عبد السلام بالي ، مكتبة الصحابة / جدة ، ط 1412هـ .
 93- الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحلّيم بن عبد السلام الحرّاني الدمشقي ، المعروف بابن تيمية ، المكتبة العصرية ، صيدا / بيروت ، ط 1411هـ-1990م .
 94- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، لإسماعيل حماد الجوهري ، دار العلم للملايين بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
 95- صحيح البخاري ، المكتبة العصرية ، صيدا / بيروت ، ط 1 ، 1417هـ-1997م .
 96- صحيح الجامع الصغير وزياداته - المسمى بالفتح الكبير - لمحمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي / جمعية إحياء التراث الإسلامي ، ط 3 ، 1421هـ-2000م .

- 97- صحيح مسلم ، دار المنار للطبع والنشر ، ط1 ، 1418هـ-1998م .
- 98- صحيح مسلم ، بشرح النووي ، (ت) رضوان جامع رضوان ، مؤسسة المختار / القاهرة ، ط1 ، 2001م .
- 99- الصفدية ، لابن تيمية ، (ت) محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية / القاهرة - بدون تاريخ - .
- 100- الصلاة وحكم تاركها ، للإمام ابن قيم الجوزية ، (ت) مصطفى بن العدوي ، دار ابن رجب / المنصورة ، ط1 ، 1423هـ-2002م .

- ض -

- 101- ضعيف الجامع الصغير وزياداته ، المسمى بالفتح الكبير ، للشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط1408هـ-1988م .
- 102- الضياء الشارق في رد شبهات المانق المارق ، لسليمان بن سحمان ، (ت) عبد السلام بن برجس عبد الكريم ، ط دار عليان ، دار العاصمة - بدون تاريخ - ط2 ، 1412هـ .

- ع -

- 103- العين ، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
- 104- عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها ، أو ينقضها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك ، للشيخ الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، دار العاصمة ، السعودية / الرياض ، ط1 ، 1420هـ-1999م .
- 105- عارضة الأحوذى لشرح صحيح الترمذي ، بشرح الإمام ابن العربي المالكي ، دار الكتاب العربي - بدون تاريخ - .
- 106- العقيدة الإسلامية وأسسها ، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم / بيروت ، ط2 ، 1399هـ-1979م .
- 107- عالم الجن والشياطين ، د. عمر سليمان الأشقر ، المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة / القاهرة - بدون تاريخ - .
- 108- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1410هـ-1990م .

- 122- قصص الأنبياء ، للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، (ت) أشرف عبد المقصود ، مكتبة أضواء السلف / الرياض ، ط1 ، 1422هـ-2002م .
- 123- قصص الأنبياء ، لابن كثير ، مكتبة أبو بكر أيوب / نيجيريا ، ط1 ، 1421هـ-2001م .
- 124- قصص الأنبياء ، لعبد الوهاب النجار ، دار إحياء التراث العربي / بيروت ، ط3 - بدون تاريخ - .
- 125- قصص القرآن (دروس وعبر للدعوة والدعاة) ، لمحمد البيومي ، مكتبة الإيمان / المنصورة ، ط1 ، 1420هـ-1999م .
- 126- قصة التفسير ، لأحمد الشرياصي ، دار الجيل / بيروت ، ط2 ، 1978م .
- 127- القصة في القرآن الكريم ، د. مريم عبد القادر السباي مكتبة مكة ، جدة / الرياض ، ط1 ، 1407هـ-1987م .
- 128- القواعد الحسان لتفسير القرآن ، لعبد الرحمن السعدي ، مكتبة المعارف / الرياض ، ط1400هـ .
- 129- القول السديد في مقاصد التوحيد ، لعبد الرحمن السعدي ، مكتبة المعارف / الرياض ، بدون تاريخ - .
- 130- القول المفيد في كتاب التوحيد ، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي السعودية ، ط4 ، 1421هـ .

- ك -

- 131- الكبائر للإمام الذهبي ، دار ابن المبارك للنشر والتوزيع ، ط4 ، 1416هـ .
- 132- كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، مطبعة مسعودي / القوس ، ط6 ، 1399هـ-1979م .
- 133- كشف القناع عن متن الإقناع ، لمنصور البهوتي ، مطبعة الحكومة / مكة ، ط1394هـ .
- 134- كلمات القرآن تفسير وبيان ، لحسنين محمد مخلوف ، مكتبة أيوب / نيجيريا ، ط1420هـ-2000م .

- ل -

- 135- لسان العرب ، لابن منظور ، مؤسسة التاريخ العربي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1413هـ-1993م .

136- لوامع الأنوار البهية شرح الدرّة المضية ، لمحمد السغاريني ، المكتب الإسلامي / بيروت - بدون تاريخ .

- م -

137- مباحث في علوم القرآن ، لمناع القطان ، مؤسسة الرسالة ، ط 12 ، 1403هـ - 1983م .

138- الميسوط ، لشمس الدين السرخسي ، دار المعارف ، بيروت / لبنان ، ط 3 ، 1398هـ - 1972م .

139- مجمع الأمثال ، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني ، دار القلم / بيروت ، - بدون تاريخ - .

140- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، أحمد بن تيمية - بدون نشر - ط 2 ، 1399هـ .

141- معالم التنزيل للبغوي ، (ت) خالد العك ومروان السوار ، دار المعرفة ، ط 1 ، 1406هـ .

142- مختار الصحاح ، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، دار القلم بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .

143- مجموعة التوحيد (عشر رسائل) ، لابن تيمية ، ابن عبد الوهاب وأئمة الدعوة ، دار الإفتاء / السعودية .

144- مدارج السالكين بن منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن قيم الجوزية ، (ت) عماد عامر ، دار الحديث / القاهرة ، ط 1 ، 1416هـ - 1996م .

145- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، لابن حزم ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .

146- المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية لشيخ الإسلام الإمام محمد عبد الوهاب ، (ت) يوسف بن محمد السعيد ، دار المؤيد ، ط 1 ، 1416هـ - 1996م .

147- المستخلص في تزكية الأنفس ، لسعيد حوى ، دار الأرقم / كان ، ط 1 ، 1403هـ - 1983م .

148- مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت / دمشق ، ط 1 ، 1413هـ - 1993م .

149- مستدرک الحاكم ، دار المعرفة ، بيروت / لبنان ، ط 1 - بدون تاريخ - .

150- مشكل الآثار للطحاوي ، دار الصادر / بيروت ، - بدون تاريخ - .

- 151- المصباح المنير ، للعلامة أحمد بن محمد بن علي الغيومى ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، ط2 ، 1408هـ-1997م .
- 152- معجم البلدان ، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، (ت) مزيد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1410هـ-1990م .
- 153- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت) عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل / بيروت ، ط1 ، 1411هـ .
- 154- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط1 ، 1400هـ-1980م .
- 155- المعجم الوسيط ، د. إبراهيم أنيس وجماعة ، دار المعارف / مصر ، ط2 ، 1392هـ-1972م .
- 156- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط1 - بدون تاريخ - .
- 157- المغني ، لابن قدامة ، (ت) د. عبد الله التركي ، د. عبد الفتاح الحلو ، هجر / القاهرة ، ط1 ، 1413هـ-1992م .
- 158- مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للنووي ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي ، 1387هـ-1958م .
- 159- مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين ، د. عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس الكويت ، ومكتبة الفلاح / بيروت ، ط2 ، 1411هـ-1991م .
- 160- مفردات ألفاظ القرآن ، للعلامة الراغب الأصفهاني ، (ت) صفوان عدنان داوؤدي ، دار القلم / دمشق ، الدار الشامية / بيروت ، ط1 ، 1412هـ-1992م .
- 161- مقالات الإسلاميين ، لأبي الحق الأشعري ، (ت) محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية / القاهرة ، ط2 ، 1389هـ .
- 162- المثل والنحل ، للشهرستاني ، (ت) محمد سيد الكيلاني ، شركة مصطفى الحلبي / القاهرة ، ط1396هـ .
- 163- مناهل العرفان في علوم القرآن ، للشيخ عبد العظيم الزرقاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1416هـ .
- 164- منهاج المسلم ، لأبي بكر الجزائري ، مكتبة الإيمان / المنصورة ، ط1384هـ-1964م .
- 165- ميزان العمل للغزالي ، دار المعارف / مصر ، ط1 ، 1964م .

رابعاً : فهرس الموضوعات

رابعاً : فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الإهداء
(ت - ع)		المقدمة :
ج	- طبيعة الموضوع وأهمية البحث فيه	
ح	- أسباب اختيار الموضوع	
خ	- أهداف البحث	
د	- الدراسات السابقة	
ذ	- الصعوبات التي واجهت الباحثة	
ذ	- منهجية البحث	
ز	- الرموز المستخدمة في البحث	
ز	- خطة البحث	
ظ	- شكر وتقدير	

(1 - 37)

الفصل التمهيدي

المبحث الأول : العمل الصالح

2	المطلب الأول : أولاً : تعريفه لغة واصطلاحاً
3	ثانياً : معاني العمل الصالح في القرآن الكريم
4	ثالثاً : شروط صلاح العمل
5	المطلب الثاني : أمثلة على العمل الصالح
8	المطلب الثالث : الدعوة إلى العمل الصالح والحث عليه
10	المطلب الرابع : بيان آثار العمل الصالح في حياة الفرد والجماعة
	أولاً : آثاره في حياة الفرد
	أ - آثاره في حياة الفرد في الدنيا
11	1- العمل الصالح سبب في التمتع بحياة طيبة
12	2- إنه سبب في تيسير الأمور
13	3- إنه سبب في تحقيق الحب والود لصاحبه
	ب - آثاره في حياة الفرد في الآخرة
13	1- دخول الجنة والتمتع بكل ما فيها

- 15 2- نزع الحقد والحسد من قلوب العاملين في الآخرة
- 15 3- حفظ المساعي وعدم جحودها
- 16 4- نيل المغفرة والأجر العظيم
- 16 5- حصول الاستقرار النفسي
- 17 6- تكفير السيئات وصلاح البال
- 17 7- تبديل السيئات حسنات
- ثانياً : آثاره على الجماعة
- 20 أ- الاستخلاف في الأرض
- 21 ب- التمكين في الأرض
- 21 ج- تبديل الخوف أمناً
- المطلب الخامس : الإخلاص في العمل
- 22 أولاً : معاني الإخلاص (لغة واصطلاحاً ،وفي القرآن الكريم)
- 24 ثانياً : مزايا الإخلاص
- 25 ثالثاً : الإخلاص في الدعاء عند الشدائد فطرة إنسانية
- المبحث الثاني : محببات العمل الصالح
- 28 المطلب الأول : تعريف المحببات لغة واصطلاحاً
- 28 أولاً : علاقة المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي
- 28 ثانياً : ضروب حبوط العمل
- المطلب الثاني : من أسباب الوقوع في الذنوب
- 30 أولاً : حب الدنيا والركون إلى الشهوات
- 31 ثانياً : الغفلة وعدم الاعتبار
- 31 ثالثاً : تزيين الشيطان للمعصية وإلقاء الشبهة في النفوس
- 32 المطلب الثالث : كيفية التخلص من آثار الذنوب بعد وقوعها
- 33 أولاً : التوبة
- 34 ثانياً : الاستغفار
- أ- تعريف الاستغفار
- ب- فوائد الاستغفار
- 35 1- أنه سبب لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات

35 -2- أنه سبب في دفع العقوبة والعذاب

36 - حقيقة الاستغفار

الباب الأول

(38 - 213) محبظات العمل الصالح في القرآن الكريم

(41 - 90) الفصل الأول: محبظات قلبية

المبحث الأول : محبظات قلبية تخرج من الإسلام

42 المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

42 أولاً : تعريف الشرك

42 ثانياً : أنواع الشرك

44 ثالثاً : مخاطر الشرك

47 المطلب الثاني : كفر الجحود والتكذيب

48 أولاً : تعريف الكفر لغة واصطلاحاً

48 ثانياً : أنواع الكفر

ثالثاً : مخاطر الكفر الأكبر

49 أ- يخرج من الملة ويحبط العمل

50 ب- يخلد صاحبه في النار

50 ج- يبيح الدم والمال

المطلب الثالث : الشك في حكم من أحكام الله - عز وجل - أو خبر من أخباره

52 أولاً : تعريف الشك

53 ثانياً : كفر الشك يخرج من الإسلام ، محبط الأعمال

55 المطلب الرابع : كفر النفاق

55 أولاً : تعريف النفاق

56 ثانياً : أنواع النفاق

57 ثالثاً : مخاطر النفاق الأكبر

أ- مخرج من الإسلام محبط لجميع الأعمال 57

58 ب- لا يصدر من مؤمن

58 ج- الحكم على المنافق بالكفر

59 د- يوجب الخلود في النار

- 60 هـ- في الغالب لا يتوب صاحبه
- 60 - النفاق الأصغر (العملي)
- المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن
- 61 أولاً : إنكار وجود الملائكة - عليهم السلام -
- 63 - بعض صور الكفر بالملائكة عند أهل الجاهلية
- 65 ثانياً : إنكار وجود الجن
- المطلب السادس : إنكار البعث
- 67 أولاً : أهمية الإيمان باليوم الآخر وأدلته
- 68 ثانياً : مخاطر إنكار البعث
- 69 ثالثاً : أسباب إحباط إنكار البعث للأعمال
- المطلب السابع : إنكار حكم معلوم من الدين بالضرورة
- 71 أولاً : تعريفه
- 71 ثانياً : أنواع الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة
- 72 ثالثاً : دلائل كفر الجاحد للمعلوم من الدين بالضرورة
- 73 رابعاً : أسباب كون هذا الإنكار مخرجاً من الإسلام ، محيطاً للأعمال
- 74 خامساً : صور إنكار أحكام الدين المعلومة من الدين بالضرورة على مر الأزمان
- 76 سادساً : صور الإنكار في العصر المحاضر
- المبحث الثاني : محبطات قلبية لا تخرج من الإسلام
- 78 المطلب الأول : اليأس من روح الله (القنوط)
- 78 أولاً : تعريف اليأس المفقودة لغة واصطلاحاً
- 80 ثانياً : مخاطر اليأس
- المطلب الثاني : الرياء (الشرك الخفي)
- 80 مقدمة - أقسام الشرك
- 81 أولاً : تعريف الرياء لغة واصطلاحاً
- 81 ثانياً : آثار الرياء
- 81 أ- إحباط الأعمال وإبطال الثواب
- 84 ب- حكم العبادة إذا خالطها الرياء

المطلب الثالث : الكبر

- 85 أولاً : تعريف الكبر لغة وشرعاً
86 ثانياً : أقسام الكبر
86 أ- بالنسبة لذاته
ب- بالنسبة إلى المتكبر عليه
86 1- التكبر على الله - عز وجل -
87 2- التكبر على الرسل - عليه السلام -
87 3- التكبر على الناس

الفصل الثاني

المحبطات القولية (91-134)

المبحث الأول : محبطات قولية تخرج من الإسلام

المطلب الأول : كفر سب الله - عز وجل - وملائكته ورسله والاستهزاء بهم

- 94 أولاً : تعريف السب والاستهزاء
95 ثانياً : كفر سب الله - عز وجل - أو الاستهزاء به
96 ثالثاً : كفر سب الملائكة - عليهم السلام - أو الاستهزاء بهم
97 رابعاً : كفر سب الكتب السماوية أو الاستهزاء بها
أ- حكم سب الكتب السماوية أو الاستهزاء بها
ب- الآثار المترتبة على سب الكتب السماوية أو الاستهزاء بها
98 1. استحقاق العذاب المهيّن
98 2. الخلود في النار
98 3. الحكم عليه بالكفر
99 4. حبوط العمل
100 خامساً : كفر سب الرسل الكرام - عليه السلام - والاستهزاء بهم
أ- حكم سب الرسل الكرام - عليهم السلام - والاستهزاء بهم
ب- الآثار المترتبة على شتم الرسول - ﷺ
101 1. الخلود في النار
101 2. الكفر بالله
102 3. حبوط الأعمال
104 المطلب الثاني : ادعاء النبوة

- 107 **المطلب الثالث : الدعاء والاستعانة بغير الله**
- 107 **أولاً : معنى الدعاء والاستعانة لغة واصطلاحاً**
- ثانياً : معنى الدعاء في القرآن الكريم**
- 108 **أ- الدعاء بمعنى العبادة**
- 108 **ب- الدعاء بمعنى الدين**
- 109 **ثالثاً : حكم من دعا واستعان بغير الله**
- المطلب الرابع : الكذب على الله - عز وجل -**
- 111 **أولاً : تعريف الكذب لغة واصطلاحاً**
- 111 **ثانياً : أقسام الكذب**
- 112 **ثالثاً : حكم الكذب على الله - عز وجل -**
- المبحث الثاني : محببات قولية لا تخرج من الإسلام**
- المطلب الأول : القذف**
- 115 **أولاً : تعريف القذف لغة وشرعاً**
- 115 **ثانياً : عقوبة القذف**
- المطلب الثاني : الغيبة**
- 119 **أولاً : تعريف الغيبة لغة واصطلاحاً**
- 120 **ثانياً : أدلة تحريم الغيبة من القرآن والسنة والإجماع**
- ثالثاً : الآثار المترتبة على الغيبة :**
- 122 **أ- نفي كمال الإيمان عن قلب المستغيب**
- 122 **ب- إحباط العمل**
- المطلب الثالث : النميمة**
- 123 **أولاً : تعريف النميمة لغة واصطلاحاً**
- 124 **ثانياً : أدلة تحريم النميمة**
- 127 **ثالثاً : النميمة الجائزة**
- 127 **رابعاً : الفرق بين الغيبة والنميمة**
- المطلب الرابع : المنّ في العطاء**
- 128 **أولاً : تعريف المنّ لغة واصطلاحاً**
- 129 **ثانياً : مراحل محاربة القرآن الكريم للمنّ في العطاء**

- 130 ثالثاً : الصورة البيانية التي رسمها القرآن الكريم لحبوط
أجر المنان
- 132 **المطلب الخامس : أذية المسلمين وشتيمهم**
- (136 - 213) **الفصل الثالث : المحيطات الفعلية**
- المبحث الأول : محيطات فعلية تخرج من الإسلام**
- 138 **المطلب الأول : الشرك في العبادة**
- 139 أولاً : الذبح لغير الله
- 141 ثانياً : السجود والركوع لغير الله
- أ- أسلوب القرآن الكريم في تقرير كون السجود والركوع عبادة خاصة بالله وحده
- 142 1- أسلوب الأمر
- 143 2- أسلوب النهي
- 144 3- أسلوب المدح
- 145 ب- الفرق بين سجود العبادة وسجود التحية
- 146 ج- أقوال العلماء في الحكم على الساجد والراكع لغير الله تعالى
- المطلب الثاني : الاستهانة بالمصحف**
- 147 مقدمة - الدليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى وليس بكلام البشر
- 147 أولاً : صور الاستهزاء بالمصحف المخرج
- 148 ثانياً : صور حفظ الله تعالى للقرآن الكريم
- 148 ثالثاً : الحكم على المستهزئ بالمصحف بالكفر
- 149 رابعاً : أقوال العلماء في الحكم على المستهزئ
- 151 **المطلب الثالث : الإعراض التام عن دين الله تعالى لا يتعلمه ولا يعمل به**
- 151 الآثار المترتبة على الإعراض عن دين الله
- أولاً : الوصف بعدم الإيمان
- 152 ثانياً : الوصف بالكفر صراحة
- ثالثاً : الوعيد بالخلود في النار
- رابعاً : الوصف بالنفاق
- 153 خامساً : الوقوع في النفاق

- 156 **المطلب الرابع : الولاء المطلق لغير المسلمين**
- 157 أولاً : معنى الولاء والبراء
- 158 ثانياً : مظاهر المولاة
- 159 **ثالثاً : آثار الولاء المطلق لغير المسلمين**
- أ- حلول سخط الله تعالى والخلود في العذاب
- 160 ب- هوان الموال للكفار على ربه - جل وعلا -
- ج- الحكم عليه بالنفاق
- 161 د- الحكم عليه بالكفر
- المبحث الثاني : محبطات فعلية لا تخرج من الإسلام**
- 164 **المطلب الأول : الزنى واللواط**
- 166 أولاً : الزنى : لغة وشرعاً
- 166 عقوبة الزنى
- 166 ثانياً : اللواط : تعريفه لغة وشرعاً
- 167 مفسد اللواط
- 167 عقوبة اللواط
- ثالثاً : الآثار المترتبة على الزنى واللواط**
- 168 أ - حبوط العمل
- 169 ب - إهدار الدم
- 169 ج - حلول اللعنة عليه
- 170 د - نفي صفة الإيمان الكامل
- المطلب الثاني : شرب الخمر**
- 171 أولاً : تعريف شرب الخمر لغة وشرعاً
- 172 ثانياً : التدرج في تحريم الخمر
- 173 **ثالثاً : الآثار المترتبة على شرب الخمر**
- 173 أ- وجوب الحد
- 173 ب- الحرمان من دخول الجنة
- 174 ج- الحرمان من شرب في الآخرة
- 174 د- نفي الإيمان الكامل عن شاربيها

- 175 هـ- حلول اللعنة على المتعاملين بها
- 175 و- حبوط عمل شاربها
- المطلب الثالث : الربا
- 179 أولاً : تعريف الربا لغة وشرعاً
- ثانياً : الآثار المترتبة على التعامل بالربا
- 180 أ- حلول اللعنة على جميع المتعاملين به
- 180 ب- محق البركة
- 180 ج- الحرمان من الطيبات
- 181 د- إعلان الحرب على المرابين
- 182 هـ- حبوط أجر صدقة
- 183 و- القيام كالممسوس
- 186 المبحث الثالث : محبطات فعلية مختلف فيها
- المطلب الأول : ترك الصلاة
- 186 أولاً : بيان فضل الصلاة
- 186 ثانياً : إثم تارك الصلاة
- 188 ثالثاً : حكم تارك الصلاة
- 188 أ- تركها جحوداً
- 189 ب- تركها تهاوناً وكسلاً
- 192 المطلب الثاني : الحكم بغير ما أنزل الله
- أولاً : مخاطر الحكم بغير ما أنزل الله تعالى
- 193 أ- صفة المنافقين
- 193 ب- سبب للخلود في النار
- 194 ثانياً : حكم الحكم بغير ما أنزل الله
- 194 أ- حالات كونه كفراً أكبر مخرج من الملة
- 194 1- تشرع غير ما أنزل الله
- 195 2- جحود أو إنكار أن الحق في الحكم هو الله تعالى ورسوله
- 195 3- تفضيل حكم الطاغوت على حكم الله
- 195 4- الاستحقاق والاستهانة بحكم الله
- 196 ب- كونه كفراً أصغر لا يخرج من الملة

المطلب الثالث : السحر

- 199 أولاً : تعريف السحر لغة واصطلاحاً
199 ثانياً : بيان أقسام السحر
200 ثالثاً : حكم السحر والساحر وبيان الخلاف في ذلك
رابعاً : الآثار المترتبة على الذهاب للسحرة والكهنة وتصديقهم
207 أ- يؤدي إلى الكفر
208 ب- حبوط العمل
210 خلاصة

(362 - 214) الباب الثاني : عقوبات الذنوب وآثارها

265 - 216 الفصل الأول : عقوبات على الفرد

- 218 المبحث الأول : عقوبات دنيوية لا تزول بالتوبة (الحدود)
218 المطلب الأول : القتل (حد الحرابة)
222 المطلب الثاني : القطع (حد السرقة)
226 المطلب الثالث : الجلد (حد الزنى)
228 حد الزنى

المبحث الثاني : عقوبات دنيوية تزول بالتوبة

- 232 المطلب الأول : عقوبة إهلاك
235 المطلب الثاني : عقوبات دون الإهلاك
235 أولاً : عمى القلب ومقارنة الشيطان له
237 ثانياً : تغيير الحال
239 ثالثاً : محق البركة

المبحث الثالث : عقوبات أخروية

- 242 المطلب الأول : عذاب القبر
247 المطلب الثاني : عذاب الحشر
261 المطلب الثالث : عذاب الخلود في جهنم

362 - 267 الفصل الثاني : عقوبات على المجتمع

- المبحث الأول : عقوبات إهلاك
270 المطلب الأول : الطوفان

- 272 أولاً : صور معاداة نوح - ﷺ - لدعوته
- 272 أ- عدم الانصياع للحق
- 273 ب- تنقص الرسول - ﷺ - والتعجب من كونه بشراً
- 274 ج- تنقص أتباعه ﷺ
- 275 د- وصية من جاء بعدهم بعدم الإيمان
- 276 هـ- طلب حلول العذاب الذي وعدوا به
- 276 ثانياً : دعاء نوح - ﷺ - واستجابة دعوته
- 277 ثالثاً : معجزة نوح - ﷺ
- 279 رابعاً : غضب الجبار ، وبداية حلول الانتقام
- 282 **المطلب الثاني : الريح**
- 285 أولاً : صور معاداة قوم هود - ﷺ -
- 285 أ- وصفه - ﷺ - بالسفاهة ورميه بالكذب
- 286 ب- رميه ونعته - ﷺ - بالجنون
- 287 ج- نفى مرتبة النبوة عنه - ﷺ -
- 287 د- إنكار البعث
- 288 هـ- إعلان عدم الإيمان صراحة ، وطلب ما وعدوا به من عذاب
- 288 ثانياً : كيفية انتقام الله - ﷻ - من قوم هود - ﷺ -
- 289 أ- العذاب بالريح
- 290 ب- العذاب بالصيحة
- 291 **المطلب الثالث : الصاعقة**
- أولاً : مظاهر رفض قوم صالح لدعوته
- 293 أ- وصفه - ﷺ - بالكذب
- 294 ب- رميه - ﷺ - بالسحر
- 294 ج- إعلان الكفر صراحة
- 294 د- تطهيرهم من الرسول - ﷺ - وأتباعه
- 295 هـ- رفض أن يكون الرسول بشراً
- 295 و- طلب معجزة وتحقيق طلبهم

- 299 ز- استعجال حلول العذاب
- 299 ثانياً : بداية حلول العذاب والعقاب الرباني
- 301 ثالثاً : نوع العقاب الذي حلّ بئمود
- 302 المطلب الرابع : الحجارة
- 303 أولاً : صور مقاومة قوم لوط - ﷺ - لدعوته
- 304 أ- الهم بإخراج الرسول - ﷺ - وأهله
- 305 ب- استعجال حلول العذاب
- 305 1. دعاء لوط - ﷺ - على قومه
- 305 2. استجابة الله تعالى لدعوة نبيه - ﷺ - ومراحلها
- 307 3. معنى قوم لوط - ﷺ - (هؤلاء بناتي)
- 310 4. بداية حلول العقاب الرباني بالفعل
- 316 المطلب الخامس : الرجفة
- أولاً : أصول دعوة شعيب - ﷺ -
- 317 أ- الأمر بالتوحيد
- 317 ب- حفظ حقوق المعاملة المالية
- 318 ج- حفظ نظام الأمة ومصالحها
- 319 د- حفظ حقوق حرية الاستهداء
- ثانياً : الأساليب التي سلكها شعيب - ﷺ - في دعوته الله - ﷻ -
- 320 أ- أسلوب الترغيب
- 323 ب- مزج أسلوب الترغيب والترهيب معاً
- 324 ج- أسلوب الترهيب
- 326 1. دعاء شعيب - ﷺ - على قومه ، واستجابة دعوته
- 327 2. أنواع العذاب الذي حلّ بقوم شعيب - ﷺ -
- 329 3. مخاطبة شعيب - ﷺ - لمن هلك من قومه
- 329 المطلب السادس : الصيحة
- أولاً : صور محاربة أصحاب القرية لدعوة الرسل - عليه السلام - من البشر
- 331 أ- استبعاد كون الرسل - عليهم السلام - من البشر
- 331 ب- تكذيب الرسل - عليهم السلام -

- 374 ثالثاً : الترغيب بالكلمة الطيبة
المبحث الثاني : سرد القصص
- 377 المطلب الأول : معنى القصص القرآني
- 377 المطلب الثاني : مزايا أسلوب السرد القصص
- 378 المطلب الثالث : أنواع القصص القرآني
- 379 المطلب الرابع : فوائد القصص القرآني
- المطلب الخامس : موضوعات القصص القرآني
- 380 أولاً : إثبات قضايا العقيدة
- 381 ثانياً : تثبيت قلب الرسول ﷺ وقلوب أمته
- 381 ثالثاً : إظهار إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه
واختراقه لحاجز الزمن الماضي
- 382 رابعاً : تحذير بني آدم من غواية الشيطان
- 383 خامساً : بيان أساليب الأنبياء في الدعوة إلى
ومحاجاتهم لأقوامهم لإثبات قضايا
العقيدة
- 416 - 390 الفصل الثاني : الترهيب من المحبطات
المبحث الأول : ضرب الأمثال
- 391 المطلب الأول : الترهيب من الكفر
- 397 المطلب الثاني : الترهيب من الشرك بالله تعالى
- 399 المطلب الثالث : الترهيب من الإعراض عن دين الله عز وجل
- 401 المطلب الرابع : الترهيب من النفاق
- 405 المطلب الخامس : الترهيب من الرياء
- 406 المطلب السادس : الترهيب من الغيبة
- المبحث الثاني : سرد القصص
- 409 المطلب الأول : الترهيب من الكفر والشرك
- 412 المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق الدنيئة
- الخاتمة
- 416 أولاً : أهم النتائج

419	ثانياً : أهم التوصيات
421	ملخص اللغة الإنجليزية
	الفهارس
424	أولاً : فهرس الآيات القرآنية
458	ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية
464	ثالثاً : فهرس المصادر والمراجع
475	رابعاً : فهرس الموضوعات

Thesis Summary

Nullifiers of Good deeds and Their Consequences as Described in the *Holy Quran*

The following thesis has been organized into an introduction, three sections, and a conclusion.

The Introduction:

The introduction is comprised of the following:

The significance of the subject researched and its importance.
Motive behind the selection of the subject.
Aim of the thesis.
Topics of previous researches.
Difficulties encountered in the writing of the thesis.
Personal research methodology.
Materials used in this thesis.
Thesis planning.
Reference and acknowledgement

An Overview of the Thesis:

This thesis has been divided into two relating sub-parts:

Sub-part I: In this sub-part, the following topics have been examined: an introduction and explanation of good deeds in terms of Al-Dawa, along with their result on both the individual and group of individuals in terms of the necessity of faith.

Sub-part II: In this sub-part I have introduced both the ways in which good deeds may be performed along with the reasons behind which one may sin, while also introducing means through which one may expiate his/her sin upon completion.

Section I: Nullifiers of Good Deeds Mentioned in the *Holy Quran*

Chapter I: In this chapter I have discussed the heart in terms of the nullifiers of good deeds which take their perpetrators out of Islam. Disbelief of Allah (SWT)

Joining partners to Allah (SWT)
Disbelief/doubt in any of Allah (SWT) arbitrators on earth.
Disbelief /doubt in the angels and jinn.
Denial of our resurrection from the grave and of The Last Day.
Disbelief of any aspect of faith.

Also included are nullifiers that nullify good deeds **without** taking one out of Islam.

Desperation, leading one to doubt Allah (SWT) mercy.
Insincerity and hypocrisy.
Feeling / behaving in a superior manner towards other Muslims.

Chapter II: In this chapter I have discussed the nullifiers of the tongue which take the sinner out of Islam.

Insulting and/or mocking Allah (SWT), His angels, His prophet, His signs, falsely claiming prophethood, making what Allah (SWT) has ordained unlawful to be lawful (and vice-versa), and lying in the name of Allah (SWT) .

Also included are the nullifiers of the tongue which **do not** take its perpetrators out of Islam.

Slander and backbitting
Gossip.
Harming other Muslims.

Chapter III: In this chapter I have discussed the nullifiers which are violating any of the five pillars of Islam, therefore bringing its perpetrators completely out of Islam.

Paganism and otheism.
Mockery of the *Holy Quran*.

Also included are the nullifiers which **do not** take its perpetrators out of Islam.

Fornication and adultery
Sodomy
Alcohol consumption
Usury

Further included are the nullifiers which doubt the perpetrators Islam:

Missing prayer.

Judging Allah (SWT) message.

Magic and sooth saying.

Section II: Punishment and Consequences of Sinning

The above subject is divided into the following two chapters:

Chapter I: This chapter discusses the punishment of sins committed by both the individual and by a group of individuals- some of which may repent at some instance of their lifetime and others which may never seek forgiveness.

Chapter II: This chapter discusses punishments which affect on the society as a whole (due to their sins). It also explains how Allah (SWT) has destroyed previous transgressing nations, such as the children of Noah (pbuh) and the children of Israel for the mischief they have spread on the earth. Further examined is the methodology of punishments.

Section III: How the *Holy Quran* encourages its reader to perform good deeds and how it draws the readers awareness to the nullifiers:

This section contains two chapters:

Chapter I: This chapter describes how the *Holy Quran* makes its reader like performing good deeds through examples taken from various parables.

Chapter II: This chapter describes how the *Holy Quran* makes its reader afraid of the nullifiers through examples taken from various parables.

Conclusion:

The conclusion highlights of the nullifiers and gives the reader certain final recommendations.